المحتويات



مُقَدِّمَة

العقيدة الإسلامية هي التصور الشامل الذي يقدِّم للمؤمن فكرته عن الكون والإنسان والحياة؛ ولما كانت العقيدة بهذه الشمولية كان الخلل الاعتقادي منسحبًا على جملة ما انبنى عليه ـ هذا الخلل ـ من سلوك وقيَم ومفاهيم، ومن ثَمَّ كانت هذه العقيدة مرمًى لتُهَم كثيرة تَرِدُ عليها من جهات شتَّى، حتى إذا ضعفت في منطق الذهن، أو في منهج العلم، أو في مشاعر الوجدان لم يبق وجه لاستبقاء ما أسسته في الحياة من تشريعات ونظم، أو لاعتبار ما أحدثته في التاريخ من مدنية وحضارة.

وبدا بذلك أن تنقية هذه العقيدة، وحسن التَّأتِّي في عرضها على غير المسلمين، والدفع عنها في وجه من يثيرون أوهامًا عن حقائقها، بدا أن ذلك كله يجب أن يقدم على ما سواه، كما تتقدم الأصول على الفروع، أو كما تتقدم الفكرة على العمل.

من أجل ذلك عولجت ـ فيما سيأتي ـ قضايا هي ـ على تعدُّدها ـ مشدودة إلى أصل جامع ومعنى شامل، هو القدرة الذاتية لهذا التصور الإسلامي على هداية النفس وطمأنة الضمير، وقدرته ـ من هنا ـ على قيادة الحياة ورفعها وترقيتها:

- فمن هذه القضايا ما يتصل بترسيخ الأصل الكبير للتدين، وهو الوحدانية الخالصة لله ﷻ في ذاته وصفاته وأفعاله.
- ومنها ما يتصل بأصالة المعتقد الإسلامي، وأنه غير مقتبس مما كانت تخوض فيه الفلسفات والديانات المبدَّلة من حوله.
- ومنها مناقشة كلام يُلاك عن مسئولية الإسلام عن تأخُّر المسلمين وتخلُّفهم، وأنه لم يعد يصلح في عصر التحرُّر الذهني والفكر العلميِّ.

وقد يسوغ أن نُجْمِل ما انتهت إليه هذه المناقشات في عدة حقائق، وهي:

- أن قضية الألوهية لم تزَل بداهة في نظر العقل والعلم والضمير، كما لم تزل النِّحْلة المادية مذهبًا بذيئًا في التاريخ، يشهد بذلك عليها تاريخها القديم والحديث، ولم ينفعها أن تزيَّت برداء العلم بعدما تبين أن الكثرة المطلقة من العلماء التجريبيين هم ممن يقرون بالألوهية ولا يجحدونها.
- وأن الخلط بين الإسلام وواقع المسلمين لا يقوم على وعي سليم بالإسلام، ولا بذلك الواقع نفسه ومسبِّباته؛ فلذلك لم تكن الدعاوي من هذا القبيل غيرَ تزييفٍ لحقائق هذا الدين، وشهادةٍ عليه بقولٍ زور.
- وأنّ العقيدة الإسلامية كانت بمَعْزِل عن العقائد التي جاورتها في الجزيرة، وأنها لم تثبت شيئًا مما كانت تُشِيْعُه تلك العقائد في شأن الألوهية والسمعيات من أساطير، إلا أن يكون حقًّا بَقِي من وحي سماوي بدَّله أتباعه.

ولسنا ـ بذلك ـ ننفي أن طوائف من المسلمين ـ من بعد ـ أخذت عن البلاد المفتوحة طرفًا من عقائد أهلها، لكن ذلك يُعْزَى إلى تلك الطوائف ذاتها، لا إلى الإسلام ولا إلى جمهرة المسلمين وسوادهم الأعظم.

وبعدُ، فإننا لنرجو أن يخلص للقارئ المسلم من هذا العمل حقيقةُ أن عقيدته هذه يثبت جدارتها الأمر الواقع وأثرها في التاريخ قبل أن تثبت ذلك الدلائل الجدلية والتدقيقات العقلية، وأنها كانت الحقَّ في الذهن البحت أيام كان النظر العقلي الخالص شغلًا للعقول الكبيرة، ثم كانت الحق في منطق العلم حين صار إليه أمرُ الفصل بين الحق والخرافة، وظهر أن الإسلام ـ على هذا وذاك ـ هو الأصل الثابت، كشجرة طيبة فروعها في أيدي الناس، وأصلها عند الله الكريم.



الشبهة الأولى

الزعم أن عقيدة الإسلام سبب تأخر المسلمين (*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المشككين أن عقيدة الإسلام جامدة تعوق المسلمين عن التقدم؛ فهي تتحكم في كل مناحي حياتهم اليومية، حتى تحولت الأمة الإسلامية إلى أمة مريضة مشلولة تأتي في ذيل الركب الحضاري للإنسانية؛ بسبب تمسك المسلمين بعقيدتهم المتحجِّرة.

وجوه إبطال الشبهة:

١) كيف يسوغ في العقل أن يؤسس المسلمون إمبراطورية[١] عظيمة وهم يدينون بعقيدة متحجرة.

٢) دخول الملايين في الإسلام، وتوالي انتشاره في جميع أنحاء الأرض، دليل حي على سمو عقيدته.

٣) المنصفون من مفكري الغرب وفلاسفته يشهدون للإسلام بسمو عقائده، وشرف مقاصده، وبُعْد غاياته، وكفايته التامة لحاجات العالم الإنساني.

٤) آيات القرآن التي بين أيدينا تؤكد خلاف ما يذهبون إليه من سير في الأرض، ونظر وتدبر وتأمل وتفكير، وإعمال للعقل، ومحاربة للظن والوهم.

٥) الإسلام دين العمل والاجتهاد والإتقان، لا التواكل والتكاسل.

التفصيل:

أولا. كلما تمسك المسلمون بعقيدتهم؛ تقدموا. وكلما فرَّطوا فيها؛ تأخروا:

لا شك أن هؤلاء لا ينكرون أن المسلمين كانت لهم فتوحات واسعة، وأنهم أسسوا دولة عظيمة، فكيف أمكنهم تأسيسها وحفظها قرونًا عديدة وهم يدينون بعقائد جامدة توجب على المؤمنين بها الموت والشلل؟! ولا يخفى أن القيام ببناء إمبراطورية يقتضي أصولًا وقواعد تقام عليها، وحوافظ تحفظ بها، فكيف ساغ للعرب ذلك وهم مصابون بالموت والشلل؛ بسبب عقائدهم الجامدة؟!

ولكن هل تحكُّم العقائد الإسلامية في كل ناحية من نواحي حياة المسلم على إطلاقها يُعَدُّ عيبًا في ذاته؟ بالطبع لا؛ لأن هذا الوصف نفسه ينطبق على علم الأخلاق، وعلى دستور الآداب، فتعييرهم للإسلام بهذا الوصف وحده لا يُغني شيئًا من القدح فيه.

إن الأمة العربية عاشت آلافًا من السنين على الحالة القبلية، ثم انقلبت في سنين معدودة ـ بفضل الإسلام ـ إلى أمة شديدة التماسك قوية الترابط، فنهضت نهضة قوية تبني لنفسها إمبراطورية لا تشبهها في السعة وترامي الأطراف إمبراطورية في العالم على مدى التاريخ، واستطاعت أن تحتفظ بها قرونًا طويلة.

إن أمة كانت على تلك الحال من التفكك، ثم آلت إلى ما آلت إليه في سنين معدودة، وتغلبت على أمم كانت على جانب عظيم من النظام الاجتماعي المدني لا يُعْقل أن تكون قد وصلت إلى هذا المستوى الرفيع وهي مجردة من أصول قوية ومبادئ قويمة.

(*) حقائق إسلامية في مواجهة حملات التشكيك، د. محمود حمدي زقزوق، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

١. الإمبراطورية: دولة كبيرة المساحة، كثيرة العدد، عظيمة القوة.

ثانيًا. دخول الملايين في الإسلام دليل على سمو عقائده:

هل دخول مئات الملايين في هذا الدين، وتوالي انتشاره في جميع أنحاء الأرض متغلبًا - دون أي إغراءات مادية أو معنوية - على جميع الملل المنافسة التي ينفق دعاتها ومموِّلوها الأموال الضخمة لدخول الناس فيها حتى ولو عن غير اقتناع، هل كل هذا نتيجة تعاليم جامدة لا تدع لأصحابها متنفسًا في الحياة، وتصيبهم بالشلل والموت؟!

وإن ساغ لهؤلاء أن يقولوا جُزافًا[1]: إن الذين دخلوا في الإسلام طوائف من أمم ليست على درجة من الثقافة تجعلها تميز بين الغَثِّ[2] والسمين[3]، قلنا: فما ظنكم بالأوربيين وقد دخل فيه الآلاف منهم؟

ثالثًا. المنصفون من مفكري الغرب يشهدون بتقدميَّة الإسلام:

إن المنصفين من مفكري الغرب يعرفون فضل الإسلام ويَقْدُرونه قدره، ومنهم طائفة من كبار الفلاسفة والمفكرين من أمثال: كارلايل، وجوته، ولامارتين وبرنارد شو، وسديو، وغوستاف لوبون، وجارودي، وعدد كبير لا يُحصى[4] قد شهد للإسلام بسمو العقائد، وصحة الأصول، وشرف المقاصد، ونبل الغايات، والكفاية التامة بحاجات العالم الإنساني الروحية والمادية في كل زمان ومكان. قال موريس بوكاي: إنه أصيب بدهشة بالغة عندما تفرغ لدراسة القرآن باللغة العربية، فاكتشف إشارات وحقائق علمية لم يكن يتوقع أن يجدها في كتاب ديني أُنزل منذ أربعة عشر قرنًا، وقال أيضًا: إن القرآن ليس في آياته إشارة واحدة يمكن نقضها في ضوء مناهج وقوانين العلم الحديث.

وقال جارودي: " إن القرآن يرفع شأن العلماء، ويشجع على طلب العلم... "، كما يؤكد أن المسلمين أسَّسوا نهضة علمية كبرى شملت جميع العلوم، ويقول أيضًا: "إن الإسلام قوة روحية عظيمة للإصلاح والتقدم في المستقبل كما كان دائمًا"، ويرى جارودي أن وضع المرأة في الإسلام هو الوضع الأمثل؛ فقد رفع الظلم عنها، وساوى بينها وبين الرجل في الحقوق والواجبات، وصان المرأة وحافظ على كرامتها، ويقول: إن الاقتصاد الإسلامي يقوم على مبادئ؛ مثل: التوازن في توزيع الدخل، وتحريم الاحتكار[5]، وجعل المِلْكية الفردية لصالح الفرد والجماعة، واعتبار السوق وسيلة وليس غاية.

ويقول ماركوس فولاند: "إنه ليس في الإسلام شيء متأصل في كيانات المجتمعات الإسلامية يجعلها عاجزة عن الأداء الاقتصادي بمفاهيمه الحديثة، والإسلام في حقيقته يحفز المؤمنين به على الإيجابية. والأمير تشارلز يقرر أن المشكلة ليست فقط في وجود قدر كبير من سوء الفهم في الغرب لطبيعة الإسلام، ولكن هناك

---

١. جُزافًا: دون تبصُّر ولا روِيَّة.

٢. الغَثُّ: الرَّديء.

٣. السَّمين: الجيد.

٤. انظر: المنصفون للإسلام في الغرب، رجب البنا، دار المعارف، مصر، ٢٠٠٥م، ص١٠٣ وما بعدها.

٥. الاحتكار: هو تحكُّم بائع واحد في بيع سلعة - أو خدمة - أو تحكم مشترٍ واحد في شرائها، فيسيطر على السعر وعلى الكمية المتداولة، فهناك احتكار في البيع، واحتكار في الشراء، وهو نقيض المنافسة.

أيضًا قدرٌ كبيرٌ من الجهل بفضل الثقافة والحضارة الإسلامية على الغرب... ".

ويقول المستشرق ليوبولد فايس: "هناك سببٌ واحد للانحلال الاجتماعي والثقافي الذي أصاب المسلمين، وهو ابتعادهم عن روح الإسلام". أما المستشرق الفرنسي دومينيك شوفاليه فيؤكد على أن قوة الإسلام تكمن في أنه يمتلك برنامجًا أخلاقيًّا. ويقول هوفمان: إن الإسلام ينهى بشدة عن تتبع عورات الناس... ولكنه يشجع على التعطش للمعرفة والفضول العلمي، فالقرآن يدعو في آيات كثيرة إلى استخدام العقل وإلى التفكير والتدبر[1].

وهناك الكثير من شهادات العلماء والمفكرين الغربيين وغيرهم تشيد بحضارة الإسلام وتفوق نظمه[2].

رابعًا. القرآن يؤكد خلاف ما يذهبون إليه:

وإن تمادى هؤلاء في الجحود والإنكار بعد ذلك كله، فإن كتاب الله ـ القرآن الكريم ـ ماثل بين أيديهم يستطيعون من خلاله الاطلاع عليه لمعرفة المعاني السامية التي يتضمنها، وهي المعاني التي تأمر المسلم بالنظر والتفكير، والأخذ بطرق العلم، والابتعاد عن الجمود وتقليد القدماء من الآباء والأجداد.

العقائد الإسلامية ليست جامدة بالمفهوم السيئ لكلمة الجمود؛ أي: التحجُّر القائم على التصادم مع العقل والمنطق، ولكنها تتميز بالثبات، والثبات هنا صفة إيجابية وليس صفة سلبية؛ فحقائق الأديان ومبادئ الفلسفات ينبغي أن تكون مستقرة وثابتة، ومسلَّمة وبديهية، وإلا تحول كل شيء فيها إلى أفكار مطروحة للنقاش، ولافتقد تاريخ الفكر الإنساني المرتكزات والقواعد والحقائق.

ولذلك كانت عقيدة الإسلام، عقيدة ثابتة مستقرة، لا تقبل التغيير أو التطوير، أو الزيادة أو النقصان، وليس لأحد ـ مهما علا قدره ـ أن يغير تلك العقيدة أو يضيف إليها أو يحور فيها، فكل ذلك إن تم فهو مردود على صاحبه، يقول النبي ﷺ: "من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رَدٌّ"[3]؛ أي: مردود على صاحبه.

بل إننا نجد القرآن يستنكر الدس في الدين والزيادة عليه، والادعاء على الله، يقول الله تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩) ﴾ (البقرة).

ومن ثَمَّ لم تكن العقيدة الإسلامية نهبًا للمجامع الدينية التي ظهرت في الأديان الأخرى، تقول فيها رأيها، فتضيف أو تحذف حسب الأهواء والأغراض والمتغيرات التي لا تتوقف عند حد.

لقد كان التاريخ خير شاهد على ما أصاب العقائد الدينية السابقة للإسلام من تغيير وتبديل؛ فعقيدة التوحيد التي كانت في عصر السيد المسيح عيسى عليه السلام

---

١. المنصفون للإسلام في الغرب، رجب البنا، مرجع سابق، ص٢٢١ وما بعدها.

٢. النُّظُم: جمع نظام، وهو المنهج أو المبدأ.

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود (٢٥٥٠)، ومسلم في صحيحه، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور (٤٥٨٩).

وحوارييه ليست هي نفس العقيدة التي أصابتها يد التحريف في عصور تالية، وبخاصة بعد مجمع نيقية الكنسي سنة ٣٢٥م، وهو الذي تم فيه تقنين طبيعة جديدة للتوحيد بإضافة السيد المسيح عليه السلام ليصبح إلهًا مع الله، ثم لم تلبث الكنيسة أن تضيف بعد ذلك بنصف قرن - تقريبًا - عنصرًا ثالثًا، ليظهر الثالوث المقدس: الآب، والابن، والروح القدس، وذلك في مجمع القسطنطينية سنة ٣٨١م، وذلك بفعل عدد من الأسباب الفكرية والسياسية والاجتماعية التي كانت تعيشها الكنيسة وقتئذٍ.

أما العقائد الإسلامية التي تعد هي التصور الرباني الكلي الثابت الذي تدور الحياة حوله، كما تدور الإلكترونات[1] في الذَّرَّة[2] حول نواتها، فقد ظلت ثابتة في قيمها وأصولها دون أن يطرأ عليها تطور أو تغير.

وهذا الثبات لا يعني تجميد حركة الفكر والحياة، وإنما يسمح بالحركة، بل يدفع إليها دفعًا، لكنها الحركة داخل نظام مستقر، وأُطُر[3] ثابتة، وهذا بخلاف المذاهب والأنظمة البشرية، وربما الدينية الأخرى التي تتطور وتتغير من وقت لآخر، ومع حرص الإسلام الشديد على صيانة العقيدة، وأصولها من أيدي العابثين ودعاة التطوير والتغيير، فإنه لم يمنع من الاستفادة من الخبرات العقلية، والعلمية، والفكرية في نصرة عقائده الدينية وتقديمها بالصورة اللائقة والمناسبة لكل عصر وللروح العلمية السائدة فيه، ولا شك أن الوسائل المتاحة في عصرنا تختلف كثيرًا عما كان في عصور مضت، ومن ثم فليس هناك من حرج في تطوير تلك الوسائل والاستفادة من الإمكانات الحديثة؛ لبيان وتثبيت دعائمها وتأكيد صحتها.

أما القول بأن العقيدة الإسلامية تكبِّل الفكر وتَحْجِر على التفكير الحر والإبداع، فهو قول ينفيه الموقف القرآني الداعي في كثير من آياته إلى السير في الأرض، والنظر والتأمل والتفكير، وإعمال العقل®، ومحاربة الظن والوهم والتقليد الأعمى والادعاء بلا دليل، كما ينفيه الواقع المزدهر الذي عاشته الأمة الإسلامية في عصورها الذهبية التي استمرت قرونًا كثيرة كانت فيها حواضرهم وعواصمهم مراكز الثقافة والنور والعلم والحضارة للعالم كله، وذلك يوم أن طُبِّق الإسلام عقيدةً وشريعةً، وحضارة وثقافة.

ومن ثم فمن الظلم للإسلام القول بأن عقائده هي التي أصابت الأمة بالشلل والضعف والتخلف الحضاري، بل الأمر على عكس ذلك؛ فالأمة لم تضعف ولم تتخلف إلا بعد أن تخلت عن أهم عنصر من عناصر قوتها وعزتها وحضارتها، فالإسلام - بعقيدته وشريعته، بفكره وسلوكه، بحضارته وتسامحه - هو الذي أسس النهضة في عصرها الأول، وهو وحده اليوم القادر على إحياء تلك النهضة من جديد.

---

1. الإلكترونات: جمع إلكترون، وهو جزء من الذرة دقيق جدًّا، ذو شحنة كهربائية سالبة.
2. الذَّرَّة: أصغر جزء في عنصر ما يصح أن يدخل في التفاعلات الكيميائية، والتي تؤلف الأجسام المركبة، وتتكون الذرة من نواة تحتوي النيوترون والبروتون، ومن الإلكترون الذي يدور حول النواة.
3. الأُطُر: جمع الإطار، وهو النطاق أو الهيكل العام.

® في "**مزية الإسلام الكبرى في إعمال العقل**" طالع: الوجه الأول، والوجه الثاني؛ من الشبهة السابعة، من الجزء الخامس (النظم الحضارية).

خامسًا. الإسلام دين العمل والاجتهاد لا التواكل والتكاسل:

لم يدعُ دين إلى العمل ويحث عليه بكل سبيل كما صنع الإسلام؛ فإن الفعل "عمل" ذكر في القرآن ١٩ مرة، وبصيغة "عملوا" ذكر ٧٣ مرة، والفعل المضارع "أعمل" ذكر ٤ مرات، والمضارع "تعمل" ذكر مرتين، و"تعملون" ذكر ٨٣ مرة، وذكر الفعل "نعمل" ٦ مرات، والفعل "يعمل" ١٤ مرة، و"يعملون" ٥٦ مرة، وفعل الأمر "اعمل" ذكر مرتين، و"اعملوا" ٩ مرات، و"عمل" ٩ مرات، و"عملًا" ٨ مرات، و"عملك" مرة واحدة، و"عملكم" ٤ مرات، و"عمله" ٥ مرات، و"عملهم" مرتين، و"عملي" مرة واحدة، وكل من "أعمال" و"أعمالًا" مرة واحدة، و"أعمالكم" ٩ مرات، و"أعمالنا" ٣ مرات، و"أعمالهم" ٢٧ مرة، و"عامل" ٤ مرات و"عاملون" ٤ مرات، و"العاملين" ٤ مرات[1].

هذا بالإضافة إلى المواد الأخرى التي تفيد معنى العمل، مثل: فَعَل: ومشتقاتها، وكسب واكتسب، فكيف يصفون كتابًا يمتلئ بهذا الحشد الهائل من الحديث عن العمل، وأغلبه مَقْرون بوصف الصلاح، كيف يصفونه بأنه يدعو أتباعه إلى التواكل؟!

أما السُّنة فما أكثر الأحاديث التي حضت على العمل، وبشرت العاملين بالمغفرة والمثوبة؛ ومنها:

- قول رسول الله ﷺ: "ما أكل أحد قط طعامًا خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده"[2].
- "إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملًا أن يُتْقِنه"[3].
- "ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله من هذه الأيام" ـ يعني: الأيام العشر من ذي الحجة ـ قالوا: يا رسول الله، ولا الجهاد في سبيل الله. قال: "ولا الجهاد في سبيل الله إلا رجل خرج بنفسه وماله فلم يرجع من ذلك بشيء"[4].
- والعمل الصالح يتسع لكل خير يعمله المسلم في دنياه؛ فقد قام النبي ﷺ بالعمل، وشارك أصحابه في أعمالهم، حيث عمل في التجارة، وحفر الخندق مع أصحابه، وعمل بالرعي في طفولته، ولم يرض لنفسه أن يكون مخدومًا، وشارك أهله في خدمتهم، وأعان الخادم، وقد حثَّ على طلب الرزق بقوله ﷺ: "لأن يأخذ أحدكم حبلهُ فيأتي بحِزْمة حَطَب على ظهره فيبيعها فَيَكُفَّ الله بها وجهه خير له من أن يسأل الناس، أعطوه أو منعوه"[5].

إن الإسلام بعيد كل البعد عن التواكل، والمتواكلون لا يُعَبِّرون عن الإسلام وتعاليمه، ولو علَّم الإسلام

---

١. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، ص٤٨٣: ٤٨٨.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده (١٩٦٦).

٣. صحيح: أخرجه أبو يعلى في مسنده (٧/ ٣٤٩)، مسند عائشة رضي الله عنها (٤٣٨٦)، والطبراني في المعجم الوسط (١/ ٢٧٥)، برقم (٨٩٧)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١١١٣).

٤. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، من مسند بني هاشم، مسند عبد الله بن عباس رضي الله عنهما (١٩٦٨)، وأبو داود في سننه، كتاب الصوم، باب في صوم العشر (٢٤٤٠)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٢١٣٠).

٥. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب الاستعفاف عن المسألة (١٤٠٢)، وفي مواضع أخرى.

أتباعه التواكل لما فتحوا الممالك وملكوا الدنيا، ولا أقاموا حضارة وأنشئوا مُدنًا وترسانات وسُفُنًا، ولا برعوا في علوم الدنيا والدين، ولا علَّموا البشرية العلوم والصناعات والعمران!

- وفي الحديث: "لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خِماصًا[1]، وتروح بِطانًا"[2][3]. ولم يقل: يرزق الطير وهي نائمة في عشها، بل نبه على ضرورة السعي والاجتهاد، ثم اليقين وترك النتائج على الله، طالما أفرغ الإنسان وسعه ولم يقصر في شيء[4].

الخلاصة:

- إن العقل الصحيح لا يستسيغ أن يؤسس المسلمون إمبراطورية تدوم قرونًا طويلة، وهي حاكمة للعالم وتعد أروع حضارة عرفها التاريخ الإنساني - لا يستسيغ أن يصنعوا ذلك كله وهم يدينون بعقائد جامدة تعوق الفكر والتقدم.

---

١. خِماصًا: جائعة.

٢. بِطانًا: شَبْعَى ممتلئة البطون.

٣. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسنده العشرة المبشرين بالجنة، مسند عمر بن الخطاب ﷺ (٢٠٥)، والترمذي في سننه، كتاب الزهد، باب في التوكل على الله (٢٣٤٤)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣١٠).

٤. انظر: خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ١٩٨٣م. المسيحية: نشأتها وتطورها، شارل جينيبير، ترجمة: د. عبد الحليم محمود، دار المعارف، القاهرة، ط٤، ١٩٩٦م. دراسات في العقيدة الإسلامية، د. عبد الحميد مدكور، دار الهاني، القاهرة، مجموعة محاضرات أُلقيت على طلاب كلية دار العلوم، جامعة القاهرة. حقائق إسلامية في مواجهة حملات التشكيك، د. محمود حمدي زقزوق، مرجع سابق.

- إن هذا السيل الجرار من الملايين المتدفقة الذين يدخلون الإسلام كل يوم، وعدم ارتداد أحد منهم عن الإسلام لشيء فيه، لهو أكبر دليل على سمو تعاليم الإسلام وعقائده.
- إن الدراسة العميقة للإسلام جعلت المحايدين من الدارسين يشهدون برقي تعاليمه وتقدمها.
- إن الناظر لمنهج الإسلام الذي رسمه القرآن الكريم والسنة النبوية يجد تشريعات تفوق كل ما عرفه البشر من دساتير وقوانين في جميع مجالات الحياة وشئونها.
- الإسلام دين العمل والاجتهاد وليس دين التواكل، ونصوص الكتاب الكريم والسنة النبوية المطهرة في الحضِّ على العمل من أجل الكسب الحلال وذم التواكل لا حصر لها، وتاريخ الأمة الإسلامية وحضارتها يشهدان بذلك.

الشبهة الثانية

ادعاء أن العقيدة الإسلامية أقرت نزعة التواكل والقعود عن العمل(*)

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض المغالطين أن العقيدة الإسلامية تدعو إلى التواكل والسلبية والتقصير في العمل وعدم الأخذ بالأسباب، ويستدلون على ذلك بما حدث للخليل

(*) في الطريق إلى الله: التوكل، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

إبراهيم عليه السلام عندما أُلقي في النار، وجاءه جبريل وقال له: ألك حاجة؟ فأجاب إبراهيم: أما إليك فلا، فاعتبروا كلام نبي الله إبراهيم عليه السلام إعراضًا عن الأخذ بالأسباب. واستدلوا أيضًا بموقف إبراهيم الخليل مع زوجته هاجر، عندما تركها هي وطفلها الرضيع في قلب الصحراء دون راعٍ أو أنيس. كما يستدلون بقول رسول الله ﷺ: "لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خِماصًا وتروح بِطانًا"[1].

وجوه إبطال الشبهة:

١) الإسلام يدعو للتوكل؛ أي: الارتكان لقضاء الله، مع الأخذ بالأسباب، وينهى عن التواكل والسلبية.

٢) سيرة الأنبياء والرسل والصحابة والتابعين مليئة بالمواقف التي تؤكد توكلهم لا تواكلهم، وهم القدوة والمثل.

٣) أهمية التوكل على الله ﷻ والحاجة إليه في مواجهة الحياة، ومنزلته من العقيدة والإيمان والسلوك، وثمار ذلك.

٤) التوكل - الذي هو عبادة قلبية مفروضة - لا ينافي العمل، والأخذ بالأسباب أصلٌ فيه، والقدح في الأسباب قدح في الشريعة.

٥) ليس فيما ساقه هؤلاء ما يصح شاهدًا على أن الإسلام أقرَّ التواكل أو دعا إليه.

التفصيل:

أولا. الإسلام يدعو للتوكل، وينهى عن التواكل والسلبية:

التوكل عبادة من أفضل عبادات القلوب، وخُلُقٌ من أعظم أخلاق الإيمان، وهو منزلة من منازل الدين كما يقول الإمام الغزالي، بل إن التوكل هو نصف الدين، كما يقول ابن القيم، ونصفه الآخر هو الإنابة، وذلك مصداق قوله تبارك وتعالى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨)﴾ (هود).

وحقيقة التوكل تعني: الاعتماد المطلق على الله ﷻ في جميع الأمور، من جلب منافع ودفع مَضَارٍّ، بعد الاجتهاد وبذل الوسع والأخذ بالأسباب، والتوكل عبادة عظيمة، لا يجوز صرفها لغير الله تعالى، وقد كثر كلام أعداء الإسلام عن التوكل، وادَّعوا أن الإسلام يدعو للتواكل والركود وترك العمل، وهذا كلام غير صحيح، ومخالف لما ورد في آيات عديدة من آيات القرآن الكريم، وكذلك العديد من الأحاديث النبوية الشريفة.

ويصعب في هذا المجال حصر الآيات القرآنية التي تحدثت عن التوكل، ويمكن التمثيل لها بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٢٣)﴾ (هود)، وقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ۚ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا (٥٨)﴾ (الفرقان)، وقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ

---

١. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند العشرة المبشرين بالجنة، مسند عمر بن الخطاب رضي الله عنه (٢٠٥)، والترمذي في سننه، كتاب الزهد، باب في التوكل على الله (٢٣٤٤)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣١٠).

﴿ٱلرَّحِيمِ ٢١٧﴾ (الشعراء)، وقوله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ٧٩﴾ (النمل)، وقوله تبارك تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ١٥٩﴾ (آل عمران)، وقوله تبارك تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ٨١﴾ (النساء).

كل هذه الآيات وغيرها أمر من الله ﷻ لرسوله ﷺ أن يتوكل عليه دون غيره، وكانت دعوته ﷻ للمؤمنين أيضًا أن يتوكلوا عليه سبحانه في كل وقت، وذلك في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ١١﴾ (إبراهيم)، وقد جاء على لسان الرسل جميعًا قوله تعالى: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ١٢﴾ (إبراهيم)، والآيات التي تتحدث عن التوكل على الله ﷻ كثيرة في كتاب الله العزيز.

والتوكل على الله تعالى لا يعني ترك العمل وعدم الأخذ بالأسباب لقضاء حوائج الناس، بل التوكل الصحيح هو ما كان اعتمادًا عليه ﷻ مع الأخذ بالأسباب التي خلقها الله تعالى لكل عمل؛ لكي يقع على وجهه الصحيح، ومن يقرأ القرآن الكريم يجد أن مادة "عمل" وردت في القرآن الكريم ما يقرب من ٣٥٠ مرة، كلها دعوة إلى العمل، والأخذ بأسباب النجاح والتفوق؛ حتى يتحقق التوكل الصحيح على الله ﷻ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٦٢﴾ (البقرة)، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَـٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ١١١﴾ (النحل)، وقال الله تعالى: ﴿لِمِثْلِ هَـٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَـٰمِلُونَ ٦١﴾ (الصافات)، وهناك غير ذلك العديد من الآيات التي تؤكد ضرورة العمل مع التوكل؛ لأن عملًا بلا توكل على الله نقص في الدين، وتوكلًا بلا عمل نقص في العقل، فهما وجهان لعملة واحدة.

وإذا نظرنا في سُنة الرسول ﷺ وجدنا فيها العديد من الأحاديث التي تدعو إلى التوكل على الله، وترك التواكل المذموم الذي هو اعتماد على الله ﷻ دون أخذٍ بالأسباب، فهذا ليس توكلًا صحيحًا، وكان مما قاله النبي ﷺ في هذا:

- ورد في حديث السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب من هذه الأمة أنهم: "هم الذين لا يَسْتَرْقُون، ولا يَتَطَيَّرون، ولا يَكْتَوُون، وعلى ربهم يتوكلون"[1].
- قال رسول الله ﷺ: "اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت"[2].
- قال ﷺ: "لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خِماصًا وتروح بِطانًا".
- قال رسول الله ﷺ: "إذا خرج الرجل من بيته

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب من لم يرقِ (٥٤٢٠)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب (٥٥٠).

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، أبواب التهجد، باب التهجد بالليل وقول الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ (الإسراء: ٧٩) (١٠٦٩)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه (١٨٤٤).

فقال: بسم الله، توكلت على الله، لا حول ولا قوة إلا بالله، يُقال له حينئذ: هُدِيتَ، وكُفِيتَ، ووُقِيتَ، فتتنحَّى له الشياطين، فيقول له شيطان آخر: "كيف لك برجل قد هُدِي وكُفِي ووُقِي"[1]؟!

وأحاديث الرسول ﷺ في هذا الجانب كثيرة، وكلها تؤكد ضرورة الاعتماد على الله ﷻ لقضاء الحاجات مع العمل، والأخذ بالأسباب، فكيف يدعي هؤلاء أن الإسلام دين التواكل وترك العمل؟!

ثانيًا. سيرة الأنبياء والرسل والصحابة والتابعين تؤكد على توكلهم لا تواكلهم:

لقد عرض القرآن الكريم نماذج عظيمة مذهلة لتوكل الأنبياء الكرام - عليهم السلام - وهم يواجهون أقوامهم السائرين في غيهم، التائهين في ضلالهم وفجورهم، فهذا هود ﷺ نذر نفسه للرسالة التي حُمِّل إياها والأمانة التي كلف بها، فانبرى لقومه داعيًا ناصحًا، ومحذرًا لهم ومشفقًا عليهم، فما وجد منهم غير الكفر والفجور والسخرية والتهكم والسب الغليظ، بل إنهم ليزعمون أن آلهتهم وأوثانهم قد أصابته بشيء من عقابها، وأذاقته لعنة من لعناتها، قال الله تعالى: ﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ۗ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) ﴾ (هود).

وهنا يصرخ بهم هود ﷺ صرخته المدوية، صرخة المؤمن الواثق بربه، المتوكل عليه سبحانه، الساخر من حمقهم وغفلتهم وكفرهم، المتحدي لهم ولأوثانهم، كما حكى القرآن: ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٦) ﴾ (هود).

وأما إبراهيم ﷺ فقد وقف أمام عناد أبيه وقومه وقفة المؤمن الواثق المطمئن، فأخذ يُحاجج قومه باللين والرفق والحجة والبرهان، فما وجد إلا رءوسًا وقلوبًا تمكن منها الشرك؛ حيث تعلق أولئك الوثنيون بأصنامهم وأمجادهم التي تهاوت واحدًا واحدًا تحت مطارق إبراهيم، عندئذٍ أجمعوا أمرهم، ومكروا مكرهم، وأوقدوا نارًا عظيمة، وحملوا إبراهيم ﷺ على المَنْجَنِيق[2] مقيدًا ليقذفوه من بعيد، واجتمع الملأ ينظرون، فلما أيقن إبراهيم من إلقائهم إياه في النار، ما أصابه الجزع ولا اعتراه الخوف، وإنما قال كلمته العظيمة: "حسبي الله ونعم الوكيل"[3].

وهي كلمة لا يقولها إلا المؤمنون، ولا يلهج بها إلا الصادقون المتوكلون على الله، فلما توكل على الله كفاه ولما صدق مع الله تعالى أنقذه ﷺ ونجاه: ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (٧٠) ﴾ (الأنبياء).

وأما إمام المتوكلين محمد ﷺ فسيرته ملأى بنماذج من توكله وعظيم يقينه بالله تعالى؛ فقد خرج مهاجرًا مع

---

١. صحيح: أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب ما يقول الرجل إذا خرج من بيته (٥٠٩٧)، وابن حبان في صحيحه، كتاب الرقائق، باب الأذكار (٨٢٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٤٩).

٢. المَنْجَنِيق: آلة قديمة من آلات الحِصار، كانت تُرْمَى بها حجارة ثقيلة أو كتل نارية على الأسوار فتهدمها.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب سورة آل عمران (٤٢٨٨).

أبي بكر رضي الله عنه فدخلا الغار مختبئَيْن وحام المشركون حول باب الغار، ووقفوا على بابه تكاد قلوبهم تميَّز من الغيظ على محمد وصاحبه، فخشي الصديق رضي الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُمسَّ بأذى، فقال: يا رسول الله، لو نظر أحدهم تحت قدمه لأبصرنا، فقال صلى الله عليه وسلم بكل هدوء واطمئنان، وبلغة المتوكل على ربه، المعتمد على مولاه: "ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما"[1]؟

وفي حمراء الأسد[2] ـ في السنة الثالثة للهجرة بعد غزوة أحد مباشرة ـ جمع المشركون جموعهم لقتال النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فخرج صلى الله عليه وسلم وأصحابه بكل عزيمة وإصرار لمواجهة الجموع المتربصة، متوكلين على الله وحده، طالبين المدد منه سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ (آل عمران).

قال ابن عباس رضي الله عنهما: "حسبنا الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم عليه السلام حين أُلقي في النار، وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قال له الناس: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم"[3]®.

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب مناقب المهاجرين وفضلهم (٣٤٥٣)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه (٦٣١٩).

٢. حَمْراء الأسد: مكان على بُعْد ثمانية أميال من المدينة.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب سورة آل عمران (٤٢٨٧).

® في **"لوط بين التوكل والتواكل"** طالع: الشبهة التاسعة والعشرين، من الجزء التاسع (الأنبياء والرسل ١). وفي **"يوسف بين التوكل والتواكل"** طالع: الشبهة الثامنة والثلاثين، من الجزء التاسع (الأنبياء والرسل ١).

ثالثًا. أهمية التوكل على الله تعالى والحاجة إليه في مواجهة الحياة:

إن التوكل الصحيح على الله عز وجل كفيل بتصحيح أوضاعنا، وانتشالنا من تخلفنا وجهلنا، وتحقيق النصر على الحاقدين من خصوم وأعداء التصور الإسلامي في الحياة والمجتمع، فالله عز وجل يقول: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ (الطلاق: ٣)، فالحاكم المسلم محتاج إلى صدق التوكل على الله تعالى وهو يواجه التحديات المحيطة به وبالمسلمين من كل جانب، والأخطار المحدقة من كل اتجاه، وهو محتاج إلى صدق التوكل على الله، وهو يواجه جموع الأعداء بكل مكرهم وكيدهم، ومحتاج إلى صدق التوكل على الله وهو يواجه المرجفين في الأرض، والمنافقين المندسين في صفوف المؤمنين، يزينون الباطل ويمكرون المكر الخبيث، فإن النصر إنما ينزل من السماء بصدق التوكل وحرارة الدعاء، لا بكثرة عدد ولا عُدَّة وحدهما: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ (التوبة).

والتوكل على الله يحتاج إليه العالم الرباني حين يُحتاج إلى كلمته العادلة الفاصلة في الأمور والأحداث، وعند حلول الفِتَن والنَّكبات[4]، ويحتاج إلى التوكل على الله حين تَشْرئِبُّ أعناق الأمة منتظرة فتاويه في دقائق الأمور وعظائمها؛ فيقول كلمة الحق لا يخشى في الله لومة لائم.

٤. النَّكَبات: جمع النكبة، وهي المصيبة.

والداعية المسلم محتاج إلى التوكل على الله ﷻ أيًا كان موقعه، مدرسًا كان أو موظفًا خطيبًا، فالدعوة طريق شاق طويل، تحتاج إلى صدق اللجوء إلى الله تعالى، وحسن التوكل عليه سبحانه، والمتربصون بالدعوة كُثُر، والواقفون في طريقها متوافرون في كل مكان وزمان.

والتوكل على الله ﷻ يحتاج إليه رجل الحِسْبَة[1] وهو يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويقطع دابر الفساد في غير وجل، معتمدًا على الله وحده، طالبًا العون والتوفيق منه سبحانه، متبرئًا من قوة نفسه.

وبالجملة فالتوكل يحتاجه كل من رضي بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا؛ فالتوكل على الله وتفويض الأمر إليه، وتعلق القلوب به ﷻ من أعظم الأسباب التي يتحقق بها المطلوب ويندفع بها المكروه، وتُقْضَى بها الحاجات، وكلما تمكنت معاني التوكل من القلوب تحقق المقصود أتم تحقيق، وهذا هو حال جميع الأنبياء والمرسلين، وقد تقدَّم في قصة إبراهيم عليه السلام أنه لم يزد ـ حين أُلقي في النار ـ على قوله: "حسبي الله ونعم الوكيل".

وهي ذات الكلمة التي رددها الصحابة الكرام ﭫ يوم حمراء الأسد ـ صبيحة يوم أحد ـ يقول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ (آل عمران).

وكذلك ما كان من موسى عليه السلام حين توجه تلقاء مدين، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ (القصص)، وتَذْكر كتب التفسير أنه كان ضاويًا خاوي البطن، لم يذق طعامًا منذ ثلاث ليال، وحاجة الإنسان لا تقتصر على الطعام فحسب، فلما أظهر فقره لله تعالى ولجأ إليه ﷻ بالدعاء، وعلق قلبه به ما تخلفت الإجابة، يقول تعالى: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ﴾ (القصص: ٢٥)، وكان هذا الزواج المبارك من ابنة الشيخ الصالح.

والأمر نفسه يتكرر من نبي الله موسى، لما سار هو ومن آمن معه حذو البحر، حين أتبعهم فرعون وجنوده بغيًا وعَدْوًا، فكان البحر أمامهم وفرعون خلفهم، أي أنها هَلَكَة محقَّقة، ولذلك قال بنو إسرائيل: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ (الشعراء) قال نبي الله موسى عليه السلام: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ (الشعراء). قال العلماء: ما كاد يفرغ منها إلا وأُمِر: ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾ (الشعراء)، فكان في ذلك نجاة موسى ومن آمن معه، وهلكة فرعون وجنوده، ولذلك قيل: "فوِّض الأمر إلينا، نحن أولى بك منك"، إنها كلمة الواثق المطمئن بوعد الله، الذي يعلم كفاية الله سبحانه لخلقه: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ

---

١. الحِسْبَة: هي وظيفة نشأت في العصر الأموي، كان صاحبها يتولى الإشراف على الأسواق والآداب العامة، وأساس هذه الوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعُرِف شاغلها في الشرق الإسلامي باسم "المُحْتَسِب"، وفي الأندلس باسم "صاحب السوق".

﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾﴾ (الزمر).

رابعًا. مفهوم التوكل وصلته بالأخذ بالأسباب:

لا بد من الأخذ بالأسباب فقد أمر الله تبارك وتعالى الرسول ﷺ باستكمال العُدَّة فقال: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾ (الأنفال)، وقال ﷻ: ﴿فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾﴾ (النساء)، وقال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ (الأنفال)، ثم بعد ذلك قد تنخرق كل الأسباب للمتوكلين على الله، فالنار صارت بقدرة الله بردًا وسلامًا على إبراهيم، والبحر ـ الذي هو مَكْمَن الخوف ـ صار سبب نجاة موسى ومن آمن معه، ولكن لا يصح ترك الأخذ بالأسباب بزعم التوكل، كما لا ينبغي التعويل على الحول والطول أو الركون إلى الأسباب، فخالق الأسباب قادر على تعطيلها، وشبيه بما حدث من نبي الله موسى ما كان من رسول الله ﷺ يوم الهجرة، عندما قال أبو بكر ﷺ: لو نظر أحد المشركين تحت قدميه لرآنا، فقال له النبي ﷺ: "ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما"[1]؟

وهذا الذي عناه ﷻ بقوله: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ (التوبة).

والأخذ بالأسباب هو هَدْي سيد المتوكلين على الله ﷺ في يوم الهجرة وغيره؛ إذ القدح في الأسباب قدح في التشريع، والاعتقاد في الأسباب مع الغفلة عن خالق الأسباب ومُسبِّبها قدح في التوحيد، وقد فسر العلماء التوكل فقالوا: ليكن عملك هنا ونظرك في السماء، وفي الحديث عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رجل: يا رسول الله، أعقلها وأتوكل، أو أطلقها وأتوكل؟ قال: "اعْقِلها وتوكل"[2].

مواقف الناس من الأسباب على أربعة أقسام:

١. الالتفات إلى الأسباب بالكلية، واعتماد القلب والجوارح عليها من غير نظر إلى مُسبِّبها: وذلك كنظرة الماديين والعقلانيين الذين وقعوا في الشرك؛ لأنهم أثبتوا موجدًا مع الله مستقلًّا بالضُّر والنفع، وهذا باطل مخالف للكتاب والسنة والإجماع، كما أن الأسباب قد تتخلَّف عن مسبباتها ـ بإذن الله ـ كما يشهد لذلك الواقع.

٢. الإعراض عن الأسباب بالكلية والاعتماد على

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة ﷺ، باب مناقب المهاجرين وفضلهم (٣٤٥٣)، وفي مواضع أخرى.

٢. حسن: أخرجه الترمذي في سننه، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع (٢٥١٧)، وحسنه الألباني في تخريج مشكلة الفقر (٢٢).

التوكل وحده: وهؤلاء المعرضون لا يرون تحقيق التوكل إلا في ترك الأسباب بالكلية؛ فتركوا التكسب والعمل والاحتراز والاحتياط والتزود في السفر والطعام؛ لأنهم يرون ذلك كله منافيًا للتوكل، ولهم شُبه ضعيفة أجاب عنها العلماء المحققون؛ كمحمد بن الحسن الشيباني في كتابه "الاكتساب في الرزق المستطاب"، والخَلَّال في كتابه "الحث على التجارة والصناعة والعمل"، والحارث المحاسبي في كتابه "المكاسب"، وابن الجوزي، وابن تيمية، وابن القيم، وابن مفلح، وابن رجب... وغيرهم، كما أن الإعراض عن الكسب بدعوى التوكل له آفات[1] ومفاسد يصعب حصرها، وهذا الإعراض حَكَم عليه العلماء بأنه قَدْح في الشرع.

٣. نَفْي تأثير الأسباب بالكلية، وقد وصف العلماء هذا القول بأنه مكابرة للحِسِّ، وهؤلاء يرون أن الله لم يخلق شيئًا سببًا، ولا جعل في الأسباب قوى وطبائع تؤثر، وغرضهم الرد على القدرية النفاة، وهذا الموقف مخالف للكتاب والسنة، ومخالف ـ كذلك ـ للحس السليم.

٤. قيام الجوارح بالأسباب واعتماد القلب على الله مسبب الأسباب ﷻ، وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة، وهو الحق الذي دل عليه الشرع والعقل، وهو الوسط في كل مذهب، فأثبت للأسباب تأثيرًا في مسبباتها، لكن لا بذاتها، بل بما أودعه الله فيها من القوى الموجبة، وهي تحت مشيئته وقدرته، فإن شاء مَنَع اقتضاءَها، وإن شاء جعلها مقتضية لأحكامها، فهم ـ

أي: أهل السنة والجماعة ـ يوجبون الأخذ بالأسباب ويعتقدون عدم منافاتها للتوكل؛ بل إن التوكل من أعظم الأسباب في جلب المنافع ودفع المضار، ويرون ضرورة الأخذ بالأسباب مع عدم الاعتماد عليها، ويكون التوكل ـ بالقلب ـ على الخالق سبحانه مع اتباع الأسباب في ظاهر الحال فقط، والأخذ بالأسباب ثم الاعتماد على الله ﷻ هو ما يشير إليه قوله ﷻ حاكيًا عن يعقوب عليه السلام: ﴿ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ (يوسف). وفي جانب الرزق قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾ (الملك).

قال ابن القيم في "مدارج السالكين": "لا تقوم عبودية الأسباب إلا على ساق التوكل، ولا يقوم ساق التوكل إلا على قدم العبودية". والسبب الذي أُمر العبد به أمر إيجاب أو أمر استحباب هو عبادة الله ﷻ وطاعته له ولرسوله، والله فرض على العباد أن يعبدوه ويتوكلوا عليه، فقال تعالى: ﴿ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ (هود: ١٢٣)، وقال: ﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ ﴾ (المزمل)، وقال: ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ

---

١. الآفات: جمع الآفة، وهي كل ما يُصيب شيئًا فيفسده.

شَيۡءٖ قَدۡرٗا ﴿٣﴾ ﴾(الطلاق)، والمقصود أن الله تعالى لم يأمر بالتوكل فقط، بل أمر مع التوكل بعبادته وتقواه التي تتضمن فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه. فمن ظن أنه يرضي ربه بالتوكل دون فعل ما أمره به كان ضالًّا، كما أن من ظن أنه يقوم بما يرضي الله عليه دون التوكل عليه كان ضالًّا، وأن من ظن أن التوكل يغني عن الأسباب المأمور بها فهو ضال، وهذا كمَن ظن أنه يتوكل على ما قدر عليه من السعادة والشقاوة دون أن يفعل ما أمره الله به، فإن كانت الأسباب مقدورة له وهو مأمور بها فَعَلها مع التوكل على الله كما يؤدي الفرائض، وكما يجاهد العدو ويحمل السلاح ويلبس لَأْمة الحرب[1] ولا يكتفي في دفع العدو، بمجرد توكله دون أن يفعل ما أُمر به من الجهاد؛ فالواجب على العبد أن يفعل السبب المأمور به ويتوكل على الله فيما يخرج عن قدرته، مثل الذي يشق الأرض ويلقي الحب، ويتوكل على الله تعالى في إنزال المطر وإنبات الزرع ودفع المؤذيات عنه، ومن ترك الأسباب المأمور بها فهو عاجز مفرِّط مذموم. قال الحسن: التوكل لا ينافي السعي في الأسباب، قال الله تبارك و تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ ﴾ (النساء: ٧١)، وقال تعالى: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ ﴾ (الأنفال:٦٠).

ومن الأدلة على ارتباط التوكل بالأخذ بالأسباب من القرآن الكريم قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ ﴾ (النساء: ٧١)، وقوله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ ﴾ (الأنفال: ٦٠)، وقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ (الجمعة)، وقوله تعالى: ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٦٩﴾ ﴾ (الأنفال)، وقوله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡ ﴾ (آل عمران: ١٥٩)، وقوله تعالى: ﴿ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ ﴾ (مريم: ٢٥)، وقوله تعالى: ﴿ أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ ﴾ (النساء: ٧٨)، وقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ ﴾ (الأنبياء: ٨٠).

وعن أنس بن مالك ﷺ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ على ناقة له، فقال: يا رسول الله، أدعها وأتوكل ؟ فقال: اعْقِلها وتوكل[2].

وعن عمر ﷺ عن النبي ﷺ قال: "لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خِماصًا وتروح بِطانًا"[3].

والمعنى: أن التوكل الصحيح هو تفويض الأمر إلى الله ﷻ، والثقة بحسن النظر فيما أمر به، فلو أن المسلمين يتوكلون على الله ﷻ في كل شئونهم لرزقهم كالطير تمامًا، ولكن بعضهم يعتمد على قوته وحذره ويحلف بالباطل وكل هذا خلاف التوكل. وعن المقدام بن مَعْدِيكَرِب عن النبي ﷺ قال: "ما أكل أحد

---

١. لأْمَة الحرب: عُدَّتها.

٢. حسن: أخرجه الترمذي في سننه، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع (٢٥١٧)، وحسنه الألباني في تخريج مشكلة الفقر (٢٢).

٣. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند العشرة المبشرين بالجنة، مسند عمر بن الخطاب ﷺ (٢٠٥)، والترمذي في سننه، كتاب الزهد، باب في التوكل على الله (٢٣٤٤)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣١٠).

طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده"[1].

وعن عمر بن الخطاب ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ ينفق على أهله نفقة سَنَتِهِم من هذا المال، ثم يأخذ ما بقي فيجعله مجعل مال الله، فعمل رسول الله ﷺ بذلك حياته[2].

ولقي عمر بن الخطاب ناسًا من أهل اليمن، فقال: من أنتم؟ قالوا: نحن المتوكلون، فقال أنتم المتكلون، إنما المتوكل الذي يُلقي حبه في الأرض ويتوكل على الله. وقوله: المتكلون، يعني: على أموال الناس[3].

وفي ذلك الرد البليغ على من يتركون الأسباب تقاعسًا بدعوى التوكل، ولو صدقوا لأحسنوا العمل.

أما التواكل فهو ترك الكسب والطمع في المخلوقين، والاعتماد عليهم بالتخلي عن الأسباب التي وضعها الله ﷻ، والانقطاع عن السعي والتقاعد عن العمل وانتظار النتائج من الخلق أو القدر، أو الاتكال على الله أن يخرق له العوائد، والتواكل انتفاء همة وعدم مروءة؛ لأنه إبطال حكمة الله التي أحكمها في الدنيا من ترتب المسببات على الأسباب®.

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده (١٩٦٦).

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب حديث بني النضير (٣٨٠٩)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب حكم الفيء (٤٦٧٧).

٣. أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب التوكل (١٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٢١٥).

® في **"دعوة السلف الصالح إلى الأخذ بالأسباب"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثانية والأربعين، من الجزء الرابع (التاريخ الإسلامي ٢).

خامسًا. ضعف الاستدلال على التواكل بقصة إبراهيم عليه السلام:

إنَّ المواقف التي استدل بها أصحاب هذه الشبهة لإثبات أن الإسلام يُقِرُّ التواكل ويدعو إليه، هذه المواقف دليل ضد هؤلاء لا لهم؛ فعندما قال إبراهيم عليه السلام لجبريل أمين وحي السماء: "أما إليك فلا" فإن هذه الكلمة دليلٌ على شدة الإيمان ورسوخه في القلب، ورغم هذا فقد أخذ إبراهيم بالأسباب أولًا، ولم يدخر وُسعًا لكي يهدي قومه إلى طريق الله، وعندما تعذَّر عليه ذلك ترك أمرهم لله، وقدم لهم دليلًا عمليًّا على قوة الإيمان، فلم يَخَف من إلقائه في النار، وقَبِل قضاء الله بكل ثبات؛ لأن الله معه ولن يضيعه.

وبهذا يتبين أن الاستشهاد بهذه القصة على أن الإسلام أقر نزعة التواكل أو دعا إليها هو أبعد شيء عن سياقها على تقدير صحتها، فكيف وهذه القصة هي برمتها غير ثابتة عند المحدثين ونَقَدة الأخبار.

كذلك موقف إبراهيم عليه السلام مع زوجته هاجر؛ فعندما تركها إبراهيم هي وطفلها إسماعيل عليه السلام كان هذا بأمر من الله تعالى، وعندما علمت هاجر أن هذا الفعل من قِبَل الله تعالى، وأمر منه قالت: لن يضَيِّعَنا، ورغم هذا الإيمان الشديد منها، أخذت تسعى لكي تروي عطشها وعطش صغيرها الرضيع الذي بكى من شدة العطش، وكانت المعجزة الكبرى وهي انفجار بئر زمزم من تحت قدم الصغير؛ ليكون آية للناس إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

هذا البئر لم يتفجر إلا بعد أن أخذت هاجر بالأسباب، وبحثت عن الماء في كل مكان، وصار

السعي بين الصفا والمروة من فرائض الحج؛ لكي يتذكر الناس موقف هاجر المتوكلة على الله تعالى.

وحديث الرسول الذي يقول فيه: "لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصًا، وتروح بطانًا" هو حديث يبين حقيقة التوكل الصحيح، فالرسول لم يقل: توكلوا على الله فقط، ولكنه ﷺ قال: حق توكله، والتوكل الحق يكون بطريق الأخذ بالأسباب والعمل، وترك النتائج على الله تعالى، كما أنه ﷺ إنما أثبت الطير غُدوًّا ورواحًا، وجعل ذلك سببًا في رزق الله إياها، ولم يقل: إنها مكثت في عشها: ثم رزقها الله ما رزقها على نحو ما يريد هؤلاء أن يفهموا، وأحاديث النبي ﷺ في هذا الجانب كثيرة، وقد قدَّمنا ـ فيما سلف ـ طائفة منها[1].

الخلاصة:

- التوكل على الله ﷻ عبادة قلبية مفروضة، وهو حقيقة لا يتم الإيمان إلا بها، وقد أكدها القرآن والسنة جميعًا، كما صورتها أفعال النبي ﷺ وسيرته تصويرًا صادقًا ترك أثره في سِيَر الصحابة والتابعين من بعده.
- وهؤلاء جميعًا إنما وقفوا على حقيقة التوكل التي لا تعني ـ من أي وجه ـ القعود عن العمل والانقطاع عن الأخذ بالأسباب؛ اتكالًا على الله تبارك وتعالى، ورأوا أن ذلك هو التواكل الذي طالما حذَّر منه النبي ﷺ.
- ليس في قصة إبراهيم عليه السلام حين أُلقي في النار ما يسوغ أن يستدل به على طرح الأسباب، بل هذه القصة ـ تدل على ضد ذلك، وأما قصته عليه السلام حين ترك زوجه بوادٍ غير ذي زرع فليس فيها ما يشهد على ترك الأسباب، بل هي من شواهد كمال توكله وركونه إلى جناب ربه ﷻ.

الشبهة الثالثة

الزعم أن الإسلام يُوْلِي الإيمان اهتمامًا وعناية أكثر من العمل(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين أن الإسلام يُعْنَى بالإيمان ويهتم به أكثر من عنايته واهتمامه بالعمل، ويستدلون على هذا بأن الإسلام جعل الإيمان بالله ورسوله شرطًا لقبول العمل الصالح والفوز بالجنة، كما أن الإسلام كثيرًا ما ينذر أولئك الذين لا يقبلون دعوة النبي ﷺ بعذاب النار في الآخرة، وكثيرًا ما يُكفِّر مَنْ لا يؤمن بالنبي ﷺ وبرسالته وإن حَسُنَ سلوكه وصَلَحَت أعماله.

وجوه إبطال الشبهة:

1) إن الكثرة المطلقة من الآيات التي ذُكِر فيها الإيمان في القرآن الكريم إنما اقترن فيها الإيمان بالعمل الصالح، وهو ما جعل العمل داخلًا في مسمَّى الإيمان عند كثير من علماء المسلمين.

2) اعتنى الإسلام بشأن العمل حتى جعله قيمة

---

1. في الطريق إلى الله: التوكل، د. يوسف القرضاوي، مرجع سابق، صفحات متفرقات. موقع صيد الفوائد، الشبكة الإسلامية.

(*) قصة الحضارة، ول ديورانت، ترجمة: محمد بدران، دار الجيل، بيروت، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

عُلْيا تتشكل من خلالها سائر المبادئ والقيم.

٣) وجَّه الإسلام الإنسان إلى أن يبذل طاقته في التعامل مع الطبيعة، وتعاليمه في ذلك كثيرة ظاهرة.

٤) الإيمان بالله ﷻ شرط قبول العمل، وعلى هذا مضت الأديان كلها لا الإسلام وحده.

التفصيل:

أولا. اقتران الإيمان بالعمل الصالح كثيرًا في القرآن الكريم:

إن الناظر في آيات التنزيل العزيز يجد بين يديه تلازمًا لافتًا بين الإيمان والعمل الصالح، حتى ما يكادا يُذْكران إلا مُقْتَرِنَين معًا، وذلك في مثل قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ (مريم)، وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾﴾ (الروم)، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ (التغابن: ٩).

كما نجد شرط الإيمان لاحقًا لهذا العمل الصالح في الآيات التي تبدأ بذكر من يعملون الصالحات؛ تأكيدًا لسلامة النية والقصد فيه، وهو ابتغاء وجه الله تعالى به دينًا وعبودية وإسلامًا لله الحق، وذلك في مثل قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ (النساء: ١٢٤). وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾ (طه).

كما نجد بعض الآيات الكريمة التي تبدأ بذكر من يؤمنون بدلالة لفظ آخر غير الإيمان - نجد فيها قاعدة هذا التلازم المتكامل بين الإيمان والعمل الصالح بنفس وضوحها في الآيات السابقة، وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (فصلت). فالذين قالوا: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ هم المؤمنون ولا ريب، أما قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ فهذا يعني الشرط اللازم لصحة الإيمان، أي: الذين استقاموا إلى ربهم بهذا "العمل الصالح" الذي يكون سكينة في أنفسهم، تتنزل بها ملائكة الله عليهم ومعها البشرى بهذه الجنة التي وعد الله بها المتقين المحسنين.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ﴾ (فصلت: ٣٠)، وقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾﴾ (الأعراف)، ذلك أن التقوى هي آية الإيمان باتقاء واجتناب كل ما نهى الله عنه من المنكر، ولذلك جاء شرط الإصلاح بعد التقوى في قوله تعالى: ﴿وَأَصْلَحَ﴾ لازمًا؛ لتعزيز هذا الانتهاء عن المنكر بالعمل الصالح الذي يكون في طاعة الله وهو "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"[1].

دخول العمل بالجوارح في مسمى الإيمان:

إن الإيمان الحق في العقيدة الإسلامية اعتقاد وقول

---

١. مع القرآن الكريم: رؤية مستنيرة لحقائق الإيمان والحياة، كتاب يصدر عن "المقاولون العرب"، القاهرة، ط١، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، العدد السادس، ص٥٦: ٥٩.

وعمل، والدليل على دخول الأعمال في مسمى الإيمان قول الله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ (البقرة: ١٤٣)، أي: صلاتكم إلى المسجد؛ كما فسره ابن عباس - رضي الله عنهما -، وقول الله ﷻ: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ (البقرة)، وفسر أبو بكر الصديق ﷺ البر بالإيمان، فدخل في مسمى الإيمان أعمال القلب والجوارح، والدليل من السنة قول رسول الله ﷺ: "الإيمان بِضْع وسبعون، أو بضع وستون شُعْبَة، أفضلها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى[1] عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان"[2].

وخير دليل على ارتباط وتلازم الإيمان والعمل الصالح - أن الإيمان يزيد بالأعمال الصالحة، وينقص بالمعاصي؛ إذ يقول ﷺ: "أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خُلُقًا، وخياركم خياركم لنسائهم"[3].

ويقول تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ (الفتح: ٤)، ويقول أيضًا: ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾ (المدثر: ٣١)، وإذا علمنا أن الإيمان يزيد بالأعمال الصالحة، كما رأينا - فهو بالبداهة ينقص بالفترة والمعاصي.

يقول الشيخ حافظ بن أحمد: "وعلى هذا إجماع الأئمة المعتد بإجماعهم أن الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، وإذا كان ينقص بالفترة عن الذكر، فَلِأَنْ ينقص بفعل المعاصي من باب أولى"[4].

ثانيًا. اعتنى الإسلام بالعمل فجعله قيمة عليا تتشكل من خلالها كافة المبادئ والقيم:

إن الإسلام أعطى للعمل أولوية كبيرة، وجعل له قِيَمًا عُلْيَا هي التي تُشكِّل ما عداها من القيم الأخرى في أي مجتمع أو دولة، بمعنى آخر: إن هناك قيمًا عديدة لها وجودها وحركيَّتها، ولكن تُشكَّل من خلال القيمة العليا التي تبسط نفوذها على ما عداها من القيم[5].

ولهذا أُبرِزت الحرية كقيمة عليا في المجتمع الغربي، وليس معنى هذا أن المجتمع الغربي ليس لديه قيم أخرى، فإن لديه قيم العدالة والمساواة والعمل وكل القيم، ولكنها تبرز من خلال الحرية وتتشكل بها، وكذلك في المجتمع الشرقي هناك قيمة المساواة كقيمة عليا.

ونأتي إلى الإسلام الذي جعل من العمل قيمة عليا، تتفرع من خلاله عِدَّة مبادئ وقيم أخرى؛ مثل: الحرية

---

١. إماطة الأذى: تَنْحِيته وإبعاده.

٢. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب شعب الإيمان (١٦٢).

٣. صحيح: أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الرضاع، باب حق المرأة على زوجها (١١٦٢)، وابن حبان في صحيحه، كتاب النكاح، باب معاشر الزوجين (٤١٧٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٢٣٢).

٤. عقيدة أهل السنة والجماعة، أحمد فريد، مكتبة فياض، المنصورة، ٢٠٠٥م، ص٩: ١١.

٥. نظرية القيم، د. حامد ربيع، نهضة الشرق، القاهرة، ١٩٧٤م، ص١: ٣ بتصرف يسير.

والعدالة والمساواة؛ لذلك فقد قدَّس الإسلام العمل وحضَّ عليه، ونهى عن الكسل وحذَّر من عواقبه، والله تعالى ورسوله ﷺ وكافة المؤمنين هم الذين سيراقبون أعمالنا، يقول الله ﷻ: ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ (التوبة: ١٠٥).

إن العمل في مفهومه كما يشمل الأعمال البدنية من زراعة وتجارة وصناعة، مثلًا... إلخ، يشمل أيضًا الأعمال القلبية، كالغضب والرضا، والحب والكراهية والحقد، وحب الخير للناس.. إلى غير ذلك مما يقع في الشريعة الإسلامية تحت مسئولية الإنسان ويستحق من أجله الثواب والعقاب، كما يتضمن مفهوم العمل في الإسلام، كذلك الأعمال الفكرية والعقلية، مثل أعمال التخطيط والتصميم، ومثل التأمل والتفكير في ملكوت السماوات والأرض[1].

كما يعتبر الإسلام النية في تقويمه للعمل، فإذا كانت النية في العمل خَيِّرة كان العمل خيرًا، وإن كانت النية سيئة كان العمل بالطبع شرًّا، وقد قال رسول الله ﷺ في الحديث: "إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى"[2].

كما قال الله تبارك تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾ (الزلزلة). حتى إن الإيمان اقترن في آيات قرآنية عديدة بالعمل الصالح: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ (العصر: ٣).

وهذا العمل الصالح المقترن بالإيمان يجاوز في أثره الحياة الدنيا إلى حيث ينفع صاحبه في الحياة الآخرة، فقد جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: "إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلَّا من ثلاثة: إلا صدقة جارية، أو علم يُنْتَفَع به، أو ولد صالح يدعو له"[3].

أي أنه يجب أن يعمل الإنسان أعمالًا ينتفع بها بعد موته؛ إما من تربية ذرية صالحة، أو علوم نافعة، أو صدقات جارية.

وإذا رأينا الرسول ﷺ يقول: "اغتنم خمسًا قبل خمس: حياتك قبل موتك، وفراغك قبل شُغْلك، وغِناك قبل فقرك، وشبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك"[4] لعرفنا أننا يجب أن ننتهز الشباب والصحة والحياة للعمل الجاد والمثمر بعيدًا عن إغراء المال وضياع الزمان[5].

خصائص العمل في الإسلام:

١. التوازن بين العمل للدنيا والآخرة:

لقد أكد القرآن والسنة على أنه لا ينبغي الاهتمام

---

١. العمل في الإسلام، مقال د. محمد عبد الرحمن بيصار، مجلة الوعي الإسلامي، الكويت، عدد شعبان ١٣٩٥هـ، أكتوبر ١٩٧٥م، ص٣١.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (١)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: "إنما الأعمال بالنية" (٥٠٣٦).

٣. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته (٤٣١٠).

٤. صحيح: أخرج الحاكم في مستدركه، كتاب الرقاق (٧٨٤٦)، والبيهقي في شعب الإيمان، باب في الزهد وقصر الأمل (١٠٢٤٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٠٧٧).

٥. العمل في رمضان، مقال لعبد الرحيم فودة، مجلة الأزهر، القاهرة، عدد رمضان ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٣م، ص٢.

بالجانب الدنيوي وإهمال الجانب الأخروي، فإذا عملت لدنياك من أجل دينك ووطنك ونفسك وأسرتك، فلا يؤثر ذلك في أخلاقك وعقيدتك وعملك للدار الآخرة، فإن عملك في الدنيا للدنيا يصبح واجبًا شرعيًّا، والقواعد الأصولية تحدد أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب؛ ولذلك فالعمل للدنيا مع العمل للآخرة فريضة إسلامية[1].

وقد قال الله تعالى: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (15)﴾ (الملك)، فمطلوبٌ التوازن بين العمل للدنيا وللآخرة، لماذا؟ لأن الدنيا مزرعة الآخرة والناس فيها ثلاث أصناف: صنف شغله معاشه عن معاده فهو هالك، وصنف شغله معاده عن معاشه فهو فائز ولكنه مقصر؛ لتركه فضيلة السعي في طلب الرزق بالكسب الشريف، وصنف معتدل، وهو من شغله معاده ومعاشه فعمل لكليهما، وهو الذي ينبغي للمؤمن[2].

٢. على طالب الرزق أن يطلب حلاله:

إن النبيين والمرسلين قد أتوا بشريعة تعلن أن على طالب الرزق أن يطلب حلاله؛ فقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (51)﴾ (المؤمنون).

كما قال النبي ﷺ لكعب بن عُجْرَة رضي الله عنه في عقاب الكسب الآثم: "... يا كعب بن عجرة، إنه لا يدخل الجنة لحم نَبَتَ من سحت، النار أولى به"[3]. وقوله ﷺ في الكسب الحرام وسوء عاقبته أن صاحبه يُعاقب عليه، ولو أنفقه في وجوه البر: "من أصاب مالًا من مأثم فوصل به رَحِمًا، أو تصدَّق به، أو أنفقه في سبيل الله، جمع الله ذلك كله ثم قذفه في النار"[4][5].

٣. السعي الدائب المستمر لطلب الرزق:

إن السعي لطلب الرزق - أي: العمل للدنيا - فريضة على كل مسلم لكي ينفع نفسه وأهله ووطنه، فقد جاء عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "على كل مسلم صدقة"، قالوا: يا نبي الله، فمن لم يجد؟ قال: "يعمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق"، قالوا: فإن لم يجد؟ فقال: "يُعِين ذا الحاجة الملهوف"، قالوا: فإن لم يجد؟ قال: "فليعمل بالمعروف أو ليمسك عن الشر، فإنها له صدقة"[6].

وهذا الحديث يعطينا منهجًا في السعي الدائب لطلب الرزق للتصدق، أو عمل الخير وفعله دائمًا وباستمرار[7]، ويعطينا الحديث صورة عن تبصير المسلم بأنواع من العمل قد لا ينتبه إليها ولا يعرف

١. من أمجاد الرسالة المحمدية، د. مصطفى الحديدي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، سلسلة: دراسات في الإسلام، رقم ١٦٨، مارس ١٩٧٥م، ص٦٧.

٢. المرجع السابق، ص٧٢.

٣. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - (١٤٤٨١)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٨٦٧).

٤. حسن: أخرجه أبو داود في المراسيل (١٣١)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٧٢١).

٥. من أمجاد الرسالة المحمدية، د. مصطفى الحديدي، مرجع سابق، ص٧١.

٦. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب على كل مسلم صدقة، ... (١٣٧٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على ... (٢٣٨٠).

٧. وظيفة المسلم في مجتمعه، مقال لأبي الوفا المراغي، مجلة الأزهر، القاهرة، عدد يناير ١٩٧٦م، ص١٥.

مكانها في نظر الإسلام.

كذلك يحدد هذا الحديث الشريف الصحيح المنهج إلى السعي الدائب في ثلاثة أمور:

- الحث على العمل حتى لا يكون المسلم عالة على غيره، لا ينفع نفسه ولا ينفع الناس.
- أن ينتفع بما يجمع، فلا يَحْرِم نفسه ولا أهله مما أفاء الله عليه، فذلك شر المنازل عند الله.
- أن ينفع الناس معه، ولا يستأثر بالتمتع به هو وأهله دون إخوانه المسلمين[1].

ثالثًا. وجَّه الإسلام الإنسان لأن يبذل كل طاقته في التفاعل مع قوى الطبيعة:

لقد وجه الإسلام الإنسان لأن يبذل طاقته في معالجة طاقات الكون حتى ينال منها ما يحفظ عليه حياته، وحيويته، وطاقته؛ لينفق ذلك كله في عمارة الكون.

ويبارك الإيمان الطاقات العاملة، فيكرم الإنسان بالعمل ويدفعه إلى النظر في الكون؛ فيجعل تأمله وتدبره، والعلم بنواميسه[2] والعمل للإفادة من طاقاته سياحة قدسية، وعبادة خاشعة، فيقول الحق: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾ (الجمعة)، وقال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ (الملك).

وهكذا يطلق الدين قوى الإنسان في أصفى حالاتها وأنقاها لتعمل مع قوى الطبيعة، تعمل بعد أن نقَّاها الإيمان من اليأس، والتكبر، والبَطَر[3]، والغرور.

وهكذا تأتي العقيدة الإسلامية تعزيزًا للسعي الإنساني في سبيل الحرية، وتأتي إطلاقًا لقوى الإنسانية في أوسع مداها، وتسخيرًا للقوى الكونية في شتى أسبابها، مع سد المسارات التي تبدد هذه القوى.

إن العمل - والعمل الدائب الجاد - في هذا الكون العظيم الرائع هو عبادة الإسلام، ولقد كتب الله على نفسه أن يمد مخلوقاته بأسباب الحياة المعقولة: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ (هود: ٦). ولكن كيف؟ إن الله ﷻ أودع موارد الرزق في الكون وأسباب الكسب في الإنسان[4].

إن الله ﷻ أعطى الإنسان طاقة تُفجِّر ما فطر في الكون من طاقات، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾ (الأعراف). وقال سبحانه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ (الجاثية).

وتتركز فكرة الإسلام عن العمل في أن الإيمان لا يقعد بالمرء عن طلب الرزق، والتوكل على الله لا يعني أن السماء تمطر ذهبًا أو فضة، إن الإيمان في المفهوم الإسلامي يزيد المؤمن بالله عملًا في كون الله ابتغاء فضل الله؛ ولذلك فإن طلب الرزق عبادة، وعمارة

---

١. المرجع السابق، ص٦١.

٢. النواميس: جمع: الناموس، وهو الشريعة أو القانون.

٣. البَطَر: الطغيان.

٤. الإسلام في معركتي البناء والنصر، محمد علم الدين، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، سلسلة: دراسات في الإسلام، العدد ١٧٣، أغسطس ٧٥، ص٤٨: ٥٠.

الأرض عبادة، والإيمان لا يقوم إلا بكليهما معًا[1].

وتتزين فلسفة العمل في الإسلام فتظهر في أحسن صورة لها عندما يرى الله العمل ويشجع على إتقانه فيقول الله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ ﴾ (الكهف)، وضمن الله تبارك وتعالى الأجر للعاملين فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ (التوبة)، كما جاء عن السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ قول الرسول ﷺ: "إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملًا أن يُتْقِنه"[2]. فالعمل الدائب والمثابرة عليه مما يساعد على مضاعفة الإنتاج؛ ولذلك حث الإسلام على إتقان العمل والمثابرة عليه وتحمل أعبائه ومشاقه[3].

وجزاء إتقان العمل هو تحقيق الرفاهية للعاملين، ولغيرهم من أفراد أمتهم وتحريرهم من كل قيد ظالم أو استغلال مستبد، أما جزاء إتقان العمل في الآخرة، فهو المثوبة من الله بإجزال العطاء.

تعاليم الإسلام بشأن الحث على العمل:

إن إتقان العامل لعمله أهم وسيلة من وسائل الإنتاج، وعامل من أهم عوامل الازدهار، ويعتبر العامل في الوقت نفسه غاية للعمل تعود عليه ثمرته، وينعم بخيره بما ينتفع به من خدمات يقدمها إليه المجتمع في مختلف شئون حياته: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾ (فصلت).

وقد دعا الإسلام إلى زيادة الإنتاج، لذا فقد استعاذ النبي ﷺ من العجز والكسل؛ حيث قال: "اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والبخل والهرم، وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات"[4].

والمصطفى ﷺ لا يستعيذ بالله إلا من عظيم سيِّئ الأثر في حياة الأمة[5]. ونتحدث عن مجالات وصول الإنسان المسلم بالعمل إلى الرخاء:

١. الدين يطلق كل طاقات الإنسان إلى العمل والإنتاج[6]، وفي هذا تتعدد النواحي التي عُنِي بها الإسلام:

فهو يوصي المؤمن بأن يستعيذ من العجز والكسل ومن كل معوقات العمل، مادية ونفسية، كما جاء في الحديث.

طاقة الإنسان البدنية لا بد أن تُطلق وتستغل في مجالها النافع له ولمجتمعه، فرسول الإسلام محمد ﷺ يقول: "ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من

١. انظر: الإسلام في المعركة ضد الجوع، عطية صقر، ص٢٧: ٢٩.

٢. حسن: أخرجه أبو يعلى في مسنده، مسند عائشة رضي الله عنها (٤٣٨٦)، والبيهقي في شعب الإيمان، باب في الأمانات وما يجب من أدائها إلى اهلها (٥٣١٣)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٨٨٠).

٣. العمل في الإسلام، مقال منشور، د. محمد عبد الرحمن بيصار، مرجع سابق، ص٣٢.

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب ما يتعوذ من الجبن (٢٦٦٨)، ومسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء، باب التعوذ من العجز والكسل وغيره (٧٠٤٨).

٥. العمل في الإسلام، مقال د. محمد عبد الرحمن بيصار، مرجع سابق، ص٣١.

٦. الإسلام في المعركة ضد الجوع، عطية صقر، مرجع سابق، ص٢٣: ٢٥.

عمل يده"[1].

وطاقة الإنسان العقلية قد رفع الإسلام شأنها على نحو لافت، وقد خلَّدها القرآن الكريم في سياحة هادية خلال ملك الله العريض منذ أول آياته نزولًا وحتى الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ (فاطر: ٢٨).

رأس المال النقدي الذي يتجمع نتيجة الجهد الإنساني المبذول لا يرضى الإسلام بحبسه عن التداول، فإنه يبغض ذلك؛ لأنه يتكدس في أيدي فئة قليلة من الناس، الذين يكنزون الثروات في الخزائن.

كل هذه طاقات يباركها الإيمان الذي يجعل المؤمن أثبت قدمًا وأصلب عودًا وأطول نَفَسًا في جهاده المقدس، لا يلتصق بالأرض ولا يشمخ في السماء، لا يطغيه الفرح ولا تفجعه المصيبة، إن أصابته السراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته الضراء صبر فكان خيرًا له.

٢. الإسلام والاستفادة من كل الإمكانيات لزيادة الإنتاج:

لقد فتح القرآن الكريم عقول المؤمنين على الكون الكبير ليقرءوا كتابه، ويتدبروا أسراره، ويستلهموا حكمته في الزراعة والري ثم بقية المجالات فقد قال تعالى: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ (الرعد). وقال الله تبارك وتعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ (النمل).

بل يدفع الإسلام عجلة الإنتاج بكل قوة إلى آخر لحظة من الزمان؛ ففي حديث الرسول ﷺ: "إن قامت الساعة وبيد أحدكم فَسِيلة[2]، فإن استطاع ألَّا يقوم حتى يغرسها فليفعل"[3]. وهكذا يأمر الإسلام بغرس فسيلة النخل التي لا تثمر إلا بعد سنين، ولو كانت الدنيا بأسرها توشك أن تزول، وقد قال الرسول ﷺ: "ما من مسلم يغرس غرسًا أو يزرع زرعًا فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة"[4].

فعلى المؤمن أن يواجه الكون بكل طاقاته، بإيمانه وعقله وجهده[5].

٣. حقوق العامل وواجباته:

لقد رأينا أن الإسلام يُطالب العامل بإتقان العمل ويحذره من الإهمال، لكنه بجانب ذلك حرص كل

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده (١٩٦٦).

٢. الفَسِيلة: النخلة الصغيرة.

٣. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أنس بن مالك ﷺ (١٣٠٠٤)، والبخاري في الأدب المفرد، باب اصطناع المال (٤٧٩)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٩).

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المزارعة، باب فضل الزرع والغرس (٢١٩٥)، ومسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب فضل الغرس والزرع (٤٠٥٥).

٥. الإسلام في المعركة ضد الجوع، عطية صقر، مرجع سابق، ص٣١: ٣٣.

الحرص على حماية العامل من كل ظلم يقع عليه، كما حرص على رعايته، والعناية به صحيًّا وتدريبيًّا وفكريًّا وتثقيفيًّا؛ فقد أوجب الإسلام:

حق العامل في أن يأخذ أجره، ففي الحديث القدسي عن رب العزة تبارك وتعالى يقول فيه: "ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة.. ورجل استأجر أجيرًا فاستوفى منه ولم يُعْطِه أجره"[1][2].

بل أوجب الإسلام على صاحب العمل أن يَفِي للعامل بحقه كاملًا غير منقوص فَوْر الفراغ منه مباشرة، فيقول النبي ﷺ: "أعطوا الأجير أجره قبل أن يَجِفَّ عَرَقُه"[3].

كما كتب الإمام علي ﷺ إلى أحد ولاته يقول له: "أسبغ على عمالك الأرزاق، فإن ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم، وغنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم، وحجة عليهم إن خالفوا أمرك أو خانوا أمانتك".

ولم يَرَ الإسلام في العُمَّال أنهم مجرد تروس ماكينات أو آلات للإنتاج، فهم ليسوا دواليب تُدرُّ الثروة والنفع على كواهلهم لحساب غيرهم، فقد قرر حقوق الإنسانية كاملة للعامل، واهتم بالحفاظ على كرامته، فقد أمر الرسول باحترام إنسانية العامل ومعاملته بالعدل والترفق به، وعدم إرهاقه في العمل، وذلك في مثل قوله ﷺ: "إخوانكم خَوَلُكم[4]، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلِّفوهم ما يغلبهم، فإن كلَّفتموهم فأعينوهم"[5][6].

كما أن الدين الإسلامي يفرض على المجتمع أن يراعي طاقات أفراده، فيتعهد الإنسان بالتعليم والتدريب والتوجيه بما يرفع كفايته الفنية والإنتاجية، فطلب العلم فريضة، وهو حق للفرد وواجب عليه، والدولة تلتزم بتهيئة كل سبيل إليه.

رابعًا. الإيمان شرط لقبول العمل الصالح والجزاء عليه في الآخرة:

إنه مهما عمل الإنسان من أعمال الخير فلن تُقبل منه ولن يُجازى عليها في الآخرة بالثواب والنعيم المقيم في جنات الرضوان إلا إذا مات مؤمنًا بالله وحده لا شريك له وبدعوة نبيه ﷺ، حتى لو أتى بأعظم الأعمال الصالحة، وإنما هو يجازى على أعماله الصالحة في الحياة الدنيا، ولا يبخسه الله شيئًا، ولا يظلم ربك أحدًا.

ولو افترضنا احتمالية العلاقة بين الإيمان والعمل من الاقتران وعدمه، فنحن أمام الأمور الأربعة التالية:

- إيمان وعمل.

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب إثم من باع حرًّا (٢١١٤).

٢. نظرية تقويم الفرد وتنظيم المجتمع في الإسلام، محمد موسى عثمان، مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة، سلسلة البحوث الإسلامية، أغسطس ١٩٨٠م.

٣. صحيح: أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الرهون، باب أجر الأجراء (٢٤٤٣)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٨٧٧).

٤. الخَوَل: جمع الخائل، وهو الخادم.

٥. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب المعاصي من أمر الجاهلية ولا يكفر صاحبها (٣٠)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب إطعام المملوك مما يأكل، وإلباسه مما يلبس (٤٤٠٥).

٦. العمل في الإسلام، مقال د. محمد عبد الرحمن بيصار، مرجع سابق، ص٣٣.

- إيمان بلا عمل.
- عمل بلا إيمان.
- لا عمل ولا إيمان.

والإسلام لا يُقرُّ من ذلك كله إلا الأمر الأول، وهو وجوب اقتران العمل بالإيمان؛ حتى يجازى عليه الإنسان في الآخرة ويقبل منه، أما الإيمان بلا عمل فهو شيء لعله لا يتصور رأسًا؛ لأن العمل الصالح هو ثمرة الإيمان الموجود في القلب، ولا يصح أن يدعي أحد أن الإيمان قد وَقَرَ[1] في قلبه، ثم لا يظهر أثر ذلك على سلوكه وأعماله، بل يكون ادعاؤه باطلًا مجردًا من الحقيقة، أما العمل بلا إيمان فهذا هو حال الذين لم يؤمنوا بما جاء به خاتم الأنبياء، وهؤلاء يجزون على أعمالهم الصالحة في الدنيا، أي: ينالون ثوابهم في الحياة الدنيا، فأولئك قوم عُجِّلَت لهم حسناتهم في الدنيا، لكن في الآخرة ليس لهم أجر ولا ثواب؛ لأن أعمالهم افتقدت شرط القبول وهو الإيمان، قال تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾ (الفرقان)، أما عن عدم العمل وعدم الإيمان، فهذا ما لم يقلْ به أحد ولا هو مقبول في العقول ولا في النفوس.

وليس الإسلام بدعًا في ذلك، بل هو عام في العقائد والأديان السابقة للإسلام؛ فإن المشركين، مثلًا، اعتبروا الرسول ﷺ صابئًا لمجرد كفره بعقائدهم، ولم يبالوا بحسن معاملته لهم، فهل الإسلام سيقبل منهم العمل الصالح دون أن يؤمنوا بأول أركانه وأهمها وهو "شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله"، إن الذي يأخذونه على الإسلام يجده صاحب كل ملة حقًّا له، والإسلام ليس استثناء من هذه القاعدة.

إن الإيمان بالله ورسوله هو الذي يوجه العمل والسلوك التوجيه الصحيح، ويكسبه البقاء والدوام؛ لأنه ليس مرتبطًا بمكاسب عاجلة يزول بزوالها، ولكنه مرتبط بالأبقى والأخلد، وهو وجه الله وابتغاء رضوانه ولقائه: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾ ﴾ (الكهف)، والعمل القويم من غير رصيد إيماني سراب خادع، ﴿ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ ﴾ (النور: ٣٩).

إن التصورات الدينية بعامة تجعل جنة الآخرة قصرًا على معتنقي هذه التصورات في الدنيا، لا يشذ عن هذا مذهب أو فرقة، وليس ما نراه من تدافع ونزاع بين أصحاب الديانات المختلفة، والفلسفات والآراء الفكرية المختلفة إلا مظهرًا لاعتقاد أن الحقيقة واحدة، وأن الذين هُدُوا إليها هم أهل الحق في الدنيا وأهل النجاة في الآخرة، وليس الإسلام بدعًا في شيء من ذلك كله.

الخلاصة:

- الإيمان والعمل مترابطان متلازمان، وقد اهتم الإسلام بهما على السواء، أما ما يتخذه المشككون ذريعة للزعم أن الإسلام يُعنى بالإيمان أكثر من العمل، من كون الإسلام لا يقبل من لا يؤمنون بالله ورسوله، وإن كان سلوكهم قويمًا، فأي ملة تقبل من لا يؤمنون بعقائدها، وإن كان سلوكهم قويمًا! فمهما حَسُن عمل الإنسان فلن يدخل في الإسلام إلا بالإيمان بالله ورسوله، وإن كان عمله محمودًا ويجازى عليه في الدنيا.
- الإيمان بمعناه الشامل في الإسلام يتضمن التصديق بالقلب، والإقرار باللسان، والعمل

[1] . وَقَرَ: ثبت وبقي.

بالجوارح، وهذه الأركان لا ينفصل بعضها عن بعض، وهي بجملتها تصوِّر الإيمان الإسلامي السليم.

- اعتنى الإسلام بالعمل فجعله قيمة عليا تتشكل من خلالها كافة المبادئ والقيم، وذلك يظهر في جملة التعاليم التي وجَّه الإسلام إليها أتباعه.
- وجه الإسلام الإنسان لأن يبذل طاقته في التفاعل مع قوى الطبيعة، ليستخرج كنوزها، ويكتشف أسرار الله فيها، وجعل هذا سببًا للنجاة من العذاب والفوز بثواب الله ما دام قائمًا على إيمان صادق.

الشبهة الرابعة

ادعاء أن التمسك بالعقيدة الإسلامية رجعية(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المغالطين أن التمسك بالعقيدة الإسلامية رجعية، وأن الوقوف على ذلك نوع من الجمود والتخلف الحضاري، وأنه تعصب للموروثات القديمة، ويستدلون على ذلك بحال المسلمين الآن وواقعهم الأليم.

وجوه إبطال الشبهة:

1) العقيدة هي الجانب الغيبي الذي يُطْلَبُ الإيمان به؛ إيمانًا لا يرقى إليه الشك، ولها آثار واضحة في حياة المسلمين.

2) العقيدة الإسلامية عقيدة ثابتة واقعية إيجابية، تتمشى مع واقع الإنسان ومتطلبات وجوده، قال تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ (البقرة: ٢٨٦).

3) تمتاز العقيدة الإسلامية بالشمول والتوازن والوسطية، وبذلك تقضي على التعصب وتبطل دوافعه.

التفصيل:

أولا. معنى العقيدة وأثرها في حياة المسلمين:

أصل العقيدة في اللغة: من عَقَد الحبل، والبيع؛ أي: شدَّه، والعَقْد: العهد، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ ﴾ (المائدة: ١).

ومعناها: الحكم الذي لا يقبل الشك فيه لدى معتقده، **وتعريفها في الاصطلاح**: "الجانب النظري الذي يطلب الإيمان به - أولًا قبل كل شيء - إيمانًا لا يرقى إليه شك، ولا تؤثر فيه شبهة، ومن طبيعتها تضافر النصوص الواضحة على تقريرها، وإجماع المسلمين عليها من يوم أن ابتدأت الدعوة".

ومصدر العقيدة هو النص الديني الصحيح، المدعوم بالموافقة العقلية، والانسجام مع الفكرة الإنسانية؛ فضلًا عن الإجماع الإسلامي العام - منذ الجيل الأول وإلى يومنا هذا - على الأصول والكليات الكبرى المتفق عليها، فيما يتعلق بتلك العقيدة[1].

وللعقيدة الإسلامية آثار واضحة في حياة المسلمين

(*) دراسات في العقيدة الإسلامية، د. محمد أحمد الخطيب، د. محمد عوض الهزايمة، دار عمار، عمّان، ط٥، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م. القرآن وصحوة العقل، د. محمد محمد داود، دار المنار، القاهرة، ٢٠٠٤م. أصول العقيدة الإسلامية: دراسات وبحوث، د. محمد سلامة أبو خليفة، دار الهاني، القاهرة، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

1. دراسات في العقيدة الإسلامية، د. محمد أحمد الخطيب، ومحمد عوض الهزايمة، مرجع سابق، ص٩ وما بعدها.

إذا كانت ماثلة في أذهانهم، حاضرة في نفوسهم، حيَّة في قلوبهم. ومن آثارها أنها:

- **تحرر الإنسان من عبودية غير الله** وهذا يستوجب من الإنسان المسلم التحرر من كل ولاء لغير الله، والتمرد على كل قانون غير شرع الله، وهذا توجيه الخالق ﷻ ينبض بكل هذه المعاني؛ حيث قال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٨)﴾ (القصص)[١].

وقد وصف القرآن الكريم محمدًا ﷺ - وهو حامل لأوسع الرسالات وأعمها - بالعبودية لله في مقام الرفعة، فقال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾ (الإسراء: ١).

- **تحرر العقل من الأوهام والخرافات وتحفزه على التفكير الصحيح**: لقد اتجهت العقيدة إلى العقل، وعملت على تحريره من التقليد الأعمى، والخضوع للأفكار والعقائد والعادات الموروثة، وأقام الإسلام عقيدته على اليقين، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (٢٨)﴾ (النجم).

كما اتجهت إلى تحرير العقل من الأساطير[٢] والخرافات والأوهام والجهل والسلبية، قال تعالى: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (يونس: ١٠١).

- **الشعور بالعزة والكرامة والحرية**: يستمد المسلم هذا الشعور من عزة الله تعالى؛ حيث قال ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (المنافقون: ٨). والعقيدة الإسلامية تُطمئن الإنسان المسلم على رزقه وأجله، وقد تجلَّت هذه الطمأنينة في مواقف كثيرة، كموقف ابن تيمية؛ حيث قال ابن تيمية لمن زجَّ به من الحكام في السجن: "ماذا تصنعون بي؟ إن قَتْلِي شهادة، وإن سجني خِلْوَة، وإن نَفْيِي سياحة".

وخبيب بن عدي حين قال:

وَلَسْتُ أُبالِي حِيْنَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا

على أَيِّ جَنْبٍ كان في الله مَصْرَعِي

والعقيدة هي التي تحرر الإنسان في روحه وعقله، وتعطيه المجال الأرحب ليفكر ويبدع.

- **تغرس في نفس الإنسان المسلم الاستقامة**: تظهر آثار العقيدة الإسلامية الصحيحة عندما يلتزم المسلم بها؛ لأنه يستشعر تلك الصلة الدائمة مع خالقه، فيستحي أن ينحرف، ويحاول تطهير نفسه وشعوره وجوارحه من الآثام، فتصبح نفسه عند الالتزام بالعقيدة حساسة تحس بلسع المنكر والإثم حينما تستمع إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦)﴾ (ق).

- **تغرس في الإنسان روح التضحية والبذل والعطاء**: تجعل العقيدة الإسلامية الإنسان يستخلص أعزَّ ما يملك من النفس أو المال أو الولد في سبيل الله، ولعلنا نتذكر كلمة خالد بن الوليد لملك الروم: "أتيتكم بقوم يحبون الموت حبكم الحياة"[٣]! وهي العقيدة الإسلامية

---

١. المرجع السابق، ص١٢.

٢. الأساطير: جمع أسطورة، وهي الخُرافة أو الحديث الملفَّق الذي لا أصل له.

٣. أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ٥٤٨)، كتاب التاريخ (٣٣٧٢٩).

التي أخرجت حنظلة في ليلة عرسه إلى صفوف المجاهدين يوم أحد ليرتفع شهيدًا في سبيل الله.

والعقيدة الإسلامية هي التي جعلت امرأة من بني ذبيان تقول عندما أُخبرت باستشهاد زوجها وأخيها وأبيها: ماذا صنع رسول الله ﷺ؟ فقالوا: هو بخير، فقالت: أَرُونيه حتى أنظر إليه، فأشاروا لها إليه، حتى إذا رأته قالت: كل مصيبة بعدك يا رسول الله جَلَل"[1][2].

- **تكسب الإنسان روح الانضباط والمسئولية:** تؤدي العقيدة الإسلامية بالإنسان إلى أن يضبط سلوكه وفق أوامر الله وتوجيهاته، فتجعله سيدًا لنفسه، لا عبدًا لشهواته، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (١٠)﴾ (الشمس).

- **كما تجعله كذلك يُحس بالمسئولية؛ لأنه مُستخلَف** وصاحب رسالة عليه أن يقوم بواجبها، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣٠)، فما على الإنسان المسلم عند الإحساس بذلك إلا أن يضبط سلوكه، ويستشعر المسئولية حتى يؤدي رسالته، رسالة الخلافة في الأرض (رسالة الإسلام).

- **تبعث السعادة والطمأنينة، والأمن والراحة في نفس الإنسان المسلم:** في ظلال عقيدة الإسلام، يتذوق الإنسان طعم السعادة، التي يتمناها كل الناس، ويسعون إليها بكل جهد، وباتباع شتى الأساليب، وفي ظلها يبتعد عن الندم على ما فات، والقلق على ما هو آت، ولتحقيق هذه السعادة عليه الإقبال على كتاب الله تعالى، والعمل بما فيه من أوامر ونواهٍ، كل ذلك ليضمن السعادة في الدارين: الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧)﴾ (النحل).

والعقيدة الإسلامية تجعل الإنسان المسلم يعلم كل العلم أن المآب إلى الله ﷻ وأن ليس للإنسان إلا عمله، قال تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ (٤١) وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ (٤٢)﴾ (النجم)[3].

ثانيًا. العقيدة الإسلامية عقيدة ثابتة مستقرة:

إن هذه العقيدة هي التصور الربَّاني الكلِّي الثابت الذي تدور الحياة حوله، وهذا التصور مع ثباته في قيمه وأصوله، لا يعني تجميد حركة الفكر والحياة، وإنما يسمح بالحركة، بل يدفع إليها دفعًا، لكنها الحركة داخل نظام مستقر وأطر ثابتة.

فلم يمنع الإسلام من الاستفادة بالخبرات العقلية، والعلمية، والفكرية في نصرة العقائد الدينية، وتقديمها بالصورة اللائقة والمناسبة لكل عصر، لمخاطبة الإنسان في كل عصر بما يناسب عقله وإدراكه.

وعقيدة الإسلام عقيدة واقعية تتعامل مع المسلم

---

١. الجَلَل: الأمر الهيِّن.

٢. أخرجه البيهقي في دلائل النبوة، باب ما جرى بعد انقضاء العرب وذهاب المشركين في أمر القتلى (١١٩٣).

٣. دراسات في العقيدة الإسلامية، د. محمد أحمد الخطيب، ومحمد عوض الهزايمة، مرجع سابق، ص١٥.

وقدراته المحدودة، فلم تكلفه شططًا، ولم تعنته، ولم تأمره أن يعتقد محالًا، أو أن يؤمن بما لا يتوافق مع العقل، بل إن العقائد الإسلامية كلها جاءت لتعبر عن احتياجات النفس الإنسانية الواقعية للإيمان، فالإنسان يحتاج إلى الإيمان بالله وبوحدانيته؛ حيث نجد أن عقيدة التوحيد تتوافق مع نزوع النفس الإنسانية نحو الوحدة لما فيها من معاني السلام الداخلي، والأمان النفسي، والإنسان بحاجة إلى الإيمان باليوم الآخر؛ حيث تتحقق معاني العدالة التي قد يجدها مهدرة في حياته الدنيا.

والعقيدة الإسلامية عقيدة إيجابية؛ ذلك أنها تربط بين قلوب معتنقيها برباط الإيمان والمحبة والتراحم، وهو رباط لا يعدله أي رباط آخر، من جنس أو لغة أو قومية أو مصلحة مشتركة، فهذه العلاقات تظل سطحية لا تقوى أمام المحن والهزات الاجتماعية والاقتصادية، أما معاني الأخوة في العقيدة والوحدة الإيمانية فتحوِّل الكثرة إلى وحدة، والأثرة إلى إيثار، والفرقة إلى اجتماع، فوجودها سبب في علوِّ المجتمعات والأمم، فهي ليست خيالية يصعب تطبيقها، ولا تطلب من الإنسان فوق طاقته، قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (البقرة: ٢٨٦).

ثالثًا. تمتاز العقيدة الإسلامية بنظرتها الشمولية والمتوازنة للكون والحياة والإنسان:

فقد عرَّفت الإنسان تعريفًا كاملًا؛ أصله ونشأته وأطواره، وحياته وموته، وحياته بعد الموت، وما يرافق ذلك؛ حتى يقر به القرار، إما إلى الجنة وإما إلى النار، وكذلك تطرقت للكون أصله وظواهره والغاية منه، وامتاز هذا التطرق بتوازن في التعريف للحياة بشقيها: الدنيوي والأخروي، فبينت بحق حقيقة كل منهما، قال تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ (القصص: ٧٧).

الإسلام بعد ذلك عقيدة وسطية تحل بوسطيتها لغز المنادين أن لا إله والحياة مادة، ولغز المنادين بأكثر من إله لهذا الكون، فهي -كما يقرر د. محمد داود في مقال ضمنه كتاب "الإسلام وصحوة العقل" - لا مع هؤلاء ولا مع هؤلاء، فلا آلهة متعددة ولا إله معدوم، بل هي تنادي برب واحد، وهذا هو أساس التوحيد، قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ (الإخلاص)[1] ®.

وقد أبطل الإسلام كل دوافع التعصب وقضى عليها، ودعا إلى التسامح والتعاطف والتراحم والرفق، قال رسول الله ﷺ: "ما كان الرفق في شيء إلا زانه، ولا نُزع من شيء إلا شانه"[2]. وقد حارب الإسلام كل دوافع التعصب، ومنها الجهل، والاستسلام للعادات الضالة والتقاليد الفاسدة، والظلم والقهر وغياب العدالة، وسوء الفهم وقلة الوعي بالآخر، وكل ما يوقع الإنسان في التعصب.

---

١. المرجع السابق، ص١٦: ٢٣ بتصرف. وانظر: القرآن وصحوة العقل، د. محمد محمد داود، مرجع سابق.

® في **"شمولية العقيدة في الإسلام"** طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الرابعة، من الجزء السابع عشر (مرونة التشريع الإسلامي).

٢. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الرفق (٦٧٦٧).

الخلاصة:

- العقيدة الإسلامية هي التصور الإسلامي عن الكون والحياة والإنسان الذي يدين به المسلمون، وإنها - بما تشتمل عليه من معان سامية - لجديرة بأن تحرر الوعي الإنساني من سطوة الأوهام والأساطير، وتردُّه إلى فكرة سهلة بسيطة لا لبس فيها ولا تعقيد.
- ومن سمات هذه العقيدة أنها عقيدة واقعية؛ فهي - لذلك - تعالج مشكلات الإنسان علاجًا قريبًا يلائم قدرته ومشاعره، ولا يكلفه ما لا يطيق اعتقاده من الحالات والأحكام الممتنعة التي لا يسيغها عقله، وهي في جملة ذلك بمنأى عن التفريعات الذهنية وطرائق الجدل في عرض العقيدة.
- وهذه العقيدة - بعد ما تقدم - تنظر إلى الكون والحياة والإنسان نظرة شاملة متوازنة، وهو ما أضفى عليها طابع الوسطية التي تنبذ التعصُّب وتقتلع جذوره البعيدة.

الشبهة الخامسة

ادعاء تأثر العقيدة الإسلامية بعقائد البلاد المفتوحة(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض الحاقدين أن العقيدة الإسلامية تأثرت بثقافات وديانات البلاد التي فتحها المسلمون، وأنها لم تقْوَ على مقاومة هذه الموروثات التي كانت سائدة في ربوع تلك الأقطار؛ مما أنتج عقيدة مشوَّهة مرقَّعة بالبدع والخرافات والأساطير.

وجها إبطال الشبهة:

١) العقيدة الإسلامية عقيدة واضحة، وهي عقيدة الفطرة، وهي عقيدة وسطى ثابتة بالدليل والبرهان.

٢) لم تتأثر عقيدة المسلمين بموروثات وأساطير الأقطار التي فتحوها؛ لأنهم فتحوا هذه البلاد ليحرروا أهلها من الأساطير والأوهام والضلال.

التفصيل:

أولا. العقيدة الإسلامية عقيدة واضحة فطرية وثابتة بالدليل والبرهان:

إن من يدعي أن العقيدة الإسلامية ليست بالقوة الكافية لصدِّ تأثير الأساطير والموروثات الدينية التي كانت سائدة في البلاد والأقطار التي فتحوها، فإنه يجهل طبيعة تلك العقيدة الغراء وخصائصها، وما حمله على هذا الادعاء إلا جهله بعقيدة التوحيد التي تناهض وتناقض كل عقائد الشرك في جميع صوره، فكيف هي تناقض الشرك والإلحاد ثم تتأثر بهما؟ ثم كيف تستمر صافية كما هي طوال هذه القرون المديدة عبر التاريخ، ثم يقال: إنها عقيدة ضعيفة تتأثر بالموروثات الدينية من حولها؟ أليست هذه العقيدة التي بين أيدينا هي عقيدة التوحيد التي أنزلت على محمد ﷺ لم يتغير منها شيء؟ فكيف يُدَّعى أنها يمكن أن تتأثر بغيرها من العقائد المُحرَّفة الفاسدة؟ وكيف تنتشر هذا الانتشار السريع قديمًا وحديثًا وتسيطر على قلوب العباد ونفوسهم، ثم يأتي مدعٍ ويقول: إنها عقيدة ضعيفة يمكن أن تتأثر

(*) الإسلام في تصورات الغرب، د. محمود حمدي زقزوق، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

بغيرها من الموروثات الدينية للبلاد التي فتحها المسلمون؟

ولو افترضنا ـ جدلًا ـ أن عقيدة التوحيد يمكن أن تتأثر بغيرها، فما هو الجديد الذي جدَّ عليها وتأثرت به ولم يكن موجودًا فيها، ولم ينبه عليه العلماء الذين جعلهم الله حراس العقيدة وحماتها فينفون عنها كل زيغ وضلال وينقونها من كل بدعة وفساد؟

من أجل هذا بقيت عقيدة التوحيد نقية صافية خالصة حتى يومنا هذا، وذلك يعود لسببين:

أولهما: أن الله تعالى قيَّض لهذه العقيدة من العلماء من يصححها وفق منهج الكتاب والسنة كلما عَظُم الخطب أو اشتدت المحنة، كما حدث في محنة خلق القرآن وغيرها.

ثانيهما: عقيدة الإسلام تنفرد عن غيرها من العقائد بخصائص عديدة لا تتوافر لغيرها من العقائد فهي:

- **عقيدة واضحة**: بسيطة لا تعقيد فيها ولا غموض، تتلخص في أن وراء هذا العالم البديع المنسق المحكم ربًّا واحدًا خلقه ونظمه، وقدر كل شيء فيه تقديرًا، وهذا الإله أو الرب ليس له شريك ولا شبيه ولا صاحبة ولا ولد: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾﴾ (البقرة). وهذه عقيدة واضحة مقبولة، فالعقل دائمًا يطلب الترابط والوحدة وراء التنوع والكثرة، ويريد أن يرجع الأشياء دومًا إلى سبب واحد، فليس في عقيدة التوحيد ما في عقائد التثليث[1] أو الثَّنَوية ونحوها من الغموض والتعقيد الذي يعتمد دائما على الكلمة المأثورة عند غير المسلمين: "اعتقد وأنت أعمى"، وهي عقيدة الفطرة ليست غريبة عنها ولا مناقضة لها، بل هي منطبقة عليها انطباق المفتاح المحدد على قفله المحكم، وهذا هو صحيح القرآن الكريم قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (الروم). وصريح الحديث النبوي: "كل مولود يُولد على الفطرة ـ أي الإسلام ـ فأبواه يُهوِّدانه أو يُنصِّرانه أو يُمجِّسانه"[2]. فدل هذا الحديث على أن الإسلام هو فطرة الله، فلا يحتاج إلى تأثير من الأبوين، أما الأديان الأخرى من يهودية ونصرانية ومجوسية فهي من تلقين الآباء والأمهات.

- **عقيدة ثابتة**: لا تقبل الزيادة والنقصان، ولا التحريف والتبديل، فليس لحاكم من الحكام، أو مجمع من المجامع العلمية، أو مؤتمر من المؤتمرات الدينية، أن يضيف إليها أو يحوِّر فيها، وكل شيء مضاف أو محوَّر مردود على صاحبه، والنبي ﷺ يقول: "من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رَدٌّ"[3]. أي: مردود عليه، والقرآن يقول مستنكرًا: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟

1. التثليث: عند النصارى: القول بوجود ثلاثة أقانيم في الذات الإلهية: الآب والابن والروح القدس.

2. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين (١٣١٩)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة (٦٩٢٦).

3. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود (٢٥٥٠)، ومسلم في صحيحه، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور (٤٥٨٩).

﴿لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ (الشورى:٢١). وعلى هذا فكل البدع والأساطير والخرافات التي دُسَّت في بعض كتب المسلمين، أو أُشيعت بين عامتهم باطلة مردودة لا يقرها الإسلام، ولا تؤخذ حجة عليه.

• **عقيدة مبرهنة:** لا تكتفي من تقرير قضاياها بالإلزام المجرد والتكليف الصارم، ولا تقول كما تقول بعض العقائد الأخرى: "اعتقد وأنت أعمى"، أو: "آمن ثم اعلم"، أو: "أغمض عينيك ثم اتبعني"، أو: "الجهالة أمُّ التقوى"، بل يقول كِتابها صراحة: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ (١١١)﴾ (البقرة)، ولا يقول من علمائها ما قاله أحد القديسين الفلاسفة المسيحيين: "أُومن بهذا لأنه محال"! بل يقول علماء العقيدة الإسلامية: إن إسلام المقلِّد لا يُقبل". وكذلك لا تكتفي بمخاطبة القلب والوجدان، والاعتماد عليهما أساسًا للاعتقاد، بل تُتْبِع قضاياها بالحجة الدامغة، والبرهان الناصع، والتعليل الواضح، الذي يملك أزِمَّة العقول، ويأخذ الطريق إلى القلوب، ويقول علماؤها: إن النقل الصحيح لا يخالف العقل الصريح، فنرى القرآن في قضية الألوهية يقيم الأدلة في الكون ومن النفس ومن التاريخ على وجود الله وعلى وحدانيته وكماله. وفي قضية البعث يقيم الأدلة على إمكانه بخلق الإنسان أول مرة، وخلق السماوات والأرض، وإحياء الأرض بعد موتها، ويدلل كذلك على حكمته بالعدالة الإلهية في إثابة المحسن وعقوبة المسيء: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى (٣١)﴾ (النجم).

• **عقيدة وسط لا إفراط فيها ولا تفريط:** فهي وسط بين من ينكرون كل ما وراء الطبيعة مما لا تصل إليه حواسهم، وبين الذين يثبتون للعالم أكثر من إله، بل إنهم يحلون روح الإله في الملوك والحكام! بل يحلونها في بعض الحيوانات والنبات، مثل: الأبقار والأشجار! فقد رفضت الإنكار الملحد، كما رفضت أيضًا التحديد الجاهل، والإشراك الغافل، وأثبتت للعالم إلهًا واحدًا، لا إله إلا هو: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ (٨٩)﴾ (المؤمنون).

وهي عقيدة وسط في صفات الإله تعالى، فليس فيها الغلو في التجريد الذي جعل صفات الإله مجرد صفات سلبية لا تعطي معنى، ولا توحي بخوف أو رجاء - كما فعلت الفلسفة اليونانية - فكل ما وصفت به الإله أنه ليس بكذا وليس بكذا... من غير أن تقول: ما صفات هذا الإله الإيجابية؟ وما أثرها في هذا العالم؟ ويقابل هذا أنها خلت من التشبيه والتجسيم الذي وقعت فيه عقائد أخرى، كاليهودية التي جعلت الخالق كأحد المخلوقين من الناس، ووصفته بالنوم والتعب والراحة، والتحيز والمحاباة والقسوة وجعلته يلتقي ببعض الأنبياء - عليهم السلام - فيصارعه فيغلبه ويصرعه، فلم يتمكن الرب من الإفلات منه حتى أنعم عليه بلقب جديد!

ثانيًا. كيف تتأثر عقيدة المسلمين بموروثات وأساطير البلاد التي فتحوها، وهم ما فتحوا هذه البلاد إلا ليحرروا أهلها من هذه الأساطير والأوهام؟

وإذا كان المسلمون الأوائل أمام تحدٍّ وهم يجوبون العالم شرقه وغربه فاتحين، فهو تحدِّي تخليص العالم من عبودية العباد إلى عبودية رب العباد، وردِّ كرامة الإنسان إليه. والذي يوضح هذا ويبينه أوضح بيان قولُ ربعي بن عامر ﷺ في ردِّه على ملك الفرس قائلًا: "إنما ابتعثنا الله لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جَوْر الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة"[1].

والقرآن الكريم نزل على فترة من الرسل، اختلط فيها الباطل بالحق بين معتنقي اليهودية والنصرانية، فلم يكن بُدٌّ من تصحيح المسار الإنساني الديني بالقرآن الكريم الدائم والناسخ لبعض ما سبقه من الشرائع المخالفة له، فلقد جمع القرآن بين صفحاته كل العقائد السابقة مبينًا الحق منها والباطل، فصحَّح العقيدة، وكان ذلك من أجل خير الإنسانية عامة وبلاد العرب خاصة؛ حيث تكثر فيها الملل والديانات المتناحرة، وفي سبيل ذلك أخذ القرآن ينوِّع أسلوبه من الأسلوب الذي يناسب العامي، أي الأسلوب المحسوس البحت المجسم، إلى الأسلوب الذي يجمع بين المحسوس والمعقول الذي يخاطب أواسط الناس في الطبيعة العقلية، والذين لهم ملكات تؤهلهم لفهم المعقول ولكن بالتعانق مع المحسوس، ثم إلى الفئة الثالثة وهم أولو الألباب، وما يتناسب معهم من أدلة عقلية خالية من الحس، وهذه الفئة أعلى من سابقتيها في الملكات العقلية.

فلم يكن ظهور الإسلام في الجزيرة العربية أثرا مفاجئًا، بل كانت هناك مقدمات ممهدة له، هيأت النفوس لاستقباله؛ فقد انتهت العرب إلى حال شديدة من الفساد والضلال، الأمر الذي دفع بفريق منهم ومن أهل الكتاب إلى البحث عن دين أو معتقد بجوار المعتقدات السائدة التي أهمها عبادة الأوثان، ولقد عالج القرآن الكريم كل هذا من خلال:

١. إثبات وجود الخالق ﷻ على وجه مستمد من دليل الحس، لا يَبْعُد عما يشاهدونه من كائنات الطبيعة الحية كالأنعام التي يزعمونها، والصامتة كالجبال التي من حولهم؛ فينبِّه بذلك حواسهم وأذهانهم جميعًا في غير تعقيد ولا جدال، على نحو ما نجده في قول الله ﷻ: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾﴾ (الغاشية).

٢. والقرآن الكريم يُخَلِّص فكرة الألوهية من أي شرك وضلال، فبعد أن أثبت القرآن الكريم أن هناك خالقًا هو إله هذا الكون، بدأ في تنقية فكرة الألوهية، وفي سبيل ذلك تحدث عن معبودات لا تتصف بصفة الحياة؛ كالشمس في قصة سبأ، وقد حكى الله تعالى عن الهدهد قوله: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ

١. انظر: العقيدة الإسلامية وأثرها في حماية الفرد والمجتمع، د. فتحي إبراهيم منصور، دار البيان، القاهرة، ٢٠٠٦م.

﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾﴾ (النمل)، حيث يستنكر القرآن عبادة الشمس في هذه الآيات، وقد هدم القرآن الكريم عبادة الكواكب، كما ورد في قصة سيدنا إبراهيم مع قومه، إلى جانب اهتمام القرآن بإبطال عبادة الأصنام التي كانت منتشرة في جزيرة العرب، وكانوا لا يعدلون بها، فكانوا كلما اعتنقوا دينًا سرعان ما عادوا إليها، ولذلك تصدَّى القرآن الكريم للرد على تلك العبادة في أكثر من موضع[1].

وبهذا البيان اتضح أن عقيدة المسلمين لم تتأثر بموروثات وعقائد وأساطير البلاد التي فتحوها، بل إن هذا الفتح كان لتحرير أهل هذه البلاد من تلك الأساطير والأوهام، وكتب التاريخ الصحيحة تحتوي على ما يعضد هذه الحقيقة ويثبتها.

الخلاصة:

- للعقيدة الإسلامية مزايا عديدة لا تتوافر لغيرها من العقائد، فهي عقيدة واضحة بسيطة لا تعقيد فيها ولا غموض، كذلك هي عقيدة الفطرة، ليست غريبة عنها ولا مناقضة لها، كما أنها عقيدة ثابتة محدودة لا تقبل الزيادة ولا النقصان، ولا التحريف ولا التبديل، فليس لأحد ـ مهما كان ـ أن يُضيف إليها أو يُحوِّر فيها، وهي عقيدة مبرهنة لا تكتفي في تقرير قضاياها بالإلزام المجرد والتكليف الصارم، وإنما تأتي بالبرهان على ذلك، وهي أيضًا عقيدة وسط بلا إفراط ولا تفريط.
- لذلك لم تتأثر العقيدة الإسلامية بموروثات وعقائد وأساطير البلاد التي فتحوها، ولكنهم فتحوا البلاد ليحرروا أهلها من هذه الأساطير، ولقد أكرم الله من دخل في الإسلام بالتخلص من تلك الأساطير والأوهام بمجرد دخولهم في الإسلام.

1. المرجع السابق، ص٢٠، ٢١ بتصرف.

الشبهة السادسة

ادعاء التماثل بين مفهوم التقوى في الإسلام والرهبنة في النصرانية(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المشككين أن الرهبانية في بعض الأديان تعني التقوى في الإسلام، فالسمو في الآخرة في زعمهم لا يتحقق مع وجود هذا الجسد اللعين، ويتساءلون: إن كان هذا هو شأن الدين الإسلامي، فلماذا يتدخل في شئون الحكم ويحرص على الأمور الدنيوية؟!

وجوه إبطال الشبهة:

١) الإسلام ليس مجرد دين روحي، بل هو منهج حياة يسمو بالسلوك والأخلاق، ويتسم بالشمول، والعالمية، والصفاء الروحي.

٢) ليس في الإسلام رهبنة، ولكنه دين الوسطية عبادةً وتشريعًا، وهناك فرق بين وسطية الإسلام وإفراط الرهبنة وتطرفها.

٣) لا ينبغي أن نخلط بين الإسلام نفسه وما ظهر في تاريخه من بعض أصحاب المذاهب والأفكار

(*) مائة سؤال عن الإسلام، محمد الغزالي، نهضة مصر، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٤م.

المنحرفة التي لم تلتزم تعاليمه.

التفصيل:

أولا. الدين الإسلامي منهج حياة متكامل الجوانب:

إنَّ الإسلام بعقيدته الشاملة قد عرض لكل جوانب الحياة، فكان له دور على المستوى الفكري، والخلقي، والاجتماعي، والتعبدي، والعملي - فهو نظام شامل، يشمل كل مناحي الحياة، فهو دين ودولة، حكومة وأمة، علم وقضاء، ثقافة وقانون، قوة وعدالة، خلق ورحمة، جيش وفكرة، جهاد ودعوة، مادة وثروة، كسب وغنى، كما أنه عقيدة صادقة، وعبادة صحيحة سواء بسواء: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ (الأنعام)، فالإسلام يضع الأسس الاعتقادية لإنسان يعيش في الدنيا بنواحيها المختلفة، من سياسة، واقتصاد، واجتماع، وعمل.. وعينه تتطلع إلى الآخرة، لهذا كان التصور الإسلامي في مجال العقيدة هو التصور الوحيد الشامل الذي يكفل للإنسان توفير جميع احتياجاته على الأرض، وتطلعات نفسه نحو العالم[1].

وقد أحسن العقاد حين قال: إن الإسلام هو العقيدة المثلى للإنسان، منفردًا أو مجتمعًا، وعاملًا لروحه أو عاملًا لجسده، وناظرًا إلى دنياه أو ناظرًا إلى آخرته، مسالمًا أو محاربًا، ومعطيًا حق نفسه أو معطيًا حق حاكمه وحكومته، فلا يكون مسلمًا وهو يطلب الآخرة دون الدنيا، ولا يكون مسلمًا وهو يطلب الدنيا دون الآخرة، ولا يكون مسلمًا لأنه روح تنكر الجسد، أو لأنه جسد ينكر الروح، أو لأنه يصحب إسلامه في حالة ويدعه في حالة، ولكنما هو مسلم بعقيدته كلها مجتمعة لديه، في جميع حالاته، سواء تفرد وحده أو جمعته بالناس أواصر الاجتماع[2].

والعبادة في الإسلام هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأقوال والأعمال، الباطنة والظاهرة؛ فالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وصدق الحديث، وأداء الأمانات، وبر الوالدين وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجهاد الكافرين والمنافقين، والإحسان إلى الجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم، والدعاء، والذكر، والقراءة، وأمثال ذلك من العبادة، وكذلك حب الله ورسوله ﷺ وخشية الله والإنابة إليه، وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضا بقضائه، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف من عذابه، وأمثال ذلك هي من العبادة لله[3].

ولما كان الدين الإسلامي مشتملًا على مناحي الحياة بأسرها، والعبادة فيه تناولت كل حركات الإنسان المسلم وسكناته، فإن العقيدة الإسلامية قد تناولت كل القضايا الكبرى في هذا الوجود، والتي شغلت الفكر الإنساني ولا تزال تشغله وتلح عليه بالسؤال، وتتطلب الجواب الحاسم الذي يُخرِج الإنسان من الضياع والشك والحيرة، وينتشله من متاهات الفلسفات

١. انظر: أصول العقيدة الإسلامية، د. محمد سلامة أبو خليفة، مرجع سابق، ص٢٤ وما بعدها.

٢. مدخل لمعرفة الإسلام: مقوماته.. خصائصه.. أهدافه.. مصادره، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٣، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، ص١٥٦، ١٥٧.

٣. المرجع السابق، ص٦٨.

والنِّحَل المتضاربة قديمًا وحديثًا، وهى: قضية الألوهية، قضية الكون، قضية الإنسان، قضية النبوة، قضية المصير.

فإذا كانت بعض العقائد تُعْنَى بقضية الإنسان دون قضية الألوهية والتوحيد، أو بقضية الألوهية دون قضية النبوة والرسالة، أو بقضية النبوة دون قضية الجزاء الأخروي، فإن عقيدة الإسلام قد عُنِيَتْ بهذه القضايا كلها، وقالت فيها كلمتها، بوضوح شامل، وشمول واضح.

فهي - العقيدة الإسلامية - توصف بالشمولية؛ لأنها لا تجزئ الإنسان بين إلهين اثنين: إله الخير والنور، وإله الشر والظلام، كما هو عند المجوس، أو بين الله والشيطان، الذي سُمِّي في الأناجيل باسم: رئيس هذا العالم أو إله هذا الدهر، وانقسم العالم بينه وبين الله، فله مملكة الدنيا ولله السماء، فيوشك أن يكون عمله في نظر المسيحية مضارعًا أو مضاهئًا لعمل "أهريمان"، إله الظلام في المجوسية.

وتوصف بالشمولية أيضًا؛ لأنها لا تعتمد في ثبوتها على الوجدان أو الشعور وحده، كما هو شأن الفلسفات الإشراقية والمذاهب الصوفية، وكما هو شأن المسيحية التي ترفض تدخل العقل في العقيدة رفضًا باتًّا، بحيث لا تُؤْخذُ إلا بالتسليم المطلق، على حد قولهم: اعتقد وأنت أعمى، وهي كذلك لا تعتمد على العقل وحده، كما هو شأن جل الفلسفات البشرية، التي تعتمد على العقل - اعتمادًا كليًّا - في معرفة الله وحل ألغاز الوجود.

وإنما تعتمد على الفكر والشعور معًا، أو العقل والقلب جميعًا، باعتبارهما أداتين متكاملتين من أدوات المعرفة الإنسانية والوعي الإنساني، إن الإيمان الإسلامي الصحيح هو الذي ينبعث من ضياء العقل وحرارة القلب، وبذلك يُؤْتِي أُكُلَه في الحياة. وهي - العقيدة الإسلامية - عقيدة شاملة؛ لأنها لا تقبل التجزئة، ولا بد أن تؤخذ كلها بكل محتوياتها دون إنكار، أو حتى شك، في أي جزء منها، فمن آمن بتسعة وتسعين جزءًا، وكفر بجزء واحد لم يعد مسلمًا، فالإسلام يقتضي أن يسلم الإنسان قياده لله، ويؤمن بكل ما جاء من عنده[1] ®.

ثمرات التقوى في الإسلام:

١. تزكية النفس:

فللإيمان بالله ﷻ وبما أمر به أثر في النفس البشرية، يجعلها تترفع عن كل ما هو دنيء، وكل ما هو من قبيل الرذيلة، ويجعل النفس تحلق في آفاق السماء؛ لأنها لم تخلق لتركن إلى الأرض.

والعقيدة الإسلامية تزكي النفس، وتهذبها وتُخَلِّيها من كل الرذائل، وتُحَلِّيها بكل الفضائل، ولذلك جاءت الفرائض الإسلامية بأسرها ابتداء بالشهادة التي تطهر قلب الإنسان من كل خضوع لما هو دون الله ﷻ من آلهة مزعومة، والصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر،

---

١. المرجع السابق، ص١٥٧، ١٥٨.

® في **"شمولية العقيدة في الإسلام"** طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الرابعة، من الجزء السابع عشر (مرونة التشريع الإسلامي). وفي **"شمولية الإسلام لكل جوانب الحياة"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الرابعة، من الجزء السابع عشر (مرونة التشريع الإسلامي). والوجه الثاني، من الشبهة الرابعة، من الجزء الخامس (النظم الحضارية). وفي **"بُعد النصرانية عن واقع الحياة"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة الرابعة، من الجزء الثامن (مقارنة الأديان).

وهي صلة بين العبد وربه ينقطع فيها العبد عن كل شيء سوى الله تعالى، ويصعد بروحانيته، إلى أفاق السماء ليبعد عن هذه الأرض، فأي سمو بعد ذلك؟ وكذلك الزكاة أيضًا هي تزكية للنفس وطهارة للقلب من البخل والشُّحِّ، وكذلك فإن الحج غفران للذنوب ورفعة للأرواح، وتدريب على المرابطة في طاعة الله ﷻ ثم كانت الغاية من الصوم، هي التقوى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾ (البقرة)، وإلى آخر ذلك من الفرائض الإلهية، التي شرعت كلها من أجل الارتقاء بالجانب الروحي للإنسان بالدرجة الأولى.

وقد نبَّه النبي ﷺ إلى أثر الإيمان بالله على النفس الإنسانية، فقال: "ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًّا ورسولًا"[1]، وفي هذه المدرسة الروحية تخرَّج أصحاب رسول الله ﷺ بإخلاصهم وأخلاقهم النبيلة، التي كانت نتيجتها هذا المجتمع الصالح، والنموذج المثالي الفاضل، الذي لا نظير له في التاريخ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٢﴾ ﴾ (الجمعة).

٢. التحرر من عبودية الأنانية والشهوات:

فهذه العقيدة الربانية، حين تستقر في أعماق النفس، تحرر الإنسان من عبوديته لأنانيته وشهوات نفسه ولَذَّات حِسِّه، ومن الخضوع والاستسلام لمطالبه المادية ورغباته الشخصية؛ وذلك أنَّ الإنسان الرباني يوقفه إيمانه بالله تبارك وتعالى وباليوم الآخر موقفَ الموازنة بين رغبات نفسه ومتطلبات دينه، بين ما تدفعه إليه شهوته وما يأمره به ربه، بين ما يمليه عليه الهوى وما يمليه عليه الواجب، بين متعة اليوم وحساب الغد، أو بين لذة عاجلة في دنيا فانية وحساب عسير ينتظره في آخرته.

وهذه الموازنة والمساءلة جدير بها أن تخلع عنه نِير العبودية للهوى والشهوات، وأن ترتفع به إلى أفق أعلى من البهيمية والأنانية، أفق الإنسانية المتحررة التي تتصرف بوعيها وإرادتها، لا بوحي بطنها وفرجها وغريزتها الحيوانية[2].

ثانيًا. ليس في الإسلام رهبنة، ولكنه دين الوسطية في العبادات والشعائر:

الإنسان المسلم ليس راهبًا، بل هو إنسان عمل وإنتاج للحياة، يُعْطِيها كما يأخذ منها، ويعد عمارتها هدفًا من أهداف خلقه واستخلافه في الأرض: ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا ﴾ (هود: ٦١)؛ أي: طلب إليكم عمارتها، والأصل في الطلب الوجوب، وعمارة الأرض لا تنافي العبادة، بل هي - إذا استقامت على أمر الله تبارك وتعالى، وانضبطت بتعاليم شرعه - تصبح عبادة وقُرْبة إلى الله تعالى[3].

ووضَّح الرسول ﷺ أن: "ما من مسلم يغرس غرسًا، أو يزرع زرعًا، فيأكل منه إنسان، أو طير، أو

---

١. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا (١٦٠).

٢. مدخل لمعرفة الإسلام: مقوماته.. خصائصه.. أهدافه.. مصادره، د. يوسف القرضاوي، مرجع سابق، ص١٣٦.

٣. المرجع السابق، ص٧٣: ٧٩ بتصرف.

بهيمة إلا كان له به صدقة"[1]، وقال ﷺ: "إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة، فإن استطاع ألَّا يقوم حتى يغرسها فليفعل"[2].

وهذه هي الفسيلة التي لا تنتج إلا بعد عشرات السنين، إلا أن النبي ﷺ حثَّ على غرسها، سواء كان فيها نفع مرجوٌّ أم لم يكن.

والإنسان مُطالَب بالعمل، فهو عبادة وجهاد مقدَّس، ومن المعلوم عندنا ـ نحن المسلمين، بل في كل المِلَل والنِّحَل ـ أن الإنسان جسم وروح، وللجسم حظ ومتعة، وللروح حظ ومتعة، والإسلام يراعي الإنسان كله: جسمه، وروحه، وعقله، فهو في كثير من نصوصه يرفع عن الإنسان الحرج في التمتع بملاذ الجسم المعتدلة، ويأمره بالطيبات في مأكله ومشربه وملبسه ومسكنه، وفي حاجة نفسه من الزوجة والمال والولد، وينكر أشد الإنكار على من حرم على نفسه شيئًا من ذلك مع القدرة عليه[3].

والتقوى في الإسلام لا تعني بأية حال الرهبانية المعروفة في المسيحية وغيرها، فالتقوى ـ لغة واصطلاحًا ـ يتَّجه معناها نحو الخوف من الله والحرص على امتثال أمره واجتناب نواهيه، ومن ثم فالحكم على معنى التقوى في الإسلام بأنه هو الرهبانية المسيحية حكم بلا دليل، ودعوى بلا برهان، فإنَّ المعاني العامة التي تضمنتها آيات القرآن وأقوال النبي محمد ﷺ فيما يتعلق بمفهوم التقوى، وصفات المتقين تؤكد تأكيدًا واضحًا على أن التقوى قيمة لا يمكن تحققها من خلال العزلة والانسحاب من الحياة الاجتماعية العامة، فكيف يصبح الإنسان تقيًّا وهو يعيش وحده يعفي نفسه من فرص الاختبار الحقيقي لدينه وأمانته؟! كيف للمرء أن يدعي أنه صادق دون أن يخوض التجربة الحقيقية التي يقارن فيها بين المنافع الكثيرة العاجلة للكذب، والمضار الكثيرة المتوقعة من وراء الصدق؟!

كيف للمرء أن يدعي أنه زاهد في الحياة دون أن تكون لديه الفرصة المناسبة للتمتع بمباهجها فيُؤثر الآخرة ونعيمها على الدنيا ومتاعها؟! أما الفقير العاجز الذي لا يجد شيئًا من ذلك فلا يمكن أن يطلق على نفسه لقب الزاهد.

إن المعدن النفيس لا نستطيع الحكم على أصالته ونفاسته ما لم نعرضه للمحنة والابتلاء: ﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ (الأنفال).

أما القول بأن السمو الروحي لا يمكن أن يتحقق أو يتصور مع وجود الجسد بشهواته، فذلك زعم يحتاج إلى برهان؛ فالإنسان المخاطب بالتكليف الإلهي هو هذا الكيان المتكامل المكون من الجسد والروح، والتكاليف الشرعية لا يمكن لها أن تتحقق بروح دون جسد، ومن ثم فالدعوة إلى التخلص من الجسد وتعذيبه ينطوي على مبالغة ومعاندة للقانون الإلهي الفطري.

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المزارعة، باب فضل الزرع والغرس (٢١٩٥)، مسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب فضل الغرس والزرع (٤٠٥٥).

٢. انظر: منهج القرآن في بناء المجتمع، الشيخ محمود شلتوت.

٣. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أنس بن مالك ﷺ، والبخاري في الأدب المفرد، باب اصطناع المال (٤٧٩)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٩).

ثم هناك فرق بين التقوى في الإسلام بوسطيتها، وطُهْرها ونقائها، وبين رهبانية المسيحية بإفراطها وتزمتها؛ ومن ذلك:

- **العزوبة**: من أهم شروط الرهبنة في العقيدة المسيحية أن يكون الراهب عَزَبًا؛ إذ لا معنى للرهبنة مع وجود زوجة، ومعلوم أن المسيح عليه السلام لم يتزوج، ومن ثم تمسك هؤلاء المدَّعون بتلك الخصيصة في عيسى، وأقاموا على ذلك مذهبهم في الرهبنة.

وأمَّا التقوى في الإسلام فلا تمنع من الزواج مطلقًا، بل حث عليه الإسلام حثًّا أكيدًا، قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ (الروم).

وأكد ذلك رسول الله ﷺ في غير حديث، فقال ﷺ: "يا معشر الشباب، مَن استطاع منكم الباءة[1] فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وِجاء"[2][3].

ولما جاءه ثلاثة رجال يحكون له ﷺ حالتهم من الورع والتقوى، أو قل: الرهبنة والتَّزمُّت، فقال أحدهم للنبي ﷺ: إني أصوم ولا أُفطر، وقال الآخر: أما أنا فأقوم ولا أرقد، وقال الثالث: وأما أنا فلا أتزوج النساء، فقال لهم النبي ﷺ: "أمَّا أنا فأصوم وأفطر، وأقوم وأرقد، وأتزوج النساء، وهذه سُنَّتي، ومن رَغِب عن سنتي فليس مني"[4].

بل إن المرأة التي تُعَدُّ شيطانًا في نظر الرهبنة المسيحية كانت أحد الأشياء المحببة لقلب النبي ﷺ؛ إذ يقول: "حُبِّب إليَّ من الدنيا النساء، والطِّيب، وجُعِلَت قُرَّة عيني في الصلاة"[5].

فهذه هي نظرة الإسلام للمرأة باعتبارها نصف هذا المجتمع، والسكن الذي يأوي إليه الرجل بعدما يناله عنتُ النهار.

وكانت من المشاكل المستعصية على الكنيسة مشكلة زواج رجال الدين من غير الرهبان، وكانت الكنيسة من زمن بعيد تعارض زواج رجال الدين بحجة أن القس المتزوج يضع ولاءه لزوجته وأبنائه في منزلة أعلى بالنسبة للكنيسة، "وأنه سيحاول أن ينقل كرسيه أو مرتبته لأحد أبنائه، يضاف إلى هذا ـ كما هو مقرر عندهم ـ أن القس يجب أن يكون خالصًا لله وبني البشر، وأن مستواه الأخلاقي يجب أن يكون أعلى من مستوى أخلاق الشعب، وأن يكون على مستوى المكانة التي لا بد منها لاكتساب ثقة الناس وإجلالهم إياه، وذلك بإيجاب التَّبتُّل على رجال الدين وتطليق المتزوجين منهم، وكان بهذا الأمر أثر امتد إلى القرن السادس عشر، وانتهت بنجاح الكنيسة في منع رجال

---

١. الباءة: النكاح.

٢. الوِجاء: الحماية.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب من لم يستطع الباءة فليصم (٤٧٧٩)، ومسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه (٣٤٦٦).

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح (٤٧٧٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنة (٣٤٦٩).

٥. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أنس بن مالك رضي الله عنه (١٢٣١٥)، والنسائي في المجتبى، كتاب عِشْرة النساء، باب حُبِّ النساء (٣٩٣٩)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٨٠٩).

الدين من الزواج. وإذا كان هذا هو الحال مع رجال الدين من غير الرهبان، فكيف تكون الحال مع الرهبان أنفسهم[1] ®؟

- أمر آخر من شروط الرهبنة عند النصارى وهو التجرُّد الكامل من الدنيا، وقطع النظر عن كل ما فيها، والاكتفاء من الرزق بالكفاف، ونبذ كلِّ المطالب الجسدية حتى الضروريات الإنسانية منها: كالملبس والمأكل والنظافة والتنزه عن النجاسات، فإذا كانت المسيحية المحرفة تأمر الأفراد العاديين باحتقار الحياة، بل تعد ذلك من أولى الواجبات، فكيف تكون الحال مع الرهبان الزاهدين في الدنيا؟

أما الإسلام فلم يذمَّ الدنيا ذمًّا مطلقًا، ولكنه ذمَّ منها ما يشغل الإنسان عن الغاية التي خُلِقَ من أجلها، وهي عبادة الله ﷻ لأنه خلق كل شيء للإنسان وخلق الإنسان لعبادته ﷻ، فلا يتصور أن يشغل عن هذه الغاية السامية، بحطام لا بد أن يزول.

وأمَّا الدنيا من حيث كونها دنيا؛ فقد أمر الله ﷻ الإنسان بتعميرها: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود: ٦١)؛ أي: طلب إليكم تعميرها، والأصل في الطلب من الله ﷻ الوجوب، وقد أمر النبي ﷺ بعمارة الأرض كذلك، وقد تقدَّم حديث: "ما من مسلم يغرس غرسًا...". وحديث: "إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة...". وكانت سيرة النبي ﷺ شاهدًا عظيمًا على ذلك؛ إذ إنه عمل في رَعْي الغنم وفي التجارة. وفي المقام الثالث تأتي سيرة الصحابة الكرام، فنجد أبا بكر يعمل تاجرًا، وكذلك أبا عبيدة وعثمان وغيرهم.

- وأمَّا مبدأ **الاكتفاء بالكفاف من الرزق** عند الرهبان النصارى، فهو مبدأ منبوذ أيضًا؛ لأن الإسلام دين المعالي ودين السيادة، وليس دين الأديرة أو المساجد فحسب، وإن كانت المساجد هي أُولَى الدعائم التي يقوم عليها الإسلام، لكنه دين الأستاذية والقيادة، كما قال الرسول الأعظم ﷺ: "اليد العُلْيا خير وأحب إلى الله من اليد السفلى"[2].

وقال سعد بن أبي وقاص: كان رسول الله ﷺ يَعُودني عام حَجَّة الوداع من وجع اشتد بي، فقلت: إني قد بلغ بي من الوجع، وأنا ذو مال ولا يرثني إلا ابنة، أفأتصدَّق بثُلُثَي مالي؟ قال: "لا"، قلت: بالشطر؟ فقال: "لا"، ثم قال: "الثلث والثلث كبير - أو كثير - إنك أن تَذَرْ وَرَثَتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكفَّفون الناس، وإنك لن تُنْفِق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أُجِرْتَ بها، حتى ما تجعل في فِيِّ امرأتك"[3].

- وآخر هذه المبادئ وأشدها على النفس هو مبدأ **إهمال الذات** في أخصِّ الحاجات الإنسانية الضرورية؛ كالملبس أو المأكل أو النظافة، وهذا المبدأ بارز جدًّا في الرهبنة النصرانية، ولكن الإسلام قد نهى عن ذلك المبدأ نهيًا تامًّا، فقال الله ﷻ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ

١. مقال منشور بموقع سفر الحوالي على شبكة المعلومات.

® في **"مقاصد الزواج في الإسلام"** طالع: الوجه الرابع، من الشبهة الأولى، من الجزء التاسع عشر (أحكام الأسرة).

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب لا صدقة إلا عن ظهر غِنًى (١٣٦١)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب بيان أن اليد العليا خير من اليد السفلى (٢٤٣٣).

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب رثى النبي ﷺ خزامة بن سعد (١٢٣٣)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث (٤٢٩٦).

أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ (الأعراف: ٣٢).

والله تعالى جميل يحب الجمال، وأكثر الناس حرصًا على النظافة والجمال هم أقربهم لله ﷻ، وكان أكثرهم حرصًا على ذلك الرسول ﷺ، حتى قال: "من كان له شَعْر فليكرمه"[1]، فلماذا تتهمون الإسلام بالرهبنة؟

كذلك من شروط الرهبنة العبادة الدائمة، صلاة شبه دائمة، فإذا انتهى العابد من الصلاة ذهب إلى الترانيم والتراتيل وسائر الطقوس، فلا يكاد ينتهي من عبادة حتى يذهب إلى الأخرى، فإذا انتهى به الأمر إلى مبيته راح إليه منهوك الجسد يتخطفه النوم وهو في طريقه إلى فراشه.

إن الإسلام دين الوسطية الوحيد في العبادة والشعائر من بين سائر الأديان والنِّحل التي منها ما طلب الجانب الرباني - جانب العبادة والنسك والتأله - فَشُغِل بفلسفتها وواجباتها؛ كالبوذية - مثلًا - التي اقتصرت فروضها على الجانب الأخلاقي الإنساني وحده، ومنها ما طلب من أتباعه التفرغ للعبادة والانقطاع عن الحياة والإنتاج كالرهبانية المسيحية.

ولعل أبرز دليل نذكره هنا الآيات الآمرة بالصلاة وهي أعظم الشعائر الإسلامية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٩﴾ (الجمعة)، فهذا هو شأن المسلم مع الدين والحياة، حتى في يوم الجمعة: بيع وعمل للدنيا قبل الصلاة، ثم سعيٌ إلى ذكر الله وإلى الصلاة، وترك للبيع والشراء، وما أشبهه من مشاغل الدنيا، ثم انتشار في الأرض وابتغاء الرزق من جديد بعد انقضاء الصلاة، مع عدم الغفلة عن ذكر الله كثيرًا في كل حال، فهو أساس الفلاح والنجاح[2] ®.

ثالثًا. الخلط بين الإسلام وانحرافات بعض متبعيه:

لعلَّ الذي حدا بهؤلاء المدَّعين إلى القول بالرهبنة في الإسلام هو ما ظهر في بلاد الإسلام من المغالين والمتواكلين، فبعض هؤلاء اعتقد أن الصلاة والصوم والحج والزكاة عبادات العوام من الناس، وأمَّا هم فيسمون أنفسهم الخاصة، فعبادتهم عبادة خاصة وإن تشابهت في ظاهرها، وإذا كانت العبادة في الإسلام لتزكية النفس وتطهير المجتمع، فإن العبادة عندهم لربط القلب بالله ليتلقَّى عنه ﷻ مباشرة - حسب زعمهم - ثم الفناء فيه، ولا يَهُمُّ هذا الفريق أن تخالف شريعته شريعة الإسلام؛ فالحشيش والخمر واختلاط النساء بالرجال في الموالد وحلقات الذكر، كل ذلك لا يهم فإنه تلَقَّى تلك الشريعة - في زعمهم - عن الله ﷻ.

والعجب أن من مبادئهم التجرد عن الدنيا وهجر المال والأولاد، وتعذيب النفس والبدن بالسهر الطويل وعدم التزوج؛ لأن اتخاذ مثل هذه الأشياء، يعد سلوكًا

---

١. صحيح: أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الترجل، باب في إصلاح الشعر (٤١٦٥)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٧٧٠).

٢. مدخل لمعرفة الإسلام، د. يوسف القرضاوي، مرجع سابق، ص١٦٤، ١٦٥.

® في "موقف الإسلام من الرهبانية والكهانة" طالع: الوجه الرابع، من الشبهة الرابعة والعشرين، من الجزء السابع (الإيمان والتدين).

سلبيًا - في نظرهم - يؤدي إلى الفساد واختلال اليقين.

والظاهر أن تلك المبادئ جاءت من تأثير الفلسفات اليونانية والمذاهب الرهبانية النصرانية. وقد حملت هذه الطائفة من المسلمين المشككين في الإسلام، أو قل إن شئت استغل المشككون هذه الفرصة ليطعنوا في الإسلام بها، زاعمين أن الإسلام دين رهبنة، وأن التقوى في الإسلام - في زعمهم - ما هي إلا نسخة ثانية من الرهبنة النصرانية. ولكن الإسلام بمنأى عن كل هذه الخُزَعْبلات، فإنه جاء بمنهج حياة متكامل، وطريق يرسم الخطى للسير إلى الدار الآخرة رسمًا دقيقًا محددًا، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢)﴾ (الأنعام)، وقال: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ (٦١)﴾ (هود)®.

الخلاصة:

- الإسلام منهج حياة أو نظام شامل، يشمل كل مناحي الحياة؛ فهو دين ودولة، أو حكومة وأمة، وهو علم وقضاء، أو ثقافة وقانون، وهو قوة وعدالة، أو خلق ورحمة، وهو جيش وفكرة، أو جهاد ودعوة، وهو مادة وثروة، أو كسب وغنى، كما أنه عقيدة صادقة وعبادة صحيحة سواء بسواء.
- إن الغاية الكبرى من الفرائض الإسلامية هي تزكية النفس من الشح والبخل والحقد والضغينة، وكذلك السمو بالنفس لتنتشلها من الركون إلى الأرض إلى التحليق في فضاء السماء.
- التقوى توقِفُ الإنسانَ موقف الموازنة بين رغبات نفسه ومتطلبات دينه، بين ما تدفعه إليه شهواته وما تمليه عليه أوامر ربه، بين ما يميل إليه بهواه وما يفرضه عليه الواجب، بين متعة اليوم وحساب الغد، بين لذة عاجلة في دنيا فانية وحساب عسير ينتظره في آخرته، وهذه الموازنة جدير بها أن تخلع عنه العبودية للهوى والشهوات.
- الإسلام دعا إلى عمارة الأرض، ولم يرضَ للمسلم الرهبنة ولا مجافاة الحياة؛ لأنه جاء لتعمير الكون والعمل للآخرة معًا.
- للرهبانية شروط وأسباب لم يتحقق منها واحد في التقوى الإسلامية، ومن ثم فلا علاقة بين التقوى والرهبنة، ولا ينبغي أن نخلط بين ما جاء به الإسلام نفسه وما ظهر في تاريخه من مذاهب انحرفت عن تعاليمه، وخضعت لتأثير عقائد أخرى.

الشبهة السابعة

ادّعاء أن الإسلام لم يأت بجديد في عقيدة التوحيد (*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المشككين أن العرب قبل الإسلام كانوا يعرفون التوحيد، ولم يأت به الإسلام كما يدعي المسلمون، ويستدلون على ذلك بجمع الآلهة في الكعبة؛

® في "**أثر التصوف الفلسفي في تحريف العقيدة**" طالع أيضًا: الوجه الرابع، من الشبهة التاسعة، من الجزء الثامن (مقارنة الأديان).

(*) هل القرآن معصوم؟ عبد الله عبد الفادي، موقع إسلاميات.

مما يدل على تطلُّع العرب إلى عبادة إله واحد، وعلى هذا لا يكون للإسلام فضلٌ في الدعوة إلى عبادة إله واحد.

وجها إبطال الشبهة:

١) الواقع يخالف دعوى تطلع العرب إلى التوحيد في تلك الجاهلية، والدليل على ذلك احتفاظ العرب لكل إله منها باسمه الخاص وصورته الخاصة.

٢) عدم مبادرة قريش إلى الإيمان بدعوة النبي ﷺ أكبر دليل على كذب تلك الدعوى، بل على العكس من ذلك عارضوا تلك الدعوة ووقفوا لها بالمرصاد.

التفصيل:

أولا. جمع الآلهة في مكان واحد ليس دليل توحيد:

الواقع يخالف دعوى تطلع العرب إلى التوحيد في تلك الفترة فيما يتعلق بجمع الآلهة في الكعبة كدليل على ميلهم للتوحيد، فذلك مما يخالفه الواقع الملموس في تلك الفترة التاريخية، أفيمكن أن يغفل المؤرخون عن شيء كهذا، ولا سيما إبَّان الدعوة الإسلامية؟! لعلَّ العكس - في ذلك - هو الصحيح؛ فلم يُؤْثَر عنهم إلَّا أن أصنام العرب كانت معظَّمة لدى العرب كافة، ولو كان العرب حقًّا يتطلعون إلى توحيد الآلهة ألا يُوقِع ذلك بينهم التنازع والشقاق في أمر من يعبدونه من هذه الألهة؟! فهل سمع أحد عن هذا التنازع وذاك الشقاق؟!

ثم هناك حجة أخرى: أليس احتفاظ العرب لكل إله منها باسمه الخاص وصورته الخاصة دليلًا محسوسًا على أن فكرة إلغاء عبادتها والانصراف إلى عبادة الله وحده قول متهافت وضعيف؟! إن الأمر على خلاف ذلك، فإن الكفار على عهد النبي ﷺ كانوا يتعجبون من جعل الآلهة إلهًا واحدًا وما ذلك إلا لغرابته على عقولهم وبُعْدِه عنها، بل إن أحدًا في هذا الزمان لم يكن يقول بتوحيد الآلهة، وقد كشف القرآن عن حرص هؤلاء على عبادة آلهتهم: ﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَـٰقٌ ﴿٧﴾﴾ (ص).

ثانيًا. معاندة قريش ودلالتها على موقفهم من التوحيد:

إن البيت الحرام عند العرب في الجاهلية كان مُجتمَعًا لهم يَفِد إليه جميع ما تفرق من قبائلهم في صحراء الجزيرة؛ فلذلك نصَبوا حول الكعبة جملة ما تقدِّسه القبائل، ثم صنوف التماثيل والأوثان، وذلك آكد على ميلهم إلى إرضاء نزعة التعدُّد، لا على أنهم شرعوا ينزعون إلى ما يشبه التوحيد على الوجه الذي جاء به الإسلام.

على أن الإسلام صريح في أن دعوة التوحيد هي فحوى ما بعث به الأنبياء جميعًا، فهي دعوة أصلية في الأمم التي سبقت إليهما دعوة الأنبياء، فمعرفة العرب لأصل قضية التوحيد في جانب الألوهية - على تقدير وجود هذه المعرفة - لا يقدح في الإسلام من أي وجه، لا سيما وهؤلاء العرب قد بقيت فيهم بقية من دين إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام.

وعدم مبادرة قريش إلى الإيمان بدعوة رسول الله ﷺ أكبر دليل على كذب تلك الدعوى، وإذا كان

الأمر كما يقولون، فلماذا لم يكونوا أسرع الناس إليه؟! إذ إن ذلك - في موافقته لما كانوا يتطلعون إليه - كان بمقدروه أن يُطَمْئِنَهم إلى صاحب الدين الجديد الذي جاء ليحقق حلمًا كانوا يتطلعون إليه على حد زعمهم؟!

لقد أحاط كفار مكة الكعبة المشرفة بالعشرات من أصنامهم وأوثانهم المختلفة حتى وصل عدد تلك الأصنام والأوثان إلى أكثر من ثلاثمائة وستين صنمًا ووثنًا، ومنها الأصنام الكبيرة؛ كهُبَل واللَّات والعُزَّى ومَناة ووُدٍّ ومناف وسعد وقُزَح ونَسْر وقيس وإساف ونائلة.. فضلًا عن غيرها من الأصنام والأوثان المعبودة في خارج مكة، كما هو الحال في الطائف ويثرب؛ فنجد نخلة وقضاعة وسعد ودومة الجندل وغيرها. ومن ثم كان غالبية سكان الجزيرة يؤمنون بآلهة كثيرة، ويتوجهون إليها بالتضرع والعبادة والطلب والدعاء، وذلك على الرغم من إيمانهم بالله تعالى ربًّا وخالقًا، زاعمين أن الطريق إلى الله لن يكون موصلًا إلا من طريق تلك الأصنام التي دعوها آلهة مع الله أو بنات الله تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ (٥٧) ﴾ (النحل)، فهم يعبدون الأصنام تقرُّبًا إلى الله تعالى: ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ (٣) ﴾ (الزمر)، ويرونهم شفعاءهم عند الله ﷻ: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٨) ﴾ (يونس).

وعلى الرغم من أن دعوة الإسلام إلى التوحيد جاءت متوافقة مع البقية الباقية من دعوة الخليل إبراهيم عليه السلام إلى عبادة الله الواحد الأحد، التي تمثلت في قلة من الحنفاء الذين نبذوا عبادة الأصنام؛ كأُميَّة بن أبي الصَّلْت، وزهير بن أبي سُلْمَى، وقُسِّ بن ساعدة، وأَكْثَم بن صَيْفِي، وزيد بن عمرو بن نُفَيل الذي ما برح يكرر بين أهل مكة: "إلهي هو إله إبراهيم، وديني هو دين إبراهيم"، وذلك فضلًا عن اتفاق تلك الدعوة الإسلامية إلى التوحيد مع أصل الديانة اليهودية والمسيحية إلى عبادة الله الواحد الأحد - على رغم ذلك كله فإن تلك الدعوة لقيت صدودًا كبيرًا من عبدة الأصنام الذين قامت حياتهم وتجارتهم على هذا النمط من الحياة الدينية والاجتماعية.

لقد سجَّل القرآن الكريم في كثيرمن آياته المواقف الحادة المعادية التي اتخذها المشركون من عقيدة التوحيد والدعوة إليها، فهي في رأيهم عقيدة تستحق التعجب والاستنكار؛ فكيف تصبح الآلهة الكثيرة إلهًا واحدًا: ﴿ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٤) أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (٥) ﴾ (ص)، ومن ثم قابلوها باستكبار شديد: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) ﴾ (الصافات)، فضلًا عن الاشمئزاز والإعراض والعناد والإصرار على الشرك وعبادة الأصنام، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٥) ﴾ (الزمر)، وقوله

تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ ﴾ (الزمر)، ﴿ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ ﴾ (ص).

ومن خلال تلك الصورة التي رسمتها نصوص القرآن الكريم، وكذلك الواقع الديني والاعتقادي لعبدة الأصنام في جزيرة العرب في عصر النبوة ونزول الوحي يتضح استحالة القول بأن العرب كانوا يميلون من خلال جمع الأصنام في الكعبة نحو فكرة التوحيد، ويتطلعون بذلك إلى عبادة الله وحده.

الخلاصة:

- الأمر الواقع في زمن البعثة النبوية أن العرب كانوا آخذين بفكر التعدُّد في جانب الألوهية، وكانوا يصرفون إلى هذه الآلهة العديدة صنوف العبادات والمناسك، وألوانًا من التقديس والتعظيم، وهذا هو قلب العبودية وجوهرها؛ ومن ثم لم تنفعهم دعواهم أنهم إنما يعبدونها لتقربهم إلى الله زُلْفَى[1]، فذلك القول المتناقض الذي يصل إلى توحيد الله تعالى باتخاذ شركاء له.

- موقف عرب الجاهلية من دعوة النبي ﷺ إلى التوحيد يحدِّد - في وضوح، أن الكثرة المطلقة منهم كانت بمعزل عن الوحدانية والنزوع إليها أو التفكير فيها، وإذن لم تَلْقَ الدعوة الإسلامية ما لاقته من عَنَتٍ وصدود.

---

١. الزُّلْفَى: القُرْبَى أو المنزلة أو المكانة.

الشبهة الثامنة

الزعم أن القرآن يقرُّ عقيدة الفِداء النصرانية (*) ®

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المغالطين أن العقيدة الإسلامية تُقرُّ عقيدة الصلب والفداء النصرانية، ويستدلون على ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾ (الصافات).

وجها إبطال الشبهة:

١) عقيدة الفداء النصرانية غير مقبولة عقلًا، والقرآن الكريم ينفي قتل عيسى عليه السلام أو صلبه.

٢) إن فداء الله عز وجل لسيدنا إسماعيل بذبح عظيم هو فداءُ جزاءٍ على طاعة إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - لله، وليس فداء تكفيرٍ عن خطيئة ارتُكبت.

التفصيل:

أولا. موقف القرآن من عقيدة الصلب النصرانية:

تقرر المسيحية أن عيسى عليه السلام ظل مصلوبًا حتى مات، وأنه تحمل الآلام ليمسح بدمه خطيئة آدم التي ارتكبها في الجنة بأكله من الشجرة المحرمة؛ فكيف قبل الإله وهو ابن الإله - بزعمهم - أن يصلب ويعذب هكذا؟ أليس للإله قدرة يدفع بها عن نفسه؟

وقد جاء في القرآن الكريم - غير مرة - أن آدم تاب

(*) مواجهة صريحة بين الإسلام وخصومه، د. عبد العظيم المطعني، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م. محاور الالتقاء ومحاور الافتراق بين المسيحية والإسلام، غسان سليم سالم، دار الطليعة، بيروت، ط١، ٢٠٠٤م.

® في **"عقيدة الصلب والفداء"** طالع: الشبهة الثالثة والتسعين، من الجزء العاشر (الأنبياء والرسل٢).

إلى الله ﷻ من خطيئته، فتاب الله تعالى عليه، وذلك كما وَكَز[1] موسى عليه السلام رجلًا مصريًّا فقضى عليه، ثم قال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦)﴾ (القصص).

وباب التوبة مفتوح دائمًا لكل مذنب، وهذه رحمة الله ﷻ وإذا كان المسيح من أبناء آدم، فما مسئوليته عن خطيئة لأبي البشر جميعًا؟ ولماذا يكون عيسى عليه السلام هو الذي يمحوها من بين ملايين البشر؟

وإذا كان عيسى ابن الله، فما ذنب ابن الله حتى يقتل نفسه لخطيئة ارتكبها واحد من مخلوقاته أو مخلوقات أبيه كما يزعمون؟ وتقصُّ الأناجيل أن عيسى عليه السلام لم يكن يريد أن يُقْتَل، وأنه دافع عن نفسه أمام بيلاطس، وأن محاكمته كانت على ادعائه أنه ملك اليهود - حسبما وَشَي به أعداؤه - فلو أنه كان قد صُلِب ليمسح خطيئة آدم لقدَّم نفسه طائعًا دون محاكمة، ولَمَا دافع عن نفسه وطلب النجاة!

ثم إنا نجده قبل ذلك مع تلاميذه يبيت خائفًا وجلًا أن يقبض عليه جند الرومان، بل ويعاتبهم على أنه يسهر وينامون، ونجده يتنقل من مكان إلى مكان؛ كي يخدعهم ويفلت منهم، ولو أنه كان يريد محو خطيئة آدم ما تردد، ولا تهيب الصلب أو حاول الإفلات منه؛ لأنه إنما جاء بإرادته لهذا العمل المزعوم.

ومن المغالطة الواضحة القول بأن الله ﷻ لم يتب على آدم؛ لأن الله هو التواب الرحيم، ولكن بعض هؤلاء أصرَّ على إلصاق الخطيئة بآدم وغلق باب التوبة أمامه، ثم تمادوا فجعلوا حبل الخطيئة معلقًا في أعناق ذريَّته إلى مجيء المسيح عليه السلام؛ كي يُصْلَب من أجل غفران هذه الخطيئة وفداء البشرية.

وكتبهم ذاتها تعلن بأن كل من صلب على خشبة فهو ملعون®!! وقد نفى القرآن أن يكون المسيح عليه السلام قد صلب أو قتل، بل رفعه الله إليه، وبين القرآن أن هناك حادث صلب قد وقع، ولكن لم يقع للمسيح، بل لشبيه له آخر. قال تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ (النساء: ١٥٧).

وإذا كان حادث صلب المسيح وقتله - في حد ذاته - أسطورة لم تقع أصلًا، فإن ما يترتب عليه من قولهم: ابن الله الفادي، أو المُخلِّص لأبناء آدم من خطيئة أبيهم، هو أسطورة وخرافة لا تصح ولا تعقل، ولا أساس لها.

إلى جانب أنها - عقيدة الفداء - تنفي المسئولية الشخصية، فكيف يرتضيها الله ﷻ لكي تكون سنته في التعامل مع البشر؟ إن هذا الاعتقاد الخاطئ يتناقض مع قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (٣٨) وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (٣٩)﴾ (النجم).

لا ريب أن فكرة الصلب، والفداء لا تخضع لمنطق، ولا يقبلها عقل، فهل من المعقول أن يحب الله البشر الخطاة أكثر من حبه للمسيح البار، فيضحي به من أجلهم؟! وهل من العدل أن يعذبه ويقتله من أجل ذنب لم يقترفه؟

لقد نفى القرآن الكريم مسألة الصلب في قول الله

---

1. وَكَز: لَكَم أو ضرب.

® في **"بطلان عقيدة الصلب والفداء بنصوص الإنجيل"** طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الثالثة والتسعين، من الجزء العاشر (الأنبياء والرسل٢).

تعالى: ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا (١٥٧) بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٥٨) ﴾ (النساء).

ثانيًا. فداء إسماعيل وما يرشد إليه:

إن استدلال بعضهم بقول الله تعالى: ﴿ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) ﴾ (الصافات) على إقرار القرآن الكريم لعقيدة الفداء النصرانية لهو استدلال خاطئ، فالنصارى يرون - في عقيدتهم - أن المسيح قدم نفسه فداء للبشرية من خطيئتها الموروثة من لدن آدم، فَلِمَ لا يكون فداء إسماعيل - الذي سبق فداء المسيح المزعوم - تكفيرًا للبشرية عن خطيئتها الموروثة من لدن آدم؟!

ولماذا اختص المسيح عليه السلام بذلك إن كان هناك إقرار بعقيدة الفداء؟

إن القرآن الكريم يقرر أن من يعمل مثقال ذرة خيرًا يره - يوم القيامة وربما في الدنيا أيضًا - وأن من يعمل مثقال ذرة شرًّا يره - يوم القيامة وربما في الدنيا أيضًا، كما يقرر أنه لا تزر وازرةٌ وزر أخرى.

وبهذه التوجيهات الصائبة الحكيمة رفع الإسلام عن كاهل البشر عبء الخطيئة الأولى، رابطًا مصير الإنسان الفرد بمدى إيمانه بالله تبارك وتعالى وتسليمه له، وبعمله صالحًا كان أو غير صالح، وبالتماسه الغفران من الله بالصدقة، والزكاة، وتقديم الأضحيات من الحيوانات بحسب ما تقره الشريعة.

إن فداء إسماعيل بذبح عظيم هو مكافأة من الله عز وجل للنبيَّيْن الكريمين الخليل إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - على صبرهما واستسلامهما لأمر الله عز وجل، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (١٠٥) ﴾ (الصافات)؛ فقد اجتازا - عليهما السلام - الابتلاء بصبر واستسلام واحتساب، فأثبتا معًا بهذا أنهما مسلمان حقًّا.

فما أبعد الفارق بين هذا الحدث الذي سجله القرآن الكريم؛ ليكون نموذجًا لإسلام الوجه لله والصبر على البلاء واجتياز المحن، وبين عقيدة الفداء النصرانية التي لا يقبلها عقل ولا يقرُّها دين[1].

الخلاصة:

- إن عقيدة الفداء - عند المسيحيين - لا يقبلها عقل، ولا يقرها دين، ولقد حاول القائلون بمبدأ الخطيئة والتكفير أن يجدوا حلًّا منطقيًّا للجمع بين عدل الله ومحبته؛ فخرجوا بفكرة الإنسان السماوي الذي يموت - بلا ذنب اقترفه - ليحمل عن الناس آثامهم، وهذا أمر لا يقبله عقل سليم سَوِي. ولقد نفى الإسلام واقعة قتل المسيح وصلبه من أساسها، قال تعالى: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ ﴾ (النساء: ١٥٧)، فلا يعقل أن ينفي الحدث من أصله، ثم يثبت نتيجته أو المترتب عليه وهو الفداء المزعوم عند المسيحيين.
- إن فداء الله تعالى إسماعيل عليه السلام بذبح عظيم جاء مكافأة من الله عز وجل لإبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - على صبرهما واستسلامهما لأمر الله، فما أبعد الفارق بين

---

١. انظر: المسيحية بين التوحيد والتثليث وموقف الإسلام منها، د. عبد المنعم فؤاد، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م. رد مفتريات على الإسلام، د. عبد الجليل شلبي، دار القلم، الكويت، ط١، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

هذا الحدث الذي سجله القرآن الكريم؛ ليكون نموذجًا لإسلام الوجه لله تعالى، وبين عقيدة الفداء النصرانية التي لا يقبلها عقل ولا يقرُّها دين؟!

الشبهة التاسعة

ادعاء اقتباس الإسلام من بعض النساطرة(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المشككين أن العقيدة الإسلامية قد استوحاها الرسول ﷺ من النساطرة الذين كانوا مقيمين بشبه الجزيرة العربية قبل الإسلام، وأن الراهب بحيرا النسطوري الذي قابل محمدًا ﷺ في إحدى الرحلات هو الذي لقَّنه القرآن الكريم، وتعاليم الإسلام التي لم يلبث محمد ﷺ أن زعمها وحيًا يوحى إليه من السماء.

وجوه إبطال الشبهة:

١) النسطورية - في بدايتها - كانت دعوة للرجوع إلى المسيحية الحقة التي جاء بها المسيح، ثم انحرفت النسطورية بعد ذلك عن تعاليم مؤسسها نسطور.

٢) كان رسول الله ﷺ أميًّا، لا يقرأ ولا يكتب، كما أنه لم يكن يخالط أهل الكتاب، وكان ينهى عن مشابهتهم أو سؤالهم.

٣) القرآن الكريم بما اشتمل عليه من وجوه الإعجاز يسمو عن أن يكون من قول البشر.

٤) قصة لقاء النبي ﷺ ببحيرا الراهب في رحلته إلى الشام ليس فيها ما يشير إلى أخذه ﷺ عنه شيئًا يمس دعوته.

٥) ليس ما عرفه بحيرا من أمر النبوة في محمد ﷺ إلا جانبًا مما كان يردده أهل الكتاب في جزيرة العرب عن قرب النبي الخاتم.

٦) إن ظهور النبي ﷺ تصديق للأنبياء السابقين وشهادة لنبواتهم بالصدق، ولو لم يظهر محمد بن عبدالله بالنبوة والرسالة ما وصلتنا أخبار غيره من الأنبياء.

التفصيل:

أولا. انحراف النسطورية عن تعاليم المسيح:

تُعْزَى النَّسْطورية إلى بَطْرِيَـرْك[1] القسطنطينية نسطور الذي يعتقد أن المسيح الذي ظهر بين الناس لم يكن إلهًا بحال من الأحوال، ولكنه مبارك بما وهبه الله من آيات وتقديس؛ ولذلك جاء في تاريخ الأمة القبطية عن نِحْلَته ما نصُّه: "أما هَرْطَقَة نسطور هذه فلم تكن كغيرها نشأت عن اختلاف في عقائد وضعها الآباء والأحبار، بل هي جوهرية تختص بأعظم موضوعات الإيمان والأركان في الدين المسيحي؛ ذلك أن نسطور ذهب إلى أن ربنا يسوع المسيح لم يكن إلهًا في حد ذاته، بل هو إنسان مملوء من البركة والنعمة، أو هو مُلْهَم من الله، فلم يرتكب خطيئة، وما أتى أمرًا إدًّا".

على هذا التخريج يكون نسطور لا يعتقد بألوهية

(*) شبهات المعترضين ومفترياتهم حول صدق نبوة محمد ورسالته، ماهر عبد الوهاب محمد حجاج، الاتحاد الأخوي، القاهرة، ١٩٩٨م. دفاع عن السنة، د. محمد محمد أبو شهبة، مكتبة السنة، القاهرة، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

١. البَطْرِيَرْك أو البَطْرِيك: لقب يُطلق في المسيحية على رئيس رؤساء الأساقفة على أقطار معينة أو في طائفة من الطوائف.

المسيح، وإن كان يعتقد أنه فوق الناس وليس مثلهم، ولقد جهر بهذا الرأي ونادى به، وهو رئيس لكنيسة القسطنطينية، ولها مكانتها، ولكن خالفه غيره من الأساقفة، فكان أسقف روما يلعنه برأيه المخالف له، مع ماعند نسطور فيما رآه من بينات وأدلة. ولقد بلغت مقالة نسطور بطريرك الإسكندرية وجرت المراسلات بين أسقف الإسكندرية وأساقفة أنطاكية ورومة وبيت المقدس، فاتفقوا على عقد مجمع أَفَسُس للنظر في هذا الرأي، وإعلام صاحبه بالتبرؤ منه ولعنه إن أصر على رأيه، ودَعَوْه ليسمع حكمهم في رأيه، ويظهر أنه عرفه قبل أن يجتمع المجمع، وأنهم مصرون على ما أعلنوه، كما أنه مُصِرٌّ على رأيه، فلم يجد كبير فائدة في المجمع فلم يحضر لا هو ولا بَطرِيَرْك أنطاكية.

وبهذا يتبين أن النسطورية تعتبر محاولة للرجوع إلى أصل النصرانية الحقة التي جاء بها المسيح، بعد أن ضلت عنها أغلب طوائف النصارى، ولا عجب فالنصرانية ملة تباينت واختلفت في ربها ومعبودها

يقول الإمام ابن القيم: وأما خبر ما عندكم أنتم فلا نعلم عن أمة أشد اختلافًا في معبودها ونبيها ودينها منكم، فلو سألت الرجل وامرأته وابنته وأمه وأباه عن دينهم لأجابك كل منهم بغير جواب الآخر، ولو اجتمع عشرة منهم يتذاكرون الدين لتفرقوا على أحد عشر مذهبًا[1].

لكن النسطوريين قد انحرفوا عن مبادئ نسطور؛ لأن نسطور ـ كما قررت صاحبة كتاب "تاريخ الأمة القبطية"، وكما قرر ابن البطريق ـ لا يرى أن الأُقْنُوم[2] الثاني مازج المسيح قط، بل يرى أن بنوة المسيح بالموهبة والمحبة لا بالحقيقة، واستنبطنا كما استنبط غيرنا أنه يرى أن المسيح خالٍ من العنصر الإلهي خلوًّا تامًّا، وهو يصرح بأن مريم ولدت الإنسان فقط، بينما غيره يقرر أنها ولدت الإله والإنسان، وهذا اختلاف جوهري في الحقيقة والمعنى، لا في الشكل واللفظ، وإذا كان النسطوريون في هذا الزمان قد قالوا بامتزاج اللاهوت في الناسوت[3] كما يقول غيرهم، فقد انحرفوا عن مقالة نسطور[4]، وصاروا مثل المَلَكِيَّة[5] واليعقوبية[6]، إلا أنهم اختلفوا في كيفية الاتحاد، وفي الذي وقع عليه الاتحاد.

وقد انتشرت هذه النسطورية المحرَّفة في بلاد المشرق، وكانت أرض العرب مأوى لأصحاب الديانات الذين فرُّوا من الاضطهاد، فاتخذوها مستقرًّا ومقامًا، فهي مأوى الديانات التي نبتت في غير أرض

---

١. انظر: هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، ابن القيم الجوزية، تحقيق: د. أحمد حجازي السقا، دار الريان للتراث، القاهرة، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

٢. الأُقْنُوم: الأصل، وهو ركن من أركان الثالوث الأقدس عند النصارى الذي يجمع: الآب والابن وروح القدس، والجمع: أقانيم.

٣. اللاهوت والناسوت: اللاهوت: الألوهية في مقابل الناسوت لطبيعة الإنسان، وعلم اللاهوت علم يبحث عن العقائد المتعلقة بالله، وربما أُطلِق الأول على الروح، والثاني على البدن، أو أطلق الأول على العالم العلوي، والثاني على العالم السفلي.

٤. انظر: محاضرات في النصرانية، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٣، د. ت.

٥. المَلَكِيَّة: طائفة من النصارى لُقِّبوا بذلك لاتباعهم الملك.

٦. اليعقوبية: فرقة من النصارى، وهم أتباع يعقوب البراذعي، يقولون باتحاد اللاهوت والناسوت، ويُعرفون بأصحاب الطبيعة الواحدة.

العرب عندما اضطهدوا في ديارهم ونزل بهم البلاء، فكما أوت اليهودية إلى أرض العرب أوت النصرانية إليها عندما كانت مضطهدة من الرومان، وقد لجأت النصرانية إلى أرض نجران، ويظهر أنهم كانوا من النصارى الذين فروا من حكم القياصرة الذين اضطهدوهم، ويظهر كذلك أنهم كانوا في ابتداء أمرهم موحدين حتى غشيت الوثنية تلك الديانات السماوية بالتثليث وادعاء الألوهية لعيسى ابن مريم وأمه والروح القدس[1].

ثانيًا. أمية النبي ﷺ وموقفه من الأخذ عن أهل الكتاب:

لقد كان رسول الله ﷺ أميًّا لم يقرأ كتابًا، ولا اكتسب علمًا، وقد وردت كلمة "أُمِّي" بلفظها المفرد مرتين في القرآن الكريم، وكلتاهما وصف للرسول بالأمية التي تعني عدم القراءة والكتابة، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (١٥٧) ﴾ (الأعراف)، وجاء في السورة ذاتها: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨) ﴾ (الأعراف). ففي هذه الآية توَجَّه الخطابُ إلى النبي الأمي ليأمره بإعلان الدعوة إلى الناس جميعًا... وهي الرسالة الأخيرة، ومن ثم حملها النبي الأمي الذي لم يدخل على فطرته الصافية إلا تعليم الله، فلم تَشُبْ هذه الفطرة شائبة من تعليم الأرض، ومن أفكار الناس، ليحمل رسالة الفطرة إلى فطرة الناس جميعًا[2].

قال محمد بن جرير الطبري: إن الأمي عند العرب هو الذي لا يكتب نسبة إلى أمه؛ لأن الكتابة كانت في الرجال دون النساء، فنسب من لا يكتب ولا يخط من الرجال إلى أمه في جهله بالكتابة دون أبيه كما ذكرنا عن النبي من قوله: "إنا أُمَّة أُمِّيَّة لا نكتب ولا نحسب"[3] وقد فُسِّر هذا الوصف في سورة العنكبوت بقوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ (٤٨) ﴾ (العنكبوت).

أي: ما كنت يا محمد تقرأ قبل القرآن كتابًا ولا تقدر على ذلك؛ لأنك أميٌّ لا تقرأ ولا تكتب، ﴿ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ﴾؛ أي: ولا تكتبه؛ لأنك لا تقدر على الكتابة. قال مجاهد: كان أهل الكتاب يجدون في كتبهم أن محمدًا ﷺ لا يخط ولا يقرأ، فنزلت هذه الآية. قال النحاس: وذلك دليل على نبوته؛ لأنه لا يكتب ولا يخالط أهل الكتاب، ولم يكن بمكة أهل كتاب، فجاءهم

١. خاتم النبيين ﷺ، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ج١، ص٤٠ بتصرف.

٢. دعوة أهل الكتاب إلى دين رب العباد، د. سعيد عبد العظيم، دار العقيدة، القاهرة، د. ت.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب قول النبي ﷺ: "لا نكتب ولا نحسب" (١٨١٤)، ومسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب وجوب صوم رمضان لرؤية الهلال (٢٥٦٣).

بأخبار الأنبياء والأمم، ﴿إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾؛ أي: لو كنت تقدر على التلاوة والخط لقالوا: لعله وجد ما يتلوه علينا من كتب الله السابقة أو من الكتب المدونة في أخبار الأمم، فلما كنت أميًّا لا تقرأ ولا تكتب لم يكن هناك موضع للريبة ولا محل للشك أبدًا، وسماهم "مبطلين"؛ لأن ارتيابهم - على تقدير أنه يقرأ ويكتب - ظلم منهم؛ لظهور نزاهته ووضوح معجزاته ﷺ[1].

إن سياق النص يتحدث عن إيمان بعض أهل الكتاب بالقرآن، على حين يكفر به المشركون الذين أنزل الله الكتاب على نبيهم، غير مقدرين لهذه المنة الضخمة، ولا مكتفين بهذا الفضل المتمثل في تنزيل الكتاب على رسول منهم يخاطبهم به، ولم يكن يتلو من قبله كتابًا، ولا يخطه بيمينه، فتكون هناك أدنى شبهة في أنه من عمله وتأليفه[2]. فرسول الله علَّم الأولين والآخرين من غير تعلم ولا اكتساب، فكان ذلك أبلغ في معجزاته وأعظم في فضائله ﷺ®.

نهيُه ﷺ عن مخالطة أهل الكتاب والأخذ عنهم:

ذكرنا أن النبي ﷺ ما كان يخالط أهل الكتاب؛ فضلًا عن أنه لم يكن بمكة أهل كتاب، وكان النبي ﷺ ينهى أصحابه عن مشابهة أهل الكتاب في المدينة أو التأسي بهم أو حتى سؤالهم، وكان حريصًا على أن يظهر المسلم بشخصية متميزة مستقلة بعيدة عن مشابهة أهل الكتاب، قال ﷺ: "لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء؛ فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا، فإنكم إما أن تصدقوا بباطل أو تكذبوا بحق. والله، لو كان موسى حيًّا بين أَظْهُرِكم ما حلَّ له إلا أن يتبعني"[3].

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء؛ فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا، فتكذِّبوا بحق وتصدِّقوا بباطل، وإنه ليس من أحد من أهل الكتاب إلا في قلبه تالية تدعوه إلى الله وكتابه[4].

وقال ﷺ: "لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا: آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم"[5].

وعن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتب، فقرأه على النبي ﷺ، فغضب فقال: "أَمُتَهَوِّكُون[6] فيها يا ابن الخطاب، والذي نفسي بيده، لقد جئتكم بها بيضاء نقيَّة، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به أو بباطل فتصدقوا به، والذي نفسي بيده، لو أن موسى كان حيًّا ما وسعه إلا أن يتبعني"[7].

فالثابت أن رسول الله ﷺ ما كان يخالط أهل

---

١. فتح القدير، الشوكاني، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٣م، ج٤، ص٢٩٥.

٢. في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط١٣، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ج٥، ص٢٧٤٦.

® في **"أمية النبي ودلالتها على أن القرآن وحي من عند الله"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثالثة والعشرين، من الجزء الأول (الشبهات التي تولى القرآن الرد عليها).

٣. حسن: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند جابر رضي الله عنه (١٤٦٧٢)، وحسنه الألباني في الإرواء (١٥٨٩).

٤. أخرجه عبد الرزاق في مصنفه، كتاب أهل الكتاب، باب مسألة أهل الكتاب (١٠١٦٣).

٥. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب سورة البقرة (٤٢١٥)، وفي مواضع أخرى.

٦. المُتَهَوِّك: المُتحيِّر أو المتردِّد أو الساقط.

٧. حسن: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند جابر رضي الله عنه (١٥١٩٥)، وحسنه الألباني في الإرواء(١٥٨٩).

الكتاب، وكان يأمر أصحابه بعدم التشبه بهم أو الأخذ عنهم؛ لأنهم حرفوا الكتب التي أنزلت عليهم، فكيف يزعم هؤلاء أن رسول الله ﷺ أخذ عنهم وتعلم منهم وهو الذي يأمر أصحابه بتجنبهم؟!

ثم كيف يزعمون ذلك وما جاء به رسول الله كان يختلف تمامًا عما هو بين أيديهم من الكتب السماوية التي تلحق صفات النقص بالله والأنبياء، وتقول بإله مع الله وهو المسيح كما يزعم النصارى؟ وثبت أيضًا - كما ذكرنا - أن رسول الله كان أُمِّيًّا، كيف يأخذ عنهم - أي: النصارى - عقيدته وهو أُمِّيٌّ على فرض أن هناك فئة نسطورية باقية على دين المسيح؟!

"إن النبي ﷺ لم يُعرف أنه كانت له عناية خاصة بتاريخ النصارى ولا بأخبار اليهود ولا بشيء من ذلك، بل عنايته في مطلع حياته بكسب الرزق، وفي شبابه الأول بالتجارة، ثم بعد أن توفر له الرزق انصرف إلى العبادة والتحنُّث[1] الليالي والشهور، وفي كل أحواله كان كثير التأمل، يتعرَّف الخالق من خلقه والمنشئ مما أنشأه"[2].

ولكن كُتَّاب الغرب يدعون أن محمدًا ﷺ كان قبل البعثة يتتبع أخبار اليهود، ويستمع إلى ما يحدِّث به أحبار اليهود، ورهبان النصارى، وهم يرمون بهذا الرأي إلى أمرين:

أحدهما: إثبات أن محمدًا ﷺ ما وصل إلى ترك الأوثان إلا بتعاليم اليهود والنصارى وأنه ما وصل إليها بمنطقه وفطرته وبقايا ديانة إبراهيم عليه السلام، وكأنهم يُلْمِحون إلى ما كان من شأن زيد بن نفيل وورقة بن نوفل، غافلين عن أنه كان يكره اللات والعزى وهو في الثانية عشرة من عمره، وقد ثبت ذلك في أخبار بحيرا الراهب، كما سيأتي بيانه.

وثانيهما: ادعاء أن القرآن أخذ أخبار النبيين وقصصهم من التوراة والإنجيل، وأن العلم بهذا تلق، وليس بوحي من الله تعالى، مع أنه من الثابت أن قصص الأنبياء في القرآن هو الصدق الذي لا يُمْتَرَى فيه، وغيره فيه الفساد والضلال؛ كخبر سُكْر لوط ومواقعته ابنتيه، وكزنا داود بامرأة قائد جيشه، فهي أكاذيب ليست في القرآن الكريم[3] ®.

ثالثًا. إعجاز القرآن وسُمُوُّه عن أن يكون قول بشر:

أنزل الله على نبيه القرآن الكريم، وهو نبي أمي لا يقرأ ولا يكتب، فسمعه كل من قرأ وكتب، ومن قال الشعر من أصحاب المعلقات أو غيرهم ممن اشتُهِرَ وعُرِفَ بالشعر والفصاحة والبلاغة، فأطرق وأدرك أن هذا الكلام ليس من صنع البشر، وليس بمقدور أحد أن يأتي بمثله مهما أوتي من قوة الكلم[4].

فقد سمعوا عنه ما أدهشهم وسلب لُبَّهم، ما هو

---

١. التَّحنُّث: التَّعبُّد.

٢. خاتم النبيين ﷺ، محمد أبو زهرة، مرجع سابق، ج١، ص٢٦٢ بتصرف.

٣. المرجع السابق، ص٢٦٢ بتصرف.

® في **"نفي تلقِّي النبي القرآن عن اليهود والنصارى"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الأولى، من الجزء الحادي عشر (سلامة القرآن الكريم). وفي **"عدم ادعاء أهل الكتاب زمن النبي أنه يأخذ عنهم، ودلالة ذلك"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثانية عشرة، من الجزء الثامن (مقارنة الأديان).

٤. انظر: دعوة أهل الكتاب إلى دين رب العباد، د. سعيد عبد العظيم، مرجع سابق.

بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة، وهو ما عبر عنه الوليد بن المغيرة يوم قال لقومه من بني مخزوم: "والله لقد سمعت من محمدٍ آنفًا كلامًا ما هو من كلام الإنس، ولا من كلام الجن، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمُثمِر، وإن أسفله لمُغْدِق، وإنه يعلو ولا يُعْلَى عليه". فمن أين جاء به محمد ﷺ؟.

وقد تحداهم القرآن أن يأتوا بسورة من مثله فما استطاعوا وفشلوا جميعًا، وهم أمة البيان والفصاحة، وحول إعجاز القرآن يقول الماوَرْدي: "والقرآن أول معجز دعا به محمد ﷺ إلى نبوته فصدع فيه برسالته، وخص بإعجازه من جميع رسله، وإن كان كلامًا ملفوظًا وقولًا محفوظًا؛ لثلاثة أسباب صار بهن من أخص إعجازه وأظهر آياته:

الأول: أن معجز كل رسول موافق للأغلب من أحوال عصره، والشائع المنتشر في ناس دهره؛ لأن موسى عليه السلام حين بُعِثَ في عصر السحرة خُصَّ من فَلْق البحر[1] يبسًا، وقَلْب العصا حيَّة، ما بَهَر كل ساحر، وأذل كل كافر، وبُعِثَ عيسى عليه السلام في زمن الطب، فخُصَّ من إبراء الزمّني - أصحاب العاهات المستديمة - وإحياء الموتى ما أدهش كل طبيب، وأذهل كل لبيب، ولما بعث محمد ﷺ في عصر الفصاحة والبلاغة خُصَّ بالقرآن في إيجازه وإعجازه بما عجز عنه الفصحاء، وأذعن له البلغاء، وتبلد فيه الشعراء؛ ليكون العجز فيه أقهر، والتقصير فيه أظهر.

الثاني: أن المعجز في كل قوم بحسب أفهامهم، وعلى قدر عقولهم وأذهانهم، وكان من قوم موسى وعيسى بلادة وغباوة.... قالوا لنبيهم حين مروا بقوم يعكفون على أصنام لهم: "اجعل لنا إلها كما لهم آلهة" فخُصُّوا من الإعجاز بما يصلون إليه ببداية حواسهم، والعرب أصح الناس أفهامًا وأحدهم أذهانًا... فخصوا من معجزة القرآن بما تجول فيه أفهامهم، وتصل إليه أذهانهم، فيدركونه بالفطنة دون البديهة، وبالرَّوية دون المبادرة، لتكون كل أمة مخصوصة بما يشاكل طبعها، ويوافق فهمه.

الثالث: أن معجز القرآن أبقى على الأعصار، وأنشر في الأقطار من معجز يختص بحاضره ويندرس بانقراض عصره، ومادام إعجازه فهو أحجُّ، وبالاختصاص أحق[2].

والقرآن مُعْجِز من وجوه كثيرة نسوق هنا طائفة منها:

- تأليفه العجيب وأسلوبه الغريب في المطالع والمقاطع والفواصل، مع اشتماله على دقائق البيان، وحقائق العرفان، وحسن العبارة، ولطف الإشارة، وسلامة التركيب، وسلاسة الترتيب.
- ما أخبر به عن القرون السالفة والأمم الهالكة، وقد علم أن النبي ﷺ كان أميًّا لا يقرأ ولا يكتب ولا اشتغل بمدارسة مع العلماء ولا مجالسة مع الفضلاء، بل تربى بين قوم كانوا يعبدون الأصنام ولا يعرفون الكتاب، وكانوا عارين عن العلوم العقلية أيضًا، ولم يغب عن قومه غيبة يمكن له التعلم فيها من غيرهم. والمواضع التي خالف فيها القرآن كتب أهل الكتاب؛ كقصة صلب المسيح عليه السلام وغيرها، فهذه المخالفة

---

١. فَلَق البحر: شقّه.

٢. أعلام النبوة، الماوردي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ص٩٧: ٩٩.

قصرية، إما لعدم كون بعض هذه الكتب أصلية؛ كالتوراة والإنجيل المشهورَيْن، وإما لعدم كونها إلهامية. ويدل على ما ذكرت قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٧٦) ﴾ (النمل).

- ما فيه من كشف أسرار المنافقين حيث كانوا يتواطئون في السر على أنواع كثيرة من المكر والكيد، وكان الله يطلع رسوله على تلك الأحوال حالًا فحالًا ويخبره عنها على سبيل التفصيل، وكذا ما فيه من كشف حال اليهود وضمائرهم.
- جمعه لمعارف جزئية وعلوم كلية لم تعهدها العرب عامة ولا محمد ﷺ خاصة، من علم الشرائع، والتنبيه على طرق الحجج العقلية، والسير والمواعظ والحكم، وأخبار الدار الآخرة ومحاسن الآداب والشيم، وتحقيق الكلام.
- كونه بريئًا عن الاختلاف والتفاوت مع أنه كتاب كبير مشتمل على أنواع كثيرة من العلوم.
- كونه معجزة باقية متلوَّة في كل مكان مع تكفل الله بحفظه، بخلاف معجزات الأنبياء التي انقضت بانقضاء أوقاتها، وهذه المعجزة باقية على ما كانت عليه من وقت النزول إلى زماننا هذا.
- أن قارئه لا يَسْأَمه، وسامعه لا يَمُجُّه[1]، بل تكراره يوجب زيادة محبته، وغيره من الكلام يمل مع التكرار والترديد.
- كونه جامعًا بين الدليل ومدلوله.
- سهولة حِفْظه لمتعلميه.

١. يَمُجُّه: يستكرهه ويرفضه ويستقبحه.

- الخشية التي تلحق قلوب سامعيه وأسماعهم عند سماع القرآن والهيبة التي تعتري تاليه[2] ®.

رابعًا. تهافت المزاعم حول بشرية القرآن:

إنه لما أدهش القرآن عقول هؤلاء، ولما كانت لديهم الرغبة لنفيه ونفي إعجازه عن النبي ﷺ، حاولوا أن يذهبوا به بعيدًا عن وحي السَّماء، فدارت الافتراضات حول هذا القرآن، من أين استقاه محمد ﷺ؟

فقد افترض بعضهم أن يكون أحد من الناس قد علَّم رسول الله ﷺ القرآن الكريم؛ فقالوا: لقد علمه غلام رومي أعجمي يشتغل في مكةَ حدَّادًا، ففنَّد القرآن الكريم أقوالهم: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ (١٠٣) ﴾ (النحل)، وحين أُسْقِط في أيديهم قالوا: ﴿ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٥) ﴾ (الفرقان).

وقالوا أيضًا: إن محمدًا علمه ورقة بن نوفل، فجاء القرآن الكريم يضرب بأقوالهم عُرْضَ الحائط، ويُسَفِّه أحلامهم بتحديه لهم أن يأتوا بمثله، ولو اجتمعوا له، وتساهل معهم لعلمه بعجزهم، فتحداهم بعشر سور مثله، ولو كانت مفتريات فعجزوا عنها، فتحداهم أن يأتوا بسورة واحدة، فقال الله تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى

٢. انظر: إظهار الحق، رحمة الله بن خليل الهندي، دار الحرمين للطباعة، مصر، ط٢، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م، ج٣، ص٧٥٥: ٨٢١.

® في "وجوه الإعجاز في القرآن الكريم" طالع: الوجه التاسع، من الشبهة الأولى، من الجزء الحادي عشر (سلامة القرآن الكريم).

رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَٱتَّقُوا ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾(البقرة)، فعجزوا وفشلوا جميعًا؛ خطباؤهم وشعراؤهم، وهم أمة الفصاحة والبلاغة والبيان، وحين تم عجزهم أعلن القرآن الكريم هذه الحقيقة النهائية، ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ (الإسراء)[١].

ومن مزاعمهم أيضًا أن بحيرا الراهب النسطوري هو الذي أملاه عليه، وهو الذي أقنعه بنبوته، وعلمه أكثر ما كان يعلم من القصص والأخبار وغيرها، وهذا بالطبع زعم باطل لا يقوم على تصوُّر واضح لرحلة النبي ﷺ إلى الشام.

وأصل ذلك أن رسول الله ﷺ حين بلغ سن المراهقة وشبَّ عن الطَّوق[٢]، كان لا بد أن يتجه إلى مرتزق قومه وهو التجارة، فخرج محمد ﷺ مع عمه للتجارة بالشام، فحلَّت القافلة بأرض مدينة بُصْرَى، وبصرى كانت موطنًا لصوامع الرهبان، يقيمون بها، منصرفين إلى عبادتهم، فكان لهم مع الرهبنة والزهادة علم بالكتاب وإشاراته وتبشيراته. وقد كان ببصرى راهب في صومعة اسمه بحيرا، وكان على علم بالكتاب، وكان نزلاء هذه الصومعة ذوي علم بالتوراة والإنجيل، يتوارثون ذلك العلم كابرًا عن كابر[٣].

خرج بحيرا من صومعته للقاء القافلة التي كان فيها رسول الله ﷺ مع عمه، وكان لا يخرج من صومعته، وما خرج إلا لما رأى الأمارات والبشارات التي تلوح بوجود نبي من بين هؤلاء؛ أي: في تلك القافلة، فقد رأى غمامة تُظِلُّهم تسير حيث يسيرون وتقف حيث يقفون، وأنهم إذا آوَوْا إلى فيء شجرة، رأى أغصانها تتهصَّر[٤] وتميل حتى تُظِلَّ واحدًا منهم.

ورأى غير ذلك من الأمارات الدالة على أنه المذكور في الإنجيل، فأعد للقوم وليمة ودعاهم إليها واشترط على ألا يتخلف منهم أحد فأجابوه، وتخلف رسول الله لحداثة سنِّه، فلما رآهم لم يَرَ العلامات والأمارات التي دعاهم ليتثبت منها، فطلب منهم أن يحضروا هذا الغلام فأحضروه، فأخذ بحيرا يلحظه لحظًا شديدًا، وينظر إلى أشياء من جسده، وقد كان يجدها عنده من صفته، حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا، سأله بحيرا بحق اللات والعزى أن يجيبه عما يسأله، فكره النبي ﷺ سؤاله باللات والعزى وأنكر عليه ذلك؛ لأنه ما أبغض شيئا قط بغضهما، وجعل بحيرا يسأله عن رحلته وهيئته وأموره ورسول الله ﷺ يخبره، ويقول ابن اسحاق: فوافق ذلك ما عند بحيرا من صفته. ثم نظر إلى ظهره، فرأى خاتم النبوة بين كتفيه، فلما فرغ أقبل على عمه أبي طالب، فقال: ما هذا الغلام منك؟ قال: ابني! قال بحيرا: ما هو ابنك وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حيًّا. قال أبو طالب: هو ابن أخي. قال: فما

١. انظر: دعوة أهل الكتاب إلى دين رب العباد، د. سعيد عبد العظيم، مرجع سابق.

٢. شبَّ عن الطَّوق: كَبُر واعتمد على نفسه، أو بلغ مبلغ الرجال.

٣. كابرًا عن كابر: أبًا عن جد.

٤. تتهصَّر: تتدلَّى.

فعل أبوه؟ قال: مات وأمه حبلى به، قال: صدقت. ارجع بابن أخيك إلى بلده، واحذر من اليهود، فوالله، لئن رأوه وعرفوا ما عرفت ليَبْغُنَّه شرًّا، فإنه كائن لابن أخيك شأن عظيم فأسرع به إلى بلاده[1].

وزعم المستشرقون أن بحيرا قد علَّم النبي ﷺ الديانة، وأنه هو الذي كان يلقن الرسول السور الواردة في القرآن!

وهو زعم ـ لا شك ـ باطل؛ فإن الرسول ﷺ عندما قابل الراهب بحيرا في بُصْرَى بجوار الشام كان ذلك عام ٥٨٢م، وهذه كانت أول مرة في حياته ﷺ وآخر مرة. ولكن بداية نزول الوحي بالقرآن كانت عام ٦١٠م؛ أي: بعد أربعين عامًا من ولادة الرسول ﷺ؛ أي: إن الوحي نزل على الرسول بسور القرآن بعد ثمانية وعشرين عامًا من مقابلة الراهب بحيرا النصراني.

فلا سبيل ـ إذن ـ إلى أن يلقن الراهب بحيرا القرآن للنبي وهو يبعد عنه مئات الأميال، ولم يقابله إلا مرة واحدة في حياته، وبعد هذه الرحلة عاد الرسول ﷺ إلى مكة ومضى بها من ٥٨٢م حتى ٦٢١م، ثم بعد ذلك هاجر إلى المدينة ومكث بها حتى ٦٣٢م وهو العام الذي توفي فيه.

إذن فالنبي ﷺ لم يلتق الراهب بحيرا إلا مرة واحدة وعمره اثنا عشر عامًا، فكيف يصل الخيال بالمستشرقين ـ وخاصة المستشرق هوارت ـ إلى هذا الحد ليقولوا: إن بحيرا علَّم الديانة للرسول، وذكر له بعض السور القرآنية، إنه كلام لا يصدقه عاقل ودون أي سند من التاريخ، ولا دليل عليه[2].

والمعروف أن النبي ﷺ ـ بعد ذلك كله ـ لم يغب عن قومه غيبة يمكن له التعلم فيها من غيرهم، فكيف يأخذ عن بحيرا وهو بعيد عنه آلاف الأميال، ولم يلتقِ به ثانية؟! كما أن المرة التي التقاه فيها النبي ﷺ كانت في صغره، وهو طفل، ولمدة لا تتجاوز استراحة المسافر! فهذه هي حقيقة المقابلة بين الرسول ﷺ وبين الراهب بحيرا، كما تذكرها كتب السيرة النبوية فمن أين لهم الزعم بأن بحيرا كان يلقن النبي ﷺ القرآن؟!

ولو فرضنا جدلًا صحة ما ذهبوا إليه، فلماذا سكت عنه اليهود والنصارى. وقد بيَّن القرآن زيفهم وضلالهم وكفرهم، وكذلك تحريفهم للكتب المنزلة من عند الله؟! لو كان الأمر كذلك لكان لهم مع رسول الله ﷺ وقفة أخرى، ولأعلنوا على الملأ تكذيبه في الوحي، ولأذاعوا أن بحيرا هو الذي كان يعلمه القرآن والقصص، وهذا ما لم يحدث منهم.

ثم كيف يلقن بحيرا الراهب النصراني تلك النصوص التي تقلع العقيدة النصرانية من جذورها وتثبت كفرهم وضلالهم، فهل يعينه على بني قومه ودينه؟ ولِـمَ®؟

خامسًا. شيوع بشارات أهل الكتاب بالنبي ﷺ في جزيرة العرب:

إن التبشير بالنبي محمد ﷺ أمر ثابت بَيِّن لا ينكره إلا

---

١. خاتم النبيين ﷺ، محمد أبو زهرة، مرجع سابق، ج١، ص١٢٨.

٢. محمد ﷺ والخناجر المسمومة الموجهة إليه، د. نبيل لوقا بباوي، دار البباوي للنشر، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص٢٣: ٥١ بتصرف.

® في "**إلهية القرآن الكريم**" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثانية والثمانين، من الجزء الثاني عشر (عصمة القرآن الكريم). والشبهة الأولى، من الجزء الحادي عشر (سلامة القرآن الكريم).

جاحد، وقد نصَّ الأنبياء ـ عليهم السلام ـ على نبوة محمد ﷺ ورسالته، وأنه أفضل النبيين والمرسلين، ونصوا على اسمه ونعته وحليته، وأرضه وبلده، وجميل سيرته، وصلاح أمته، وسعادة ملته، وأنه من ولد إسماعيل عليه السلام وأن دعوته تدوم إلى قيام الساعة، فمن لم يعتقد وقوع هذا كله لزم الطعن على هؤلاء الأنبياء كلهم، صلى الله عليهم أجمعين[1].

وقد راجت في البلاد العربية، وخصوصًا حول مكة المكرمة والمدينة المنورة، أقوالٌ تذكر أن نبيًّا يبعث في هذا الزمان، وروَّج ذلك النصارى الذين كانوا منبثين في الجزيرة العربية، ويقيم كثير منهم في أطرافها وكانوا يتناقلونها من الشام في رحلتهم إليها تجارًا؛ إذ يرون الرهبان منبثين في الأديرة ويلتقون بهم الفَيْنَة بعد الفينة[2].

واليهود في المدينة كانوا يذكرون ذلك مُتَحدِّين به الوثنيين الذين يجاورونهم، وكانوا يستفتحون به على المشركين؛ زاعمين أنه سينصرهم على هؤلاء المشركين ويؤيد دينهم، ويأخذون ذلك من إشارات كتبهم التي كانت مفسرة عندهم، حتى صارت علمًا توارثوه عن أسلافهم، وهو في مطوي التركة التي أخذوها عنهم، مع أن اليهود عُرِفوا بأنهم يكتمون ما أنزل الله تبارك وتعالى عليهم ليكون العلم حكرًا عليهم، ويمكنهم من أن يكذبوا على الناس مدعين أنهم أبناء الله تبارك وتعالى وأحباؤه، مع هذا يتناثر من أقوالهم ما يدل على أن نبيًّا من أبناء عمهم إسماعيل عليه السلام سيبعث في ذلك الزمان.

وإذا كانت الأثرة هي التي حملتهم على كتمان ما أنزل الله تبارك وتعالى عن غيرهم، فالأثرة أيضًا هي التي حملتهم على التحدث بخبر النبي المنتظر المكتوب عندهم في التوراة؛ لأنهم كانوا في حرب مع الأَوْس والخزرج الذين يجاورونهم، فكانوا يذكرون أمر النبي لهم، لا ليعلنوا الحقائق، ولكن ليتغلبوا عليهم، بما يسمى في عصرنا الحالي: "الحرب النفسية"[3] التي تقارن الحرب المادية، لينالوا الفوز والغلب، وليتم لهم التعالي عليهم وعلى غيرهم، وإعلان الاستهانة بهم، ولإنذارهم بأن المستقبل معهم، وفي ذلك إلقاءٌ بالرعب في قلوبهم، ولقد كانت نجران مملوءة بالنصارى الذين كان ينبعث من بينهم صوت قوي يخبر بأن نبيًا قد آن أوانه، والناس يعيشون في زمانه... ولقد سرت فكرة التنبؤ برسول قريب زمانه إلى قريش وما حول مكة المكرمة[4].

فالبشائر بأن نبيًّا سيبعث كانت تتردد ـ إذن ـ في البلاد العربية، وكان هذا الأمر يجري على ألسنة بعض العرب، كما يُروى عن قس بن ساعدة الإيادي أنه ذكر في إحدى خطبه أن نبيًّا قد أدركهم زمانه، وآن أوانه، والبلاد العربية، وخصوصًا الحجاز، كانت يتجاوب فيها ذكر احتمال رسول مبعوث، تذاكره كثيرون ممن كانت لهم دراسات للديانات.

---

1. انظر: الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة، القرافي، تحقيق: د. بكر زكي عوض، دار ابن الجوزي، القاهرة، ٢٠٠٤م.
2. الفَيْنة بعد الفنية: من حين لآخر.
3. الحرب النفسية: محاولة التأثير على معنويات العدو في أوقات الحرب.
4. خاتم النبيين ﷺ، محمد أبو زهرة، مرجع سابق، ج١، ص٢٤٨: ٢٦١.

الخلاصة:

- زعم الحاقدون أن محمدًا ﷺ قد أخذ عقيدته عن النساطرة وهي فرقة مسيحية رحلت إلى شبه جزيرة العرب قبل مبعثه، وعلى رأس من تلقى منهم محمد هو الراهب النسطوري بحيرا، والحقيقة أن هذا زعم باطل؛ لأن النسطورية في أواخرها قد انحرفت عن تعاليم المسيحية وآل أمرها إلى ما آل إليه غيرها من الفرق الأخرى التي قالت بألوهية المسيح، ومعلوم أن رسول الله ﷺ قد أتى بعقيدة تهدم عقيدة النصارى، من: صلب، وتثليث، وألوهية غير الله، فكيف تلقَّى عنهم؟!

- ومعلوم أيضًا أن رسول الله ﷺ كان أميًّا ما قرأ كتابًا، ولم يثبت أنه غاب عن قومه غيبة يمكن له التعلم فيها من غيرهم، فضلًا عن أنه ما كان يخالط أهل الكتاب؛ لأن مكة لم يكن بها أهل كتاب، ونهى أصحابه عن التشبه بهم أو التأسي أو السؤال والأخذ عنهم، لـمَّا جاورهم بالمدينة.

- قد أتى رسول الله بأعظم معجزة هي القرآن، وتحداهم أن يأتوا بسورة من مثله فما استطاعوا، وفيه من وجوه الإعجاز التي لم تزل تتجدد إلى اليوم ما يقطع بأنه ليس من قول البشر.

- إن النبي ﷺ لم يلتق الراهب بحيرا إلا مرة واحدة في صغره وطفولته، وهو في الثانية عشرة من عمره، ولمدة لا تتجاوز استراحة المسافر، فكيف يتلقى منه القرآن والعقيدة؟!

الشبهة العاشرة

ادعاء التعارض بين العقيدة الإسلامية ومعطيات العلم والفلسفة (*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض الجاهلين أن هناك تعارضًا بين الفكر الإسلامي الذي يقوم على الإيمان بالحقائق الغيبية وبين معطيات العلم التجريبي الحديث ومناهج الفلسفة الوضعية المادية المعاصرة، ويقولون: إن هذا الفكر الإسلامي لا يصلح لأن يكون منهج حياة يتَّبعه الناس في حياتهم العامة؛ نظرًا لتناقضه وتعارضه مع معطيات العلم والفلسفة التي يؤمن بها العالم في العصر الحديث.

وجها إبطال الشبهة:

١) القرآن والسُّنة ينصان على أهمية طلب العلم والمكانة التي يحتلها العلماء في المجتمع المسلم.

٢) العلاقة بين الفكر الإسلامي وبين معطيات العلم التجريبي الحديث علاقة انسجام واطِّراد لا تناقض وتضاد، و الفكر الإسلامي لا يعارض شيئًا من نتائج العلوم التجريبية، ولا يضره أن يصادم مبادئ الفلسفات المادية المعاصرة، وهي في جملتها قاصرة في نظرتها إلى الوجود والحياة.

التفصيل:

أولا. القرآن والسُّنة ينُصَّان على أهمية العلم والمكانة التي يحتلها العلماء في المجتمع:

حفلت آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية

(*) الإسلام في قفص الاتهام، د. شوقي أبو خليل، دار الفكر، دمشق، ط٦، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

الشريفة بالتأكيد على فضل العلم والعلماء، وبالتالي الحث على طلب العلم والتنويه بالمكانة العالية التي وضع العلماء فيها دون غيرهم من طوائف البشر، وما هذا إلا لأنهم يحملون سراج النور الذي يضيء للبشرية طريقها، وإنَّ معطيات العلم الحقيقية لا تتعارض مع الدين والفكر الإسلامي في أي ناحية من نواحيه، وقد يكفي أن الكلمات التي تدل على العلم كثيرة في القرآن الكريم، وقد ورد فيه مشتقات الجذور الآتية على وجه التمثيل (نظر، عقل، ذكر، دبر... إلخ)، فكثيرًا ما يرد في القرآن: يعقلون، يذكرون، يعلمون، يتدبرون، انظروا، وغيرها الكثير الذي ينفي شبهة التعارض بين الفكر الإسلامي والعلم التجريبي.

وقد جاء في محكم التنزيل: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ (النحل)، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾ (الأنعام)، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ (الأنعام)، وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾ (الزمر)، وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ (العنكبوت)، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ (المجادلة)، وقال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ (آل عمران).

ولو ذهبنا نُحصي الآيات التي تحدثت في هذا الجانب فلن نستطيع أن نحصيها لكثرتها في مثل هذا المقام، وقد تبين من خلال الآيات السابقة مدى أهمية العلم، لدرجة أن الله ﷻ ذكره بعد نفسه ﷻ وبعد الملائكة مباشرة في دليل واضح الدلالة على أهمية العلم، فأين إنكار الفكر الإسلامي لمعطيات العلم الحديث؟!

والسنة المطهرة مليئة بالأحاديث التي تحض على العلم وتحثُّ عليه، من ذلك ما قاله ﷺ: "العلماء ورثة الأنبياء"[1]. وسنة النبي ﷺ الفعلية توضح ذلك أيضًا؛ ففي غزوة بدر جعل النبي ﷺ فداء المشركين الأسرى أن يعلِّم كل أسير عشرة من أبناء الصحابة القراءة والكتابة ولم يطلب منهم مالًا، كان هذا من قِبَل النبي ﷺ؛ لإدراكه مدى أهمية العلم في بناء الحضارات والشعوب، وفي كل هذا ردٌّ على من ادعى أن الإسلام يعارض العلم ولم يهتم به الاهتمام الأمثل.

ومن الآثار الدالة على أهمية العلم في السنة المطهرة، ما جاء عن النبي ﷺ: "طلب العلم فريضة على كل مسلم"[2].

---

١. صحيح: أخرجه أبو دواد في سننه، كتاب العلم، باب الحث على العلم (٣٦٤٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٢٩٧).

٢. صحيح: أخرجه أبو يعلى في مسنده (٥٢٢٣) برقم (٢٨٣٧)، والطبراني في المعجم الوسط (١/ ٧) برقم (٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٩١٣).

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ﷺ: "إن الله أوحى إليه: أنه من سلك مسلكًا في طلب العلم سهَّلتُ له طريق الجنة، ومن سَلَبْتُ كريمتيه أثبته عليهما الجنة، وفَضْل في عِلْمٍ خيرٌ من فضل في عبادة، ومَلَاكُ الدين الورعُ"[1]. وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "صاحب العلم يستغفر له كل شيء، حتى الحوت في البحر"[2]. وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "سيأتيكم أقوام يطلبون العلم، فإذا رأيتموهم فقولوا لهم: مرحبًا بوصية رسول الله، واقنوهم"، قلت للحَكَم: ما اقنوهم؟ قال: علِّموهم[3]. وقد دعا رسول الله ﷺ لأهل العلم، فقال: "نَضَّر الله امرأً سمع منَّا حديثًا فحفظه حتى يبلغه غيره، فرُبَّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ورب حامل فقه ليس بفقيه"[4]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "من جاء مسجدي هذا لم يأته إلا لخير يتعلمه، أو يعلِّمه فهو بمنزلة المجاهد في سبيل الله، ومن جاء لغير ذلك فهو بمنزلة الرجل ينظر إلى متاع غيره"[5].

والأحاديث في هذا الصدد كثيرة، فضلًا عن الآثار الواردة عن السلف من الصحابة والتابعين وغيرهم.

ومن جملة ذلك يتبيَّن أن الإسلام بعقائده وتشريعاته لا يناقض العلم، بل هو الداعي إليه والآخذ بزمام المبادرة الحقيقية نحو الاتجاه العلمي من أول يوم نزل فيه الوحي: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) ﴾ (العلق)، وليس أدل على ذلك من هذه الحركة العلمية الضخمة التي قام بها المسلمون بتوجيهات القرآن الكريم وتوجيهات الرسول ﷺ، وأبرز ما فيها تحويل العلم من نظريات إلى منهج تجريبي قائم على المشاهدة والملاحظة والتجربة، وتحويله من النظرة الذاتية التي كانت تمثلها الفلسفة إلى النظرة الموضوعية.

إن الذين يدَّعون أن الإسلام يناقض العلم أناسٌ قد أعظموا الفرية، وربما لم يقرءوا التاريخ أو أغفلوا ـ عن قصد وسوء نية ـ تلك الحركة الحضارية الإسلامية التي امتدت في جميع نواحي الحياة، تلك الحضارة الروحية المادية في ذات الوقت لا تفصل بين مطالب الروح ومطالب الجسد، ولا تفصل بين الدنيا والآخرة، تلك الحضارة التي عاشت قرونًا مديدة وأزمنة عديدة هي رائدة التقدم وقائدة الفكر المستنير في العالم أجمع، حين تمسكت الأمة بدينها وتحقق معنى "الأمة" في واقع الأرض، الأمة التي تلتقي على العقيدة في الله قبل أن تلتقي على الأرض واللغة والجنس والمصالح، والتي

---

١. صحيح: أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٥/ ٥٣) باب في المطاعم والمشارب (٥٧٥١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٧٢٧).

٢. صحيح: أخرجه أبو يعلى في مسنده كما في إتحاف الخيرة المهرة للبوصيري (١/ ٤٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٧٥٣).

٣. حسن: أخرجه ابن ماجه في سننه، المقدمة، باب الوصاة بطلبة العلم (٢٤٧)، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (٢٠١).

٤. صحيح: أخرجه أبو داود في سننه، كتاب العلم، باب فضل نشر العلم (٣٦٦٢)، والترمذي في سننه، كتاب العلم، باب الحث على تبليغ السماع (٢٦٥٦)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤٠٤).

٥. صحيح: أخرجه ابن ماجه في سننه، المقدمة، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم (٢٢٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦١٨٤).

جعلت المسلم ينتقل في بلاد العالم الإسلامي من المحيط إلى المحيط، فلا يحس بالغربة في أي بلد من بلاد المسلمين، رغم اختلاف الحكومات وتطاحنها في كثير من الأحيان.

ليس هذا فحسب، بل إن أثر الإيمان الحق لم يقف عند المسلمين فقط، بل تعداهم إلى بقية أمم الأرض وشعوبها، حينما كانت أوربا في عصورها المظلمة واقعة في الجهالة العلمية التي حرص عليها حكام شعوبها كما حرصت عليها الكنيسة؛ وذلك لكي يظل سلطانها الرهيب قائمًا في قلوب الناس وأرواحهم، وكانت واقعة تحت وطأة الإقطاع ممزقة لا رباط بينها - وإن كانت كلها مسيحية - لأن السيد الإقطاعي يمثل في اقطاعيته السلطان المطلق، فهو السلطة التشريعية والقضائية والتنفيذية في وقت واحد، وواقعة من جهة أخرى تحت سطوة البابوية التي تستعبد أرواح الناس وأفكارهم وتأكل جهدهم كما تأكل أموالهم بالباطل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾﴾ (التوبة).

وبينما أوربا في حالتها هذه، إذ التقت بالإسلام الذي يحيط بها من كل جانب، التقت به سِلْمًا في الأندلس، والشمال الإفريقي وصقلية، والتقت به حربًا عبر الحروب الصليبية التي استغرقت حوالي قرنين من الزمان، ثم كان من نتيجة ذلك تلك الآثار في أوربا:

- أخذت أوربا العلوم الإسلامية كلها، وبصفة خاصة المنهج التجريبي في البحث العلمي وأقامت نهضتها العلمية الحاضرة عليه.
- أخذت معنى "الأمة" التي يربطها رباط واحد وتحكمها شريعة واحدة، ولكنها لم تستطع إقامتها على أساس العقيدة؛ لفساد العقيدة عندهم وفساد القائمين عليها من الكهنوت، فأقاموها على شكل قوميات، وهذا هو الأساس الذي قامت عليه دول الغرب الحالية.
- حاولت إصلاح الفساد العقدي والكنسي في حركات كالفين ومارتن لوثر وغيرهما، وإن كانت لم تحقق إلا إصلاحات جزئية في داخل الفساد الشامل؛ وذلك لأنها رفضت الإسلام ابتداءً وهو الطريق الوحيد للإصلاح الحقيقي.
- أخذت نظام الجامعات الإسلامية وأنشأت جامعاتها على غراره.
- قامت فيها حركة فروسية تحاول أن تقلد ما وجدوه عند المسلمين من الشهامة والنجدة والأخلاق العالية.
- تأثرت أوربا بالنظم المعمارية الإسلامية وقلدتها في بعض مبانيها، خذ مثالًا بسيطًا على ذلك: إدخال الحمامات في البيوت وتنظيف الأبدان بالاستحمام، ولم تكن أوربا تمارسه حتى التقت المسلمين.
- بدأت فكرة "الدساتير" التي تشمل أسسًا واضحة للحكم غير هوى الحكام وشهواتهم الشخصية واقتبست أوربا كثيرًا من الفقه الإسلامي، ومما يذكر في هذا الصدد أن القانون المدني الفرنسي مأخوذ معظمه من فقه مالك؛ لأنه كان أقرب المذاهب إليهم في الشمال الإفريقي.

- استفادت أوربا من الكشوف الجغرافية والخرائط الإسلامية فبدأت تسيح في الأرض على هدي هذه الخرائط.

وباختصار، فإن أوربا أخذت بذور نهضتها الحالية كلها من الإسلام، وإن كانت جحدت أثر الإسلام والمسلمين في حياتها، ورفضت في عصبية جاهلية أن تعتنق الإسلام[1].

يقول موريس بوكاي: "إن الباحث يشعر بالدهشة عندما يكتشف أن القرآن ليس فيه كلمة واحدة تتعارض مع قوانين العلم الحديث". ويقول أيضًا: "إن القرآن ليس في آياته إشارة واحدة يمكن نقضها في ضوء مناهج وقوانين العلم الحديث"... وغير ذلك من شهادات العلماء التي لا نستطيع حصرها، والتي تؤكد على دلالة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم أمثال: آناماري شميل، والبروفسير فريد هاليداي، والمفكر الألماني د. مراد ويلفريد هوفمان، وباول شمتر، والراهبة كارين أرمسترونج... وغيرهم كثير[2].

بل إننا نسأل هؤلاء المدَّعين أن ثوابت العقيدة الإسلامية تتعارض مع معطيات العلم الحديث - نسألهم كيف ذلك والقرآن الكريم مليء بالإعجاز العلمي الذي يكتشفه العلماء كل يوم؟ لقد توصل العلم أخيرًا إلى إثبات الحقائق العلمية التي أشارت إليها بعض الآيات القرآنية من قبل كبار العلماء غير المسلمين... ولقد أجرى الشيخ الزنداني محاورة علمية

١. ركائز الإيمان، محمد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، ص٤٤٠.

٢. المنصفون للإسلام في الغرب، رجب البنا، مرجع سابق، ص٢٤٠ وما بعدها.

على أربعة عشر من رواد العلوم المعاصرة في شتى الآفاق، كان الغرض منها معرفة الحقائق العلمية التي أشارت إليها بعض الآيات القرآنية، مع بيان أن دين الإسلام حث على العلم والمعرفة، وأنه لا يمكن أن يقع صدام بين الوحي وحقائق العلم التجريبي[3].

ثانيًا. لا تعارض بين الفكر الإسلامي ومعطيات العلم، ولا يضره أن يصادم مبادئ الفلسفات المادية:

والعلم التجريبي لا ينكر وجود الله ﷻ بخلاف الفلسفة المادية، ولكنه يقتصر على عالم المحسوس دون عالم الغيب، ويترك عالم الغيب لما هو أعلى من العقل البشري ومن التجربة العملية؛ لذلك فإن علماء التجربة يؤمنون بأن هناك حقائق يصعب على العقل البشري إدراكها، منها حقيقة الحياة، هذا ما أكد عليه كاميل فلامريون حين قال: "لقد عجز العلماء عن حل مسألة استمرار الوجود ودوامه، فهم يُقِرُّون بضرورة وجود الخالق وبتأثيره الدائم المستمر؛ وذلك ليمكنهم تفسير تعاقب الكائنات وإدراك سر أصول الأشياء، وقال إميل بوترو في كتابه "العلم والدين": "عجز العلم عن حل كل المشاكل، والعلم مهما تقدم فهو محدود، لا يوجد غير الدين الذي يسد الفراغ".

فالعلم التجريبي لا يرفضه الفكر الإسلامي مادام في إطاره الصحيح، الذي يؤمن بوجود أشياء فوق تصور العقل وفوق قدراته، تدرك بالقلب عن طريق الإيمان بها كما هي، هذه الحقائق التي يعرفها الإنسان عن طريق الوحي الذي أرسله الله ﷻ للرسل؛ لكي

٣. للمزيد انظر: إنه الحق، محاورة علمية أجراها الشيخ عبد المجيد الزنداني، دار وحي القلم، بيروت، ط١، ٢٠٠٤م.

يضعوا الناس على الطريق الصحيح إلى الله تعالى، وبدون هذا الإيمان القلبي يصبح العلم أداة هدم لا أداة تعمير للكون.

وهذا هو الفارق الحقيقي بين الفكر الإسلامي والفلسفة المادية التي لا تؤمن إلا بالماديات فقط، وترفض كل ما هو غير مادي، بدعوى أنه لا يخضع للنظر المباشر، وهذا هو الذي جعل أوربا تفصل بين الدين والدنيا، فكان ما نشاهده الآن من فراغ روحي بين أبنائها.

إن المعرفة التجريبية هي التي أخذت مفهوم العلم، ولكن الفلسفة ليست إلا افتراضات خارج دائرة التجريب، وتحاول أن تصطنع الأسلوب العلمي في النظر والاستدلال، ولا تخلو هذه الفلسفة من الأهواء والمطامع، وهي حين تحاول أن تنقل التجريب إلى عالم النفس والإنسانيات والأخلاق تتعثر وتخطئ؛ لأن مثل هذه الأشياء لا يخضع للتجريب؛ لاختلاف النفوس والطبائع والبيئات والعصور، عكس العلوم المادية التي تخضع لذلك، فالفلسفة المعاصرة حسية مادية واقعية لا تعترف بغير ما يقع تحت التجربة؛ ولذلك فهي تنكر عالم الغيب الذي يؤمن به العلم، وتنكر الوحي والألوهية والنبوة والبعث والجزاء والأديان والكتب المنزلة وكل معطيات الإيمان الحقيقية؛ فهي لذلك قاصرة عن فهم الحياة والوجود كما يفهمها ويعرفها المؤمن بالله تعالى.

ولقد اعترف الباحثون في الفلسفة أنفسهم بأن أي فلسفة مثالية أو مادية، روحية أو عقلية، لم تصل إلى ما وصل إليه الإسلام من تحرير عقل الإنسان وتحطيم الأغلال الموروثة؛ لأن الإسلام يخاطب العقل والقلب معًا، وأبطل القرآن الكريم سلطان الأحبار والرهبان والوسطاء بين العبد والرب تبارك وتعالى، ولم يفرض على الإنسان قربانًا يسعى به إلى المحراب بشفاعة من وَلِيٍّ ولا تُرْجُمان بين الله تعالى وعباده، وحرر عقل الإنسان من سلطان الهياكل والمحاريب؛ فقد علم القرآن الكريم أتباعه كيف يوفِّقون بين الدين والدنيا في معادلة صعبة لم يقم بها أي دين سوى دين الإسلام. يقول خليل حاوي في هذا الصدد: إن فجيعة القلوب هي أن العقل محدود المعرفة عاجز عن إدراك حقائق الإيمان والدين، فمن المستحيل إدراك المطلق عن طريق العلم أو العقل؛ لتعالى المطلق عن التجربة والواقع؛ فالإنسان ليس كائنًا يعقل فحسب، بل هو كائن له قلب وإدراك، ومن حق النفس الإيمان بأشياء لا يثبتها العقل ولا ينفيها، فمن حقها أن تؤمن بمعتقدات الوحي والدين وخلود النفس ووجود الله تبارك وتعالى؛ لأن العقل لا يستطيع أن ينفيها.

إن الفلسفة الغربية وصلت إلى مرحلة صعبة؛ فهي تجعل مهمتها مقصورة على إثارة الشبهات دون تقديم حل لها، أما الإسلام فهو عكس ذلك تمامًا، فهو يضع الأمور ضمن إطار واضح ومحدد، والغرب ينطلق من واقع غير مقيد بأي إطار، أو ضوابط أخلاقية أو دينية، وفي ذلك يقول العلامة المودودى: "إن النظريات التي وضعها الإنسان عن نفسه، وعن الحياة الدنيا، وعن نظام الكون، وعن ذات الإله، مدفوعًا بدراسته الشخصية وتقديراته الخيالية وخضوعه لسلطان الأهواء، ثم المواقف التي اتخذها على أساس تلك

النظريات، فإنها في حقيقتها باطلة ومهلكة للإنسان نفسه من ناحية المصير، وإنما الحق هو الذي علّمه الله تعالى للإنسان حين جعله خليفة في الأرض، وبموجب هذا الحق ليس من منهج من المناهج إلا المنهج الذي هو المنهج الصحيح قال الله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠)﴾(الروم)، وهناك العديد من العلماء الغربيين الذين شهدوا للإسلام بأنه اهتم بالعلم والتعلم اهتمامًا كبيرًا؛ من هؤلاء: لوبون، وسيديلون، ومما قاله لوبون عن الدين الإسلامي: الإسلام أكثر الديانات ملاءمة لاكتشافات العلم[١].

الخلاصة:

- من ينظر في آيات القرآن الكريم ونصوص الأحاديث النبوية الشريفة يجد فيها العديد من الإشارات التي تدعو إلى العلم وتحث عليه وترفع من قدر العلماء، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١)﴾ (المجادلة)، ومن ذلك أيضًا قوله ﷺ: "العلماء ورثة الأنبياء"[٢]. فأين هذا التعارض المزعوم بين الإسلام أو الفكر الإسلامي وبين معطيات العلم؟!

- لا يوجد أدنى تعارض بين العلم وبين الفكر الإسلامي؛ لأن العلم يعترف أنه توجد أشياء خارج نطاق سيطرته، وهي الأشياء التي تتعلق بعالم الغيب والحياة بعد الموت، ويقتصر دور العلم على مجال الأشياء المحسوسة، أما الفلسفة فهي لا تتفق مع الفكر الإسلامي؛ لأنها تقوم على إنكار كل ما هو غير مادي، وبذلك فهي تنكر كل ثوابت الإيمان الصحيح، من إيمان بالوحي ووجود الله ﷻ والملائكة والكتب المنزلة والثواب والعقاب... إلخ، والفكر الإسلامي يرفض مثل هذه الفلسفات؛ لأنها تنكر أشياء لا غنى عنها للإنسان، فلا بد من التوفيق بين عالم الجسد وعالم الروح، أو بين الدين والدنيا، وهذا غير موجود في الفلسفة الوضعية الحديثة.

- الذين درسوا الفلسفة أكدوا على حقيقة مؤداها أن الفلسفة الوضعية المعاصرة قاصرة عن معرفة الأشياء التي فوق إدراك العقل البشري، وعدم إدراك العقل البشري لمثل هذه الأشياء لا يعني أنها غير موجودة في الحقيقة، فهي من ثوابت الفكر الإسلامي الصحيح الذي يؤمن به المسلمون وأصحاب الفطرة السليمة من غير المسلمين.

---

١. الإسلام في قفص الاتهام، د. شوقي أبو خليل، مرجع سابق، ص٢١٠: ٢١٥.

٢. صحيح: أخرجه أبو داود في سننه، كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم (٣٦٤٣)، والترمذي في سننه، كتاب العلم، باب فضل الفقه على العبادة (٢٦٨٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٢٩٧).

الشبهة الحادية عشرة

الزعم أن الإسلام يلغي العقل ويخضعه للنصوص الدينية(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المشككين أن الإسلام دينٌ يلغي العقل ويُخْضِعه للنصوص الدينية المدونة في القرآن والسنة، والمفروض في ظنهم أن يُحكِّم العقلُ في كل شيء حتى في القرآن، وأن ما لا يقبله العقل من الشرع غير مقبول.

وجوه إبطال الشبهة:

١) أَوْلى الإسلام العقل عناية فائقة، حتى ساق الكثرة المطلقة من أحكامه، مصحوبة بالحِكَم التي توخاها الشارع منها.

٢) لم يلغ الإسلام العقل، وإنما أمر بإعماله، فهو مناط التكليف، وقد حث القرآن على النظر والتفكر، ودعا للتدبر والتعقل، وأنكر على الذين لا يُعملون عقولهم قائلًا: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾﴾ (يس).

٣) لا تعارض بين صريح المعقول وصحيح المنقول في الإسلام، وتقديم النقل على العقل من مبادئ أهل السنة والجماعة عند التعارض بينهما.

٤) لفهم النص القرآني أصول وضوابط، وإعمال العقل في القرآن والسنة ليس للحكم على صحتها، وإنما لتوثيق نسبتها إلى الله ورسوله، وإيضاح ما فيها من دقائق المعاني، ورقائق الهدى.

التفصيل:

أجلَّ الإسلام العقل، وقدَّر المنطق، فذلك أدعى للامتثال وتمام التسليم، ولكن إعمال العقل في نصوص الشريعة ـ القرآن والسنة ـ ليس مطلقًا، وإلا لأدى ذلك إلى التحزب والتفرُّق، وهذا ما لم يدع إليه الإسلام.

أولا. منزلة العقل وحدوده في تصوُّر الإسلام:

القرآن يهدي العقل في عدة أمور:

- في مسائل الإيمان.
- في مسائل الأخلاق.
- في مسائل التشريع.

فقد جاء الدين هاديًا للعقل في مسائل ما وراء الطبيعة؛ أي: العقائد الخاصة بالله ﷻ، ورسله ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ وباليوم الآخر، وبالغيب الإلهي على وجه العموم.

وكذلك جاء هاديًا في مسائل الأخلاق؛ أي: الخير والفضيلة، وما ينبغي أن يكون عليه السلوك الإنساني ليكون الشخص صالحًا، فمن الناس من هو عبد للمال أو الجاه أو السلطان، ولدى هؤلاء الرازق هو السلطان، والشافي هو الدواء، والمعطي هو الوزير، وهكذا.

فخلطوا الوسيلة بالغاية، فقالوا: إن الدواء هو الشافي، والشرع يقول: إن الشافي هو الله، ولا يحصل الشفاء إلا بأمره، وهكذا في كل أمور الدنيا، فالعقل ـ إذن ـ ليس هو الأداة الصحيحة لبحث المسائل النفسية؛ لأن النفس تدخل في عالم الغيب الذي لا يخضع لحواس

(*) أسئلة العصر المحيرة، محمد فتح الله كولن، ترجمة: أورخان محمد علي، دار النيل، القاهرة، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م. القرآن والرسول ومقولات ظالمة، د. عبد الصبور مرزوق، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

الإنسان، والخطأ والصواب في علم الأخلاق نختلف عليه لو استعملنا عقولنا فقط.

وقصة العبد مع سيدنا موسى عليه السلام دليل رائع على القصور البشري في إدراك الخير، والشر، وأن الحواس لا تدرك إلا جزءًا يسيرًا من الحقيقة، وأن العقل يعجز عن إدراك أطوار لا يدركها إلا القلب، ولذلك نزلت الشرائع والأديان السماوية، بما يدخل في عالم الغيب وما يتصل بالسلوك الذي يعجز عن إدراكه العقل، وهي تدعو إلى التسليم والانقياد والعبودية المطلقة لله جل شأنه.

وجاء الإسلام كذلك هاديًا في مسائل التشريع الذي ينتظم به المجتمع، وتسعد به الإنسانية مستقلًا بنفسه، فإنه لا يصل فيها إلى نتيجة يتفق عليها الجميع، فالمسائل المتعلقة بالعبادات؛ كالصلاة، والصوم، والزكاة، والحج؛ أي: الخصائص المتعلقة بالعبودية قطعًا تؤدي إلى التسليم والإذعان.

فلننظر إلى أداء هذه العبادات؛ فحركات الصلاة - مثلًا - ليست عشوائية بهذا الشكل، بل هي مقصودة، كما أن الأمر بغسل أعضاء معينة في أثناء الوضوء لا بد أنه مستند إلى فائدة وحكمة.

كما أن أداء الصلاة في الجماعة له دور مهم في تأسيس الحياة الاجتماعية، وفرض الزكاة له دور مهم في تأسيس التوازن بين الأغنياء والفقراء، أما الفوائد الصحية للصوم فهي أكثر من أن تُعَدَّ، وقد كشف عنها الطب قديمه وحديثه بما فيه الكفاية. حيث إنه لو تم التدقيق من ناحية العقل والمنطق لوصلنا إلى النقطة نفسها وهي الإذعان والتسليم. فالإسلام عقلي ومنطقي من جهة، وإذعان وتسليم من جهة أخرى، فيخضع المسلم لشرعه عن طريق القلب والعقل جميعًا.

ولا شك أن منازل الناس مختلفة في العقل، وأنصباءهم متفاوتة فيه، ومعنى ذلك أن ما يروق لشخص عقليًّا ربما لا يروق لغيره؛ فكانت الشريعة بمثابة السفير من الله إلى الخلق عن طريق الوحي، والآيات والمعجزات كذلك.

ومن هنا تسقط "لم"، وتبطل "كيف" وتزول "هلَّا" وتذهب "لو" و"ليت" في الريح، فلو كان العقل يُكتفى به لم يكن للوحي فائدة.

فمثلًا: يُقال إن الحكمة من تحريم شرب الخمر إنما هي المفاسد التي تنشأ من الشخص الشارب، فإذا ما انْتَفَت تلك المفاسد، فلا مانع من شرب الخمر.

والتكاليف الدينية إنما جاءت لإصلاح الضمير، فإذا كان الضمير صالحًا فلا حاجة إليها.

وأعمال العبادة إنما هدفها القرب من الله، فإذا حصل القرب فلا حاجة إليها.

وهكذا يخرج الإنسان بأهوائه - كما يصورها له الشيطان منطقًا معقولًا - عن الدين كما خرج إبليس قديمًا بأهوائه - عن الدين حينما رفض السجود لآدم عليه السلام لزعمه أنه خير منه؛ لأنه خلق من النار، والنار أفضل من الطين.. كفرًا وعنادًا.

والإمام الغزالي - رحمه الله - يمثل لهذا بقصة مؤداها أن رجلًا بني لابنه قصْرًا على رأس جبل، ووضع فيه حشيشًا طيب الرائحة، ووصاه بألا يخلي القصر من هذا النبات طوال عمره، فزَرَع الولد من صنوف الرياحين والعنبر، فغَمَرت القصر رائحة طيبة، وزعم أنه آن

الوقت للاستغناء عن هذا الحشيش، فما وصاه به والده إلا لطيب رائحته، وقد ضاق به المكان.

فلما خلا القصر من الحشيش ظهر من بعض ثقوب القصر حية هائلة، وضربَتْه ضربة أشرف بها على الهلاك، حينئذ تنبه إلى فائدة الحشيش وقت لا ينفع التنبه، فقد كان من خاصة هذا الحشيش دفع هذه الحية، **فكان الغرض من الوصية شيئين:**

أحدهما: الانتفاع بالرائحة، وهذا ما أدركه الولد بعقله.

وثانيهما: دفع الأذى، وهذا ما قَصُر عن إدراكه، فاغتر الولد بما عنده من علم، وظن أن لا سر وراء ما يعلم ويعقل كما قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ ﴾ (النجم)، وقال الله ﷻ: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ (غافر).

ولا شك أن الإنسان إنما سبيله أن تفيده المِلَل بالوحي ما شأنه ألا يدركه بعقله البشري، وإلا فلا معنى للوحي. كما أن العقل يفهم محكم القرآن الكريم، ولا يناقض متشابهه، وقد جاء في القرآن الكريم: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ ﴾ (آل عمران).

فقد أراد الإسلام أن يستمسك المسلم بالمحكمات استمساكًا تامًّا، وأن يعتصم بها اعتصامًا كاملًا: ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ (آل عمران).
وأن يُسلِّم الأمر لله في المتشابه[1].

والقرآن لم يستشر الإنسان، بل قام بدور الهادي والمربي، وتعالى الخالق أن يستشير المخلوق، وتعالى الرب عن أن يستشير المربوب، وتعالى العليم الحكيم عن أن يحتكم إلى البشر أو يحكمهم فيما أنزله إليهم هداية وتربية، هذا هو موقف الدين من العقل: وترشدنا إليه آيات كثيرة، كقوله ﷻ: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ ﴾ (الكهف).

والآية تقرر أن كل شخص يُعْمِل فكره ويتأمل في هذا الحق، فإنه ـ لا محالة ـ سينتهي بالاعتراف والإقرار والإيمان، أما من اتبعوا الأسلاف بغير علم، فهم كالأنعام، بل هم أضل؛ لأنهم يلغون عقولهم؛ ومن هنا اتفق العلماء على أن الإيمان المقبول ما كان عن علم وبرهان، لا عن تقليد وإذعان، واختلفوا في إيمان المقلد أيصح منه أم لا؟

فكان طبيعيًّا أن يشن الإسلام حربًا شعواء على الخرافات والأباطيل، فهو ينهى أن يتبع الرجل أو يعتقد ما لم يقم عليه برهان قطعي ثابت.

وقد بلغ حرص الإسلام على أمر الاتباع في الجانب الذي لا ينبغي للعقل أن يعمل فيه حدًّا لافتًا، حتى لم يُجِز الرسول ﷺ أن يستبدل أحد صحابته بكلمة قالها كلمة بمعناها، كما روي عن البراء بن عازب ﷺ أن

---

1. المتشابه: نصٌّ قرآني يحتمل عِدَّة معانٍ، عكسه المُحْكَم.

النبي ﷺ قال: "إذا أتيت مضجعك، فتوضأ وضوءك للصلاة، ثم اضطجع على شقك الأيمن، ثم قل: اللهم إني أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت، ونبيك الذي أرسلت، فإن مت في ليلتك، فأنت على الفطرة"، واجعلهن آخر ما تتكلم به قال فرددتها على النبي ﷺ، فلما بلغت اللهم بكتابك الذي أنزلت قلت: ورسولك الذي أرسلت قال: لا، ونبيك الذي أرسلت"[1].

وبالجملة فإن العلم الصحيح الصادق هو في عالم الهداية الإلهية والتربية الربانية، وليس للعقل سبيل إليها وحده، فالإنسان إنسان بالجانب الروحي، وكلما سما الإنسان روحيًّا كان أعلى في معاني الإنسانية، وتحديد تلك المعاني الروحية موكول بالقرب من الله تعالى، وما دام الأمر كذلك فليس للعقل إلا التسليم والخشوع والخضوع.

وقد يَحْسُن أن نختم هذا البحث بلفتة دالَّة عن ورود مادة "العقل" في القرآن الكريم، فنشير إلى أنها لم ترد في القرآن بصيغة الاسم، وإنما وردت بصيغة الفعل، مثل: "تعقل، أو عقلوه، أو تعقلون، أو يعقلها، أو يعقلون" حوالي ٤٩ مرة، وذلك في الآيات التي تتحدث عن الطبيعة، والخلق، فذلك أدعى إلى الإيمان بالله تعالى بارتواء الروح؛ حتى لا يكون في الصدور حرج أو شك مما أنزل، فقد قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ (النساء)®.

ثانيًا. العقل في الإسلام مناط[2] التكليف، ولذلك نعي على من يعطّلون عقولهم:

العقل جزء من الشرع، فكما أنه لا عقل كامل بلا شرع، فلا شرع كامل بلا عقل. فما العقل؟ قال السلف: إن العقل عقلان: غريزي، ومكتسب.

فالغريزي هو ما نسميه بالمَقْدِرات العقلية، من فهم وإدراك وفقه، واتساق في الكلام، وحسن تصرف، وهذا هو مناط التكليف. ودين محمد ﷺ يقوم على دعائم ثلاثة: الإيمان بالله، والنبوة، واليوم الآخر، لذا قال الآمدي: "اتفق العقلاء على أن شرط المكلَّف أن يكون عاقلًا فاهمًا للتكليف؛ لأن التكليف خطاب، والفهم محال على الجماد والبهيمة مثلًا، وكذا المجنون والصبي؛ لقوله ﷺ: "رُفِع القلم عن ثلاث: عن النائم حتى يستقيظ، وعن الصبي حتى يحتلم، وعن المجنون حتى يعقل"[3].

وإذا كان العقل هو مناط التكليف في الشريعة الإسلامية، فإن حفظه ـ إذَن ـ ضرورة لا غِنَى عنها،

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوضوء، باب فضل من بات على الوضوء (٢٤٤)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع (٧٠٥٧).

® في **"مجالات عمل العقل في الإسلام"** طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الثانية عشرة، من هذا الجزء. وفي **"محدودية الإدراك العقلي"** طالع: الوجه الخامس، من الشبهة الرابعة والعشرين، من الجزء السابع (الإيمان والتدين).

٢. المَناط: العِلَّة.

٣. صحيح: أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الحدود، باب في المجنون يسرق أو يصيب حدًّا (٤٤٠٥)، والترمذي في سننه، كتاب الحدود، باب فيمن لا يجب عليه الحد (١٤٢٣)، وصححه الألباني في إرواء الغليل (٢٩٧).

ولا تستقيم حياة الناس بدون ذلك، ومما يدل على اهتمام الشريعة الإسلامية بحفظ العقل أنها حرَّمت كل ما من شأنه إفساد العقل، وإدخال الخلل عليه، وهذه المفسدات قسمان:

١. **مفسدات حِسِّية**: وهي التي تؤدي إلى الإخلال بالعقل، بحيث يصبح الإنسان كالمجنون، الذي لا يعرف صديقًا من عدو، ولا خيرًا من شر، وهذه المفسدات هي الخمور، والمخدرات، وما شابهها، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ (المائدة).

قال سيد قطب: إن غيبوبة السُّكْر ـ بأي مُسْكِرٍ ـ تنافي اليقظة الدائمة التي يفرضها الإسلام على قلب المسلم؛ ليكون موصلًا بالله في كل لحظة مراقبًا لله في كل خطوة، ثم ليكون بهذه اليقظة عاملًا إيجابيًا في نماء الحياة وتجددها، حافظًا لتكاليف ربه، حامٍ لماله وعرضه، فما كان المسلم عبدًا لشهوة أو لذة، بل يجب أن يسيطر دائمًا على رغباته، وغيبوبة السُكر تتنافى مع هذا فلا يرى الحق حقًّا.

٢. **مفسدات معنوية**: وهي ما يطرأ على العقول من تصورات فاسدة في الدين، أو الاجتماع، أو السياسة، أو غيرها، فتعطيل العقل عن التفكير السليم مفسدة له، لذا نعى الله ﷻ في كتابه على الكفار؛ حيث عطلوا عقولهم عن التفكير، في آيات الله القرآنية والكونية، قال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ (الفرقان).

قال ابن سعدى: "سجل ﷻ عليهم ضلالهم البليغ بأن سلبهم العقول والأسماع، وشبَّههم في ضلالهم بالأنعام السائمة التي لا تسمع إلَّا دعاء، ونداء، صم بكم عمي فهم لا يعقلون، بل هم أضل من الأنعام".

دعوة الإسلام إلى التفكر والنظر:

إن الإسلام يحرر العقل من عقاله، ومن أروع ما يُؤْثَر في هذا الباب عن رسول الله ﷺ أن الشمس كُسِفَت يوم مات ولده إبراهيم، فظن الناس أنها كُسفت من أجله، فأنكر ذلك حتى لا يقع الناس في رق الخرافات والأوهام.

فالإنسان قد ينزل بحسه وعقله إلى المستوى الحيواني، ويصير من طائفة من يقال فيهم: "كالأنعام"، وقد يرتفع بروحه الشفافة وبصيرته المضيئة وقلبه الطاهر إلى أن يكون أقرب إلى الملائكة؛ لأن صفاء الروح وكشف الرَّانِ[1] عن القلب الذي كان يحجبه عن تلقي الأنوار الربانية يجعله محلًّا للإلهام، والمعرفة المستنيرة.

وفريضة التفكير في القرآن الكريم تشمل العقل الإنساني بكل ما احتواه من وظائف؛ فهو يخاطب العقل الوازع، والعقل المدرك، والعقل الحكيم، والعقل الرشيد.

فمن خطابه ﷻ إلى العقل، قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ

١. الرَّان: الحجاب.

لَآيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ (البقرة)، وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾ (الروم)، وقوله تعالى: ﴿ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ (العنكبوت).

ومنه ما يخاطب العقل الوازع، في قول الله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ ﴾ (الملك)، ﴿ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾ (الأنعام)، ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ (يوسف)، وقوله تعالى: ﴿ تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ (الحشر).

إلى جانب الآيات التي تبتدئ بالزجر، وتنتهي إلى التذكير بالعقل؛ ذلك لأنه خير مرجع للهداية في ضمير الإنسان، كقوله تعالى: ﴿ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (البقرة)، ﴿ وَإِذَا نَادَيۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوٗا وَلَعِبٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ (المائدة)، وقوله تعالى: ﴿ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ (الأنعام)، ﴿ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ (الأنبياء).

وهذا خطاب العقل المدرك، وهو يقوم على الفهم والوعي؛ لأنه موطن الإدراك في ذهن الإنسان، قال تعالى: ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٧﴾ ﴾ (آل عمران)، وقوله تعالى: ﴿ قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِۚ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ (المائدة)، وقوله تعالى: ﴿ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١١١﴾ ﴾ (يوسف).

كما يدعو أيضًا إلى الفكر والنظر، والتدبر والاعتبار، وسائر هذه الملكات الذهنية، ونلمح ذلك في قول الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ (آل عمران)، وفي قوله تعالى: ﴿ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ (الأنعام). وفي قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ﴿١٧﴾ ﴾ (الغاشية)، وفي قوله تعالى: ﴿ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ ﴾ (الأنعام:٦٥)، وفي قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلۡمَآءَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡجُرُزِ فَنُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا تَأۡكُلُ مِنۡهُ أَنۡعَٰمُهُمۡ وَأَنفُسُهُمۡۚ أَفَلَا يُبۡصِرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ (السجدة) وفي قوله تعالى: ﴿ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ﴿٤﴾ ﴾ (عبس). وفي قوله تعالى: ﴿ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (الزمر)، وفي قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ﴿٦٦﴾ ﴾ (الكهف).

والأمثلة على ذلك كثيرة، ويتبين منها أن العقل الذي يخاطبه الإسلام، هو الذي يعصم الضمير،

ويدرك الحقائق، ويميز الأمور، ويوازن بين الأضداد، ويتبصر ويتدبر، وهو العقل الذي يقابله الجمود والعنت والضلال.

وهنا يبرز فضل الحكمة والرشد على مجرد التعقل والفهم، كما قال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (٢٦٩)﴾ (البقرة).

ويدل على ذلك أن الأنبياء يطلبون الرشد والعلم من بعض عباد الله الصالحين، كما جاء في قصة موسى والعبد الصالح ـ عليهما السلام ـ فالدين الإسلامي دين لا يعرف الكهانة[1] ولا يتوسط فيه السَّدَنَة[2] والأحبار بين المخلوق والخالق، وهذا هو المنتظر من دين يُلْزِم كل إنسان طائره في عنقه، ويحاسبه بعمله، قال تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ (٤٠)﴾ (النجم)[3].

ثالثًا. لا تعارض بين المعقول والمنقول، وتقديم النقل أوجب عند التعارض:

لا تعارض بين العقل والنقل:

لا شك أن الصحابة الكرام كانوا يدركون أن النقل ـ القرآن الكريم والسنة النبوية ـ هو القائد الذي لا بد من تسليمه زمام حياتهم، لكن هذا التسليم لا ينطلق في إطار "اعتقد وأنت أعمى"، فقد قال القرآن: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ (محمد: ١٩)، والآيات التي تحث على التفكر والنظر تأتي في مئات المواضع في القرآن الكريم؛ لذا فَهِم السلف أن العقل هو الآنية التي يملؤها النقل.

وقد ظهرت بوادر الاختلال عندما جمدت عقول المسلمين عن الإبداع بحجة الاتباع، بينما جنح آخرون نحو الغلو في تقدير العقل حتى خاضوا في كثير من مسائل "عالم الغيب"، ووصلوا إلى الابتداع تحت راية الإبداع، وليس هذا بصحيح، بل ما جاء من عند الله فهو ثابت، وكل ما أدَّت إليه الاجتهادات البشرية فهو خاضع للتغير.

فلا يصح أن كل ما هو تراث يجب أن يُهال عليه التراب دون تفريق بين أصول إلهية معصومة وفروع بشرية غير معصومة، كما لا يصح أن ننظر إلى الماضي كإناء احتوى حضارة عظمى دون تفريق بين النقل المعصوم، والعقل الذي فكر وقدر، وجرب فأخطأ وأصاب.

وإن من يتنكرون للتراث ومن يجمدون عليه معًا يساهمون دون وعي في إضعاف فاعلية الأمة، والمخرج أن يتم إعمال العقل في فهم النقل، وحينها سيتم الاحتفاظ بالتراث المنسجم من مقاصد الشرع واستقبال الجديد من وقائع العصر، واختيار الأصلح منها؛ لنقوم بمزج ذلك كله في عقل المسلم، كما تمزج النحلة رحيق الأزهار ثم تخرجه عسلًا مصفًّى شافيًا، فكل عقل لا يبدأ إلا بالنقل، وكل نقل لا يكون إلا بالعقل، إذ إن كليهما ضروري، سواء في الرؤية الإسلامية أو في الواقع العملي لنهوض الأمة؛ فهي إلى هلاك بدونهما.

١. الكهانة: ادعاء معرفة الأسرار أو أحوال الغيب.

٢. السَّدَنة: جمع سادن، وهو الحاجب.

٣. التفكير فريضة إسلامية، عباس محمود العقاد، دار القلم، القاهرة، ط١، ص٨: ٢٠ بتصرف.

وجوب تقديم النقل عند التعارض:

يقول ابن تيمية ـ رحمه الله: إذا تعارض العقل والنقل، وجب تقديم النقل؛ لأن الجمع بين المدلولين جمع بين نقيضين، ورفعهما رفع للنقيضين، وتقديم العقل ممتنع؛ لأن العقل دل على صحة السمع، ووجوب قبول ما أخبر به الرسول ﷺ، فلو أبطلنا النقل لكُنَّا أبطلنا دلالة العقل، فلم يصح أن يكون معارضًا للنقل، فكان تقديم العقل موجبًا عدم تقديمه، فلا يجوز تقدمه.

فإذا تعارض العقل والشرع وجب تقديم الشرع؛ لأن العقل مصدق للشرع في كل ما أخبر به، والشرع لم يصدق العقل في كل ما أخبر به، ولا العلم بصدقه موقوف على كل ما يخبر به العقل، قال بعضهم: يكفيك من العقل أن يعلمك صِدْق رسول الله ﷺ ومعاني كلامه.

وإن تقديم المعقول على الدلالة الشرعية ممتنع متناقض، وأما تقديم الأدلة الشرعية فهو ممكن مؤتلف، فقد اتفق أهل الإسلام على ثوابته، فمثلًا نَقْل حروف القرآن الكريم، والصلوات الخمس، والقبلة ومقادير الزكاة بالتواتر، ومعلوم أن النقل المتواتر يفيد العلم اليقيني.

فلو قيل بتقديم العقل على الشرع ـ وليست العقول بالطبع شيئًا واحدًا ـ لاختلفت آراء الناس باختلاف عقولهم في كل مكان وزمان، بل في البيئة الواحدة. أما الشرع فهو في نفسه قول الصادق. وهذه صفة لازمة له لا تنفك عنه، ولا تختلف باختلاف الناس.

رابعًا. ترشيد القرآن للنظر العقلي:

كان الإسلام ـ وما زال ـ دين العقل الصريح والمنطق الواضح والبرهان الصادق، قال تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١١١)﴾ (البقرة)، وعلى هذا الأساس، فقد حفل القرآن الكريم بالآيات التي تحث على الحكمة: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (٢٦٩)﴾ (البقرة)، وتدعو إلى التعقل: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ (٢٤٢)﴾ (البقرة)، وإلى التفكر: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦)﴾ (الأعراف)، والابتعاد عن الظن السيئ: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ (يونس: ٣٦)، والابتعاد عن الهوى المُضل: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ (القصص: ٥٠)، وتدعو إلى العلم: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ (المجادلة: ١١)، وقال أيضًا: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٩)﴾ (الزمر).

وقد اتخذ الإسلام في منهجه العقلي خطوات متتالية، ترقى بالعقل درجة درجة حتى تُفْضِي به إلى اليقين الديني، منها:

١. **محاربة الجمود والتقليد:** لأن البناء على أساس عقلي متين يقتضي تنقية الرواسب التي خلفتها القرون الزمنية الماضية التي هيمنت على العقول، وحجبتها عن البحث والتأمل؛ لذلك أثبت القرآن صفة هؤلاء، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ

شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾ (البقرة)®.

٢. **مكافحة المكابرة والعناد:** والمعاندون هم الذين يرون الحقائق ماثلة أمام أعينهم، ولكنهم يكابرون ويختلقون الأكاذيب لطمسها، وصرف العقول عنها، وإذا وُضِع الحق ماثلًا أمامهم - لا سبيل إلى نكرانه - كابروا: ﴿ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ ﴾ (فصلت)، ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ ﴾ (الإسراء)، وفي هؤلاء قال تعالى: ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ (الحجر)، وأمثال هؤلاء وَجَبَ فَضْحهم حتى لا يَفْتِنُوا غيرهم بما يُلفِّقونه ويبتدعونه من سَفْسَطة[1] ومُهاترات[2].

٣. **التأمل والاستنباط:** بعد تحرير العقول من المعتقدات الفاسدة، وكشف أباطيل المعاندين، وقد ناشد الإسلام أهله - باستمرار - أن يتدبروا ويتأملوا في ملكوت السماوات والأرض، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ (آل عمران)، وقال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ ﴾ (الغاشية)، بل يحفز إلى التأمل الذاتي في تكوين الجسد والعقل: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ ﴾ (الطارق)، ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ (الذاريات)، ﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ (الروم).

٤. **النتائج العلمية مؤيدة بالبراهين:** بعد مرحلة التدبر يعين الإسلام على الوصول إلى النتائج العلمية مؤيدة بالدليل المنطقي الملموس، قال تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ (الأنبياء: ٢٢)، وقال أيضًا: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ (المؤمنون).

وهكذا نجد الحقيقة الكبرى مقررة بالبرهان العقلي حتى لا يعتري الناس شك أو إيهام، كتقريره - مثلًا - لموضوع الوحدانية، قال تعالى: ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ

® في **"حقيقة الإيمان ومنافاتها للتقليد"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثالثة، من الجزء السابع (الإيمان والتدين). وفي **"نعي القرآن على المشركين تقليدهم للأسلاف في أمور دينهم"** طالع: الشبهة الخامسة والأربعين، من الجزء الأول (الشبهات التي تولى القرآن الرد عليها).

١. السَّفْسَطة: الجدل والتضليل.

٢. المُهاترات: جمع المهاترة؛ أي: قول ينقض بعضه بعضًا.

خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾ (النمل)، وفي التدليل على البعث والنشور قال الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾﴾ (الواقعة).

وهكذا يظل القرآن يوالي الحقائق مشفوعة بالدليل القاطع والبرهان المبين[1].

الخلاصة:

- أجلّ الإسلام العقل، وقدر المنطق، فذلك أدعى للامتثال، وتمام التسليم، فالعقل مناط التكليف، وبذلك دعا القرآن الكريم إلى التفكر والنظر، ولكن إعمال العقل في نصوص الشريعة - القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة - ليس مطلقًا، وإلا أدى ذلك إلى التحزب والتفرق؛ إذ ليس هناك حقيقة واحدة ثابتة على ذلك لاختلاف العقول، وبالتالي اختلاف الآراء، وهذا ما لم يَدْعُ إليه الإسلام.

- لم يلغ الإسلام العقل ولم يأمر بتعطيله، بل حثّ على إعمال العقل، وأنكر على الذين لم يُعْمِلوا عقولهم، فقال: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾﴾ (يس).

- وصف القرآن المعطلين لعقولهم بالأنعام بل هم أضل، ومن ثم كانت حرية الاعتقاد: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ (الكهف: ٢٩)، فالحق واضح لأولي الألباب، واستعمال العقل يعمق الإيمان بالله تبارك وتعالى؛ لأنه مخلوق على الفطرة التي فطره الله عليها، ولكن الكفر والعناد والاستكبار يطمس البصائر ويعمي الأفئدة.

- استعمال العقل في نصوص الشريعة ليس مطلقًا؛ فالعقل والنقل بينهما تكامل، وكل منهما يقوي الآخر؛ إذ إن كل عقل لا يبدأ إلا بالنقل، وكل نقل لا يكون إلا بالعقل، وكلام القائلين بتعارض العقل والنقل، ينقصه الدليل.

- أما عند توهُّم التعارض بينهما - لقصور العقل - فيجب تقديم النقل على العقل عند أهل السنة والجماعة؛ ذلك لأن العقل مخلوق، أما نصوص الشريعة فقد قالها الحق تبارك وتعالى وهو أعلم بخلقه.

- وإعمال العقل في القرآن والسنة ليس للحكم على صحتهما، وإنما لتوثيق نسبتهما إلى الله ورسوله، واطمئنان القلب إلى ذلك، ولإيضاح ما فيهما من دقائق المعاني ورقائق الهدى.

---

١. انظر: الإسلام والعقل، د. عبد الحليم محمود، دار المعارف، القاهرة، ط٣، ١٩٨٨م. تغييب الإسلام الحق، د. محمود توفيق محمد، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م. منهج السلف بين العقل والتقليد، د. محمد السيد الجليند، مكتبة العمرانية، القاهرة، ١٩٩٤م. أقطاب العلمانية في العالم العربي والإسلامي، طارق منينة، دار الدعوة، القاهرة، ٢٠٠٠م.

الشبهة الثانية عشرة

ادعاء مناقضة العقل للإيمان في الإسلام(*)

مضمون الشبهة:

يُخْطئ بعض الواهمين في فهم دعوة القرآن الكريم للتفكُّر والتدبُّر من أجل الإيمان على بصيرة؛ فهم يفهمون هذه الدعوة على أنها عيبٌ في القرآن وليست ميزة؛ لأنه يدعو إلى إعمال العقل، والإيمان والعقل في ظنهم متعارضان غير متوافقين أصلًا.

وجوه إبطال الشبهة:

١) دعوة الإسلام إلى إعمال العقل دليل قوته وصحته، فهو لا يناقض العقل، ولو صحت هذه الدعوى لحجر الإسلام على العقل ورفض التفكير، كما حدث في الديانات المحرفة.

٢) تقدير الإسلام للعقل هو تكريم وتشريف للإنسان الذي حرره الإسلام من رق الكُهَّان والقديسين.

٣) الإسلام جاء هاديًا للعقل ومرشدًا له؛ لأن قضاياه توافق العقول، ولم يأت القرآن محكِّمًا للعقل في الدين.

التفصيل:

أولا. دعوة الإسلام إلى إعمال العقل دليل قوته وصحته:

هذه الدعوى تنعكس على مُدَّعيها، فإغفال العقل في الديانات المبدَّلة دليل على أن تصورها الديني لم يعد يقبله عقل صحيح، ودليل على مناقضته ومعارضته للنظرة السوية، ومن هنا كان شعارهم: "الْعَن عقلك واعتقد"، وأن الإيمان والعقل لا يلتقيان، فكانت عقائدهم سببًا في الحجر على العقول وجمود التفكير وتقهقر العلم، إلى أن تمرد العقل عليها وأقصاها، فتبدل التخلف تقدمًا والحجر والجمود تحرُّرًا.

والإسلام يدعو إلى إعمال العقل، ويجعل من التفكير فريضة[1]، لا لضعفه ولكن لقوته؛ لأن العقل كلما استيقظ أدرك أن الإسلام - بكل تعاليمه من أصل الإيمان، الإيمان بالله وحده، ونبذ ما عداه من الشريك، إلى أبسط تعاليمه، كإماطة الأذى عن الطريق - مما يقبله العقل، ويحتاج إليه الإنسان لأنه يلبِّي حاجاته الفطرية.

ولو كان الإسلام بكل تعاليمه ضعيفًا، أو مهزوزًا، أو ضعيف الثقة بنفسه؛ لتهرب من العقل - كما صنعت عقائد أخرى - ولرفض التفكير، ولكنه يحترم العقل ويقدره ويطلب منه أن يقوم بدوره؛ لأن العقل بدوره يقبل تعليمه، فيُقْبِل عليه ويستجيب له®.

ثانيًا. تقدير الإسلام للعقل هو تحرير للإنسان من رق الكهنة والقديسين:

يقول العقاد: "والذي ينبغي أن يُناب إليه[2] مرة بعد

(*) حتى الملائكة تسأل: رحلة إلى الإسلام في أمريكا، جيفري لانغ، ترجمة: د. منذر العبسي، دار الفكر المعاصر، بيروت، ٢٠٠١م.

١. التفكير فريضة إسلامية، عباس محمود العقاد، مرجع سابق، ص٥ وما بعدها.

® في "**حث الإسلام على طلب العلم وإعمال العقل**" طالع: الوجه الأول، من الشبهة السابعة، من الجزء الخامس (النظم الحضارية). وفي "**مزية الإسلام الكبرى في إعمال العقل**" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة السابعة، من الجزء الخامس (النظم الحضارية).

٢. يُناب إليه: يُرْجَع إليه.

مرة أن التنويه بالعقل - على اختلاف خصائصه - لم يَأْتِ في القرآن عَرَضًا[1]، ولا تردد فيه كثيرًا من قبيل التكرار المعاد، بل كان هذا التنويه بالعقل نتيجة منتظرة يستلزمها لباب الدين وجوهره، ويترقبها من هذا الدين كل من عرف كُنْهَه[2]، وعرف كنه الإنسان في تقديره، فالدين الإسلامي دين لا يعرف الكهانة، ولا يتوسط فيه السَّدَنَة والأحبار بين المخلوق والخالق، ولا يفرض على الإنسان قربانًا يسعى به إلى المحراب بشفاعة من وَلِيٍّ متسلط، أو صاحب قداسة مُطاعة، فلا تُرْجُمان فيه بين الله وعباده يملك التحريم والتحليل، ويقضي بالحرمان أو بالنجاة، فليس في هذا الدين أمرٌ يتجه إلى الإنسان من طريق الكُهَّان، ولن يتجه الخطاب إلا إلى عقل الإنسان حُرًّا طليقًا من سلطان الهياكل والمحاريب، أو سلطان كهانها المحكَّمين فيها بأمر الإله المعبود كما يدين به أصحاب الديانات الأخرى، ولا هيكل في الإسلام: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ (البقرة: ١١٥). ولا كهانة حيث لا هيكل، فكل أرض مسجد، وكل من في المسجد واقف بين يدي الله.

ودين بلا هيكل ولا كهانة لن يتجه فيه الخطاب - بداهة - إلى غير الإنسان العاقل حرًّا طليقًا من كل سلطان يحول بينه وبين الفهم القويم والتفكير السليم.

كذلك يكون الخطاب في الدين؛ الذي يُلزم كل إنسان طائره في عنقه، ويحاسبه بعمله، فلا يؤاخذ أحد بعمل غيره: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (الأنعام: ١٦٤)، و: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾ (الطور)، ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ (النجم).

فإذا كان في الأديان دين يجتبي القبيلة بنسبها، أو يجتبي[3] المرء قبل مولده؛ لأنه مولود فيها، أو كان في الأديان دين يحاسبه على خطيئة ليست من عمله، فليس في الإسلام إنسان ينجو بالميلاد أو يهلك بالميلاد، ولكنه الدين الذي يوكل فيه النجاة والهلاك بسعي الإنسان وعمله، ويتولى فيه الإنسان هدايته بفهمه وعقله، ولا يبطل فيه عمل العقل، إن الله بكل شيء محيط.

وعلى هذا النحو يتناسق جوهر الإسلام ووصاياه، وتأتي فيه الوصايا المتكررة بالتعقل والتمييز منتظرة مقدرة لا موضع فيها للمصادفة، ولا هي مما يطرد القول فيه متفرقًا غير متصل على نسق مرسوم، فإنها وصايا منطقية في دين يفرض المنطق السليم على كل مستمع للخطاب قابل للتعليم.

وهكذا يكون الدين الذي تصل العبادة فيه بين الإنسان وربه بغير واسطة ولا محاباة، ويحاسب فيه الإنسان بعمله كما يهديه إليه عقله، ويطلب فيه من العقل أن يبلغ وسعه من الحكمة والرشاد[4].

ثالثًا. جاء الإسلام هاديًا للعقل وموجهًا له إلى مساره الصحيح:

في سياق الحديث عن منزلة العقل في الإسلام يعرض د. عبد الحليم محمود فكرة أن الإسلام يقدر العقل حتى يُحْتكم إليه في أمر الدين، ويناقشها في كتابه

١. عَرَضًا: بطريق الصُّدْفة، من غير قصد أو رَوِيَّة.
٢. الكُنْه: جوهر الشيء وأصله وحقيقته.
٣. يجتبي: يختار.
٤. التفكير فريضة إسلامية، عباس محمود العقاد، مرجع سابق، ص١٦، ١٧ بتصرف.

"الإسلام والعقل" فيقول ـ بعد أن يذكر الآيات التي تحضُّ على استخدام العقل:

هـذه الآيـات الكريمـة، بـل القـرآن في جملتـه والأحاديث الشريفة في جملتهـا، وتـاريخ الإسـلام، إن كل ذلك يدل ـ حسبما يـرون ـ عـلى أن الإسـلام ديـن العقل.

وإذا ما تـساءلنا الآن مـا يعنـون أنـه ديـن العقـل؟ أجابوا بأنه يحتكم إلى العقل، ويرون بـذلك أنـه يحكـم العقل في المسائل، والمبادئ والقواعد، وينتهي ذلك ـ لا مناص ـ بأن يكـون العقـل هـو القائـد ولـيس الـدين، وذلـك قلـب للأوضـاع، وانحـراف عـن الـصراط المستقيم!

أما عن الصراط المستقيم فيما يتعلق بصلة العقل مع الدين فهوفقد جاء الدين هاديًا للعقل في مسائل معينة هي:

- **الغيبيات، أي**: العقائد الخاصـة بـالله سـبحانه، وبرسله عليهم السلام، وباليوم الآخر، والغيب الإلهي.
- **الأخلاق، أي**: الخير والفضيلة، ومـا ينبغـي أن يكون عليه السلوك الإنساني ليكون الشخص صالحًا.
- **التشريع: الذي** ينتظم بـه المجتمـع، وتـسعد بـه الإنسانية، وجاء الـدين هاديًـا للعقـل في هـذه المـسائل بالذات؛ لأن العقل إذا بحث فيها مستقلًا بنفسه فإنه لا يصل فيها إلى نتيجة يتفق عليها الجميع.

ومعنى ذلك أنه لو تـرك النـاس وعقـولهم في هـذه المسائل فـإنهم يتفرقـون فرقًـا عديـدة ويتنـازعون، ولا ينتهي الأمر بهم إلى الوحدة والانسجام، ولا إلى الهدوء والطمأنينة.

وجـاء القـرآن يفهمـه العقـل في المحكـم منـه ولا يتناقض العقل في المتشابه منه، ذلك أن القـرآن الكـريم منه: ﴿ءَايَٰتٌ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ (آل عمران: ٧)، وقد أراد الإسلام من المسلم أن يستمسك بالمحكمات استمساكًا تامًّـا، وأن يعتـصم بهـا اعتـصامًا كاملًا، فقال ﷻ: ﴿وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٠١﴾ (آل عمران).

وأن يسلم الأمر لله في المتشابه، اللهم إلا إذا فتح الله عليه بوساطة الإلهام الإلهي، عـن شيء مـن أسرار هـذا المتـشابه الـذي لا ينـاقض العقـل، ولا يتعـارض مـع مبادئه.

هذا هو موقـف الـدين مـن العقـل، وهـو موقـف ترشدنا إليه الآيات السابقة نفسها، ونأخـذ منهـا قـول الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ﴾ (الكهف: ٢٩)، في هـذه الآيـة الكريمة يأمر الله ﷻ رسوله ﷺ أن يخبر بأن مـا أتـى بـه إنما هو الحق، وإذا كـان هـو الحـق، فـإن كـل مـا عـداه باطل.

أمـا مـن أضرب عـن ذلـك صَـفْحًا واتَّبـع الآبـاء والأسلاف، لمجرد أنهم آباء وأسلاف فإنَّ مَثَلـه كمثـل البهيمة التي تسير وراء أصحابها لمجرد أنهم يقودونهـا، وتَتْبَعهم لأنهم يسيرون أمامها، ومـن شـاء مـن النـاس أن يؤمن بهذا الحق الذي ليس بعده إلا الباطل فليـؤمن وليتَّبع الهَدْي الحق، ومـن شـاء مـنهم أن يكفـر بـالحق ويتبـع الباطـل معرضًـا عـن الحـق البـين فلـه ذلـك، ولكن ليعلم أن الله ﷻ أعد لمن لم يتبع الإيـمان: ﴿نَارًا

أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ﴾ (الكهف: ٢٩).

والقرآن دين العقل بهذه المعاني، فهو هاد للعقل، ومرشد له وقائد، وهو يدعو إلى مبادئ يفهمها العقل في سهولة ويسر، وهو لا يناهض العقل، وعلى العقل أن يلجأ إليه في كل ما أتى به.

على أن القرآن - في حقيقة الأمر - نزل ليقود الإنسانية نحو الكمال الروحي، والمعنى الروحي لا سبيل إلى تحديده من الإنسان نفسه، وإنما تحديده موكول إلى الله سبحانه؛ إذ إن السمو الروحي قرب من الله تعالى، وكل من حاول أن يتخذ طريقًا آخر فإنما يجري وراء سراب.

والغاية والوسيلة حدَّدها الله في كتابه الكريم بالأسلوب الإلهي نفسه، ومن فضل الله على المسلمين أن اللغة العربية كانت وسيلة فهم الإسلام، وما دام الأمر كذلك فليس للعقل إلا التسليم والخشوع والخضوع، أو بتعبير أدق السجود، وهو ليس سجودًا تعسفيًّا أو تحكُّميًّا، إنما هو سجود مصدره الإيمان اليقيني بأن هذا من عند الله، من هذا نتبين أن الدين هادٍ للعقل، وأن العقل يجب أن يخضع ويسجد للوحي الإلهي.

ونعود من جديد إلى المسألة التي بدأنا بها الحديث نعود من جديد إلى مسألة القرآن والعقل، سيقولون: ولكن القرآن يطالب دائمًا بالتفكر والتدبر: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ۝٢﴾ (الحشر)، وقال ﷻ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ (ق: ٣٧)، وينعى على المشركين التقليد ويتهكم منهم في اتباعهم آباءهم، فيتساءل: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (البقرة: ١٧٠). وكثيرًا ما نجد الآيات تختم بـ: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ ۝٦٨﴾ (يس)، و: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٧٢﴾ (القصص).

والواقع أنَّ القرآن الكريم لا يستشير الإنسان في أية قضية من القضايا التي جاء بها الوحي، ولا يحتكم الوحي إلى الإنسان باعتباره حكمًا في أي مبدأ من مبادئه، ولا يطلب منه مشورة في أية قاعدة من القواعد التي شرعها، بل هذه الأوهام لا تدور بخَلَد المتدين أبدًا.

ذلك أن الوحي نزل على أنه رسالة السماء النهائية إلى العالم، ونزل مبلِّغًا أن هذه الرسالة صدق كلها، حق جميعها، ليس فيها مبدأ مشكوك فيه، ولا قضية تحتمل الصدق والكذب، وليس فيها قيم زائدة، بل هي الحق الخالص، وكل ما ذكره من التفكير والنظر والتدبر إنما أراد به الاعتبار، وأراد أن يقول: تفكروا لتروا أن ذلك هو الحق، أما إذا رأيتم غير ذلك فإنما العيب في بصركم أو في بصيرتكم، إن قلوبكم رانَ عليها الإثمُ فضلَّت، قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ (النساء: ٦٥).

ومن لم يسلم إلى الله بكلِّيته فهو الخاسر، لكن باب التوبة مفتوح للتائبين آناء الليل وأطراف النهار، وفي كل لحظة، والناظر إلى السلف الصالح يجدهم كانوا يسلمون للنَّص، وتسجد له قلوبهم قبل جوارحهم، ويجعلون النص هو الحكم المهيمن.

وعن علي ﷺ قال: رأيت رسول الله ﷺ يمسح على ظاهر خُفَّيْهِ، ولو كان الدين بالرأي لكان أسفل الخفِّ

أولى بالمسح من أعلاه"[1].

وعن البراء بن عازب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة، ثم اضطجع على شِقِّك الأيمن، ثم قل: اللهم إني أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا مَنْجَى منك إلا إليك، اللهم آمنت بكتابك الذي أنزلت، وبنبيك الذي أرسلت، فإن مِتَّ من ليلتك فأنت على الفِطْرة، واجعلهن آخر ما تتكلَّم به"، قال: فردَّدتها على النبي ﷺ، فلما بلغت "اللهم آمنت بكتابك الذي أنزلت" قلتُ: ورسولك، قال: "لا، ونبيك الذي أرسلت"[2].

إن الصحابي الجليل قال: "ورسولك" بدلًا من "ونبيك"، فصحح له رسول الله ﷺ وقال: "لا، ونبيك الذي أرسلت"، مع أن "رسولك" تشمل النبوة والرسالة معًا، وهذا دليل على أننا لا نحكم بالعقل، بل بالدليل من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ ﴾ (القمر)، وقال ﷻ: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾ (البقرة: ٣١).

إن العلم الصحيح الصادق في علم الهداية الإلهية والتربية الربانية إنما هو من الله سبحانه، وكل ابتعاد عنه أو خروج عليه أو تغيير فيه إنما هو ضلال، وما من شك في أن الإنسان منذ أن وُجِد على ظهر الأرض يحاول أن ينزع نزعة بشرية بحتة ويتصرف في الوحي الإلهي نقصًا وزيادة، وبترًا وإضافة، وتقديرًا وتبديلًا.

فيقول مثلًا: إن الحكمة من تحريم الخمر إنما هي المفاسد التي تنشأ من الشخص الشارب، فإذا ما انتفت تلك المفاسد فلا مانع من شرب الخمر.

ويقول مثلًا: إن التكاليف الدينية إنما جاءت لإصلاح الضمير، فإذا كان الضمير صالحًا فلا لزوم للتكاليف الدينية، وأعمال العبادة إنما هدفها القرب من الله، فإذا حصل القرب ـ مثلًا ـ فلا حاجة إليها، وهكذا يربح الإنسان بأهوائه، ولا نقول بعقله؛ لأن له أهواء يصورها الشيطان منطقًا معقولًا، كما خرج إبليس قديمًا ـ بأهوائه التي تمثلت لذهنه منطقًا ـ عن الدين.

والإمام الغزالي يُمثِّل لذلك بمثال مُعبِّر، فيذكر قصة رجل بنى لابنه قصرًا على رأس جبل، ووضع فيه حشيشًا طيِّب الرائحة، وأوصاه بألَّا يُخْلِي القصر من هذا الحشيش أبدًا، لكن الولد فهم أن الحشيش للرائحة، فنزع الحشيش، فإذا بحيَّة هائلة أتت وضربته ضربة أشرف منها على الموت، فتنبَّه حيث لم ينفعه التنبُّه أن حفظ الحشيش حكمته طيب الرائحة، وهو الظاهر، والحكمة الخفية إزالة المُهْلِكات ودفعها عن القصر، فاعتبر الولد بما عنده من العلم العقلي ولم يدرك المعقول كما قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ (النجم: ٣٠).

وقال تبارك وتعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ

---

١. صحيح: أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الطهارة، باب كيف المسح (١٦٢)، والدارقطني في سننه، كتاب الطهارة، باب ما في المسح على الخفين من غير توقيت (٤)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١٤٧).

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوضوء، باب فضل من بات على الوضوء (٢٤٤)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع (٧٠٥٧).

﴿يَسْتَهْزِءُونَ ۝٨٣﴾ (غافر)، والمغرور من اغترَّ بعقله فظن أن ما هو منتف عن علمه فهو منتف في نفسه، فإن الإنسان إنما وسيلته أن تُفِيدَه الملل بالوحي ما شأنه ألا يدركه بعقله، وما يخور عقله عنه، وإلا فلا معنى للوحي ولا فائدة إذا كان إنما يفيد الإنسان ما كان يعلمه.

فإن الإنسان وإن بلغ نهاية الكمال في الإنسانية، فإن منزلته عند ذوي العقول الإلهية - التي استنارت بالوحي وسَمَت بالمبادئ الإلهية - كمثل الصبي والحَدَث[1] والغِرّ[2] عند الإنسان الكامل.

كذلك الإنسان الكامل الإنسانية، لا يمتنع من أن يستنكر أشياء ويخيل إليه أنها غير ممكنة، من غير أن تكون في الحقيقة كذلك.

يشرح أبو سليمان المنطقي كل ذلك بدقة وفي أسلوب جميل فيقول: "إن الشريعة مأخوذة عن الله عز وجل بوساطة السفير بينه وبين الخلق من طريق الوحي، وباب المناجاة، وشهادة الآيات، وظهور المعجزات، وفي أثنائها ما لا سبيل إلى البحث عنه والغوص فيه، ولا بد من التسليم المدعو إليه والمُنَبَّه عليه، وهناك يسقط "لِمَ"، ويبطل "كيف"، وتذهب "لو" و "ليت" في الريح، ولو كان العقل يكتفى به لم يكن للوحي فائدة.

على أن منازل الناس متفاوتة في العقل وأنصبتهم مختلفة فيه، فلو كنا نستغني عن الوحي بالعقل، كيف كنا نصنع وليس العقل بأسره لواحد منا؟ فإنما هو لجميع الناس، ولو استقل إنسان واحد بعقله في جميع حالاته في دينه ودنياه لاستقلَّ أيضًا بقوته في جميع حاجاته في دينه ودنياه، ولكان وحده يفي بجميع الصناعات والمعارف، وكان لا يحتاج إلى آخر من نوعه وجنسه، وهذا قول مردود ورأي مخذول.

فإذا كانت منازل الناس متفاوتة في العقل، وأنصبتهم مختلفة فيه، فمعنى ذلك أن هذا الذي يروق لشخص عقليًّا ربما لا يروق لغيره عقليًّا، ويجب من أجل ذلك ألا يتدخل العقل في الدين، وإلا اختلف الناس باختلاف عقولهم وادَّعى كلٌّ أن ما هو عليه هو الحق وما عليه غيره هو الباطل، ونتج عن ذلك اتباع كلٍّ أهواءه، ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ (الجاثية: ٢٣)، فتتفرق الأمة وتخرج على ما أحبه الله تعالى وأمر به حين قال: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ (آل عمران: ١٠٣) "®.

وإذا تساءلت الآن: ما هو إذًا موقف العقل من الدين، وموقف الدين من العقل؟ فإننا نجمل الموضوع في النقاط الآتية:

نزل الدين هاديًا للعقل في جميع الأمور التي لو ترك العقل وشأنه فيها ضل السبيل، وعجز عن الوصول إلى الحقيقة، وهذه الأمور هي:

- العقائد.
- المبادئ الأخلاقية إجمالًا وتفصيلًا.

® في **"خفاء العلة لا يعني انتفاء الحكمة"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة الرابعة عشرة، من الجزء الخامس عشر (السياسة الجزائية). وفي **"وجوب التسليم بحكمة التعاليم الشرعية"** طالع: الوجه الخامس، من الشبهة الثالثة، من الجزء الثالث عشر (العبادات والمعاملات الاقتصادية).

---

١. الحَدَث: صغير السن.

٢. الغِرُّ: الذي لا خبرة له.

- التشريع في قواعده العامة، وفي بعض تفصيلاته، وقواعده العامة التي تتضمن الجزئيات على مر الزمن، وعلى اختلاف البيئات.

أما الطبيعة والكون من سمائه إلى أرضه... إلخ فقد تركه الله ﷻ للإنسان يدرسه في مصنعه ومعمله بآلاته وأدواته، وحثه على أن يجول في ذلك ما استطاع إليه سبيلًا، حتى يكتشف سنن الله الكونية ونواميس الطبيعة، ويرى صنع الله الذي أتقن كل شيء، ولم يحجر الدين على الإنسان في هذا المجال، اللهم إلا الواجب الذي ينبغي أن يكون شعاره دائمًا، وهو أن يكون هدفه من كل ذلك الخير[1].

وقد ظهر هذا التحديد لدور العقل في كلام الأصوليين المسلمين عن الأحكام وأدلتها، فإنهم قَسَّموها إلى ثلاثة أقسام ارتفع العقل في بعضها إلى أن يكون أصلًا لبعض كبريات المسائل الدينية:

القسم الأول: ما لا يمكن إثباته إلا بالدليل العقلي القطعي، مثل وجود الله تعالى وصدق الرسول ﷺ في دعوته إلى الإيمان، فهذان الحُكْمان لا يمكن إثباتهما بالدليل النقلي من غير دليل عقلي؛ لأن الأدلة النقلية من نصوص الشارع لا تثبت إلا بعد العلم بوجود الله وصدق الرسول، فيكون النقلي متوقفًا عليهما.

فهذه أحكام شرعية، وإن كان طريق إثباتها العقل؛ لأن الشارع هو الذي أرشدنا إلى الاستدلال على هذه الأحكام بالعقل، ومدركات العقل لا يعتد بها إلا إذا صادق عليها الشرع تمييزًا للحقائق عن الأوهام، فمِثْلُ هذا عقلي لاهتداء العقل إليه وثبوته به، وشرعي من جهة الاعتداد به وإرشاد الشارع إليه.

القسم الثاني: ما لا يمكن إثباته إلا بالنقل، وهو المغيبات كالأحكام المتعلقة بتفاصيل الحياة الآخرة.

القسم الثالث: ما يثبت بكل من العقل والنقل، مثل الحكم بأنه ﷻ عالم وسميع وبصير، ونحو ذلك مما وصف به ﷻ نفسه في القرآن المجيد، ووصفه به الرسول ﷺ في السنة.

والأدلة الشرعية لا تنافي قضايا العقول، ودلل الشاطبي لذلك من عدة وجوه، أهمها[2]:

- أنها لو ناقضتها لم تكن أدلة للعباد على حكم شرعي ولا غيره، لكنها أدلة باتفاق العقلاء فدل على أنها جارية على قضايا العقول.
- أنها لو نافتها لكان التكليف بمقتضاها تكليفًا لا يطاق، وذلك من جهة التكليف بتصديق ما لا يصدقه العقل ولا يتصوره.
- أن مورد التكليف هو العقل، وذلك ثابت قطعًا بالاستقراء التام حتى إذا فُقِدَ ارتفع التكليف رأسًا، وعُدَّ فاقده كالبهيمة المهملة، وهذا واضح في اعتبار تصديق العقل بالأدلة في لزوم التكليف.

فلو جاءت على خلاف ما يقتضيه لكان لزوم التكليف على العاقل أشد من لزومه على المعتوه والصبي والنائم؛ إذ لا عقل لهؤلاء يصدق أو لا يصدق، بخلاف العاقل الذي يأتيه ما لا يمكن تصديقه به، ولما كان التكليف ساقطًا عن هؤلاء لزم أن يكون

---

١. الإسلام والعقل، د. عبد الحليم محمود، مرجع سابق، ص١٧: ٣٠.

٢. الموافقات، الشاطبي، تحقيق: عبد الله دراز، دار المعرفة، بيروت، ط٢، ١٩٩٦م، ج٣، ص١٥.

ساقطًا عن العقلاء أيضًا، وذلك مُنافٍ لوضع الشريعة فكان ما يؤدي إليه باطلًا.

واعلم أنه لا حاكم سوى الله تعالى، ولا حكم إلا ما حكم به جل شأنه، ويرى الشيعة أن العقل دليل من أدلة الأحكام وأصل من أصولها ومصدر شرعي من مصادرها، غير أنهم قالوا: شرط عمل العقل ألا يكون حكم عن الله في المسألة بأي طريق من طرق معرفة حكم الله، فلا يكون طريق من الكتاب الكريم ولا من قول أو فعل للنبي ﷺ ®.

الخلاصة:

- الإسلام دعا إلى استعمال العقل والتفكير؛ لأنه لا يتناقض مع قضايا العقول، وهذا مصدر قوته ودليل صحته؛ إذ التصورات الدينية الضعيفة والمضطربة وحدها هي التي تهرب من العقل، وترفض التفكير، كما في الديانات المحرفة.
- الإسلام حين يقدر العقل البشري فهو يكرم الإنسان ويحرره من رقِّ الكهنوت وأصحاب القداسة الذين استعبدوا أتباع الديانات الأخرى، ونصبوا أنفسهم وسائط بين الله وعباده.
- الإسلام جاء هاديًا للعقل؛ فقضايا العقول السليمة توافق أحكامه وعقائده، وحين يخاطب العقل لا ليحكِّمه في الدين، بل ليرى الحق ويستدل عليه.

® في **"حرص الإسلام على الاتباع فيما فوق العقل"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة الحادية عشرة، من هذا الجزء. وفي **"محدودية الإدراك العقلي"** طالع: الوجه الخامس، من الشبهة الرابعة والعشرين، من الجزء السابع (الإيمان والتدين).

الشبهة الثالثة عشرة

ادعاء التناقض في العقيدة الإسلامية (*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المشككين في عقيدة التوحيد لدى المسلمين أنها عقيدةٌ متناقضة عسيرةُ الفهم، مستدلين على ذلك بعدم قدرتهم على إدراك دعوة القرآن لتوحيد إله واحد بصورةٍ واضحة مقنعة.

وجها إبطال الشبهة:

١) إذا كان مذهب التوحيد في الإسلام - على وضوحه ويسره - صعبًا فهل من المعقول قبول فكرة الأقانيم الثلاثة عقيدة توحيد، على صعوبتها ومخالفتها للعقل والمنطق؟!

٢) ليس معنى عدم قدرتهم على إدراك دعوة القرآن لتوحيد إله واحد، أن عقيدة التوحيد بها نوع من الغموض والتناقض.

التفصيل:

أولا. التوحيد الإسلامي هو التصوُّر الواضح للألوهية، بعكس توحيد الديانات المحرفة الأخرى:

إن المتأمل في عقيدة التوحيد - عقيدة المسلمين - يجدها عقيدة ناصعة الوضوح لا يشوبها أي غموض أو تعقيد، يفهمها كل إنسان دون عناء مهما قلَّ حظه من العلم، فهي بكل بساطة تعني أن الله هو إله الكون، وهو واحد لا شريك له، وأنه ﷻ رب كل شيء

(*) التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام، محمد الغزالي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٥م.

ومليكه، ولا رب غيره، وهو الخالق المدبر الذي يعطي ويمنع، ويحيي ويميت، لا يشاركه أحد في فعله سبحانه، كما أنه ﷻ موصوف بصفات الكمال، منعوت بنعوت الجلال: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ (الشورى)، ولذلك فهو المعبود الحق المستحق للعبادة ولا معبود بحق غيره.

فهل في هذا الاعتقاد أي شيء من الغموض أو التعقيد؟ إنَّ هذا هو ما يستشعره الإنسان بوجدانه وتنسجم معه نفسه؛ لأنه مركوز في فطرته، مجبول في طبعه، فالفطرة تتجه إلى الله تعالى، عالمة بوجوده، مؤمنة بأنه إله واحد لا شريك له.

لذلك كان عرض هذه الحقيقة في آيات القرآن وأحاديث السنة عرضًا سهلًا - يفهمه كل إنسان - بعيدًا عن التعقيدات المنطقية والبراهين الفلسفية النظرية العقيمة، فنرى القرآن يحثُّ الإنسان على إعمال العقل؛ لكي يتفكر في آيات الله المبثوثة في تضاعيف الكون[1] ويتدبر في خبايا النفس البشرية ذاتها؛ ليوقظه إلى حقيقة الألوهية، ويذكره بما هو مركوز في فطرته، ومن هذه الأسئلة:

- هل يمكن أن يوجد هذا الكون الهائل بغير إله؟
- هل يمكن أن يدبر شئون هذا الكون الضخم إلا إله قادر عليم حكيم؟
- هل يمكن أن يكون لهذا الإله شريك في الملك أو شريك في التدبير؟
- هل آيات القدرة المبثوثة في تضاعيف الكون تشير إلى أنَّ هذا الإله يمكن أن يعجز عن أمور الخلق أو التدبير أو الرزق أو الإحياء أو الإماتة أو البعث أو الجزاء؟

تلك الأمور وغيرها يعرضها القرآن عرضًا مؤثرًا ينتهي باقتناع الوجدان وإدراكه لحقيقة الألوهية؛ ومن ثم وجوب الإيمان بالله الواحد دون شريك، فيخاطب العقل بذلك حتى يسلِّم بأن لهذا الكون خالقًا واحدًا لا شريك له، وإلا واجه هذا السؤال الوارد في قوله تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ (الطور)، وهو سؤال مُسْكِت مُلجم يتحدَّى كل منكر، وبهذا يسلِّم العقل البشري بضرورة وجود إله عظيم خالق هو الذي يقوم على تدبير شئونه، ولكن القرآن لا يكتفي بهذا بالتذكير المصحوب بالتقريع، بل يمضي مع العقل البشري خطوة أخرى في المناقشة ليعرض أمامه - ببساطة يفهمها كل إنسان - هذه الحقيقة ليتدبرها:

لنفترض - جدلًا - أنه كان مع الله تعالى آلهة أخرى، فكيف يكون الموقف؟! كيف تنتظم دورة الفلك التي ينشئها إلاهان مختلفان، ويشرف على شئونها أكثر من إله؟

هل يمكن أن تنتظم إذا تعددت الإرادة التي تهيمن عليها والسلطان الذي يسيرها؟ ألا يحدث - مثلًا - أن إلهًا واحدًا من الآلهة يريد الشمس أن تشرق من المشرق والآخر يريدها أن تشرق من المغرب، فكيف يصير الأمر؟ يجيب القرآن في قوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ (الأنبياء)، وما دام هذا الفساد غير حادث والكون

---

١. تضاعيف الكون: نواحيه وأرجاؤه.

منضبط في حركته كما نزل، فقد انتفى - إذًا - وجود آلهة غير الله تعالى.

وفي سورة المؤمنون يعرض هذا الأمر من الجهة الأخرى، من جهة الآلهة ذاتها - لو أنهم أكثر من إله واحد - وما كان يجب أن يحدث بينهم من صراع ونزاع: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١) ﴾ (المؤمنون) كل منهم يحاول أن يسيطر وأن تكون له الكلمة وحده فيحدث النزاع، وبهذا يبطل مذهب تعدد الآلهة فإذا ثبت أنه لا بد للكون من إله واحد يدبر أمره، فإن القرآن يُحاجج العقل متسائلًا: ﴿ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (النمل: ٥٩)، ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ﴾ (النمل: ٦٠) والقرآن بهذا الحوار وبهذه المحاجَّة يخاطب العقل ويحيطه بمواجهة صريحة وحاسمة تعود به إلى التسليم المطلق، والشهادة اليقينية بأنه لا إله مع الله، وهذه هي عقيدة التوحيد التي يدعو إليها الإسلام وهي لا تخالف عقلًا مفكرًا، ولا نظرةً سليمةً، ولا منطقًا صحيحًا.

ولا وجه للموازنة بين هذه العقيدة وما تخوض فيه ديانات أخرى كالنصرانية التي تثبت الآب والابن وروح القدس، وهم ثلاثة على أنهم يمثلون ربًّا واحدًا في الفكرة النصراينة، وهذه هي المعضلة الكبيرة التي لم يفلح النصارى أنفسهم في إثباتها إلا بأمثلة شاردة لا تطابق ما يمثلون له.

وليس اليهود بأحسن حالًا منهم؛ فقد افتروا على الله، بسوء أدبهم المعتاد، كما افتروا على أنبيائه بالقتل والسب أيضًا، فقد قالوا: ﴿ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ (المائدة: ٦٤)، وافتروا على أنبياء الله، فقالوا: إن سيدنا لوط زنا بابنتيه، و إن سيدنا إبراهيم ديوث لا يغار على عرضه وقد صوروه كاذبًا، وسيدنا موسى جعلوه قاتلًا، وزعموا أنه قتل أخاه هارون عليه السلام.. إلخ، فهل عقيدتهم تلك التي لا تصلح أن تكون عقيدة أصلًا تُعد أسهل تناولًا من عقيدة الإسلام الشفافة، التي ارتضاها الله تبارك وتعالى لعباده؛ كي تكون رسالة خاتمة صالحة للبشرية في كل مكان زمان؟!

وعلى ذلك فمن سمات الفكر الغربي التخبط في معرفة الألوهية، فليست فكرة صافية تقدر الله حق قدره، وإنما تحيط بها الأوهام والجهالات، بل الحق أن الغرب - كما يظهر من تاريخه - لم يعرف الله عز وجل معرفة صحيحة، ولم يهتد إلى الإيمان الصحيح بخالق الكون ومدبره؛ ذلك لأنه لم يعرف النبوة الهادية والوحي المعصوم معرفة مباشرة.

وقال عز وجل ذمًّا لعقائدهم الفاسدة: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (٧٢) ﴾ (المائدة)، فقد حكم الله تعالى عليهم بالكفر، وهم فِرَق النصارى من: المالكية، واليعقوبية، والنسطورية، ممن قال منهم بأن المسيح هو الله، تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا، وقد تقدم إليهم المسيح بأنه عبد الله ورسوله، وكان أول كلمة نطق بها وهو صغير في المهد هي: ﴿ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا (٣٠) ﴾ (مريم).

لم يقل: أنا الله، أو ابن الله... وكذلك قال لهم في

حال كُهولته[1] ونبوته، آمرًا لهم بعبادة الله تبارك وتعالى ربه وربهم أجمعين: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (٧٢) ﴾ (المائدة)، أي: من يعبد مع الله تبارك وتعالى غيره، فقد حرَّم الله تعالى عليه الجنة وأوجب له النار وذلك جزاء شركه.

وجاء أن رسول الله ﷺ قال: "إن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة"[2]، وفي رواية أخرى "مؤمنة"[3]، وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ ﴾ (النساء: ٤٨)؛ أي: أن يشرك به في عبادته سبحانه، أو فيما يختص به من الصفات والأفعال؛ كنسبة علم الغيب وإحياء الموتى بالذات إلى عيسى عليه السلام.

ولكن طاشت عقولهم وعميت عن الصواب، فقد صدق الرسول ﷺ حين قال: "حبك الشيء يُعْمي ويَصِم"؛ أي: إن تمسُّكهم بالباطل أعماهم عن قبول الحق؛ لذا فعقيدة القرآن الكريم واضحة جليَّة لكل ذي لُبٍّ، لا تحتمل تناقضًا أو غموضًا، بل تتخذ منهجًا يسيرًا في الوصول إلى الله.

ثانيًا. آيات القرآن الكريم واضحة في بيان العقيدة الصحيحة. فلا لبس فيها ولا غموض:

لا يوجد تناقض بين آيات القرآن بعامة، وآيات العقيدة بصفة خاصة؛ فالله تعالى متفرد بأفعاله وهو وحده الخالق لكل المخلوقات: ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ (الزمر: ٦٢)، وهو الرازق لجميع الدواب والآدميين وغيرهم: ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ (هود: ٦)، وهو مالك الملك والمدبر لشئون العالم كله، يُوَلِّي ويَعْزِل، ويُعِزُّ ويُذِلُّ، ويُحيي ويُميت، ويُصرِّف الليل والنهار، ويقدر على كل شيء: ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢٧) ﴾ (آل عمران).

وقد نفى الله ﷻ أن يكون له شريك في الملك، أو معين له في الخلق والرزق، فقال الله تعالى: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (١١) ﴾ (لقمان)، وقال تعالى: ﴿ أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ﴾ (الملك: ٢١).

كما أعلن انفراده بالربوبية على جميع خلقه: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) ﴾ (الفاتحة). وقد علمنا أن أشهر من عُرِفَ تجاهله وتظاهره بإنكار الرب، هو فرعونُ،

---

١. الكهولة: سن الإنسان ما بين الثلاثين والخمسين، أو مرحلة العمر بين الفتوة والشيخوخة.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب إن الله يؤيد الدين بالرجل الفاجر (٢٨٩٧)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه (٣١٩).

٣. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي هريرة ﷺ (٧٩٦٤)، والنسائي في المجتبى، كتاب مناسك الحج، باب قوله ﷻ: ﴿ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ (الأعراف: ٣١) (٢٩٥٨)، وصححه الألباني في إرواء الغليل (١١٠١).

وقد كان مستعينًا به في الباطن كما قال له موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ (الإسراء: ١٠٢)[1]، وقال ﷺ عن قومه: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ (النمل: ١٤)، حتى إنّ منكري الرب من الشيوعيين إنما ينكرونه في الظاهر مكابرة، وإلا فهم في الباطن لا بد أن يعترفوا أنه ما من موجود إلا وله مُوجد، قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾ (الطور).

ولم يقف القرآن عند إثبات وجود الخالق، ولكنه رد على التصورات الباطلة والمزاعم الخاطئة كما يلي:

- رد على عبدة الأصنام بقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ (النجم)، وقال تعالى: ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾﴾ (الشعراء). فقد وافقوا على أن هذه الأصنام لا تسمع الدعاء، ولا تنفع ولا تضر، وإنما عبدوها تقليدًا لآبائهم، والتقليد حجة باطلة.

- وردَّ على عبدة الكواكب والنجوم والشمس والقمر فقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ (الأعراف)، وقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ (فصلت).

- وردَّ على من عبد الملائكة، والمسيح ﷺ على أنه ولد الله تعالى، بقوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ (المؤمنون: ٩١)، وبقوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ (الأنعام: ١٠١)، وبقوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ (الإخلاص)®.

عقيدة التوحيد سهلة يسيرة تتفق مع الفطرة السوية والعقل الصريح:

إن جميع الكون، بسمائه وأرضه، وأفلاكه وكواكبه، ودوابه وشجره، وبره وبحره، وملائكته وجِنِّه وإنسه كله خاضع لله، مطيع لأمره الكوني، قال تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ (آل عمران: ٨٣)، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ (الحج: ١٨).

فكل هذه الكائنات والعوالم منقادة لله تعالى خاضعة لسلطانه، قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ (الإسراء). فالجميع مقرون بالخالق بفطرتهم. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وهم خاضعون مستسلمون ـ تمامًا ـ قانتون مضطرون من وجوه؛ منها: علمهم بحاجتهم وضرورتهم إليه.

---

١. عقيدة التوحيد، د. صالح بن فوزان، مؤسسة الحرمين الخيرية، الرياض، د. ت، ص١٨.

® في "طريقة القرآن في إثبات الألوهية والوحدانية" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثانية والعشرين، من هذا الجزء.

ومنها: خضوعهم واستسلامهم لما يجري عليهم من أقداره، ومشيئته. ومنها: دعاؤهم إياه عند الاضطرار.

إذن فهذا التوحيد لم يذهب إلى نقيضه طائفة معروفة من بني آدم، بل القلوب مفطورة على الإقرار به، أعظم من كونها مفطورة على الإقرار بغيره من الموجودات، كما قالت الرسل فيما حكى الله عنهم: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (إبراهيم: ١٠).

تأمل العالم كله، عُلْوِيَّه وسُفْلِيَّه، تجده شاهدًا بإثبات صانعه وفاطره ومليكه، فإنكار صانعه وجحده في العقول والفِطَر بمنزلة إنكار العلم وجحده، لا فرق بينهما. ومن كان بهذه المثابة فقد ألغى عقله، ودعا الناس إلى السخرية منه، قال الشاعر:

فَوَا عَجَبًا كيف يُعْصَى الإلهُ

أَمْ كيف يَجْحَدُه الجاحدُ

وَفِي كُلِّ شيءٍ له آيةٌ

تَدُلُّ على أَنَّه واحدُ

وقد سلك القرآن منهجًا متوازنًا في تناول قضايا العقيدة، فخاطب في الإنسان عقله وقلبه وضميره وفطرته، فهو تارة يثير الوجدان بأساليب متنوعة، وتارة يبهر العقل بالأدلة الواقعة القاطعة التي تأخذ بيده نحو الإيمان، فهذه جولة في الآيات الكونية وتلك أخرى في النفس الإنسانية، وثالثة في التاريخ وسننه وقوانينه وعِبَره، ورابعة في مشاهد من القيامة والدار الآخرة تهز الوجدان وتضع النفس الإنسانية مجردة أمام حقائق الغيب ومكنوناته، وخاضعة أمام الجلال الإلهي والعظمة القدسية بصفات الكمال والجلال والجمال التي لا يملك المتلقي لها سوى الاعتراف والتسليم.

وجاء منهج القرآن الكريم في عرض مسائل العقيدة منسجمًا مع الفطرة المستقيمة وقد سلف فيها الذكر. قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠)﴾ (الروم).

فالإنسان يهتف باسم الله ويلوذ بجنابه إذا غلقت في وجهه الأبواب وتقطعت دونه الأسباب، كما اتَّسم المنهج القرآني بالوضوح التام في عرض قضايا العقيدة والإيمان، فالله واحد أحد لم يتخذ صاحبة ولا ولد، لا شريك له في ملكه، الكل يحتاج إليه، وهو غني عنهم جميعًا، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير. والعالم حادث[1] لا بد له من مُحْدِث: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥)﴾ (الطور)، ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ (الحج: ٧٣)، انتظام أمر العالم كله وإحكامه أدل دليل على أن مدبره إله واحد، ورب واحد لا شريك له ولا ند ولا منازع: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١)﴾ (المؤمنون).

أما الملائكة فعباد الله المكرمون، كلفهم بأدوار محدودة، والرسل ـ عليهم السلام ـ بشر اصطفاهم الله تعالى واجتباهم لحمل رسالته إلى خلقه، فكان التكليف والابتلاء بالتشريع والأمر والنهي، فمن أحسن في الدنيا كوفئ في الآخرة بالنعيم والرضوان، ومن عاند وجحد وعصى وظلم كوفئ بما يستحقه من عذاب

١. الحادث: الحدوث نقيض القِدَم، ومعنى حادث: مخلوق.

أليم.. وهكذا تبدو أمور العقيدة الإسلامية سهلة بسيطة دون تعقيد أو استغلاق أو انحراف: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨ ﴾ (الزلزلة)، وجاءت العقيدة الإسلامية متناسبة مع مقتضيات العقل السليم التي تبحث عن معاني الوحدة وراء التنوع والكثرة، وتعمد إرجاع الأشياء المتفرقة دومًا إلى سبب واحد، فلا يقال في الإسلام "اعتقد وأنت أعمى"، بل يقال: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٨٠ ﴾ (المؤمنون).

الخلاصة:

- عقيدة التوحيد عند المسلمين سهلة واضحة لكل ذي لب؛ لأن الإنسان بفطرته يميل إلى تقديس إله واحد معبود بحق، هو الخالق والرازق، وهو على كل شيء قدير، وهذا ما دعت إليه الفِطَر السوية، وإن ادَّعى غير ذلك المنكرون.
- عقيدة التوحيد عقيدة صافية لا غموض فيها ولا تعقيد، كالذي نجده في عقيدة التثليث عند النصارى مثلًا، هذه التي لا يفهمها حتى أهلها، وهكذا الحال في الديانات الأخرى أيضًا، وقد أبطل القرآن مزاعم أهلها، ورد على افتراءاتهم وأباطيلهم، بما يثبت أن خالق الكون إله واحد سبحان الله عما يشركون.
- تناوُل القرآن لعقيدة التوحيد لا يخفى على من له قلب أو ألقى السمع، فلا تناقض ولا غموض، بل يتخذ منهجًا يسيرًا في الوصول إلى خالق الكون، وهذا المنهج يناسب الفِطَر السليمة والعقول الواعية، وسور القرآن كلها تتحدث عن الألوهية، وترسيخ عقيدة الإيمان بالله مكيها ومدنيها، بما ينفي زعمهم بوجود تناقض أو خلل، وبما يوحي أن تناول العقيدة ـ أولًا ـ كان دافعه هداية الناس، ثم تقويمهم في المرحلة التالية بمجيء الأحكام والتشريعات التي تنظم حياة الناس، وعلى ذلك فالإنسان يفتقر بطبعه إلى مدبر الكون وخالقه ورازقه، ويلجأ إليه حين تُغْلق الأبواب، وتنقطع الأسباب. أليس هذا اعترافًا بوحدانية الله تبارك وتعالى وإقرارًا باستحقاقه ـ وحده ـ العبادة والتوحيد.

الشبهة الرابعة عشرة

ادعاء جفاء العبادات في الإسلام ونفي الروحانية عنها (*) ®

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض الواهمين أن العلاقة بين العبد وربه في الإسلام تقوم على الإذلال والخضوع، لا على المحبة والسلام كما هي في الأديان الأخرى، كما يزعمون أن رسالة الإسلام تنحصر فقط في تحرير الإنسان من عبودية البشر إلى عبودية الله، وهذا في ظنهم إخضاع المسلم لعبودية كهنة النصوص.

(*) العبادة في الإسلام، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢٤، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

® في "نفي الروحانية عن العبادة في الإسلام" طالع: الشبهة الثانية والثلاثين، من الجزء الثالث عشر (العبادات والمعاملات الاقتصادية).

وجوه إبطال الشبهة:

١) العبودية لله في الإسلام هي غاية الوجود الإنساني، وهي هدايةٌ كلية تشمل كل جوانب الحياة.

٢) علاقة الإنسان بربه في الإسلام أسمى وأجل وأقرب علاقة روحية، فليس لدى القلوب السليمة أحلى ولا أطيب من محبة الله ﷻ.

٣) استغلال السلطة الدينية أو ما يطلق عليه "عبودية كهنة النصوص" ليس من الإسلام في شيء، ومن يأخذ بهذا من المسلمين فهو يمثل نفسه فقط لا الأمَّة، ولا الدين.

التفصيل:

أولا. العبودية لله في الإسلام هي غاية الوجود الإنساني:

إنّ الغاية من خلق البشر هي أن يفروا إلى الله تعالى بالعبادة، قال الله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ (الذاريات).

ومعنى العبودية: الخضوع والتذلل والانقياد لله ﷻ بطاعة أوامره، وترك نواهيه، والوقوف عند حدوده تقربًا إليه سبحانه، ورغبة في ثوابه، وحذرًا من غضبه وعقابه، فهذه هي العبودية الحقة، ولا تكون إلا لله، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ ﴾ (الأنعام).

إن العبودية قضية كلية تهيمن على حياة المسلم، فهو حين يسعى في الأرض لطلب الرزق يعبد الله؛ لأن ربه يأمره بذلك في قوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾ (الملك)، وهو حين ينام فهو ينام ليتقوَّى على عبادة الله تعالى، كما قال معاذ بن جبل رضي الله عنه: "أحتسب نومتي كما أحتسب قومتي"[1].

أي: إنه يحتسب الأجر في نومه، كما يحتسب الأجر في قيامه لليل، بل إن المسلم لا يرضى إلا أن يكون تمتعه بالطعام والشراب والنكاح في ميزان حسناته كما قال رسول الله ﷺ: "وفي بُضْع أحدكم صدقة"، قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: "أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر"؟ قالوا: نعم، قال: "فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر"[2].

وطريق الوصول إلى هذه المرتبة العظيمة أن يستحضر العبد ذكر ربه، وهو يعمل في شتى مجالات الحياة، فيسأل نفسه هل هو في الموضع الذي يرضى ربه عنه أم يسخط عليه؟ فإذا كان في موضع الرضا فليحمد الله، وليزدد من الخير، وإن كان على غير ذلك فليستغفر الله، وليتب إليه سبحانه، كما هو حال عباد الله المتقين الذين وصفهم الله تبارك تعالى بقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾ (آل عمران).

وهكذا كانت العبادة في حس سلفنا الصالح من الصحابة ومن بعدهم، فلم يحصروها قط في إطار

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب بعث أبي موسى ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما إلى اليمن (٤٠٨٦).

٢. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف (٢٣٧٦).

الشعائر التعبدية بحيث تصبح اللحظات التي يقومون فيها بأداء تلك الشعائر هي وحدها لحظات العبادة، وتكون بقية حياتهم "خارج العبادة" إنما كان في حس أحدهم أن حياته كلها عبادة، وأن الشعائر إنما هي لحظات مركزة يتزود فيها الإنسان بالطاقة الإيمانية التي تعينه على أداء بقية العبادات المطلوبة منه، ولذلك كانوا يحتفون بها احتفاءً خاصًا كما يحتفي المسافر بالزاد الذي يعينه على الطريق وباللحظة التي يحصل فيها على الزاد[1].

وهكذا كل من تعلق قلبه بشيء غير الله من أهواء نفسه، فإن حصل له رَضِيَ، وإن لم يحصل له سَخِطَ، فهو عبد ما يهواه، رقيق له، إذ الرق والعبودية في الحقيقة هو رق القلب وعبوديته، ثم بقدر ما تستعبده هذه الشهوات أو بعضها بقدر ما تضعف عبوديته لربه سبحانه، فإن استحكمت عبوديته لتلك الشهوات والأهواء حتى صدته عن الدين بالكلية فهو مشرك كافر، وإن صدته تلك الأهواء والشهوات عن بعض ما يجب عليه، أو زينت له فعل بعض ما يحرم عليه - مما لا يخرج فاعله من الدين - فقد نقص من عبوديته لربه وإيمانه به بقدر ما صُدَّ عنه.

وبهذا المفهوم الدقيق والمعنى الشامل للعبادة ندرك: أن عبادة الله هي غاية الوجود الإنساني كله، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ (الذاريات)، ومن ثم لم ينحصر مفهوم العبادة في نطاق الشعائر التعبدية وحدها، فالشعائر التعبدية لا يمكن - بداهة - أن تكون هي محل العبادة المطلوبة من الإنسان، فما دامت غاية الوجود الإنساني - كما تنص الآية الكريمة - محصورة في عبادة الله، فأنَّى يستطيع الإنسان أن يوفي العبادة المطلوبة بالشعائر التعبدية فحسب؟!

كم تستغرق الشعائر من اليوم والليلة؟ وكم تستغرق من عمر الإنسان؟ بقية العمر؟ وبقية الطاقة؟ أين تنفق وأين تذهب؟ تنفق في العبادة أم في غيرها العبادة؟ وإن كانت في غير العبادة، فكيف تتحقق غاية الوجود الإنساني التي حصرتها الآية حصرًا كاملًا في عبادة الله؟ وكيف يجوز للإنسان - من عند نفسه - أن يجعل لوجوده - أو لجزء من وجوده - غاية لم يأذن بها الله؟

ومن المعلوم - بداهة - أن كل إنسان عابد بفطرته، أي أنه مجبول على العبادة، فإما أن يكون عابدًا لله وحده بلا شريك، وإما أن يكون عابدًا لشيء آخر غير الله، معه أو من دونه، كلاهما سواء! وهذه العبادة هي التي يسميها الله تعالى "عبادة الشيطان"؛ لأنها استجابة لدعوة الشيطان الرجيم: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾ (يس)، ولا تستوي حياة الإنسان عابدًا لله تبارك وتعالى وعابدًا للشيطان: ﴿ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ (الملك)، ﴿ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ﴾ (الرعد: ١٦).

والشيطان يستدرج الإنسان في محاولة لإبعاده عن عبادة الله تعالى، فتارة ينجح في إبعاده إبعادًا مؤقتًا؛ كما يقع في المعصية، قال رسول الله ﷺ: "لا يزني الزاني حين

---

١. مفاهيم ينبغي أن تصحح، محمد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط٩، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، ص١٨٠.

يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن"[1]. وتارة يبعده إبعادًا كاملًا ينقطع فيه ما بين العبد وربه، فيشرك أو يكفر أو يلحد، وعبادة الشيطان هذه تارة تكون عبادة للهوى، كما قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ (الفرقان)، فهذا العبد الذي يأتمر بأمر هواه، فما رآه حسنًا فعله، وما رآه قبيحًا تركه، فهو مطيع لهوى نفسه يتبع ما تدعوه إليه، فكأنه يعبده كما يعبد الرجل إلهه.

وتارة تكون عبادة للدرهم والدينار، كما قال ﷺ: "تَعِس عبد الدينار، وعبد الدرهم، وعبد الخَمِيصة[2]، إن أُعْطِيَ رَضِيَ، وإن لم يُعطَ سَخِطَ، تعس وانتكس[3]، وإذا شِيْكَ[4] فلا انتقش"[5][6].

وحين يعقد الإنسان مقارنة بين المفهوم الشامل الواسع العميق الذي كانت الأجيال الأولى من المسلمين تفهمه من أمر العبادة، والمفهوم الهزيل الضئيل الذي تفهمه الأجيال المعاصرة، لا يستغرب كيف هوت هذه الأمة من عليائها لتصبح في هذا الحضيض الذي تعيشه اليوم، وكيف هبطت من مقام القيادة والريادة

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم، باب النهي بغير إذن صاحبه (٢٣٤٣)، ، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب نقصان الإيمان بالمعاصي ونفيه عن المتلبس بالمعصية (٢١١).

٢. الخَمِيصة: ثوب أسود أو أحمر له أعلام.

٣. انتكس: انقلب على رأسه، وهو دعاء عليه بالخيبة؛ لأن من انتكس في أمره فقد خاب وخسر.

٤. شِيْكَ: دخل في جسمه شوكة.

٥. فلا انتقش: أي: إن دخلت فيه شوكة فلا أخرجها من موضعها، وهذا دعاء عليه أيضًا.

٦. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله (٢٧٣).

للبشرية كلها؛ لتصبح ذلك الغثاء الذي تتداعى عليه الأمم تنهشه من كل جانب كما تنهش الفريسةَ الذئابُ[7].

ثانيًا. علاقة الإنسان بربه في الإسلام أفضل ما عُرِفَ من علاقةٍ بين العبد وربه في التصورات الدينية:

إنَّ المؤمن يقترب من ربه بقدر ما يكون إنسانًا صالحًا نافعًا لنفسه ولغيره: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ (الكهف)، ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ (الأعراف).

وفي خضوع العبد لربه عزة وكرامة، فقد خلَّصه الخضوع له ﷻ من الخضوع لغيره، وحرره من المذلة لغيره، وهو خضوع لمن يستحق أن يُخضع له ويذل له، فهو خالقه وحافظه ومدبر أمره ومُسخر الكون له، وهي عبودية عطاء من الله المعبود للعبد، على عكس عبودية العباد للعباد، فالعبد يعطي خيره لسيده، ولكن عبودية العبد لربه تجعله يأخذ خير سيده، ويتعرض لعطائه، والله ﷻ يقرب عباده ليعطيهم لا ليأخذ منهم، فهو ﷻ غني عن خلقه.

قال الإمام الرازي: إن العبادة عبارة عن نهاية التعظيم، وهي لا تليق إلا بمن صدر عنه غاية الإنعام، وأعظم وجوه الإنعام: الحياة التي تفيد المكنَة[8] من الانتفاع، وإليها الإشارة في قول الله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾﴾ (مريم) وقوله تعالى:

٧. مفاهيم ينبغي أن تصحح، محمد قطب، مرجع سابق، ص١٧٣.

٨. المُكْنَة: القدرة والاستطاعة.

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَـٰكُمْ ﴾ (البقرة: ٢٨)، وخلق ما ينتفع به من الأشياء وإليها الإشارة بقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ (البقرة: ٢٩).

إن الله ﷻ لا تنفعه عبادة من عبده ولا يضره إعراضُ مَن صَدَّ عنه، ولا يزيد ملكه حمد الحامدين، ولا ينقصه جحود الجاحدين، فهو الغني ونحن الفقراء، وهو الودود الكريم، والبر الرحيم، الذي لا يأمرنا إلا بما فيه خيرنا وصلاحنا نحن المخلوقين، فضلًا عن حقه ﷻ في أن يفرض علينا ما يشاء، ويكلفنا ما يريد بحكم خلقه لنا وإنعامه علينا، وبحُكْم عبوديتنا الطبيعية له سبحانه[1].

يضاف إلى ذلك أن العبادة غذاء الروح، ذلك الجوهر النفيس الذي صار به الإنسان إنسانًا مكرمًا سيدًا على ما فوق الأرض من كائنات؛ فلا يجد حياته وزكاته إلا في مناجاة الله، وعبادة الله هي التي توفر لهذا الروح غذاءه ونماءه، وتمده بمدد يومي لا ينفد ولا يَغِيض[2]، لذا فإن القلب الإنساني دائم الشعور بالحاجة إلى الله ﷻ وهو شعور أصيل صادق لا يملأ فراغه شيء في الوجود إلا حسن الصلة برب الوجود، وهذا ما تقوم به العبادة، إذا أُديت على وجهها، فالقلب فيه فقر ذاتي إلى ربه ـ بالفطرة ـ من حيث هو معبوده ومحبوبه ومطلوبه، وبذلك يحصل له الفرح والسرور واللذة والمتعة والسكون والطمأنينة[3].

قال ابن القيم: إنه لا شيء أحب إلى القلوب من خالقها وفاطرها؛ فهو إلهها ومعبودها، ووليها ومولاها، وربها ومدبرها ورازقها، ومميتها ومحييها، فمحبته نعيم النفوس، وحياة الأرواح، وسرور النفوس، وقوت القلوب، ونور العقول، وقرة العيون، وعمارة الباطن.

فليس عند القلوب السليمة والأرواح الطيبة، والعقول الذكية أحلى ولا ألذ، ولا أطيب، ولا أسر، ولا أنعم من محبته والأنس به، والشوق إلى لقائه، والحلاوة التي يجدها المؤمن في قلبه بذلك فوق كل حلاوة، والنعيم الذي يحصل له بذلك أتم من كل نعيم، واللذة التي تناله أعلى من كل لذة، كما أخبر بعض الواجدين عن حاله فيقول: إنه ليمر بالقلب أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا، فإنهم لفي عيش طيب، وقال آخر: إنه ليمر بالقلب أوقات يهتز فيها طربًا بأنسه بالله وحبه له، وقال آخر: مساكين أهل الغفلة! خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما بها، فقيل له: وما هو؟ قال: محبة الله والأنس به، ومثل هذا ما قاله الآخر: أطيب ما في الدنيا معرفته ومحبته، وأطيب ما في الآخرة رؤيته وسماع كلامه بلا واسطة.

وقال آخر: لو علم الملوك وأبناء الملوك، ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف!

ووجدان هذه الأمور وذوقها هو بحسب قوة المحبة وضعفها، وبحسب إدراك جمال المحبوب والقرب منه، وكلما كانت المحبة أكمل، وإدراك المحبوب أتم، والقرب منه أوفر، كانت الحلاوة واللذة والسرور والنعيم أقوى.

١. العبادة في الإسلام، د. القرضاوي، مرجع سابق، ص٩٥.
٢. يَغِيض: ينقص.
٣. العبادة في الإسلام، د. يوسف القرضاوي، مرجع سابق، ص٩٦، ٩٧.

وبهذا نتبين أن الذي يذوق طعم الإيمان الحق، وتزهر في قلبه مصابيح اليقين، لا ينظر إلى العبادة على أنها مجرد خضوع أو "تنفيذ أوامر" فحسب، إنه يجد فيها تلذُّذًا بمناجاة الله وطاعته، والسعي في مرضاته، ويجد فيها سعادة لا تدانيها سعادة أصحاب القصور والقناطير المُقَنْطَرَة[1] من الذهب والفضة، وقد كان النبي ﷺ ينتظر فريضة الصلاة انتظارَ الظَّمْآن اللَّهِف إلى شربة الماء العَذْب الزُّلال[2]، ويُهْرَعُ[3] إليها كما يُهْرَعُ السائر في الصحراء إلى الواحة الخضراء.

وكان يقول لبلال ـ في شوق ولهفة ـ إذا حان وقتها: "قم يا بلال فأرحنا بالصلاة"[4].

وقالت أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ يحدثنا ونحدثه، فإذا حضرت الصلاة فكأنه لا يعرفنا ولا نعرفه، فلا عجب أن يقول ﷺ: "جُعِلَت قُرَّة عيني[5] في الصلاة"[6].

إن العجز في الإنسان وحاجته إلى قوة جبارة تنقذه من المهالك، وتعينه وقت الشدة، ويستغيث بها وقت الضيق، فتنجده وتخرجه من المآزق، وتقدم له العون عند الحاجة، هذا العجز موجود في كل نفس، ويلمسه الإنسان في نفسه، ويسمعه من غيره.

سأل رجلٌ الإمام جعفر الصادق عن الله، فقال: ألم تركب البحر؟ قال: بلى، قال: فهل حدث لك مرة أن هاجت بكم الريح عاصفة؟ قال: نعم، قال: فهل خطر في بالك واتضح في نفسك أن هناك من يستطيع أن ينجيك إن شاء؟ قال: نعم، قال: فذلك هو الله.

هذا الشعور النفسي بوجود المنقذ من الهلاك، والمنجي من الهم والغم، والحزن والكرب، إما أن يبقى مع الإنسان فيكون مؤمنًا، وإما أن يتنكر الإنسان له ويجحد هذا الفضل، ويعرض عن ربه، فيكون كافرًا وملحدًا وضالًا، وقد صور القرآن الكريم في آيات كثيرة ومواطن مختلفة هذه النماذج من النفوس:

قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (يونس)، وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ ﴾ (الإسراء)، وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ (الزمر: ٨)، وقال تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا

---

١. القناطير المُقنطرة: الكثيرة المُكدَّسة، والقناطير: جمع القنطار، وهو معيار يختلف وزنه حسب الأمكنة والأزمنة.

٢. الماء الزلال: الصافي السهل المرور في الحَلْق.

٣. هَرَع: أسرع.

٤. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، باقي مسند الأنصار، أحاديث رجال من أصحاب النبي ﷺ (٢٣٢٠٢)، وأبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في صلاة العتمة (٤٩٨٨)، وصححه الألباني في المشكاة (١٢٥٣).

٥. قُرَّة عيني: سعادة نفسي.

٦. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أنس بن مالك ﷺ (١٢٣١٥)، والنسائي في المجتبى، كتاب عِشْرة النساء، باب حُبِّ النساء (٣٩٣٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣١٢٤).

مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُواْ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ (النحل).

وقال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾ (النمل)، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾﴾ (الأنعام)، هذه الآيات الكريمة تكشف هذا الإحساس النفسي الباطني عن عجز الإنسان، وتذكر بعض الصور الدقيقة التي لا مهرب منها لكل فرد من إقراره بالعجز، والتجائه إلى القوى الغيبية الخالقة المبدعة التي تتصرف بالكون، يلجأ إليها لتنقذه من المهالك، ويستنجد بها في أحلك الظروف للنجاة، ويعطي الوعود والعهود بالتوبة والإنابة والطاعة والخضوع، ثم لا يلبث أن ينسى حاله، وينقض وعده، ويتيه في غيه وضلاله إلا من رحم ربك، وأعمل عقله، واحترم نفسه، وفكر في ماضيه وحاضره ومستقبله، فهو على العهد باق، وبالعقيدة والإيمان بالله ملتزم.

يقول محمد قطب: "يحس الإنسان بالعجز إزاء الكيان الكوني من حوله، يبدأ العجز من لحظة الميلاد ويستمر إلى لحظة الموت، ولا ينقطع فيما بين الميلاد والموت، وإن كان يأخذ صورًا مختلفة من كل سن، وكل طور من أطوار النمو الجسمي والنفسي، ويظل يكبر ويكبر معه العجز حتى يستوي على أشُدِّه، وما يزال يحس بالعجز في أكبر مجالاته، العجز عن تحقيق كل ما يريد، والعجز عن معرفة كل ما يريد معرفته، والعجز عن السيطرة على كل ما يريد السيطرة عليه"[1].

وهكذا يتضح أن المفهوم الصحيح للعبادة في الإسلام يشمل كل جوانب الحياة وأن الإنسان عابد بفطرته، فينبغي عليه ألَّا يخضع إلا لمن يستحق هذا الخضوع، وينْأى بنفسه عن الخضوع لمن لا يملك له ضرًّا ولا نفعًا، وينقي نفسه من الأهواء، وبهذا يطمئن فؤاده ويزكو عقله ويحمي روحه كما تحيا الأحياء بالماء، فكيف يدَّعي هؤلاء بعد ذلك أن العلاقة بين العبد وربه علاقة خضوع ومذلة؟ إنه العجز عن الإنصاف وسوء الفهم وخبث الطوية، كما أنه حرمان من لذة العبادة ونعيمها"، ويقول د. يوسف القرضاوي: "وللمستشرقين في كل جانب من جوانب الإسلام، وفي كل فرع من فروع المعرفة الإسلامية، دعاوٍ عريضة دفع إليها أحد أمرين أو كلاهما:

الأول: سوء الفهم لدين الإسلام، ولغته التي نزل بها كتابه وجاءت بها أحاديث نبيه، وكُتبت بها مؤلفات علمائه، وهم ـ لعجمتهم وغربتهم عنها ـ لا يتذوقونها، ولا يدركون أسرار تعبيرها وتنوع دلالاتها.

الثاني: سوء النية والقصد إلى البحث عن عورات

---

١. وظيفة الدين في الحياة وحاجة الناس إليه، د. محمد الزحيلي، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، طرابلس، ط٢، ١٤٢٨هـ/ ١٩٩٩م، ص٣٥ وما بعدها.

يشنعون بها، ونقاط ضعف يسوغون بها ما يعتقدونه من دعوى بشرية القرآن، وعدم صدق نبوة محمد ﷺ؛ فهم يقرءون تراثنا ويدرسونه بروح المتعصب الباحث عن المطاعن، لا بروح الباحث عن الحق.

فهم قد كوَّنوا فكرة سابقة عن الإسلام وكتابه ونبيه ورجاله وتاريخه، وهمهم في دراسة تراث الإسلام أن يعثروا على أدلة توافق فكرتهم، فإن لم يجدوا الأدلة ـ كما هو الواقع ـ تصيدوا الشبهات، فإن أعيتهم الشبهات لفَّقوا من المصادر الضعيفة، والأقوال المردودة، والروايات المنكرة ما يُشوِّشون به ويُبَهْرِجون[1]®.

ومن ذلك ما ذكره بعضهم عن عبادة المسلمين، وأنها تقوم على الخوف والخضوع وحده، ولا مجال لحب الله تعالى، وأن الله تعالى في تصور المسلمين إله قهر وجبروت.

ويزعمون أن المسلمين لم يعرفوا عنصر الحب في صلتهم بالله تعالى، إلا بعد انتشار التصوف الذي اقتبس هذا العنصر من مصادر أجنبية عن الإسلام. ولو أنصف هؤلاء ورجعوا إلى نصوص القرآن والسنة، وسيرة الرسول ﷺ وسير الصحابة ﷺ ومن تبعهم بإحسان، بل لو حلَّلوا معنى العبادة ـ لغة ـ كما فعل ابن تيمية ـ لكفُّوا عن هذا اللغو، وعلموا أن العبادة في الإسلام تعني: غاية الخضوع لله مع غاية الحب له.

والمتصوفة لم يستمدوا حب الله ﷻ من خارج الإسلام، وإنما التفتوا إليه ونموْه وعمقوه من مصادر الإسلام الأصلية: الكتاب والسنة، وما حاجة الصادقين من أهل الذوق والوجدان الروحي ـ الصوفي ـ إلى اقتباس الحب من مصدر أجنبي عن الإسلام، ونصوصه المحكمة في هذا الأمر أمام أعينهم بينة واضحة وكافية شافية؟

يكفي أن نذكر هنا ما كتبه الإمام الغزالي في بيان شواهد الشرع في حب العبد لله ﷻ في كتاب "المحبة" من "إحيائه" لنعلم من أي ينبوع استقى الصوفية المعتدلون فكرة "الحب الإلهي" قال: "اعلم أن الأمة مجمعة على أن الحب لله ﷻ ولرسوله ﷺ فرض، وكيف يفرض ما لا وجود له؟ وكيف يفسر الحب بالطاعة، والطاعة تبع الحب وثمرته؟ فلا بد أن يتقدم الحب، ثم بعد ذلك يطيع من أحب. ويدل على إثبات الحب لله ﷻ قوله ﷻ: ﴿يُحِبُّهُمْ﴾ (المائدة: ٥٤)، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ (البقرة: ١٦٥)، وهو دليل على إثبات الحب وإثبات التفاوت فيه.

وقدر رسول الله ﷺ الحب لله شرطًا من شروط الإيمان في أخبار كثيرة، ومنها حديث: "ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليك مما سواهما..."[2].

وفي حديث آخر: "لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من أهله وماله، والناس أجمعين"[3]. وفي

١. يُبهرجون: يزيِّفون.

® في "دور المستشرقين في تشويه الدعوة الإسلامية" طالع: الوجه الأول، من الشبهة التاسعة عشرة، من الجزء الخامس (النظم الحضارية).

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان (١٦)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان (١٧٤).

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب حب الرسول ﷺ من الإيمان (١٥).

رواية عمر بن الخطاب: "أحب إليك من نفسك"[1].

قال تبارك وتعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (التوبة) وإنما أجرى ذلك في معرض التهديد والإنكار. وقد أمر رسول الله ﷺ بالمحبة كما سلف في الحديث السابق.

وجاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: "يا رسول الله، متى الساعة؟ قال: وماذا أعددت لها؟ قال: لا شيء، إلا أنني أحب الله ورسوله، فقال رسول الله ﷺ: "أنت مع من أحببت". قال أنس: فما فرحنا بشيء فرحنا بقول النبي ﷺ: "أنت مع من أحببت". قال أنس: فأنا أُحِبُّ النَّبِي ﷺ وأبا بكر وعمر وأرجو أن أكون معهم بِحُبِّي إيَّاهم، وإن لم أعمل بمثل أعمالهم[2].

فهذه هي حقيقة العبادة في الإسلام: إنها معنى مركب من عنصرين: غاية الخضوع لله تعالى، مع غاية المحبة له سبحانه.

ثالثًا. لم يعرف الإسلام - على مدى تاريخه - ظاهرة الكهنة الذين يحتكرون العلم بالله وبمراده:

قد زعموا أن الإسلام لم يحرر الإنسان من عبودية البشر تحريرًا كاملًا؛ إذ أسلمهم إلى عبودية كهنة النصوص، وهذه فرية عظيمة يقدمها العلمانيون[3] ضد الإسلام، فيها خلط للأوراق، ومجافاة للحقيقة، فهم يخلطون بين تعاليم الإسلام الواضحة في تحرير الإنسان من عبوديته للإنسان خاصة، ولغير الله ﷻ عامة، والتي يطلقون عليها وصف "عبودية كهنة النصوص".

وهي أظهر ما تكون عند رجال الدين الكنسي، مما جعل الغرب يتمرد على الكنيسة في أشكال متعددة، والعلمانيون يعلمون أن الإسلام لا يعرف الكهانة، وليس فيه أو فيما ورد من نصوصه أسرار يحتكرها رجال الدين، وليس لأحد من العباد - مهما كان سلطانه - أن يحتكر لنفسه الحق، ويفرضه على الآخرين.

والقرآن الكريم خَلَّد ذكر المرأة التي جادلت النبي ﷺ واشتكت أمرها إلى الله بسورة سميت باسمها، وصدرت آياتها بسماع الله شكواها ومجادلتها النبي ﷺ: ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ﴾ (المجادلة).

وتطبيقات النبي ﷺ وأصحابه وخلفائه تمتلئ بهذه الروح الإسلامية التي لا تستغل النصوص للحجر على إرادة، أو رأي، أو فكر.

مميزات العبادة في الإسلام:

١. تحرير العبادة من رق الكهنوت:

لقد أفسد الناس الأديان التي أنزلها الله لتسمو بهم فهبطوا هم بها! والعجب أن فسادها كان من رجال

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان والنذر، باب كيف كانت يمين النبي ﷺ (٦٢٥٧)، وفي موضع آخر.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عمر بن الخطاب ﷺ (٣٤٨٥)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب المرء مع من أحب (٦٨٧٨).

٣. العَلْماني: اسم منسوب إلى عَلْم، على غير قياس، بمعنى: عالم، غير ديني يُعنى بشئون الدنيا فقط، ويعتقد بفصل الدين عن الدولة.

الأديان أنفسهم، لقد جعلوا من أنفسهم حجابًا على باب الله الفسيح، مهمتهم أن يمنعوا الناس الاتصال المباشر به أو التقرب المباشر إليه، إنهم احتكروا لأنفسهم الصلة به والقرب منه، ووجدوها بضاعة رائجة وسلعة تشتد الحاجة إليها، فبالغوا في احتكارها وإغلاء أسعارها.

ومن ثم قيدوا العبادات بوسيط معين، يقوم بعملية السمسرة بين الله وعباده، وقيدوها بمراسم وطقوس كهنوتية لا تُقبَل بدونها، وكل هذا يحتاج إلى إتاوات تبذل، وجُعالات تدفع للأحبار والكهنة المحتكرين لهذا الصنف من العلاقات!

رجال الكهنوت في العصور الوسطى:

وقد بالغ رجال الدين المسيحي بالغرب في العصور الوسطى في فرض هذه المظاهر الكهنوتية، فعلقوا في معابدهم رسومًا وتماثيل للعذراء والمسيح، وأيقونات[1] ونحوها، وعدَّت الكنيسة ذلك شعائر تعبدية واجبة التقديس.

وكان أعجب ما صنعوه أنهم اتخذوا من الجنة مصدرًا للثروة يبيعون منها قراريط وأسهمًا لمن يدفع الثمن المعلوم، وعلى قدر المدفوع يكون عدد الأسهم، ومن الطرائف اللاذعة ما حكوا أن أحد أثرياء اليهود أراد أن يقابل هذه السخريات العجيبة بسخرية أمرَّ وأعجب، فقد ذهب إلى أحد البابوات[2] ولم يشتر منه الجنة، كما كان يفعل المسيحيون، ولكنه اشترى منه صفقة أخرى هي جهنم، فباعها له بثمن بخس[3]؛ لأنها سلعة لا يرغب فيها أحد، ولكن اليهودي الماكر أعلن للمسيحيين جميعًا: ألا يبالوا بشراء الجنة بعد اليوم؛ لأنه هو قد اشترى من البابا جهنم، ولن يُدْخِل أحدًا فيها!! قالوا: فعاد البابا واشتراها بأضعاف ما باعها به!

والرؤساء الروحانيون في المسيحية يزعمون أن لهم سلطة المنح والمنع، والغفران والحرمان، والإدخال في رحمة الله والطرد منها؛ لأن المسيح قال لبعض تلاميذه: "وأعطيك مفاتيح ملكوت السماوات، فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطًا في السماوات. وكل ما تحله على الأرض يكون محلولًا في السماوات". (متى ١٦: ١٩).

٢. تحرير العبادة من قيود المكان:

أما الإسلام فكان له شأن آخر في تقرير الصلة بالله والعبادة له؛ فلقد حرر الإسلام العبادة من قيود الوساطة والمكان، وكل مظاهر العبودية للكهنوت، فالأرض كلها محراب كبير للمسلم، فحيثما توجه يستطيع أن يتجه بعبادته إلى الله، وفي هذا يقول القرآن الكريم: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ (البقرة: ١١٥). ويقول الرسول الكريم في بيان الخصائص التي أُعْطِيَتْهَا أمته ولم تُعْطَهَا أمة قبلها: "وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل"[4].

---

١. أيقونات: جمع أيقونة، وهي صورة أو تمثال مُصَغَّر لشخصية دينية، يقصد بها التبرُّك.

٢. البابوات: جمع البابا، وهو الرئيس الأعلى للكنيسة.

٣. بخس: زهيد، ناقص القيمة.

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، أبواب المساجد، باب قول النبي ﷺ: "جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا" (٤٢٧)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، أوائل كتاب المساجد ومواضع الصلاة (١١٩١).

وقد كانت هذه الخصيصة للعبادة الإسلامية موضع الإعجاب العظيم، والتأثير البالغ من كثيرين من غير المسلمين، حتى من رجال الأديان أنفسهم، حتى قال أحدهم ـ وهو أسقف "لوفروا": "لا يستطيع أحد خالط المسلمين لأول مرة ألا يدهش ويتأثر بمظهر عقيدتهم، فإنك حيثما كنت ـ سواء أُوْجِدتَّ في شارع مطروق، أو محطة سكة حديدية أو في حقل ـ كان أكثر ما تألف عينك مشاهدته أن ترى رجلًا ليس عليه أدنى مَسْحة[1] للرياء، ولا أقل شائبة من حب الظهور، يذر عمله الذي يشغله كائنًا ما كان، وينطلق في سكون وتواضع لأداء صلاته في وقتها المعين".

ولقد كان هذا المشهد الفريد في الأديان أحد العوامل التي أثرت في وجدان المحامي الكبير زكي عريبي عميد الطائفة اليهودية في مصر، والذي اهتدى إلى الإسلام في عام ١٩٦٠م. ومما جاء في محاضرته "لماذا أسلمت؟" قوله: "وما سمعت المؤذن يؤذن في الفجر، أو في الظهر، أو في أي وقت آخر إلا شعرت بأن صوت المؤذن الذي ينبعث من الأفق من فوق المئذنة، شعرت بأنه صوت الله، الذي يفصل بين الحق والباطل، والحلال والحرام، ويهدي الإنسان إلى الطريق المستقيم، وأركب السيارة في السفر، وعلى الطريق بين الحقول وبين الفضاء تقع عيني على رجل متواضع يقف بين يدي الله في ثياب رثّة[2] مهلهلة، يقف على مصلى صغير، مفروش بالرقيق من الحصير على شاطئ ترعة متواضعة أيضًا.. يقف الرجل يصلي لله في خشوع وابتهال، فكانت نفسي تهفو إلى أن أصلي مثل صلاته، كنت أعتقد أن هذه نفحات الله في الأرض يلقيها في نفوس عباده الصالحين".

١. المَسْحَة: الأثر الظاهر.

٢. الثياب الرَّثَّة: البالية.

حرر الإسلام العبادة من القيود المكانية المتزمتة، ولم يشترط المكان الخاص في عبادة من عباداته إلا في الحج؛ لما فيه من فوائد عظيمة تفوق فائدة التحرر من المكان؛ من التجمع العالمي للمسلمين حول أول بيت وضع في الأرض للناس، وفي أرض الذكريات الإبراهيمية والذكريات المحمدية.

٣. تحرير الضمير من قيود الوساطة في العبادة:

ومع اشتراط المكان لعبادة الحج، فليس فيه أي شائبة لتأثير الكهنوت، وليس فيه أي ثغرة لتدخل الوسطاء والكهان بين المسلم وبين الله، شأنه في ذلك شأنه في سائر عبادات الإسلام.

يقول العقاد: إن عبادات الإسلام قد امتازت بين عبادات الأديان بمزية لا نظير لها، فهي أرفعها وأرقاها، بالنظر إلى حقيقتها، أو بالنظر إلى جماهير المتدينين بها، وتلك مزيته البينة التي يرعى بها استقلال الفرد في مسائل الضمير خير رعاية تتحقق لها في نظام حياة، فالعبادات الإسلامية بأجمعها تكليف لضمير الإنسان وحده، لا يتوقف على توسيط هيكل أو تقريب كهانة.

يصلي حيث أدركه موعد الصلاة، وأينما تكونوا فثم وجه الله، ويصوم ويفطر في داره أو في موطن عمله، ويحج ليذهب إلى بيت لا سلطان فيه لأصحاب سَدانة، ولا حق عنده لأحد في قربانه، غير حق المساكين والمُعْوِزِيْن[3]، ويذهب إلى صلاة الجماعة، فلا تتقيد

٣. المُعْوِزين: جمع المُعْوِز، وهو الفقير.

صلاته الجامعة بمراسم كهانة أو إتاوة محراب، ويؤمه في هذه الصلاة الجامعة من هو أهل للإمامة بين الحاضرين باختيارهم لساعتهم إن لم يكن معروفًا عندهم قبل ذلك، إنه الدين الذي نتعلم فيه أن الإنسان مخلوق مكلف، لا جرم تقوم عباداته على رعاية حق الضمير واستقلاله بمشيئته أكرم رعاية.

إن عقيدة المسلم في الله لا تتيح مكانًا لأولئك الوسطاء الذين يتحكمون في ضمائر عباد الله[1].

فاعتقاد المسلم في الله يقوم على حقيقتين:

الأولى: الله فوق عباده: علوًّا، وقهرًا، وسلطانًا، وتصرفًا، لا يشبهه شيء قط، ولا يحكم عليه شيء قط، ولا يقع في ملكه إلا ما يريد: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾ (الأنعام)، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ (الشورى). والخلق جميعًا في قبضته لا يملكون لأنفسهم - فضلًا عن غيرهم - ضرًّا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياة، ولا نشورًا®.

الثانية: الله مع عباده: أنه تعالى - مع عظمته وعلو شأنه - قريب من خلقه، بل هو معهم أينما كانوا، في جَلْوتهم وفي خَلْوتهم، يسمع، ويرى، ويرعى ويهدي، يعطي من سأله ويجيب من دعاه فهو تعالى قريب في علوه، عليٌّ في دنوه، ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ (الحديد).

وقد عبَّر القرآن على لسان إبراهيم - أبي الأنبياء - عن العلاقة بين الإنسان والله ﷻ، فقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ (الشعراء)[2].

وروى المفسرون أن رجلًا جاء يسأل النبي ﷺ أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ فنزل القرآن يجيب عن هذا السؤال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ (البقرة: ١٨٦).

ومن اللطائف في هذه الآية: أن سؤال الرسول ﷺ عن بعض الأمور قد وقع في القرآن بضع عشرة مرة، وكان كل جواب عن تلك الأسئلة مقترنًا بكلمة "قل"، أما في هذه الآية فكانت الإجابة مباشرة "فإني قريب" ولهذا الأسلوب دلالته وإيحاؤه في الأنفس والعقول؛ إذ لم يجعل الله واسطة بينه وبين عباده، وكأنه قال لرسوله: لا تبلِّغهم أنت عني، كما تبلِّغ في أسئلة الأحكام، ولكني أقول لهم: إني قريب. ولما رأى النبي ﷺ أصحابه يجهرون بالدعاء قال لهم: "ارْبَعُوا على أنفسكم[3]، إنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائبًا، ولكن تدعون سميعًا قريبًا"[4].

---

١. العبادة في الإسلام، د. يوسف القرضاوي، مرجع سابق، ص١٥٣: ١٥٧.

® في "ثبوت العلوِّ والفوقية لله" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الحادية والعشرين، من هذا الجزء.

٢. العبادة في الإسلام، د. يوسف القرضاوي، مرجع سابق، ص١٥٨.

٣. ارْبَعُوا على أنفسكم: ارفقوا بها.

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب ما يكره من رفع الصوت في التكبير (٢٨٣٠)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب استحباب خفض الصوت بالذكر (٧٠٣٧).

الخلاصة:

- العبادة في الإسلام اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، وهي تشمل كل مناحي الحياة، وليست الشعائر والمناسك التعبدية فقط؛ ومن ثم كانت العبادة في الإسلام غاية الوجود الإنساني كله، وصارت في وجدان المسلم بمثابة غذاء الروح، وقوت القلوب، وزكاة العقول.
- إن الإنسان عابد بفطرته، وإن خضوعه لربه يخلصه من الخضوع لغيره ويحرره من المذلة لمن لا يستحقها مما هو سوى الله؛ لذا كانت علاقة المسلم بربه علاقة الموهوب بالواهب، المنعَم عليه بصاحب النعم، الفقير المحتاج بالغني الجوَّاد، المضطر المكروب بالمنقذ من الهلاك والمنجي من السوء، فكيف يكون كُنْهُ علاقة هذه أواصرها؟ ألا تستحق أن توصف بأنها علاقة رضا وحب ورغبة؟ وهل يعيبها أن يصحبها مع الحب والرغبة تضرُّع وخضوع ورهبة؟ أليس في الذل والخضوع لمن يستحقه كمال العزة وتمام الكرامة؟ أم أن الكرامة في الخضوع لمن لا يستحقه؟!
- من أجل ذلك فإن الإسلام حرر المسلم من عبوديته غير الله، فلا كهانة ولا وساطة في الإسلام، ولا استبداد أو حَجْر على إرادة أو فكر، وذلك كله ما قد عرفته ديانات أخرى، ولم يعرف تاريخ الإسلام ـ على طوله ـ منه شيئًا.

الشبهة الخامسة عشرة

الزعم أن تقديس الحجر الأسود عبادةٌ وثنية(*) ®

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المغالطين أن تقديس المسلمين للكعبة (بالطواف حولها)، وتقديسهم للحجر الأسود (بتقبيله واستلامه) نوع من الوثنية وعبادة الأصنام؛ لأن الحجر الأسود ـ في ظنهم ـ كان صنمًا من جملة الأصنام التي كانت في الكعبة، لكنه لم يُزَل كغيره من الأصنام عام الفتح.

وبهذا التقديس ـ للكعبة وللحجر الأسود ـ تستوي عبادة المسلمين للأحجار مع عبادة الكفار الجاهليين الذين كانوا يظنون أنها تقربهم إلى الله زلفى، وقد أخذ محمد بهذه العادة حينما وضع شعائر دينه، وجعل الكعبة هي مركز هذه الشعائر عند استقبالها في كلِّ صلاة. ويتساءلون: إذا كان الإسلام دين توحيد فلماذا أبقى على تعظيم الكعبة، والحجر الأسود، وسائر طقوس الحج ذات الأصل الوثني؟!

وجها إبطال الشبهة:

١) الشعائر التي يؤديها المسلمون في الحج هي عبادة الله ﷻ يأتونها امتثالًا لأمره، ولا يصرف أحدٌ من المسلمين إلى الحجر أو الكعبة خوفًا أو رجاءً، فإنما

(*) قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية: نقد مطاعن ورد شبهات، د. فضل حسن عباس، دار البشير، الأردن، ط٢، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م.

® في "مناسك الحجّ والوثنية" طالع: الوجه الرابع، من الشبهة السادسة والعشرين، من الجزء الثالث عشر (العبادات والمعاملات الاقتصادية).

ذلك لله وحده.

٢) شرع الإسلام تقبيل الحجر الأسود لما له من منزلة عظيمة، وما يقال من أن أصله صنم جاهلي هو افتراء خالص لا يسنده شيء من حق أو علم.

التفصيل:

أولا. شعائر الحج هي امتثال لأمر الله ﷻ لا عبادة للكعبة:

العبادة في المفهوم الإسلامي تشتمل على معنى الخضوع والذل والانقياد والطاعة، فالعبد عندما يكون عابدًا لشيء ما ينبغي أن يخضع ويذل له، ويقف بين يديه ضعيفًا ذليلًا لا يملك من أمره شيئًا، فإن من يعبد شيئًا، مهما كانت طبيعته، يعتقد أن له سلطة غيبية ينعكس تأثيرها على الواقع، وبالتالي فإن العابد يتقرب إلى معبوده رجاء للنفع أو دفعًا للضرر، وهو في الوقت ذاته يعتقد أن التقصير في حق هذا المعبود، أو ترك عبادته يترتب عليه حصول الضرر ووقوعه كنوع من العقاب، فأمره مستجاب، ونهيه كذلك، بمعنى أنه يأتمر بما يأمره به، ويترك ما ينهاه عنه.

تقدير واحترام لا خضوع وتذلل:

ومما سبق من مفهوم العبادة الموجز نستطيع أن ندرك أن المسلمين لا يعبدون الكعبة، ولا الحجر الأسود، فهم لا يخضعون لهما ولا يذلون، وإنما يقدرون ويحترمون، وهم لا يتلقون شيئًا من الأوامر أو النواهي من الكعبة والحجر الأسود؛ لأنهما لا يضران ولا ينفعان ولا يصدر عنهما شيء يمكن أن يكون فيه توجيه أو إرشاد، وإنما كان التقبيل والتقدير لهذا الحجر لتحقيق متابعة الرسول ﷺ وليس له أدنى تعلُّق بالعبادة بحال من الأحوال، بل إن المسلمين الذين يقبلون الحجر الأسود يعتقدون أنه لا يملك الضر والنفع غيرُ الله تعالى، فهم ينفون وجود أي سلطة ذاتية في المخلوقات مهما كانت، كما أنهم يعتقدون أن علاقة المخلوق بالخالق علاقة مباشرة ليس فيها وسيط، وأن العباد لا يحتاجون إلى شفيع يقصدونه للتقرب إلى الله ﷻ، بل إنهم يعدُّون ذلك من الشرك الأكبر المخرج من الملة.

مناسك الحج هي من ملة إبراهيم عليه السلام محطم الأصنام:

الحج من ملة إبراهيم عليه السلام فقد بدأ الحج إلى بيت الله الحرام، منذ أمره الله أن يؤذن في الناس بالحج: ﴿ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَـٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ ﴾ (الحج).

فإبراهيم عليه السلام هو الذي بدأ الحج، ومثله لا يُتَّهم بعبادة الأصنام؛ لأنه هو الذي حطَّمها وجعلها جُذاذًا، وأحيا عليه السلام بذلك الملة الحنيفية ملة التوحيد: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ (النحل).

طقوس وثنية حرَّمها الإسلام:

وأكثر من ذلك أن أهل الجاهلية حين أدخلوا على الحج بعض الطقوس الوثنية وبعض الشعائر غير المقبولة، كالطواف بالبيت عرايا، جاء الإسلام فأبطلها ومنع أن يطوف بالبيت عريان، وكان هذا في العام

التاسع للهجرة؛ حين نهى رسول الله ﷺ عن ذلك صراحة: "ألا يحجَّ بعد هذا العام مشرك، ولا يطوفَ بالبيت عريان"[1].

ومن شعائرهم أنه كانت لكل قبيلة تلبية؛ كقولهم: "لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملكك" يقصدون بهذا الشريك "الأصنام"، فجاء الإسلام وأبقى على جوهر التلبيات جميعًا ووحدها في التلبية المعهودة: "لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك"[2].

والنبي ﷺ كان يقول: "أفضل ما قلت أنا والنبيُّون من قبلي: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير"[3].

وهذا من مقاصد الإسلام في الحج، حيث قرر تثبيت التوحيد ومحو طقوس الشرك، فكان الحجُّ مخلصًا ومطهرًا تمامًا من كل مظاهر الشرك. وكذلك نجد أن الجاهليين كانوا يعتقدون أن الأصنام والأوثان التي يعبدونها تقربهم إلى الله ﷻ وتشفع لهم عنده، يقول الله تعالى مبينًا ذلك: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ (الزمر: ٣)، وقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ (يونس: ١٨).

وهذه صورة من التقديس الوثني تنزل عن العبادة الصريحة المباشرة إلى رتبة الاستشفاع بالوثن على سبيل التقرب إلى الله ﷻ، والإسلام - مع ذلك لا يقرها ولا يرضى بها وينعي عليهم هذه الصورة من التعظيم الذميم والعبادة الملفقة.

وليس أدلَّ على موقف الإسلام من الوثنية ومحاربته لمظاهرها من كل وجه، من شهادة طائفة من غير المسلمين بهذه الحقيقة، نحو جوستاف لوبون في قوله: "للإسلام وحده أن يباهي بأنه أول دين أدخل التوحيد إلى العالم"[4].

وصفوة القول أن رَحَى العبادة تدور على قضيتين أساسيتين: تمام المحبة مع غاية الذل والخضوع، فمن أحب شيئًا ولم يخضع له، فليس بعابد له، ومن خضع لشيء دون أن يحبه فهو كذلك ليس بعابد له، ومعلوم أن شعائر الحج تصرف الحب والذل جميعًا إلى الله ﷻ لا إلى الحجر أو الكعبة المبنية.

ومن المناسب أن نقول: إن من يعبد شيئًا فلا شك أنه يرى في معبوده أنه أعلى منه وأفضل، ونعلم أن حرمة المؤمن أعظم من حرمة الكعبة، بل من حرمة الدنيا بأسرها، كما جاء في حديث عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - أنه قال في الكعبة: "ما أعظمك وأعظم حرمتك، والمؤمن أعظم حرمة عند الله

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحج، باب لا يطوف بالبيت عريان ولا يحج مشرك (١٥٤٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب لا يحج البيت مشرك ولا يطوف بالبيت عريان (٣٣٥٣).

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحج، باب التلبية (١٤٧٤)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب التلبية وصفتها ووقتها (٢٨٦٨).

٣. حسن: أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الدعوات، باب في دعاء يوم عرفة (٣٥٨٥)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٥٠٣).

٤. حضارة العرب، جوستاف لوبون، ترجمة: عادل زعيتر، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، د. ت، ص١٢٥.

منك"[١]، وهذا جدير بأن يجلي حقيقة الفكرة الإسلامية عن هذه الشعائر ومعنى تأدية المسلمين لها.

ولنقف لنتدبر، ألم يكن العرب في جاهليتهم يتخذون العديد من الآلهة من مختلف الأشياء، وهم مع ذلك لم يتخذوا الحجر الأسود إلهًا من دون الله، ولكنهم جعلوا له حرمة ومكانة، باعتباره من البقايا الموروثة للكعبة التي بناها إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - فإذا كان هذا حال العرب في جاهليتهم، فأين العقل عندما ينسب هذا إلى المسلمين؟!

الحجر الأسود كتلة من الحجر ضارب إلى السواد بيضاوي في شكله، يقع في أصل بناء الكعبة في الركن الجنوبي الشرقي منها، يُسَنُّ استلامه وتقبيله عند الطواف. وقد روى ابن عباس عن النبي ﷺ قال: "نزل الحجر الأسود من الجنة، وهو أشد بياضًا من اللبن، فسودته خطايا بني آدم"[٢].

كما أثبتت بعض النصوص الترغيب في تقبيله وبيان أنه يشهد يوم القيامة لمن استلمه بحق، وأنه تحط به الذنوب، ففي الحديث: "إن مسح الحجر والركن اليماني يحطَّان الخطايا حطًّا"[٣].

١. صحيح: أخرجه الترمذي في سننه، كتاب البر والصلة، باب تعظيم المؤمن (٢٠٣٢)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٤٢٠).

٢. صحيح: أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الصوم، باب ما جاء في فضل الحجر الأسود والركن والمقام (٨٧٧)، وابن خزيمة في صحيحه، كتاب المناسك، باب صفة الركن والمقام (٢٧٣٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٧٥٦).

٣. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن عمر ﷺ (٥٦٢١)، والطبراني في المعجم الكبير (١٢/ ٣٨٩) برقم (١٣٤٣٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢١٩٤).

وفي الحديث: "والله ليبعثنه الله يوم القيامة له عينان يبصر بهما، ولسان ينطق به يشهد على من استلمه بحق"[٤].

ثانيًا. حقيقة الحجر الأسود ومنزلته في الإسلام:

لقد اكتسب الحجر الأسود هذه المزية - مزية تعظيمه - لأمر الله تعالى بتقبيله، ولو لم يرد ذلك الأمر لم يكن لأحد أن يقوم بتقبيله؛ إذ إن الشرع أمر بإسلام الوجه لله، وقبول ما جاء به الرسول ﷺ - مع التسليم وانتفاء الحرج، قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ (الحشر: ٧).

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ (الأحزاب: ٣٦)، وقد ورد تقبيل الحجر عن النبي ﷺ، وهو كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾﴾ (النجم)، فمن الحكمة في مشروعية تقبيل الحجر والطواف والرمي - ابتلاءُ العباد وإظهار العبودية؛ ليعلم المسلمُ أنه لا اختيار مع أمر الله وأمر رسوله ﷺ، فشرع الله هو الذي حرم عبادة الأحجار والأشجار والأوثان وحرم التقرب إليه بغيرها، وهو الذي أمر بالطوافِ حول البيت الحرام، وشرع تقبيل الحجر الأسود، ولهذا جاء قول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ "ولولا أني رأيت رسول

٤. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، من مسند بني هاشم، مسند عبد الله بن عباس رضي الله عنهما (٢٢١٥)، والترمذي في سننه، كتاب الصوم، باب الحجر الأسود (٩٦١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٠٩٨).

الله يقبلك ما قبلتُك"[1].

تقبيل الحجر لغة رمزية:

وهذا التقبيل هو في حقيقته عمل رمزي، فالحج يتميز بأن فيه اللغة الرمزية، فرمي الجِمَار - مثلًا - رمز لمقاومة الشر الذي يتمثل في الشيطان، والمسلم يقتدي في هذا بإبراهيم عليه السلام حينما رمى إبليس، حينما تعرض له ليَثْنِيه عن ذبح ولده فرماه بالجمار، وكذلك نحن حينما نرمي الجمار نتمثل أننا نرمي الشيطان ونقاوم الشر، بل حتى العوام من المسلمين يكادون يتمثلون أن هذا الذي يرمونه هو إبليس "كأنهم يرونه" ويقولون: هذا إبليس الكبير، وإبليس المتوسط، وإبليس الصغير، فهذه عملية رمزية.

والإنسان بطبيعته وفطرته يحتاج إلى تمثيل المعاني في صورة محسوسة، والله عز وجل أعلم بخلقه، ألم يقل: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤)﴾ (الملك)، فتعظيم العبد لله وإعلانه لخضوعه له واستكانته لأمره، جعله سبحانه وتعالى في صور محسوسة؛ لكي تكون دلالتها الرمزية تحقق معنى العبودية، وتشبع العاطفة والميل الإنساني للتعبير عن هذه المعاني في صورة حسية.

والكعبة والبيت الحرام وغيرهما صور حسية رمزية لحقائق معنوية، وجعلت الكعبة في العبادة، وفي الصلاة خاصة، مركزًا للتعظيم والتوقير والإجلال لا لذاتها، وإنما لعبادة الله، وجعلت واحدة في مكان واحد؛ لتعطي - أيضًا - مع معنى التعبد معنى الدلالة على منهج الوحدانية لله عز وجل.

وباختصار شديد ليست العبادة للكعبة، ولا للحجر الأسود وإنما لله، ومن رحمته وحكمته أن جعل بعض معاني هذه العبودية تتجلى في صورة حسية؛ ليتوافق ذلك مع طبيعة الإنسان وفطرته في تعبيره عن المعاني والمشاعر في صور حِسِّية.

وقد يقال - بعد ذلك كله - إن الحكمة في هذا التقبيل تكمن في ذلك الاتصال بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمته، فهو اتصال من نوع خاص، اتصال روحي وكياني، وكأنه صلى الله عليه وسلم قبَّل الحجر الأسود ليكون هذا بمثابة الاتصال المادي والحسي بينه وبين أمته أليس هو القائل: "وددت أني لقيت إخواني" [2]، وفي رواية: وددت أنَّا قد رأينا إخواننا[3]، غير أن المستشرقين الذين يعدون تقبيل الحجر الأسود من بقايا الوثنية لا يعلمون الحكمة من ذلك، وهي حب النبي صلى الله عليه وسلم لأحبابه الذين لم يرهم ولم يروه، وآمنوا به، والذين سيأتون من بعده؛ فالصحابة - رضوان الله عليهم - كانوا يرون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويصافحونه ويسمعون الوحي المنزل عليه من فمه الشريف، أما المؤمنون من بعدهم فإنهم لم يواكبوا هذه الأحداث الملموسة، وآمنوا بها بالرغم من عدم رؤيتهم لها، فربما أراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يطبع على جبين كل واحد منهم ما هو بمثابة وسام؛ تكريمًا لهم على إيمانهم ومحبتهم

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحج، باب ما ذكر في الحجر الأسود، (١٥٢٠)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب استحباب تقبيل الحجر الأسود في الطواف (٣١٢٦).

٢. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أنس بن مالك رضي الله عنه (١٢٦٠١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧١٠٨).

٣. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب استحباب إطالة الغرة والتحجيل في الوضوء (٦٠٧).

لهذا الدين من خلال تقبيله الحجر الأسود، فكأنما صار هذا الحجر الواسطة بينهم لنقل هذه المشاعر وتقليدهم هذا الوسام الرفيع.

ومما سبق ندرك أن المسلمين لم يعبدوا الحجر الأسود ولم يقدسوه، وإنما يتبعون سنة النبي ﷺ فيقدرونه ويحترمونه.

الخلاصة:

- تشتمل العبادة على معنى الخضوع والذل والانقياد؛ فالعبد ينبغي أن يخضع ويذل إلى معبوده ويتقرب إليه رجاءً للنفع، أو دفعًا للضرر، والمسلمون لا يذلون ولا يخضعون للكعبة ولا للحجر؛ لأنهما لا يضران أو ينفعان، وإنما يقدرونها ويحترمونها امتثالًا لأمر الله ورسوله ﷺ.
- بدأ الحج إلى بيت الله الحرام، منذ أمر الله إبراهيم عليه السلام أن يؤذن في الناس بالحج، وهو عليه السلام الذي بدأ الحج، ولا يمكن أن يُتَّهم إبراهيم عليه السلام بعبادة الأصنام وهو محطمها، وصاحب الملة الحنيفية التي اتبعها الموحدون من بعده.
- أدخل أهل الجاهلية على الحج بعض الطقوس الوثنية، فجاء الإسلام وألغاها وأبقى على جوهر التلبية، وكانوا - أيضًا - قد اعتقدوا أن الأصنام والأوثان التي يعبدونها تقربهم إلى الله عز وجل، فجاء الإسلام فجعل علاقة المخلوق بالخالق علاقة مباشرة ليس فيها وسيط.
- اكتسب الحجر الأسود تقديسه لأمر الله عز وجل بتقبيله، ولو لم يرد ذلك الأمر لم يكن لأحد أن يقوم بتقبيله، إذ إن تقبيله؛ طاعة لأمر رسول الله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى.
- تقبيل الحجر عمل رمزي وتواصل روحي وكياني مع رسول الله ﷺ وكأنه قَبَّل الحجر ليكون بمثابة الاتصال المادي والحسي بينه وبين أمته، فتقبيله لحكمة؛ وهي حبه ﷺ لأحبابه الذين لم يرهم ولم يروه وآمنوا به، ومعنى ذلك - على كل حال - أنَّ المسلمين لم يعبدوا الحجر الأسود ولم يقدسوه، وإنما كان هذا اتباعًا منهم لسنته ﷺ وامتثالًا لأمر الله تبارك وتعالى الذي أوحى به للنبي ﷺ.

الشبهة السادسة عشرة

استنكار إخفاء المسلم عقيدته خشيةَ الأذى(*)

مضمون الشبهة:

ينكر بعض المغالطين على المسلم إخفاءه لعقيدته بغرض النجاة من إيذاء الكفار. ويستدلون على ذلك بقول الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ (النحل ١٠٦)، وبقصة عمار بن ياسر حينما قال له النبي ﷺ: إن عادوا فَعُدْ، ويتساءلون: كيف يكون ذلك عند المسلمين، وعيسى يقول: من أنكرني قدام الناس يُنكَر قدام ملائكة الله؟!

وجها إبطال الشبهة:

١) من رحمة الله عز وجل أنه تجاوز عن الخطأ والنسيان وما أُكره الناس عليه.

(*) موقع إسلاميات، عبدالله عبدالفادي.
www. islamyat. com

٢) شُرِع العمل بالتَّقِيَّة[1] تخفيفًا على المكلَّف في حالات خاصة تقتضي هذا التخفيف، وليس الإسلام بدعًا من الشرائع في استخدامه للتقية، بل شرعها عدد غير قليل من الشرائع على رأسها اليهودية.

التفصيل:

أولا. تجاوز الله ﷻ عما أُكره الناس عليه:

من رحمة الله ﷻ بهذه الأمة أنه لا يؤاخذ أحدًا في حالات الخطأ والنسيان والاستكراه، ومن هنا يأتي دور مسايرة الإسلام للفطرة الصحيحة ومشيه في خطها، ومن هنا تبرز سماحة الإسلام ويسره في تلك الحالات الناتجة عن بعض مواطن النقص في طبيعة الإنسان.

وإن الإسلام ليسهم بجزء وافر من اليسر في هذه الحالات من الضعف البشري؛ فلا يؤاخذ على الإثم المرتكب من جراء النسيان أو الخطأ أو الإكراه، ولا يَعُدُّ ذلك من الأمور التي تستحق المؤاخذة كما لو صدرت في حالات متكاملة من التذكر، والعلم، والاختيار.

وقد خشي المؤمنون من المؤاخذة على ما يرتكبونه بسبب هذه الملابسات فأطلقوها دعوات لله؛ أن يعفو عنهم، ويغفر لهم، وألا يؤاخذهم عليها: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ (البقرة: ٢٨٦)، وقد لبَّى الله نداءهم، واستجاب دعاءهم، فرفع ذلك عنهم، روى مسلم أنه لما قالوا ذلك قال الله: "قد فعلت"[2].

بل إن المؤمنين الأوائل في مكة قد لقوا من الأذى ما لا يطيقه إلا من نوى الشهادة، وآثر الحياة الآخرة، ورضي بعذاب الدنيا عن العودة إلى ملة الكفر والضلال، وقد شق ذلك عليهم كثيرًا حتى إن بعضهم قد قارب الكفار في بعض ما يقولونه، وخشي أن ذلك لا يجوز له، ولكن رسول الله ﷺ بيَّن له أن مثل ذلك جائز.

فعن أبي عبيدة محمد بن عمار بن ياسر قال: "أخذ المشركون عمار بن ياسر فعذبوه حتى قاربهم في بعض ما أرادوه، فشكا ذلك إلى النبي ﷺ، فقال له النبي ﷺ: كيف تجد قلبك؟ قال: مطمئن بالإيمان، قال النبي ﷺ: "إن عادوا فَعُدْ"[3]، وبسبب هذه القصة نزل قول الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ (النحل: ١٠٦)[4].

يقول العلامة السعدي في تفسير هذه الآية: فمن أُكْرِه على الكفر وأُجْبِر عليه وقلبه مطمئن بالإيمان راغب فيه، فإنه لا حرج عليه ولا إثم، ويجوز له النطق بكلمة الكفر عند الإكراه عليها. ودل ذلك على أن كلام المكْرَه على الطلاق أو العتاق أو البيع أو سائر العقود لا عبرة به، ولا يترتب عليه حكم شرعي؛ لأنه إذا لم يعاقب على كلمة الكفر إذا أكره عليها فغيرها من باب أولى وأحرى[5].

---

١. التَّقِيَّة: مدارة المؤمن للكافر باللسان خلاف ما ينطوي عليه قلبه خوفًا على نفسه.

٢. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب قوله ﷻ: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾ (البقرة: ٢٨٤) (٣٤٥).

٣. صحيح: أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب التفسير، باب تفسير سورة النحل (٣٣٦٢)، والبيهقي في السنن الكبرى، كتاب المرتد، باب المكره على الردة (١٦٦٧٣)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

٤. صور من سماحة الإسلام، د. عبد العزيز بن عبد الرحمن الربيعة، هجر للطباعة والنشر، القاهرة، ١٤٠٨هـ، ص٣١، ٣٢.

٥. انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن السعدي، مكتبة الصفا، القاهرة، ط١، ١٤٢٥هـ.

وقد حفلت دواوين السنة بذكر هذه الملابسات التي تنتاب المسلم في حياته، ورفعت المؤاخذة بالإثم المرتكب من جرائها، فكانت بذلك موافقة للقرآن، مصدقة له، مؤكدة ما قرره في ذلك من أحكام.

وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: "إن الله تجاوز لأمتي عن ثلاث: عن الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه"[1].

كما روى ابن حاتم عن أم الدرداء عن النبي ﷺ قال: "إن الله تجاوز لأمتي عن ثلاث: عن الخطأ والنسيان والاستكراه ". قال أبو بكر الهذلي: فذكرت ذلك للحسن، فقال: أجل، أما تقرأ بذلك قرآنًا: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ (البقرة: ٢٨٦)[2].

ومن محاسن الإسلام أنه قرر قاعدة "الضرورات تبيح المحظورات"، فمن مسلَّمات المبادئ لدى جمهور المسلمين أن شريعة الإسلام قد ابتنت أحكامها على مراعاة الحِكَم؛ جلبًا للمصالح أو دفعًا للمفاسد.

والمتأمل في نصوصها يجد أن ذلك واضحٌ في جميع ما قررتْه من أحكام، وفي كل ميدان تناولته من ميادين الحياة. وليس غريبًا عليها أن تسلك هذا المسلك أو تتجه هذا الاتجاه، فإنها تنزيل من خالق البشر، المتصف بكمال الحكمة والخبرة بشئون خلقه.

وقد يطرأ على الإنسان حالة من الخطر أو المشقة الشديدة على نحو يخاف عنده حدوث ضرر أو أذى بالنفس أو بالعرض أو بالعقل، أو بالمال ونحو ذلك، فما موقف الإسلام عندئذٍ؟

بالنظر إلى نصوص شريعة الإسلام نجد أنه قد راعى جميع الظروف والأحوال وأعطى لكل ذلك ما يناسبه من أحكام، وقد حسب للضرورة حسابها، فأباح فيها المحظورات وأحل فيها المحرمات، بقدر ما تنتفي به هذه الضرورات بغير تجاوز لها ولا تَعَدٍّ لحدودها، وهذا ما يعرف عند جمهور العلماء بقاعدة "الضرورات تبيح المحظورات" فكل محظور في الحالات الاعتيادية يباح في حالة الضرورة، بل قد يرتفع إلى درجة الوجوب والإلزام، وقد وردت الأدلة من القرآن الكريم والسنة النبوية بتشريع هذا المبدأ وتقريره، وإحاطته بالقيود التي لا بد من توافرها فيه.

وإنما يجب على المسلم أن يقي نفسه من الهلاك ويحفظ حياته في غير حالة النطق بكلمة الكفر، فإن التلفظ بكلمة الكفر تحت ضغط العذاب وشدة الألم، ليس من باب الواجب، وإنما هو من باب الرخصة؛ ذلك لأن إزهاق النفس يقابله أمر عظيم سام، فهو يلفظ أنفاسه في سبيل إحقاق الحق، ومن أجل التوحيد وتحت رايته، ولذلك فقد ترك المكلف مخيرًا بين الأمرين[3].

ثانيًا. حول شروط العمل بالتقية وأنها ليست خاصة بالمسلمين:

إن مسألة التقية ـ على الوجه المتقدم ـ هي ضرورة لا

١. صحيح: أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الطلاق، باب طلاق المكره والناسي (٢٠٤٥)، وابن حبان في صحيحه، كتاب إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة رجالهم ونسائهم (٧٢١٩)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٦٦٤).

٢. أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره، تفسير سورة البقرة (آية ٢٨٦) برقم (٣١٣٧).

٣. انظر: مباحث في أصول الفقه، د. نادية محمد شريف العمري، دار هجر، القاهرة، ط١، ١٤١٠هـ.

عادة مطَّردة، ولا وجه للموازنة بينها وبين المداهنة في أمر الاعتقاد أو المراء فيه، وهو معنى يزداد جلاؤه بالنظر إلى جملة القيود التي وضعها العلماء والمسلمون لإباحة التقية في الدين، ومنها:

- أن يكون الخوف من المكروه أمرًا محققًا لا مظنونًا.
- أن يغلب على ظنه أنه متى استعمل التقية نجا.
- ألا يكون للمكلَّف مَخْلَص من ذلك المكروه إلا بالتقية.
- أن يكون الأذى المـُخوف مما لا يطاق احتماله[1].

ومبدأ التقية ـ في ضوء هذه القيود ـ هو من جملة المحظورات التي تبيحها الضرورة، وهو ـ كذلك بعيد الصلة أو مقطوعها بالمداراة المذمومة على حساب الاستعلان بالإيمان، والاستعلاء به على الآلام التي يؤذي بها المشركون أتباعه.

وليست التقية مسلكًا يخص المسلمين وحدهم، بل هي شيء نجده في عديد من الديانات والمذاهب، لا سيما في أطوار الضعف من تاريخها، والحق أن النظر في تواريخ الأديان والعقائد يظهر صورًا بالغة السوء من السرِّية والتستر، وذلك نحو ما عرفته اليهودية في شكل تنظيمات كالماسونية، وكذلك ما عرفته العقائد الفارسية أيام هَوَت إمبراطورية الفرس؛ فسعوا إلى إشاعة عقائدهم في شكل جماعات سرية تفسد على المسلمين دينهم ووحدتهم.

١. الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الكويت، ط١، ١٤٠٨هـ، ج١٣، ص١٩١: ١٩٥.

الخلاصة:

- ليس ثمة ضعف من المسلم أن يحفظ عقيدته بتخفِّيه من بطش الجبارين والمعاندين لعقيدة الإسلام، وليس خروجًا من الدين أن يُظهر الكفر، وقلبه مطمئن بالإيمان، فإن من محاسن الإسلام السمحة أنه تجاوز عما استكره المسلمون عليه، فمن استكره منهم على ما حرمه الله ﷻ؛ كالنطق بالكفر أو أكل المحرم، أو إفطار رمضان إلى غير ذلك عفا الله عنه.
- لقد قرر الإسلام قواعد مهمة لهذه الأمة؛ دفعًا للحرج عنها وتخفيفًا منه عليهم، رحمة بهم، فشرع لهم إباحة المحظور عند الضرورة، وهو ما عرف بقاعدة "الضرورات تبيح المحظورات".
- وشرع لهم الأخذ بالرخصة عند قيام العذر الشرعي على ذلك، فلله الحمد أولًا وآخرًا على نعمة الإسلام.

الشبهة السابعة عشرة

اتهام الإسلام بالكهنوت والوساطة بين العبد وربه(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المغالطين أن في الإسلام طبقة لها نفوذ دون سواها تُسمى "رجال الدين" ويُعتَبرون وسطاءَ

(*) شبهات التغريب في غزو الفكر الإسلامي، أنور الجندي، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٧٨م. حوارات مع أوربيين غير مسلمين، د. عبد الله أحمد قادري الأهدل، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط١، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

بين العباد و ربهم ليقربوهم إليه، وبذلك يسلبون عن الإسلام فارقًا مهمًّا بينه وبين النصرانية، ويثبتون أنه أقرَّ ذلك المأخذ الذي طالما عابه المسلمون على النصرانية وتاريخها.

وجها إبطال الشبهة:

١) مصطلح "رجال الدين" مصطلح غربي دخيل على الإسلام، ولا نجد في الإسلام إلا لقب العلماء "العالمين بأحكامه"، وليس هذا حكرًا على أحد بعينه، بل يمكن أن يكتسبه أي مجتهد في المعرفة الصحيحة بشريعة الإسلام.

٢) في الوجود الإنساني شواهد كثيرة على عناية الله ﷻ بالنوع الإنساني وتأهيله بما يعينه على الخلافة في الأرض وعمارتها.

التفصيل:

أولا. غربة مصطلح "رجال الدين" عن ثقافة الجماعة الإسلامية:

مصطلح "رجال الدين" مصطلح غربي لا يُعرف في الإسلام، وإنما الذي يُعرف في الإسلام هو "علماء" بشئون الإسلام، وليس هذا حكرًا على أحد بعينه، بل يمكن أن يكتسبه أي مجتهد مسلم في معرفة الإسلام، بينما مصطلح "رجال الدين" في الغرب يعني أن هناك طبقة يعود إليها - هي فقط - تفسير الدين وتحكيم أمره، وهذه الطبقة تورِّث ذلك الأمر لغيرها، ومن أهم أعمالها القيام بالوساطة بين جمهور المتدينين والخالق، أما في الإسلام فلا توجد هذه الوساطة، وبالتالي لا يوجد ما يسمى بـ "طبقة رجال الدين" إنما يوجد علماء بشئون الإسلام، فقهًا وعقيدة ومعاملة وغير ذلك، وهم لا يورثون ذلك لأبنائهم إنما يصل إلى ذلك كل من يريد من الأمة التعليم والترقِّي فيه، وهم ليسوا وسطاء بين جمهور المتدينين، والله الذي له وحده التصرف في الكون، ثم إن رجال الدين الإسلامي ليسوا معصومين من الخطأ، ويجوز لأي فرد من أبناء الأمة تخطئتهم وتبيين الأمر لهم إذا حادوا عن الجادَّة، وكتاب الله وسنة رسوله هما صاحبا المرجعية، وليس علماء الأمة ولارجال الدين، وهذا خلاف مفهوم رجال الدين في الغرب الذين يعود لهم وحدهم فَهْم الدين وتفسيره، فهم معصمون متصلون بالخالق - بزعمهم - وغيرهم متصل به عن طريقهم.

وأخطأ من يسوق هذا الزعم عائدًا إلى مقارنة خاطئة بين علماء الدين الإسلامي ورجال الدين في الغرب في العصر الوسيط أو حتى اليوم.

فلا وساطة بين العباد وبين ربهم في الإسلام؛ لأن الإسلام ينهى عن ذلك ويحرمه، ويعتبر كل الناس سواسية عند الله تعالى، فلا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى والعمل الصالح، وإذا كان الإسلام يمقت الذين يشرعون للناس من دون الله ﷻ، فإنه ينعي على الذين يتبعون الأحبار والرهبان فيما يحللون ويحرمون لهم من دون الله، ويطيعونهم طاعة عمياء، ويعتبر أن هذه الطاعة وذلك الاتباع عبادة وتأليه من التابع للمتبوع قال ﷻ: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾(التوبة)، وعن عدي بن حاتم قال: "أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب

من ذهب، فقال: يا عدي اطرح عنك هذا الوثن، وسمعته يقرأ في سورة براءة: ﴿ اتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾(التوبة: ٣١)، قال: أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئًا استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئًا حرموه"[1].

قال سيد قطب رحمه الله: "كما يعرض القرآن صورة من تأليه العباد للعباد لا تتمثل في اعتقادهم بألوهيتهم، ولكن تتمثل في تلقي الشرائع منهم، وجعلهم ـ بذلك ـ أربابًا، ولو لم يعتقدوا بألوهيتهم أو يقدموا لهم شعائر العبادة: ﴿ اتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ (التوبة: ٣١)، وهكذا.. يستمر القرآن الكريم في توكيد هذه العقيدة وتثبيتها وتوضيحها؛ ليصل إلى تحرير الوجدان من كل شبهة شرك في ألوهية أو ربوبية، قد تضغط هذا الوجدان وتخضعه لمخلوق من عباد الله تعالى، إن يكن نبيًّا أو رسولًا فإنه عبد من عباده تعالى لا إله!

فإذا انتفى أن يكون عبدًا بذاته أميز عند الله من عبد بذاته، انتفت الوسائط بين الله وعباده جميعًا؛ فلا كهانة ولا وساطة بل يتصل كل فرد صلة مباشرة بخالقه؛ يتصل شخصه الضعيف الفاني بقوة الأزل والأبد، يستمد منها القوة والعزة والشجاعة، ويشعر برحمة الله وعطفه فيشتد إيمانه، وتَقْوى معنوياته"[2].

والإسلام لم يكتف بتحرير الوجدان الإنساني من رقٍّ وعبوديةٍ فحسب، بل قرر مبدأ المساواة باللفظ والنص؛ ليكون كل شيء واضحًا مقررًا منطوقًا، وفي الوقت الذي كان يدعي بعضهم ويصدق أنه من نسل الآلهة، وبعضهم يدعي ويصدق أن الدماء التي تجري في عروقه ليست من دماء العامة، إنما هو الدم الأزرق الملوكي النبيل، وفي الوقت الذي كانت بعض الملل والنحل تفرق الشعوب إلى طبقات، خلق بعضها من رأس الإله فهي مقدسة، وخلق بعضها من قدميه فهي منبوذة، وفي الوقت الذي كان الجدل يدور حول المرأة: أهي ذات روح أم لاروح لها؟! وفي الوقت الذي كان يباح فيه للسيد أن يقتل عبيده ويعذبهم؛ لأنهم من نوع آخر غير نوع السادة.. في هذا الوقت جاء الإسلام ليقرر وحدة الجنس البشري في المنشأ والمصير، في المحيا والمهات، في الحقوق والواجبات، وأمام القانون أمام الله في الدنيا والآخرة، لا فضل إلا للعمل الصالح، ولا كرامة إلا للأتقى"[3].

والإسلام لا كهانة فيه ولا وساطة بين الخلق والخالق، فكل مسلم في أطراف الأرض، وفي فجاج البحار، يستطيع بمفرده أن يتصل بربه، بلا كاهن ولا قسيس، والإمام المسلم لا يستمد ولايته من "الحق الإلهي" ولا من الوساطة بين الله تعالى والناس، وإنما يستمد مباشرته للسلطة من الجماعة الإسلامية، كما يستمد السلطة ذاتها من تنفيذ الشريعة التي يستوي الكل في فهمها وتطبيقها، ويحتكم إليها الكل على السواء. فليس في الإسلام "رجل دين" بالمعنى المفهوم في الديانات التي لا تصح مزاولة الشعائر التعبدية فيها

١. حسن: أخرجه الترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن، باب سورة التوبة (٣٠٦٥)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٢٩٣).

٢. العدالة الاجتماعية في الإسلام، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط١٦، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص٣٥.

٣. المرجع السابق، ص٤٤، ٤٥.

إلا بحضور رجل الدين، إنما الذين في الإسلام علماء بالدين، وليس للعالم بهذا الدين من حق خاص في رقاب الناس، وليس للحاكم في رقابهم إلا تنفيذ الشريعة التي لا يبتدعها هو، بل يفرضها الله على الجميع، أمّا في الآخرة فالكل مصيره إلى الله تبارك وتعالى: ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ (مريم)، فلاصراع - إذًا - بين علماء الدين والسلطان على رقاب الناس ولا أموالهم، وليس هناك مصالح اقتصادية ولامعنوية يتنازعانها، وليس هنالك سلطة روحية وأخرى زمنية في الإسلام، فلا مجال للصراع عليها، كما كان الحال بين الأباطرة[1] والبابوات[2].

فهذا هو قوام الإسلام في العمل والاعتقاد، لا عزلة بين الإنسان وربه بتلك الوساطة المزعومة كما في الأديان الأخرى التي صاغتها المجامع المقدسة.

ثانيًا. عناية الله تعالى بالإنسان، وحاجة الحياة إلى الاعتقاد السليم:

إن الله ﷻ حينما أراد إيجاد هذا الكون بما فيه من الموجودات أنواعًا وأجناسًا اقتضت حكمته الباهرة أن يختار نوعًا من هذه الموجودات، وهو الإنسان، فيجعله سيد هذا الكون، ويجعل سائر مظاهره وموجوداته مسخرة له قائمة بخدمته، وأن يكل إليه عمارته وأمر تنظيمه، فذلك هو المعنى بالخلافة في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (البقرة)، وهو المقصود بالاستعمار في قوله تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾ (هود).

والله ﷻ جهز الإنسان بمجموعة من الملكات والصفات التي لا بد منها؛ لتتكامل لديه القدرة على إدراك شأن هذا الكون وتعميره واستخدامه، فبث فيه صفة العقل، ومايتفرع عنها من العلم والقدرة على تحليل الأشياء، وسبر أغوارها والوصول إلى ما ورائها، وبث فيه أسباب القوة ومقومات التدبير، وما يتفرع عنهما من النزوع إلى السيطرة والعظمة والجاه، ثم بث فيه مجموعة من العواطف والأشواق والانفعالات التي تعد متممة لقيمة تلك الصفات وفوائدها؛ كالحب، والكراهية، والغضب، وما إلى ذلك. والإنسان لم يستطع تسخير شيء مما في هذا الكون أو السيطرة على شيء من شئون الحياة ومظاهرها إلا يوم أن جهزه الله تعالى بتلك الملكات والصفات. وهذه الصفات لها آفات عظام ومخاطر كبيرة، ومصدر خطورة هذه الصفات أنها في حقيقتها ليست إلا صفات الربوبية؛ كالعلم، والقوة ،والسلطان والتملك، والجبروت، كلها مقومات للألوهية وصفات للرب ﷻ. فمن شأن هذه الصفات إذا وجدت في الإنسان أن تسكره وتأخذ بلبه، وتُنْسيه حقيقته، وتجعله يتطلع إلى تصوُّر حقائق الربوبية والألوهية، والإنسان لا يملك فيها - في الحقيقة - إلا ظلالًا وآثارًا ليس لها من حقيقة الصفات الإلهية إلا الاسم وحده، ومن نتائج الخطورة التي في هذه الصفات أن من شأنها أن تحمل صاحبها على أن

١. الأباطرة: جمع إمبراطور، وهو الملك.

٢. العدالة الاجتماعية في الإسلام، سيد قطب، مرجع سابق، ص١٤، ١٥.

يستعمل صفة القوة في ظلم الآخرين، وأن يشبع نزوعه إلى السيطرة والسلطان في بسط نفوذه وسلطانه على المستضعفين من الجماعات، وأن يتجه - بما لديه من نزوع - إلى تملُّك أموال غيره؛ يستلبها وينهبها، ثم من نتائجها أن تتسابق جماعات من الناس - بدافع هذه الصفات - في ميدان الصراع على السلطان والجاه والممتلكات والحكم والقيادة، ووقائع التاريخ المطردة تدل على هذا دلالة واضحة، وهكذا تنقلب هذه الصفات إلى عامل اضطراب وشقاء في حياة الإنسان، وهي إنما رُكِّبت فيه لتكون عامل سعادة ورقي ونظام، فمن أجل ذلك لم يكن بدٌّ من قوة أخرى توجه هذه الصفات الوجهة الصالحة، وتمنع الإنسان من أن يستعمل أسلحتها إلا من حدها المفيد.

أثر الدين الحق في السواء النفسيِّ للإنسان:

تلك هي حاجة الإنسانية كلها إلى الدين؛ أي: إلى العقيدة الصحيحة عن الإنسان والكون والحياة وما وراء ذلك كله، والعقيدة الصحيحة التي هُدي إليها العقل والعلم، وهي الإيمان بوجود الله ووحدانيته، وأن لا سلطان حقيقيًا في الكون غير سلطان الله، ولا قوة قاهرة غير قوته، ولا ملك غير ملكه، وكل ما وراء ذلك فهو مخلوق لله ﷻ يمنحه حيث يشاء ويسلبه عندما يشاء، وأنه الرقيب على عباده كلهم، وسيبعثهم من بعد الموت، فيحاسب كلًّا على ما كسب أو اكتسب، فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرًا يره[1]، وبهذا البيان اتضح أن الله ﷻ قد كرم الإنسان، وجعله سيد هذا الكون، وجعل سائر موجوداته مسخرة له قائمة بخدمته، وعبادة غير الله ﷻ هي انحطاط بالإنسان عن المكانة التي وضعه الله فيها.

فشتان بين عقيدة ترتفع بالإنسان وتكرمه، فلا تجعله معبودًا لأحد إلا لرب واحد للوجود كله، وبين عقائد تنزل بالإنسان إلى أحط من الحيوان والجماد، وتذله للوجود كله.

وكل معبود من دون الله هو نفسه في حاجة إلى الله، ليس عنده ما يسمو به حتى يكون شفيعًا للناس عند الله أو مقربًا إليه.

إن شفاعة الآلهة التي عُبدت من دون الله أو معه، والتي يدعون أنها تقرِّب إلى الله زلفى، هذه الشفاعة لا وجود لها ألبتة، سواء كان المعبود المرجوُّ الشفاعةِ ملكًا أو نبيًّا أو صالحًا، أو دون ذلك من الجن أو الشياطين، أو الحيوانات والجمادات؛ وذلك لقول الله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ (٤٣) قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ (٤٤)﴾ (الزمر).

والذين يدعون أن تلك الأوثان تقربهم إلى الله، لماذا لا يتقربون إلى الله بدون هذا الصنم، وهل يكون لوثن لا يسمع ولا يبصر ولايتحرك أن ينفع؟!

وهل أجاب هؤلاء هذا الوثنُ يومًا من الأيام وقال لهم: لقد توسطت بينكم وبين الله؟!

إن الإله الحق قريب غير بعيد، وليس بحاجة إلى وسائط: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ (١٨٦)﴾ (البقرة).

---

١. كُبْرَى اليقينات الكونية، د. محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر، دمشق، ط٢٥، ١٩٨٢، ص٦٥: ٦٧.

إن الله ﷻ معنا بعلمه ورعايته أينما كنا، يسمعنا ويرانا، قال تعالى: ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾ (طه)، وقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾ (المجادلة)، فكل ما يُعْبد من دون الله تبارك وتعالى يستوي في حاجته إلى الله وافتقاره إليه، وليس عنده من الفضل ما يسمو به حتى يكون شفيعًا عند الله، أو مُقرَّبًا إليه.

الخلاصة:

- إن الإسلام لا يعرف طبقة مميزة عن طبقة، إنما هو الدين الذي سوى بين جميع الناس وجعل الأفضلية لمن اتقى، أيًّا كان نوعه أو جنسه، فليس في الإسلام مصطلح "رجال الدين" بالمعنى الغربي، الذي يجعلهم مشرِّعين ـ محللين ومحرمين ـ على أهوائهم، إنما عَرَف الإسلام رجالًا عالمين بالدين، وهم لا يحللون ولا يحرمون من تلقاء أنفسهم، إنما تحكمهم قوانين علمية دينية، لا يتقدمون عليها ولا يتأخرون، وكل منهم يؤخذ من كلامه ويُرد.

- من رحمة الله ﷻ بعباده أنه لم يجعل بين العبد وربه الذي خلقه وساطة؛ حتى يتحرر العبد من كل شيء دون الله تعالى، وحتى تكون المرجعية الكبرى والأخيرة إلى الله وحده، فلا يستطيع أحد أن يحول بينه وبين ربه، وهذا ما عبَّر عنه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ (البقرة).

- وليس هذا فحسب؛ بل لقد رفع الله تبارك وتعالى شأن الإنسان، وجعله سيدًا لهذا الكون، وجعل سائر مظاهره وموجوداته مسخرة له، قائمة بخدمة، وجهزه بمجموعة من الصفات والملكات؛ لتتكامل لديه القدرة على إدراك شأن هذا الكون، وتعميره واستخدامه.

أما عبادة غير الله ﷻ فهي انحطاط بالإنسان إلى درجة هي أحط من درجة الحيوان والجماد، فكل ما يعبد من دون الله يستوي في حاجته إلى الله، وافتقاره إليه، وليس عنده من الفضل ما يسمو به حتى يكون شفيعًا عند الله ﷻ أو مقرَّبًا إليه.

الشبهة الثامنة عشرة

دعوى معاداة الإسلام لمخالفيه وتعصبه ضد العقائد الأخرى(*) ®

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض المغالطين أن الإسلام دين يعادي الملل

(*) الإسلام في قفص الاتهام، د. شوقي أبو خليل، مرجع سابق. قرآن أمريكي ملفق "الفرقان الحق"، د. إبراهيم عوض، زهراء الشرق، القاهرة، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م. قصة الحضارة، ول ديورانت، مرجع سابق.

® في "سماحة الإسلام في معاملة غير المسلمين" طالع: الشبهة الثانية، من الجزء السادس عشر (أصالة التشريع الإسلامي). وفي "انتشار الإسلام بحد السيف" طالع: الشبهة الحادية عشرة، من الجزء الثالث (التاريخ الإسلامي ١).

والعقائد الأخرى، ويدعو إلى التعصب، والانتقام من مخالفيه، ويستدلون على دعواهم هذه بتصنيف الناس إلى مسلمين وكفار، في إشارة إلى رفض الآخر ورفض التعايش معه وإهانته.

ويرون أن الإسلام قد عامَل الذميين بقسوة واضطهاد، وسلب حريتهم وأرهقهم بضرائب[1] كبيرة، يسميها المسلمون الجزية[2].

وجوه إبطال الشبهة:

١) الإسلام دين الرحمة والتسامح والهداية والسلام، ولا يحضُّ على الكراهية والعداء؛ بل هو دين المساواة بين المسلمين وغير المسلمين في القضاء وسائر المعاملات، والقرآن والحديث ومواقف الصدر الأول من الصحابة خير دليل على ذلك.

٢) الحرب في الإسلام لها ضوابط وأخلاق تنأى بها عن الاعتداء والجور، فلا يلجأ الإسلام إلى الحرب إلا في الضرورة القصوى التي تستدعي الدفاع عن النفس أو الجهاد في سبيل الله.

٣) المزايا التي يتمتع بها غير المسلمين في ظل الدولة الإسلامية، تجعلهم من أسعد الناس في كنف الدولة الإسلامية.

٤) تسمية غير المسلمين كفارًا لا يعني إهانتهم أو ظلمهم أو الاعتداء عليهم، والإسلام لم ينفرد بهذه التسمية، بل كل ذي دين يطلق مثل هذا على مخالفيه.

٥) الجزية مبلغ زهيد مقابل الحماية واستخدام مرافق الدولة، وتؤخذ من الرجل القادر على العمل فقط، ويعفى منها الشيوخ والنساء والأطفال والفقراء.

٦) شهادات المنصفين من غير المسلمين على سماحة الإسلام في تعامله مع مخالفيه، تؤكد كذب هذا الادعاء، والتاريخ نفسه أكبر شاهد على ذلك.

التفصيل:

أولا. تسامح الإسلام ودعوته:

يقف الإسلام من غير المسلمين - في حال السلم - موقف الأمان، بل إنه لم يَنْهَ عن البر بهم ما داموا لم يقاتلوا المسلمين، وإنما نهى عن برِّ الذين قاتلوا المسلمين في دينهم، وأخرجوهم من ديارهم، أو ظاهروا على إخراجهم، فقال جل شأنه: ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ (الممتحنة).

ونهى القرآن الكريم المسلم عن مجادلة أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن، فقال الله ﷻ: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ (العنكبوت)، وقال ﷻ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ (آل عمران)، بل أمر الإسلام بالوفاء بالعهد حتى مع المشركين، قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ

---

١. الضَّرائب: جمع الضريبة، وهي ما يُفرض على المِلْك والعمل والدخل للدولة.

٢. الجِزْية: ما يُؤخَذ من أهل الذِّمَّة نظير حمايتهم.

عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَـٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾ (التوبة)، بل لو طلب المشرك من المسلم أن يجيره فعليه أن يجيره، بل يبلغه مأمنه، كما قال الحق ﷻ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾ (التوبة).

ومن رعاية الإسلام لحقوق غير المسلمين رعايته لمعابدهم وكنائسهم، ومن محافظته عليها ما جاء عن عمر بن الخطاب ﷺ عندما حان وقت الصلاة وهو في كنيسة القيامة، فطلب البطريرك من عمر أن يصلي بها، وهَمَّ أن يفعل ثم اعتذر، ووضح أنه خَشِي أن يصلي بالكنيسة فيأتي المسلمون بعد ذلك ويأخذونها من النصارى على زعم أنها مسجد لهم، ويقولون: هنا صلى عمر، ولم تتوقف معاملة المسلمين عند حد المحافظة على أموالهم وحقوقهم، بل حرص الإسلام عبر عصوره على القيام بما يحتاج إليه أهل الكتاب وبخاصة الفقراء منهم.

إن مثل هذه المعاملة من المسلمين لغير المسلمين تُطْلِع العالم أجمع على أن الإسلام رَبَّى أتباعه على التسامح، وعلى رعاية حقوق الناس، وعلى الرحمة بجميع البشر مهما اختلفت عقائدهم وأجناسهم، وقد حفظت أجيال المسلمين قيمة هذه الرعاية الإسلامية لحقوق غيرهم؛ لأنهم ما طبقوها إلا استجابة لتعاليم القرآن الكريم، وتوجيهات الرسول العظيم عليه أفضل الصلاة والسلام، وقد طبقها في حياته فوعاها المسلمون جيلًا فجيلًا، وطبقها الخلف عن السلف، والأبناء عن الآباء.

المساواة بين المسلمين وغير المسلمين في القضاء وسائر المعاملات:

أقام الإسلام المساواة بين المسلمين وغيرهم في القضاء وفي سائر المعاملات، وقد سجل التاريخ نماذج رائدة لهذه المعاملات التي تعتبر قمة ما وصلت إليه المعاملات الإنسانية العادلة في تاريخ البشرية جمعاء، فعندما شكا رجل من اليهود عليَّ بن أبي طالب للخليفة عمر بن الخطاب ﷺ قال عمر لعلي: قم يا أبا الحسن فاجلس بجوار خصمك، فقام علي وجلس بجواره، ولكن بدت على وجهه علامة التأثر، فبعد أن انتهى الفصل في القضية قال له عمر: أكرهت يا علي أن نسوي بينك وبين خصمك في مجلس القضاء؟ قال: لا، ولكني تألمت لأنك ناديتني بكنيتي فلم تُسوِّ بيننا، ففي الكنية تعظيم، فخشيت أن يظن اليهودي أن العدل ضاع بين المسلمين".

وتتابعت وصايا رسول الله ﷺ بأهل الذمة والمعاهدين حيث قال ﷺ: "من قتل معاهدًا لم يَرَحْ رائحة الجنة، وإن ريحها يوجد من مسيرة أربعين عامًا"[1]، ومعنى "لم يَرَح رائحة الجنة": لم يشمها، وقال ﷺ: "ألا من ظلم معاهدًا، أو انتقصه، أو كلَّفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس، فأنا حجيجه يوم القيامة"[2].

١. أخرجه البخاري في صحيحه، أبواب الجزية والموادعة، باب إثم من قتل معاهدًا بغير جرم (٢٩٩٥)، وفي موضع آخر.

٢. صحيح: أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الخراج، باب في تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا بالتجارات (٣٠٥٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٦٥٥).

ومما يدل على المساواة بين المسلمين وغيرهم في القضاء، وعلى انتشار الإسلام بسماحته وحسن معاملة المسلمين لغيرهم: هذه الواقعة التي حدثت بين الإمام علي بن أبي طالب ﷺ وبين رجل من أهل الكتاب، وذلك عندما فقد الإمام علي ﷺ درعه، ثم وجدها عند هذا الرجل الكتابي، فجاء به إلى القاضي شريح قائلًا: إنها درعي ولم أَبِع ولم أَهَب، فسأل القاضي شريح الرجل الكتابي قائلًا: ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين؟ فقال الرجل: ما الدرع إلا درعي، وما أمير المؤمنين عندي بكاذب، فالتفت القاضي شريح إلى الإمام علي ﷺ يسأله: يا أمير المؤمنين هل من بيِّنة[1]؟ فضحك عليٌّ وقال: أصاب شريح، ما لي بيِّنة، فقضى بالدرع للرجل، وأخذها ومشى، إلا أن الرجل لم يخطُ خطوات حتى عاد يقول: أما أنا فأشهد أن هذه أحكام أنبياء.. أمير المؤمنين يدينني إلى قاضيه فيقضي عليه؟ أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، الدرع والله درعك يا أمير المؤمنين، اتَّبَعْتُ الجيش وأنت منطلق إلى صفين، فخرجت من بعيرك الأورق، فقال الإمام علي ﷺ: "أما إذ أسلمت فهي لك"[2].

وهكذا نرى كيف وصلت سماحة الإسلام إلى هذا المدى الذي يقف فيه أمير المؤمنين نفسه أمام القاضي، مع رجل من أهل الكتاب، ومع أن أمير المؤمنين على حق، فإن القاضي طالبه بالبينة، وهذا أمر جعل أمير المؤمنين يضحك؛ إذ هو على حق وليس معه بينة، وواضح أنه المدعِي، والبينة على من ادَّعى، واليمين على من أنكر، ثم تكون النهاية أن يحكم القاضي للرجل بالظاهر؛ حيث لم تظهر البينة. إن هذه المعاملة السمحة التي لا يُفرَّق فيها بين أمير وواحد من الرعية من أهل الكتاب، جعلت الرجل يفكر في هذا الدين ويتملكه الإعجاب به، فلم يملك إلا أن يقول: أما أنا فأشهد أن هذه أحكام أنبياء، وقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

إنها صورة من صور القضاء في قمة عدالته؛ حيث يسوي بين هذا الرجل وبين أمير المؤمنين، وصورة من سماحة الإسلام في ذروتها؛ حيث كان الحكم بالظاهر وعلى أمير المؤمنين لا له، إن مثل هذه المعاملة السمحة مع غير المسلمين هي التي قربت الإسلام إلى الناس، وجعلتهم يدخلون في دين الله أفواجًا®.

عدالة الإسلام مع غير المسلمين:

وقد عنى الإسلام برعاية أهل الكتاب، فقرر سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ لهم عطاءً من بيت مال المسلمين، فقد روى أنه مر بباب جماعة، فوجد سائلًا يسأل ـ وهو شيخ كبير ضرير ـ فسأله قائلًا: من أي أهل الكتاب أنت؟ فقال: يهودي، فسأله: ما ألجأك إلى ما أرى؟ قال: أسْأَل الجزية والحاجة والسن، فأخذ عمر بيده إلى منزله، وأعطاه، ثم أرسل إلى خازن بيت المال، فقال له: انظر هذا وأضرابه، فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهَرَم!!

وما حدث في تاريخ سلفنا إهانةُ أحدٍ من أهل

---

١. البيِّنة: الحجة الواضحة، والبرهان، والدليل.

٢. أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب آداب القاضي، باب إنصاف الخصمين في المدخل عليه والاستماع منهما (٢٠٢٥٢).

® في "مظاهر المساواة في التشريع بين المسلمين وغيرهم" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الخامسة عشرة، من الجزء الرابع عشر (العلاقات الدولية).

الذمة، بل إنْ حدث أيُّ تجاوز كان يعالجه الإسلام في الحال، فعندما شكا إلى عمر أحد الأقباط أنَّ ابن والي مصر "عمرو بن العاص ﷺ" لطم ابنه عندما غلبه في السباق، وقال: أنا ابن الأكرمين، أسرع عمر ﷺ بإحضار عمرٍو وابنه إلى مكة في موسم الحج، وأعطى عمرُ الدُّرَّةَ[1] لابن القبطي، وأمره أن يقتص من ابن الأكرمين، ثم قال لعمرو كلمته المأثورة: "متى تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا"؟!

وقد أقام الإسلام العدل بين عنصري الأمة من المسلمين وغير المسلمين، ومن رسالة سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ إلى قاضي القضاة أبي موسى الأشعري ﷺ قال له: "آسِ[2] بين الناس في وجهك ومجلسك وقضائك؛ حتى لا يطمع شريف في حَيْفك[3]، ولا ييأس ضعيف من عدلك". فلا يصح التفرقة بين المتخاصمين حتى لو كان أحدهما غير مسلم. وهكذا نرى كيف عامل سلفنا أهل الكتاب، وكيف أظهروا سماحة هذا الدين الذي لا يقر العصبية، ولا يرضى الظلم حتى لغير المسلمين، بل يدعو إلى التسامح والعدل معهم، وهذا المنهاج المتسامح للإسلام مع أهل الأديان الأخرى هو سرُّ عظمة الإسلام، وسر ذيوعه وانتشاره في ربوع المعمورة.

ثانيًا. ضوابط الحرب في الإسلام وأنَّها بمعزل عن صفة التعدِّي والهمجية:

فمن المعلوم أن الإسلام هو دين السلام، لا يأمر بالحرب إلا في الضرورة القصوى التي تستدعي الدفاع والجهاد في سبيل الله، ومع مشروعية الجهاد في سبيل الله - دفاعًا عن الدين والعقيدة والأرض والعرض - فإن الحرب في الإسلام لها حدود وضوابط، وللمسلمين أخلاقهم التي يتخلقون بها حتى في حربهم مع من يحاربهم من غير المسلمين، فأمر الإسلام بالحفاظ على أموال الآخر، وبترك الرهبان في صوامعهم دون التعرض لهم، ونهى عن الخيانة والغدر والغلول، كما نهى عن التمثيل بالقتلى، وعن قتل الأطفال والنساء والشيوخ، وعن حرق النخيل والزروع، وقطع الأشجار المثمرة.

وأوصى أبو بكر الصديق ﷺ أسامة بن زيد عندما وجَّهه إلى الشام بالوفاء بالعهد، وعدم الغدر أو التمثيل، وعاهد خالد بن الوليد ﷺ أهل الحيرة ألا يهدم لهم بيعة ولا كنيسة ولا قصرًا، ولا يمنعهم من أن يدقوا نواقيسهم أو أن يخرجوا صلبانهم في أيام أعيادهم، وكان عمر بن الخطاب ﷺ رحيمًا بغير المسلمين من أهل الكتاب، وكان ينصح سعد بن أبي وقاص ﷺ - عندما أرسله في حرب الفرس - أن يكون في حربه بعيدًا عن أهل الذمة، وأوصاه ألا يأخذ منهم شيئًا لأن لهم ذمة وعهدًا، كما أعطى عمر ﷺ أهل إيلياء أمانًا على أموالهم وكنائسهم وصلبانهم، وحذَّر من هدم كنائسهم.

وأمر الإسلام بحسن معاملة الأسرى وإطعامهم، قال الله ﷻ: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ ﴾ (الإنسان)، بينما يعامل غيرُ المسلمين أسرى المسلمين معاملة سيئة؛ فقد يقتلونهم وقد يَسْتَرِقُّونهم

---

١. الدُّرَّة: لؤلؤة عظيمة كبيرة.

٢. آسِ: سَوِّ أو اعدِل.

٣. الحَيْف: الظلم والجَوْر.

أو يكلفونهم أشق الأعباء والأعمال. إن أسرى غزوة بدر الكبرى عاملهم النبي ﷺ خير معاملة، فأوصى الصحابة أن يحسنوا إليهم، فكانوا يؤثرونهم على أنفسهم في الطعام وفي الغذاء، ولما استشار أصحابه في شأن أسرى بدر، وأشار بعضهم بقتلهم وأشار الآخرون بالفداء، وافق على الفداء، وجعل فداء الذين يكتبون منهم أن يعلم كل واحد منهم عشرة من أبناء المسلمين القراءة والكتابة، وكان هذا أول إجراء ولم يقبل الرسول ﷺ أن يمثِّل بأحد من أعدائه في الحروب مهما كان أمره، ولما أشير عليه أن يُمَثِّل بسهيل بن عمرو - الذي كان يحرص على حرب المسلمين وعلى قتالهم - بأن ينزع ثَنِيَّتَيْه[1] السُّفْلَيَيْنِ؛ حتى لا يستطيع الخطابة بعد ذلك، لم يوافق النبي ﷺ، بل رفض قائلًا: "لا أمثِّل به[2] فيمثِّل الله بي"[3].

وعندما حقق الله ﷻ لرسوله ﷺ أمنيته بفتح مكة المكرمة، ودخلها فاتحًا منتصرًا ظافرًا قال لقريش: "من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن ألقى السلاح فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن"[4].

ومن توجيهات الإسلام للمسلمين في الحرب:

1. أن يكون القتال في سبيل الله.
2. أن يكون القتال لمن يقاتلون المسلمين.
3. عدم الاعتداء، قال تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾ (البقرة)، فالذين يعتدون من المشركين على المسلمين ويقاتلونهم أُمِرَ المسلمون أن يقاتلوهم، ولكنه قتال عادل لا مُثْلَةَ فيه ولا تعذيب؛ حيث قال الله تعالى: ﴿ ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ ﴾ (البقرة).

وهذا فيمن يقاتلون المسلمين، أما الذين لا يقاتلون من غير المسلمين فكان النبي ﷺ ينهى عن قتالهم: فعن بريدة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "اغزوا باسم الله في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقاتلون وليدًا"[5]، وفي رواية: "أنكر رسول ﷺ قتل النساء والصبيان"[6].

كما كان ينهى ﷺ عن التعرض للرهبان وأصحاب الصوامع، وعن التمثيل والغلول، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث جيوشه قال: "اخرجوا باسم الله، تقاتلون في سبيل الله من كفر بالله، ولا تغلوا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا الولدان ولا أصحاب الصوامع"[7] ®.

---

1. الثَّنِيَّة: هي الأسنان الأربع في مقدم الفم.
2. مثَّل به: عذَّبه ونكَّل به بجَدْع أنفه، أو قَطْع أذنه، أو غيرهما.
3. أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب المغازي، باب غزوة بدر الكبرى (٣٦٧٣٩).
4. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب فتح مكة (٤٧٢٢).
5. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث (٤٦١٩).
6. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب قتل الصبيان في الحرب (٢٨٥١)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب تحريم قتل النساء والصبيان (٤٦٤٥).
7. حسن: أخرجه أحمد في مسنده، من مسند بني هاشم، مسند عبد الله بن عباس (٢٧٢٨)، وأبو يعلى في مسنده (٤/ ٤٢٢) برقم (٢٥٤٩)، وحسنه الأرنؤوط في تعليقه على المسند.

® في **"ضوابط الجهاد في الإسلام"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة السادسة والسبعين، من الجزء الثاني عشر (عصمة القرآن الكريم).

ثالثًا. دستور العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين:

وضع القرآن الكريم قاعدة تُعَدُّ الدستور الأساسي في معاملة المسلمين لغيرهم من الناس، فقال: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ (الممتحنة)، فالآية الكريمة واضحة تمامًا في تقرير العلاقة بين المسلمين وغيرهم، إنها علاقة قائمة على أمر أعظم من العدل ـ الذي هو إعطاء كل ذي حق حقه ـ وإنما ترتقي هذه العلاقة إلى مرحلة الإحسان ـ وهو الزيادة على الحق فضلًا ـ ولقد قدمت الآية لفظ البر على لفظ القسط ـ وهو العدل ـ وهي إشارة عظيمة رائعة إلى كيفية معاملة غير المسلمين، إنها علاقة قائمة على البر والإحسان.

والشيء اللافت أن الإسلام سمَّى غير المسلمين داخل مجتمعه: (أهل الذمة)؛ أي: أهل العهد والضمان والأمان؛ لأن لهم عهد الله وضمان رسوله وأمان جماعة المسلمين، على أن يعيشوا في حماية الإسلام وتحت راية المجتمع الإسلامي آمنين مطمئنين.

ولكن العجب من البعض أنهم يعتبرون هذه التسمية تسميةً فيها شيء من الدُونيَّة، وهذا كلام مرفوض، فمن يفهم كلمة العربي حين يقول: "أنت في ذمتي" يعي تمامًا ما معنى أهل الذمة، أي: أنت في حمايتي ورعايتي وكنفي، لا أوذيك ولا أسمح لأحدٍ بأذيتك. ويمكن استبدال هذه الكلمة ـ حاليًا ـ فيما يسمى بالعرف السياسي باسم: "حاملي الجنسية الإسلامية"؛ فهؤلاء في الحقيقة مواطنون كبقية أفراد المجتمع المسلم.

وقد وضع فقهاء الشريعة الإسلامية قاعدة لتوضيح العلاقة بين المسلمين وغيرهم داخل المجتمع، وهذه القاعدة قائمة على المعاملة بالمثل، وقد قيل قديمًا: مَنْ عاملك كنفسه لم يظلمك، وهذه القاعدة هي "لهم ما لنا، وعليهم ما علينا" وتفسيرها ليس على إطلاقها، وإنما، لهم ما لنا من الحقوق والحريات، وعليهم بعض الذي علينا من الواجبات، وقد فُسِّرت هذه القاعدة من خلال النقاط التالية:

تأمين الحماية من العدوان الخارجي:

حيث يوجب المجتمع الإسلامي أن تُؤَمَّن كل ضوابط الحماية لكل من رضي العيش بداخله، وهذا ما صرح به الفقهاء في إرشاداتهم، يقول ابن حزم الأندلسي: "إن من كان في الذمة، وجاء أهل الحرب إلى بلادنا يقصدونه، وجب علينا أن نخرج لقتالهم بالكُراع[1] والسلاح ونموت دون ذلك؛ صونًا لمن هو في ذمة الله ﷻ وذمة رسوله، فإن تسليمه دون ذلك إهمال لعقد الذمة، ولعل أروع الأمثلة على ذلك في التاريخ موقف القائد أبي عبيدة بن الجراح من أهل حمص وغيرهم، حينما ردَّ عليهم أموالهم التي دفعوها مقابل حمايتهم من الاعتداء الخارجي؛ بسبب عجزهم عن ذلك، فقالوا: ردَّكم الله إلينا، ولعن الله الذين كانوا يملكوننا من الروم، ولكن والله لو كانوا هم ما رَدُّوا إلينا، بل غصبونا.

وهذا ابن تيمية يقف بعنف في وجه التتار عندما

---

١. الكُراع: الخيل.

أرادوا إطلاق سراح أسرى المسلمين فقط، وإبقاء النصارى بالأسر، فقال: إنا لا نرضى إلا بافتكاك جميع الأسرى من المسلمين وغيرهم، لأنهم أهل ذمتنا، ولا ندع أسيرًا لا من أهل الذمة، ولا من أهل الملة.

تأمين الحماية الداخلية:

وتشتمل هذه الحماية على ما يلي:

- **حماية الدماء والأبدان**، فقد تضافرت الأحاديث النبوية وسلوك الصحابة على تحريم إلحاق أي أذى أو ظلم بأي إنسان، مواطن أو زائر غير مسلم هو في ذمة المسلمين وعهدهم؛ ومن ذلك قوله ﷺ: "ألا من ظلم معاهدًا، أو انتقصه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس منه، فأنا حجيجه يوم القيامة"[1].

وكان علماء المسلمين يُوصون الأمراء والخلفاء بحسن معاملة غير المسلمين والإحسان إليهم، فهذا القاضي أبو يوسف يكتب إلى الرشيد قائلًا: "... وقد ينبغي يا أمير المؤمنين ـ أيدك الله ـ أن تتقدم في الرفق بأهل ذمة نبيك؛ حتى لا يُظلَموا ولا يُؤْذَوْا ولا يُكَلَّفوا فوق طاقتهم"، ومن أمثلة التاريخ ـ أيضًا ـ وقوف الإمام الأوزاعي في وجه الوالي العباسي صالح بن علي عندما أساء إلى بعض أهل الذمة. كل ذلك شاهد لحماية غير المسلمين في المجتمع الإسلامي.

- **حماية الأعراض**، فلا يجوز في الإسلام إلحاق أي أذى بالمسلم، أو غير المسلم، من شَتْم، أو قَذْفٍ، أو تجريح، أو حتى غيبة، يقول فقهاء الحنفية: ويجب كفُّ الأذى عنه ـ أي: الذمي ـ وتحرم غيبته كالمسلم. ويقول فقهاء المالكية: "إن عقد الذمة يوجب حقوقًا علينا لهم... فمن اعتدى عليهم ولو بكلمة سوء، أو غيبة في عرض أحدهم، أو نوع من أنواع الأذية، أو أعان على ذلك فقد ضيَّع ذمة الله".

- **حماية الأموال**، وهي مشابهة لحماية الدماء والأعراض، وكان من ضمن المعاهدة التي وقَّعها النبي ﷺ مع نصارى نجران قوله: "ولنجران وحاشيتها جِوار الله، وذمة محمد النبي رسول الله على أموالهم وأرضهم وملتهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وبِيَعِهم، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير".

والواقع التطبيقي لأحكام الشريعة يُظْهِر بوضوح هذه الحماية لكل ممتلكات غير المسلمين، فلهم الحق في دخول كل المعاملات الاقتصادية وممارسة كل الصفقات وما سوى ذلك من مظاهر الحرية الاقتصادية، والتملك.

- **كفالة بيت المال**، فالمجتمع الإسلامي يكفل للمسلم وغيره كل الاحتياجات، وبخاصة عند العجز عن الكسب والعمل؛ لقول النبي ﷺ: "كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته، الإمام راع... وكلكم مسئول عن رعيته"[2].

والأمثلة على ذلك كثيرة، فأهل الذمة هم من أَوْلى

---

١. صحيح: أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الخراج، باب في تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا بالتجارات (٣٠٥٤)، والبيهقي في السنن الكبرى، كتاب الجزية، باب لا يأخذ المسلمون من ثمار أهل الذمة (١٨٥١١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٦٥٥).

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب المرأة راعية في بيت زوجها (٤٩٠٤)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر (٤٨٢٨).

الناس مع المسلمين بالبر والصلة، وكانت ضمانات المجتمع المسلم واضحة ضد الفقر والعجز والشيخوخة لكل فئات المجتمع، لا تفريق بين مسلم وغيره، فهذا صُلْحُ خالد بن الوليد ﷺ مع أهل الحيرة، جاء فيه: "وجعلتُ لهم أيُّما شيخ ضعف عن العمل، أو أصابته آفة من الآفات، أو كان غنيًّا فافتقر، وصار أهل دينه يتصدقون عليه، طرحت جزيته، وعيل من بيت مال المسلمين وعياله، ما أقام بدار الهجرة ودار الإسلام".

وقد أقر الخليفة الصدِّيق ﷺ خالدًا ﷺ على ذلك، وقد قيل: إن مساعدة الذمي من بيت مال المسلمين - حال عجزه - أمرٌ قد أجمعت عليه الأمة.

الحريات العامة:

وتشتمل هذه الحريات على ما يلي:

- **حرية المعتقد وممارسة الشعائر وصون أماكن العبادة**، وقد أقر الإسلام - بوضوح تام - حرية الاعتقاد لكل الناس، فلا إكراه لأحد على دخول الإسلام، وإن كان يدعوهم إليه، والدعوة إلى دخول الإسلام والإجبار عليه أمران متضادان: الأول: جائز مشروع، والثاني: حرام ممنوع بقوله ﷻ: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾(النحل) وقوله: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾ (البقرة: ٢٥٦) والقاعدة في ذلك هي قول الإمام علي - كرم الله وجهه: "نتركهم وما يَدِينون".

والشواهد التاريخية على هذا كثيرة، من زمن النبي ﷺ إلى عصرنا الحاضر؛ فقد جاء في عهد النبي ﷺ إلى يهود المدينة "... لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأَثِم" وفي عهده - أيضًا - لأهل نجران "... ولا يغير أُسْقفٌ من أسقفيته، ولا راهب من رهبانيته، ولا كاهن من كهانته، وليس عليه دَنيَّة"[1].

وقد حَفِظ الإسلام رجال الدين المسيحيين واليهود من سطوة الحروب، فقد جاء في الحديث قوله ﷺ: "لا تقتلوا الولدان ولا أصحاب الصوامع"[2]، وفي خطبة الصِّدِّيق إلى جيوشه لتحرير العراق والشام جاء قوله: "وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له".

وجاء في عهد الفاروق عمر بن الخطاب ﷺ إلى أهل القدس ضمانة واضحة لحريتهم الدينية وحرمة معابدهم وشعائرهم ما نصه: "هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان: أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، سقيمها وبريئها وسائر ملتها، أنه لا تُسْكن كنائسهم ولا تُهْدَم، ولا يُنتقَص منها ولا من حَيِّزها، ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يُكْرَهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم".

ومن أبلغ الأمثلة على تسامح الإسلام الرفيع سماح رسول الله ﷺ لوفد نصارى نجران - وكانوا ستين شخصًا - أن يدخلوا مسجده وأن يجلسوا فيه بضعة

١. الدَّنِيَّة: الدنيئة، النقيصة.

٢. حسن: أخرجه أحمد في مسنده، من مسند بني هاشم، مسند عبد الله بن عباس رضي الله عنهما (٢٧٢٨)، وأبو يعلى في مسنده (٤/ ٤٢٢) برقم (٢٥٤٩)، وحسنه الأرنؤوط في تعليقه على المسند.

أيام، فإذا حضرت صلاتهم قاموا متوجهين إلى الشرق على مرأى ومسمع من رسول الله ﷺ دون اعتراض منه أو منع[1].

والحق الذي يجب الصدع به أن أعظم الشواهد الواقعية على حرية المعتقد في الإسلام، هو ما يُرى الآن، من أماكن العبادة: فالكنائس والمعابد والأديرة منتشرة في كل مكان من بقاع العالم الإسلامي شرقًا وغربًا، وهي شواهد تنطق بحرية المعتقد التي جاء بها الإسلام، فلو أن المسلمين كانوا كغيرهم من أتباع الملل والنِحل لما شُوهِد برج كنيسة واحد، ولَمَا سُمِع صوت ناقوس، على حين أن الآخرين كانوا يستأصلون شَأْفَةَ[2] المسلمين في ديارهم فما الأندلس مِنَّا ببعيدة، وما البوسنة والهرسك عَنَّا بغائبة®.

- **حرية الفكر والتعلم،** فعندما أرسى الإسلام قواعد المجتمع الإسلامي كان من بين ما أسسه نَشْرُ العلم بين كل فئات ذلك المجتمع، وأبلغ دليل على ذلك هو كثرة الإنتاج العلمي الذي ظهر على أيدي غير المسلمين في شتى المجالات العلمية، واشتهرت أسماء علماء كثيرين من اليهود والنصارى وغيرهم؛ فليس في أحكام الإسلام ما يمنع غير المسلمين من حرية الفكر والتعلم، ولهم تعليم أبنائهم وتنشئتهم وفق مبادئ دينهم، ولهم إنشاء المدارس الخاصة بهم.

وكانت أول مظاهر هذه الحرية قد ظهرت في تطبيقات الرسول العملية؛ إذ كان من ضمن الغنائم التي آلت إلى المسلمين بعد فتح خيبر مجموعة كبيرة من نُسَخ التوراة، فأمر النبي ﷺ بردها مباشرة إلى أصحابها اليهود.

ولقد كانت الجامعات والمعاهد الإسلامية ـ عبر التاريخ ـ مفتوحة على مصاريعها لأهل الذمة، حتى تتلمذوا على أيدي علماء المسلمين وفقهائهم، فدرس حُنين بن إسحق على يد الخليل الفراهيدي وسيبويه حتى أصبح حجة في اللغة العربية، وتتلمذ يحيى بن عدي على يد الفارابي، ودرس ثابت بن قُرَّة على يد محمد بن موسى[3].

- **حرية التنقل،** فلغير المسلمين من أهل الديانات الأخرى حرية التنقل والحركة، والسفر والترحال من بلد لآخر، في أي وقت شاءوا، ولأي اتجاه ساروا؛ فقد جاء في العهد الذي أرسله النبي ﷺ إلى أهل أيلة النصارى قرب العقبة: "بسم الله الرحمن الرحيم هذه أَمَنَةٌ من الله، ومحمد النبي رسول الله إلى يوحنا بن رؤبة، وأهل أيلة سفنهم وسياراتهم في البر والبحر: لهم ذمة الله، وذمة محمد النبي، ومن كان معهم من أهل الشام واليمن.. وإنه لا يحل أن يُمنَعوا ماءً يَرِدُونه ولا طريقًا يُرِيدونها من بر وبحر".

حرية العمل والكسب وتولى مناصب الدولة:

إن أبواب العمل مفتوحة للمسلمين ولغيرهم لممارسة أي عمل أو مهنة، وهذا ما دفع غير المسلمين

---

١. السيرة النبوية، ابن هشام، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ج١، ص٥٧٤ بتصرف.

٢. استأصل شَأْفَتَه: قضى عليه، وأنهى وجوده تمامًا.

® في **"وحشية الصرب في البلقان ووحشية الصليبيين في الأندلس"** طالع: الوجه الخامس، من الشبهة الحادية عشرة، من الجزء الثالث (التاريخ الإسلامي١).

٣. مواطنون لا ذِمِّيُّون، فهمي هويدي، دار الشروق، القاهرة، ط٤، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ص٧١.

داخل المجتمع الإسلامي بكل ثقة وطمأنينة أن يتوجهوا إلى الأعمال التي تدر أكبر قدر من الأرباح، فقد كانوا صيارفة وصُيَّاغًا وتجارًا وأطباء.

وكذلك الأمر بالنسبة لتولي وظائف الدولة، فلهم مطلق الحرية في ذلك باستثناء الوظائف التي لها السِّمة الدينية الاعتقادية البحتة؛ كالإمامة العامة، والقضاء.

ولهم المشاركة فيما يسمى مجلس الشعب ترشيحًا وانتخابًا، لأن عضوية هذا المجلس تفيد في إبداء الرأي للدولة وعرض مشاكل وأحوال المواطنين ومعالجتها.

ولعل في شهادة توماس أرنولد، صاحب كتاب "تاريخ الدعوة إلى الإسلام" أبلغ دليل على ما سبق عرضه، فقد بيَّن أنه كانت لأهل الذمة فترات طويلة تعتبر العهود الزاهرة في تاريخهم، لما لقيه هؤلاء من تسامح في ممارسة شعائرهم الدينية، وفي بناء الكنائس والأديرة، وفي مساواتهم بالمسلمين في الوظائف فكانت طوائف الموظفين الرسميين تضم مئات من المسيحيين، وقد بلغ عدد الذين رَقُوا منهم إلى مناصب الدولة العليا من الكثرة لدرجة أثارت شكوك المسلمين.

الحرية الاجتماعية:

والمقصود بها حرية ممارسة كل النشاطات الاجتماعية، كالمهرجانات والأعياد والزيارات، وكانت سمة المجتمع الإسلامي هي التعايش السلمي بين كل طوائفه وملله على اختلافها، وقد سبق الحديث عن الآية الكريمة التي حثت على البر وحسن الصلة لغير المسلمين، وكان رسول الله ﷺ يعود مرضى غير المسلمين، ويزور جيرانه منهم، ويتفقد أحوالهم، فيحسن إلى محتاجهم، ويتجاوز عن مسيئهم، ويدعوهم للإسلام بكل رفق ولين.

ولقد كان احتفال غير المسلمين بأعيادهم ومناسباتهم من الأمور المألوفة لدى المجتمع الإسلامي في جو من الحرية والتسامح[®].

موقف الدين الإسلامي من غير المسلمين خارج المجتمع الإسلامي:

غير المسلمين خارج المجتمع الإسلامي هم على ثلاث فئات: المحايدون، والمعاهدون، والمحاربون، وهذا عرض موجز عن علاقة المسلمين بهم:

- **المحايدون:**

وهم ممن ليسوا في حالة حرب مع المسلمين، ولا تربطهم بالمسلمين معاهدات ولا علاقات، وليس بينهم وبين المسلمين حالة حرب أو عداء مُعْلن، فهؤلاء لهم السلام، وعدم الاعتداء ما داموا على حالة من الحياد، مع استعداد المسلمين لقبول أي بادرة لإنشاء علاقات صداقة وتعاون؛ وذلك أنَّ الأصل في علاقة المسلم مع غير المسلم في غير دار المسلم هو السلام والتعاون والبر.

وهذا كله مستمد من قوله ﷻ: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ ﴾ (الممتحنة).

وهناك حالة أخرى للحياد، حيث يكون المسلمون في حالة حرب مع عدو معين، وهناك قوم آخرون لم

® في **"صيانة الإسلام للحقوق الاجتماعية لأهل الذمة"** طالع: الشبهة السادسة عشرة، من الجزء السادس عشر (أصالة التشريع الإسلامي). وفي **"شغل كثير من الذميين للوظائف العليا في الدولة الإسلامية"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة السادسة والأربعين، من الجزء الرابع (التاريخ الإسلامي٢).

يدخلوا هذه الحرب، وتربطهم بالمحاربين المسلمين علاقات، ولكنهم تجنبوا الدخول في الحرب ضد المسلمين، فهؤلاء يجري عليهم حكم الحياد من المسالمة، يقول ﷻ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا (٩٠)﴾ (النساء).

- **المعاهَدون:**

وهم من يرتبطون من خارج بلاد المسلمين بمعاهدات واتفاقيات ومواثيق مع المسلمين[1]، فهؤلاء لهم الوفاء الكامل، والتعاون على مبدأ العدالة، والاحترام المتبادل، ويجب على كل المسلمين الوفاء لهم بعهودهم وعدم الإخلال بها، ما داموا أوفياء من جانبهم؛ وذلك لأن الوفاء بالعهود والمواثيق من أعظم الواجبات الإسلامية، يقول الله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ (التوبة: ٤)، فإذا نقض هؤلاء المعاهدون عهودهم وجب معاملتهم بالمثل، حتى لو وصل الأمر إلى إعلان حالة الحرب معهم ®.

- **المحاربون:**

وهم الذين في حالة حرب مع المسلمين؛ بسبب اعتدائهم وظلمهم وأذيتهم للإنسان، مسلمًا كان أو غير مسلم، وبسبب منعهم لانتشار دعوة الله تعالى، والوقوف في وجهها بالقوة والعنف، فهؤلاء تنطبق عليهم قوانين الحروب.

رابعًا. تسمية المخالفين "كفارًا" لا تعني أبدًا الاعتداء عليهم، والإسلام ليس بدعًا في هذا:

إن لفظ "الكفر" في اللغة إنما يعني الستر والتغطية؛ ولأن غير المسلمين ستروا الإيمان الموجود في أصل نفوسهم، والمركوز في فطرتهم التي فطرهم الله عليها، بجحودهم وإنكارهم، فلذلك سُمُّوا "كفارًا"، فالتسمية ـ أساسًا ـ تسمية لغوية، وهي فقط لتمييز من دخل في الإسلام ممن لم يدخل فيه، ولا تعني أبدًا بأي حال من الأحوال، ظلم الآخر، أو الاعتداء عليه دون مبرر أو سبب، بل إن نصوص الشريعة تنهى عن الاعتداء والجور على الآخرين، كما سبق أن وضحنا، ولم يحدث في تاريخ الإسلام والمسلمين أنهم اعتدوا على أحد لمجرد أنه كافر فقط.

إن وصف الكفر يطلقه كل ذي دين على من يخالفه، حتى إن كفار قريش كانوا يُكفِّرون من يدخل في الإسلام، ويقولون: لقد صبأ فلان، أي: رجع عن دين آبائه، بل إن طوائف الدين الواحد قد يُكفِّر بعضها بعضًا.

ثم إننا نوجه سؤالًا مهمًّا لأصحاب هذا الادعاء ونقول لهم: ماذا يسمِّي غيرُ المسلمين المسلمين؟ هل يسمونهم مؤمنين مثلهم؟ لا شك أن موقف الإسلام في مثل هذا هو كموقف غيره من الأديان والعقائد. ويا ليت الأمر اقتصر على أن يسمي أتباع الديانات الأخرى

---

١. آثار الحرب في الفقه الإسلامي، د. وهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٨م، ص١٧٧.

® في "حرص الإسلام على الوفاء بالعهود والمواثيق" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الحادية والعشرين، من الجزء الرابع عشر (العلاقات الدولية).

مخالفيهم في العقيدة "كفارًا"، فهذا لفظ للتمييز وليس فيه من التحقير والامتهان ما يطلقه اليهود على غيرهم، حيث يسمون غيرهم "أُمِّيِّين" ويستبيحون بذلك دماءهم وأموالهم وأعراضهم، بل الأعظم من ذلك جرمًا لفظ "الجوييم" الذي يطلقونه على مخالفيهم في العقيدة، وهذا اللفظ يعني: النجس والقذر.

ويبقى جانب آخر، هو أن ذلك مسلكٌ يشبه أن ينتهي إلى نوع تسوية بين من آمن ومن لم يؤمن، وهذه نتيجة طبيعية متى أصبح "الشرك" و"الكفر" من جملة السِّباب الذي يجب على المسلمين أن ينزهوا عنه تنزُّهًا يفضي إلى نفيه وإثبات ضده من الإيمان الصحيح، وذلك - بلا شك - ليس توفيقًا بين العقائد، بل هو تمييع لها جميعًا. وإلغاء للفروق الكبرى بين التصورات الدينية المختلفة في أصولها وخطوطها العريضة.

خامسًا. حقيقة الجزية والغاية من فرضها:

إن أدنى نظرة أو تصفح لتشريعات الإسلام في هذا الشأن لتؤكد أن الجزية مبلغ زهيد من المال، مقابل الحماية واستخدام مرافق الدولة، وتؤخذ من القادرين فقط، ويعفى منها الشيوخ والصبيان والنساء والفقراء.

إن أهل الكتاب في ظل الدولة الإسلامية ينتفعون بالمرافق العامة للدولة؛ كالقضاء، والشرطة، وما سوى ذلك؛ كالطرق والجسور ومشاريع الري، وهذا كله يحتاج إلى أموال يدفع المسلمون قسطها الأكبر، ويسهم أهل الكتاب بالجزية فيها، ولا يدفع الجزية منهم إلا قطاع ضئيل جدًّا، هم الشباب القادرون على العمل، بل إن هذا القطاع يعفى منه الفقير والمريض وغير القادر على العمل، ويضم إلى ذلك القطاع الأكبر، وهم الشيوخ والصبيان والنساء، وهؤلاء جميعًا لا يُعْفَون من دفع الجزية فقط، بل يُسْهَمُ لكثير منهم من بيت مال المسلمين ما يسد حاجتهم.

وعلى هذا فإننا إذا قمنا بمقارنة بين ما تحصله الدولة المسلمة من أهل الكتاب في مقابل ما تنفقه عليهم "في صورة إعانات، أو مرافق يستخدمونها، أو إعفاء من القتال" سوف نجد أن ما تنفقه الدولة أكثر بكثير مما تحصله منهم.

فهل في هذا اضطهاد، وسلب للحريات، وإرهاق بضرائب، أم إنها رحمة الإسلام الواسعة التي تشمل العالمين: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ (الأنبياء)[®].

سادسًا. شهادات غير المسلمين على سماحة الإسلام مع مخالفيه:

إن التاريخ يشهد أن اليهود وغيرهم لم يذوقوا طعم الأمن والحرية إلا في ظل الدولة الإسلامية، وذلك ما شهد به المنصفون من دارسي الحضارة الإسلامية الغربيين، والشهادات حول هذا الموضوع كثيرة؛ بحيث يضيق المقام عن ذكرها؛ لذا سنكتفي بذكر نزر يسير منها، وما أحوج الغربيين اليوم إلى تذكر هذا الذي شهد به المنصفون منهم:

- فهذا غوستاف لوبون يؤكد: أن أهم ما تميز به المسلمون الفاتحون هو دماثة خلقهم وتسامحهم الذي فاق كل الحدود، وكان لذلك كبير الأثر على البلاد التي

® في "الحكمة من تشريع الجزية، ومقدارها" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الخامسة عشرة، من الجزء الرابع عشر (العلاقات الدولية).

فتحوها، فيقول: "إن أظهر ما يتصف به الشرقيون ـ المسلمون ـ هو أدبهم الجمُّ، وحلمهم الكبير وتسامحهم، ووقارهم في جميع الأحوال، وقد أورثهم إيمانهم طمأنينة روحية، في حين تُورثنا أمانينا واحتياجاتنا المصنوعة قلقًا دائمًا يبعدنا عن تلك السعادة"[1].

- أما روبرتسون فيرى أن المسلمين تفردوا دون غيرهم بحرصهم الكبير على دينهم، وتوصيله لكل من يحيا على ظهر الأرض، في إطار من السماحة والمشروعية، يقول: "إن المسلمين وحدهم هم الذين جمعوا بين الغيرة على دينهم، وروح التسامح نحو أتباع الديانات الأخرى، وإنهم مع امتشاق الحسام تركوا لمن لا يرغب حرية التمسك بدينه".

- كما شهد البطريق عيشويابه بأن "العرب الذين مكنهم الرب من السيطرة على العالم يعاملوننا كما تعرفون: "إنهم ليسوا أعداء النصرانية، بل يمتدحون ملتنا، ويوَقِّرون قديسينا وقِسِّسينا، ويمدون يد المعونة إلى كنائسنا وأديرتنا"[2].

- ويقرر الإنجليزي السير توماس أرنولد في كتابه القيِّم "الدعوة إلى الإسلام" أن النصارى الذين اعتنقوا الإسلام إنما اعتنقوه عن رغبة جامحة لا عن إرغام وإكراه، فيقول: "لقد عامل المسلمون الظافرون العرب المسيحيين بتسامح عظيم منذ القرون المتعاقبة، ونستطيع أن نحكم بحق أن القبائل المسيحية التي اعتنقت الإسلام قد اعتنقته عن اختيار وإرادة حرة، وأن العرب المسيحيين الذين يعيشون في وقتنا هذا بين جماعات المسلمين هم الشاهد على هذا التسامح"[3].

ثم يبرهن على ذلك بقوله: "لم نسمع عن أية محاولة مدبرة لإرغام الطوائف من غير المسلمين على قبول الإسلام، أو عن اضطهاد وظلم قصد منه استئصال الدين المسيحي، ولو اختار الخلفاء تنفيذ إحدى الخطتين لاكتسحوا المسيحية بتلك السهولة التي أقصى بها فرديناند دين الإسلام من إسبانيا، أو التي جعل بها لويس الرابع عشر المذهب البروتستانتي[4] مذهبًا يعاقب عليه متبعوه في فرنسا، أو بتلك السهولة التي ظل اليهود بها مبعدين عن إنجلترا مدة خمسين وثلاثمائة سنة".

- ومن وجهة نظره الخاصة يرى توماس أرنولد أن بقاء دور العبادة المسيحية دليل واضح على ما يقوله: "ولهذا فإن مجرد بقاء الكنائس ـ حتى الآن ـ ليحمل في طيّاته الدليل القوي على ما أقدمت عليه سياسة المسلمين في الدول الإسلامية ـ بوجه عام ـ من تسامح"[5].

- أما زيغريد هونكه فقد نقلت في كتابها "شمس العرب تسطع على الغرب" مقولة لأحد ملوك الفرس الذين بهرتهم سماحة هذا الدين، ويسمى كيروس،

---

١. مجلة منار الإسلام، الإمارات، جمادي الأولى ١٤١٨هـ، ص١١٧ وما بعدها.

٢. التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام، محمد الغزالي، مرجع سابق، ص٤١ بتصرف.

٣. سماحة الإسلام، د. أحمد الحوفي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧م، ص٨٣.

٤. المذهب البروتستاني: مذهب ديني مسيحي، نشأ عن حركة الإصلاح الديني التي قادها مارتن لوثر، وتدعو إلى تحرر الفرد من سلطان الكنيسة وتجعله مسئولًا أمام الله تعالى وحده، وتتبعه عدد من الكنائس؛ كالإنجيلية والمعمدانية وغيرهما، ويقابلها الكاثوليكية الرومانية والأرثوذكية الشرقية.

٥. مجلة منار الإسلام، شعبان ١٤٢٨هـ، ص١١٧.

يقول: "إن هؤلاء المنتصرين لا يأتون مخربين يدمرون البلاد ويقتلون العباد وينشرون الفساد".

- ويرى القَس[1] ميشو أن القرآن له الأثر الكبير في أهله، فقد أمرهم بالجهاد وفي الوقت نفسه أوجب عليهم التسامح في كل الأحوال، كما يرى أنه من العار على الشعوب المسيحية ألا تتعلم السماحة من المسلمين، فيقول: "إن القرآن الذي أمر بالجهاد متسامح نحو أتباع الأديان الأخرى، وقد أعفى الرهبان والبطارقة وخدمهم من دفع الجزية، وحرَّم قتلهم لعكوفهم على العبادة".

ثم يواصل قائلًا: "... ومن المؤسف ألا تقتبس النصرانية من المسلمين التسامح الذي هو آية الإحسان بين الأمم واحترام عقائد الآخرين، وعدم فرض أي معتقد عليهم إكراهًا"[2].

وقد قارن ميشو في كتابه "سماحة دينية في الشرق" بين الفتح الإسلامي للقدس في عهد عمر، والاستيلاء المسيحي على القدس، وقد عاب على المسيحيين أنفسهم عدم تحلِّيهم بروح التسامح، فقال: "لما استولى عمر على مدينة أورشليم، لم يفعل بالمسيحيين ضررًا مطلقًا، ولكن لما استولى المسيحيون قتلوا المسلمين ولم يشفقوا، وأحرقوا اليهود حرقًا، ولقد أيقنت من تتبعي للتاريخ أن معاملة المسلمين للمسيحيين تدل على ترفع في المعاشرة عن الغلظة، وحسن مسايرة ولطف ومجاملة، وهو إحساس لم يشاهد في غير المسلمين إذ ذاك، خصوصًا أن الشفقة والرحمة والحنان كانت أمارات ضعف عند الأوربيين، وهذه حقيقة لا أرى وجهًا للطعن فيها".

وكان للتسامح الإسلامي في البلدان المفتوحة أثر كبير في انطباعات الشعوب المجاورة لهذه البلاد، حتى إن أغلبها تمنت الفتح الإسلامي، ووجدت فيه الملجأ والملاذ، يقول ترومان بينزا: "لما فتح العثمانيون القسطنطينية كان أكثر الشعب المسيحي في عَشِيَّةِ الكارثة ينفرون من أي اتفاق مع كنيسة روما الكاثوليكية[3] أشد من نفورهم من الاتفاق مع المسلمين، وما زال الناس يرددون الكلمة المشهورة التي نطق بها رئيس ديني في بيزنطية في ذلك الحين، وهي: "إنه لخير لنا أن نرى العمامة التركية في مدينتنا من أن نرى فيها تاج البابوية".

وقد شهدت أوربا نفسها صورًا مشرقة من تسامح المسلمين فتعامل المسلمون ـ كدأبهم ـ مع أهل الأندلس معاملة طيبة وكفلوا لهم حرية العقيدة، بل قلدوهم الوظائف الرفيعة والمناصب العليا.

- يقول الكونت هنري دي كاستري: في كتابه "الإسلام خواطر وسوانح": "وإذا انتقلنا من الفتح الأول للإسلام إلى استقرار حكومته استقرارًا منظمًا رأيناه أكثر حُسنًا، وأنعم ملمسًا، فما عارض العرب قط شعائر الدين المسيحي".

ثم ينقل عن دوزي قوله: "لقد أبقى المسلمون سكان الأندلس على دينهم وشرعهم وقضائهم وقلدوهم بعض الوظائف، حتى كان منهم موظفون في

---

١. القَس أو القسيس: الكاهن، وهو من كان بين الأسقف والشَّمَّاس.

٢. مجلة منار الإسلام، مرجع سابق، جمادي الأولى ١٤١٨هـ، ص١١٧ وما بعدها.

٣. الكاثوليكية: التي تتبع سلطة البابا في روما.

خدمة الخلفاء، وكثير منهم تولى قيادة الجيوش، وتولد عن هذه السياسة الرحيمة انحياز عقلاء الأمة الأندلسية إلى المسلمين، وحصل بينهم زواج كثير، وكم من أندلسي بقي على دينه، ولكن أعجبته حلاوة التمدن العربي، فتعلم اللغة وآدابها، وصار القُسّس يلومونهم على ترك ألحان الكنيسة والتعلق بأشعار الظافرين، وكانت حرية الأديان بالغة منتهاها؛ لذلك لما اضطهدت أوربا اليهود، لجئوا إلى خلفاء الأندلس في قرطبة؛ لكن لما دخل الملك كارلوس سرقسطة أمر جنوده بهدم جميع معابد اليهود ومساجد المسلمين، ونحن نعلم أن المسيحيين أيام الحروب الصليبية ما دخلوا بلادًا إلا أعملوا السيف في يهودها ومسلميها، وذلك يؤيد أن اليهود إنما وجدوا مجبرًا وملجأ في الإسلام، فإن كانت لهم باقية حتى الآن فالفضل فيها راجع لسماحة المسلمين"[1].

- يقول ميخائيل الأكبر بطريرك أنطاكية بعد أن استعرض سلسلة الاضطهادات التي وقعت على أيدي هرقل ورجاله: "وهذا هو السبب في أن إله الانتقام الذي تفرد بالقوة والجبروت، والذي يدير دولة البشر كما يشاء - فيؤتيها من يشاء، ويرفع الوضيع - لما رأى شرور الروم الذين لجئوا إلى القوة فنهبوا كنائسنا وسلبوا أديارنا في كافة ممتلكاتهم، وأنزلوا بنا العقاب في غير رحمة ولا شفقة، أرسل أبناء إسماعيل (المسلمين) من بلاد الجنوب؛ ليخلصنا على أيديهم من قبضة الروم، ولما أسلمت المدن للعرب خصص هؤلاء لكل طائفة الكنائس التي وجدت في حوزتها، ومع ذلك لم يكن كسبًا هينًا أن نتخلص من قسوة الروم، وأن نجد أنفسنا في أمن وسلام".

- يقول أدوالدويلي أحد رهبان القديس ديسيس القسيس الخاص بلويس السابع في الحرب الصليبية الثانية ١١٤٨م - يقول عن إسلام ثلاثة آلاف صليبي وانضمامهم إلى جيوش المسلمين: "لقد جفوا إخوانهم في الدين، كانوا قساة عليهم، ووجدوا الأمان بين الكفار (يعني المسلمين) الذين كانوا رحماء عليهم، ولقد بلغنا أن ما يربو على ثلاثة آلاف قد انضموا - بعد أن تقهقروا - إلى صفوف الأتراك، آه.. إنها لرحمة أقسى من الغدر، لقد منحوهم الخبز، ولكنهم سلبوهم عقيدتهم، ولو أن من المؤكد أنهم لم يكرهوا أحدًا من بينهم على نبذ دينه، وإنما اكتفوا بما قدموه لهم من خدمات".

- أما شهادة د. فيليب حِتّى فهي شهادة من نوع خاص، لسببين، أولهما: أنه مسيحي، وثانيهما: أنه عربي تجري في عروقه دماء العروبة، فهو يمتدح الإسلام، ويرى جدارته باستيعاب كل من يعيش تحت سمائه، في إطار من العدل والتسامح، فيُعَرِّف الإسلام بأنه: "حضارة عامة شاملة تنظم كل من يعيش تحت سمائها في حرية وصفاء، ويعيش غير المسلمين والمسلمون على قدم المساواة تربطهم روابط المحبة والأخوة".

وبعد، فهذا نزر يسير من شهادات غير المسلمين من الذين وقفوا على حقيقة هذا الدين السمح بعظمته التي لا تضاهيها عظمة، وبإنسانيته التي ليس لها حدود، فلم يستطع هؤلاء أن يكتموا شهادتهم، أو أن يسلبوه حقه،

---

١. سماحة الإسلام، د. أحمد الحوفي، مرجع سابق، ص٨٣ وما بعدها.

فأنطقهم الله الذي أنطق كل شيء®.

الخلاصة:

- إن أدنى تأمل في عقيدة الإسلام وتشريعاته الخالدة يوضِّح أنه دين الرحمة والتسامح، وإفشاء السلام وهداية الناس إلى الخير والصلاح، وليس فيه ما يحضُّ على الكراهية والعداء؛ مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ (الأنبياء).
- حتى الحرب في الإسلام لها ضوابط وأخلاق، فهي حرب شريفة بعيدة عن الاعتداء والجور، وليس في تاريخ المسلمين حروب جائرة، والعالم يشهد بنزاهة حروب المسلمين وأخلاقياتها.
- لقد أثبت التاريخ أن غير المسلمين في كنف الدولة الإسلامية هم أسعد الناس، وذلك بما كفله لهم الإسلام من حقوق، جذبت كثيرين منهم إليه، طوعًا لا قسرًا.
- تسمية غير المسلمين "كفارًا" لا تعني ظلمهم أو الاعتداء عليهم؛ فهي للتمييز فقط بين من دخل في الدين، ومن لم يدخل، والإسلام لم يأت بجديد في هذا؛ فكل ذي دين يطلق على مخالفيه "كفارًا".
- الجزية مبلغ زهيد من المال مقابل الحماية واستخدام مرافق الدولة، ولا تؤخذ إلا من الرجال القادرين على العمل، أما النساء والأطفال والشيوخ فيعفون منها، بل يُسهم لكثير منهم بما يكفي حاجاته ويغنيه عن سؤال الناس.

® في "شهادات المستشرقين بسماحة الإسلام" طالع: الوجه الرابع، من الشبهة الحادية عشرة، من الجزء الثالث (التاريخ الإسلامي ١).

- شهادات المنصفين من غير المسلمين على سماحة الإسلام في تعامله مع الآخر الثابتة تؤكد كذب هذا الادعاء وتفضح زيف مدعيه.

الشبهة التاسعة عشرة

الاستدلال بشيوع الإلحاد على خطأ العقيدة الإسلامية(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المفترين أن الإسلام ليس الدين الحق، ويتساءلون: إذا كان في الإسلام ما يرضي الإنسان ويكفيه، فلماذا ـ إذن ـ يتركه الناس ويلحدون؟!

وجوه إبطال الشبهة:

١) الإلحاد إنكار لوجود الله ﷻ، وهو من جهة السلوك حالة من الحرية بلا حدود.

٢) أسباب انتشار الإلحاد كثيرة ومتنوعة، ومنها: الجهل، واللامبالاة، والنظرة الإباحية، وغيرها، وللإلحاد ـ بعد ذلك ـ عواقب وخيمة، فهو يؤدي إلى الأمراض النفسية والانتحار.

٣) الإيمان بالله ربًّا وبالإسلام دينًا فيه صلاح الفرد والمجتمع.

التفصيل:

أولا. معنى الإلحاد وأساسه النظري:

الإلحاد يعني: الإنكار، والإلحاد من الناحية الفكرية

(*) أسئلة العصر المحيرة، محمد فتح الله كولن، مرجع سابق.

هو إنكار وجود الله ، وعدم الإقرار به، والإلحاد في مستوى التصور هو حالة الحرية بلا حدود، أما في مستوى العمل والسلوك فيدافع عن الإباحية.

والخاصية الحسية المادية الإلحادية تتجسد في الفكر الفلسفي والأوربي منذ عصر النهضة إلى اليوم، فلقد نادى فلاسفة عصر النهضة بأن "كل العقائد المضادة للخبرة الإنسانية والملاحظة التجريبية يجب أن تستبعد، وسَخِروا من النبوات والمعجزات، والوحي، وكل الشعائر والطقوس الدينية بوصفها خرافة، وشبه "فولتير" (١٦٩٤ ـ ١٧٧٨م) خَلْق الله للكون بتجميع صانع الساعات للساعة، ثم انقطاع صلته بعد ذلك.

ويزداد إنكار الخالق في هذه الفلسفة في رفض دافيد هيوم (١٧١١ ـ ١٧٧٦م) العقائد الدينية على أساس عدم إمكان البرهنة عليها، لا بالتجربة العلمية، ولا بالعقل الإنساني، وهاجم هيوم ربَّ فولتر نفسه معلنًا: "أننا رأينا الساعات تصنع، ولكننا لم نر العالم يخلق".

وزعم فرويد (١٨٥٦ ـ ١٩٣٩م) أن الدين مصدره اللاشعور، لا الوحي، وزعم استحالة البرهنة على صحة الإيمان الديني، ومن ثم أنكر وجود الله"[١].

ولا تزال الثقافة الأوربية بعيدة عن الإيمان بالله، وكتبه ورسله، وعن الإقرار بأن الوحي مصدر من مصادر المعرفة، ونتيجة لإنكار كل وسيلة معرفية غير الحواس، كالحدس والوحي، أنكرت الفلسفات الأوربية المعاصرة كل وجود غير حسي، كوجود الله، والملائكة، والروح، والشيطان، ووقع التصادم والتناقض التام بينها وبين العقائد الدينية الأساسية[٢].

ثانيًا. أسباب انتشار الإلحاد:

١. **الجهل:** إن أول بيئة ينمو فيها الإلحاد هي البيئة التي يسود فيها الجهل بالدِّين، ويغيب عنها العلم والإيمان، فكتل الجماهير التي لا تتلقى تربية وتغذية روحية وقلبية، ستقع ـ إن عاجلًا أو آجلًا ـ في براثن[٣] الإلحاد، وإذا لم تتدخل العناية الإلهية فإنها لن تستطيع إنقاذ نفسها، إذا لم تبذل الأمة عناية خاصة في تعليم ضرورات الإيمان لأفرادها.

٢. **اللامبالاة تجاه أسس الإيمان، وعدم الاهتمام بها:** ومثل هذا السلوك الذي يتسم بحرية التفكير ما إن يجد أية أمارة صغيرة تعين على الإنكار وعلى الإلحاد، حتى ينمو هذا الإلحاد ويزداد، مع أنه لا يستند إلى أي سبب علميٍّ، ولكنَّ إهمالًا معينًا، أو غفلة معينة، أو تقييمًا خاطئًا، كل ذلك قد يولد الإلحاد.

٣. **اعتمادهم الأول على قوانين الطبيعة التي هي أهم أداة في يد الإلحاد:** لكن هل يمكن أن تكون هذه الطبيعة الجميلة التي تسحر النفوس والأرواح مثل شعر منظم نتيجة مصادفات عمياء؟

إن كانت الطبيعة تملك ـ كما يتوهم هؤلاء ـ قوة قادرة على الإنشاء والخلق فهل نستطيع إيضاح كيف استطاعت الطبيعة الحصول على مثل هذه القدرة؟ أنستطيع أن نقول إنها خلقت نفسها بنفسها؟ أيمكن تصديق مثل هذه المغالطة المرعبة؟

---

١. نقد الثقافة الإلحادية، د. أحمد عبد الرحمن إبراهيم، دار هجر، القاهرة، ط١، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م، ص١٩.

٢. المرجع السابق، ص٢٦.

٣. البراثِن: جمع البرثن، وهو المخلب.

٤. **النظرة الإباحية**: التي ترى الاستفادة من كل شيء موجود مهما كان ذلك الشيء، أي النظرة التي تستند إلى الفائدة والتلذذ من جميع النعم، وتبذل المحاولات اليوم لصب هذه النظرة في قالب فلسفي وفكري ومنهجي.

٥. **غياب النظرة التدبرية في الكون**: وهي النظرة المجردة من الأهواء والميول الشهوانية، أو تغييبها، من قبل دعاة الإلحاد، والذين يريدون للعقل ألَّايتدبر إلا ما يكتبونه، ولا يأخذ إلا بنظرياتهم المادية.

ومساوئ الإلحاد كثيرة ومتعددة، ومن أهمها:

١. **الأمراض النفسية**: يقول العالم النفسي الشهير يونج ١٨٧٥ ـ ١٩٦١م: "طلب مني أناس كثيرون من جميع الدول المتحضرة مشورة لأمراضهم النفسية في السنوات الثلاثين الأخيرة، ولم تكن مشكلة أحد من هؤلاء إلا الحرمان من العقيدة الدينية".

ويمكن أن يقال: إن مرضهم لم يكن إلا أنهم فقدوا الشيء الذي تعطيه الأديان الحاضرة للمؤمنين بها في كل عصر، ولم يُشْفَ أحد من هؤلاء من المرض، إلا عندما استرجع فكرته الدينية"[١]. والشيء الذي فقدوه هو الإيمان بوجود الله ﷻ.

٢. **يحرم الإنسان من كل النعم**: ويدعه بلا أمل ولا أمن، ويقبل الإنسان على الدنيا فيصطدم بالآخرين، ويحتدم الصراع، ويتردد الإنسان بين الملل والألم ـ كما يقول "شُوبِنْهَوَر" ـ الملل إذا فاز في الصراع وأشبع بطنه وفرجه، والألم من الحرمان إذا انهزم ولم يشبع حاجاته؛ فالإلحاد يهدم الدين، ولا يعطي الناس شيئًا بديلًا.

٣. **انتشار الجريمة والإحساس بالتعاسة**، وإدمان الخمر للهروب من الواقع، والانتحار للتخلص من الملل والقلق والغربة النفسية في المجتمعات الملحدة، حتى وصل الانتحار بين الإفريقيين في جنوب إفريقيا إلى (١٠ ـ ١٠٠,٠٠٠)، وبين البريطانيين (١ ـ ١٠٠,٠٠٠) وبين الأمريكيين إلى (١١ ـ ١٠٠,٠٠٠).

ثالثًا. أثر الإيمان بالله في مواجهة الإلحاد وتحقيق صلاح الفرد والمجتمع:

الإيمان بوجود الله فيه سعادة الفرد والمجتمع، فالثقافة الإسلامية هي التي تبني نظامًا أخلاقيًّا دينيًّا ثابتًا مطلقًا، قوامه الإيمان بثواب الله الأخروي، وجوهره الإيثار الذي يتمثل في تقديم حظ الآخرين على حظ النفس بدرجة أو بأخرى؛ طلبًا للفوز بالسعادة الأخروية[٢].

ويقول جمال الدين الأفغاني: "وأما الاعتقاد بالألوهية وبيوم الجزاء، وفحواه الإيمان بأن للعالم صانعًا عالمًا بكل شيء، وسامي القدرة، وأنه قدَّر للخير والشر جزاءً يُوَفَّاه مستحقه في الدار الآخرة، فهذه العقيدة هي الوحيدة التي تقمع الشهوة، وتردع الهوى، فهذان الاعتقادان هما وسيلة إحقاق الحق، والتوقف عن الشرود في السر والعلن، وذلك أن العلة الغائية لأعمال الإنسان هي نفسه، فإذا لم يؤمن بأن هناك ثوابًا وعقابًا، فلا يوجد ما يحمله على تحمل الفضائل والابتعاد عن الرذائل، وخصوصًا إذا كان

---

١. نقد الثقافة الإلحادية، د. أحمد عبد الرحمن إبراهيم، مرجع سابق، ص٣٧.

٢. الفضائل الخلقية في الإسلام، مكتبة دار العلوم، الرياض، ١٤٠٢هـ، ص٢٦٩.

في مأمن من الناس[1].

وإن النظر في الحالة الدينية للبلاد التي يشيع فيها الإلحاد يُبدي أنَّ القيم الإيمانية قد نُحِّيَت رأسًا عن إدارة الحياة وعن التكوين النفسي للأفراد؛ فلذلك اجتالتهم المذاهب الإلحادية باسم العلم عن حقائق الدين الكبيرة، وذلك قصاراه أن يعطي معنى أن الدين قد غُيِّب عن الحياة، أو أن الدين المعيَّن لا يرضى الضمير الإنساني والمدارك السويّة، فأما الإسلام فهو بمعزل عن هذه التيارات، وبلاده أقل البقاع في ظهور مثل هذه المذاهب.

الخلاصة:

- المظهر العَقدي للإلحاد هو إنكار وجود الله ﷻ، والمظهر السلوكي له هو النظرة الإباحية على الحياة ومتاعها، وهو يروِّج لنفسه على المنهج العلمي ويحث على إعماله.
- الجهل بالحقائق الدينية الكبرى هو ما هيَّأ للمدِّ الإلحادي المناخ الملائم للانتشار والرواج، ثم لحدوث نتائجه الطبيعية من الاضطراب النفسي والقلق والانتحار بعد ذلك.
- لا ينتشر الإلحاد إلا حيثما تغيب القيم الدينية عن الحياة، أو حيثما تكون هذه القيم في رتبة من الضعف والتهافت تجعلها قاصرة عن هداية الفرد أو توجيه المجتمع وجهة صالحة.

١. الرد على الدهريين، جمال الدين الأفغاني، ترجمة: محمد عبده، الإسلام العالمية، د. م، ١٩٨٣م، ص٧٢، ٧٣.

الشبهة العشرون

الزعم أن القرآن الكريم يؤكد فكرة الحلول والاتحاد(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المشككين أن القرآن يؤكد فكرة الحلول والاتحاد[2]، مستدلين على ذلك بقوله ﷻ: ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (القصص)، قائلين بأن قوله: ﴿ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ يوحي بأن الله تعالى يحل في الشجرة، وإذا كان الله ـ على حدِّ زعمهم ـ يحل في الشجرة، فمن باب أولى أن يحل في البشر ـ يقصدون عيسى ؑ.

وجوه إبطال الشبهة:

١) القول بحلول الله في بعض الأجسام واتحاده معها هو عقيدة وثنية ونصرانية أبطلها الإسلام، ونهى عن القول بها.

٢) الأدلة على بطلان القول بالحلول والاتحاد عقلًا ونقلًا.

٣) طرق تلقِّي الوحي عن الله ﷻ كثيرة، ولا تستلزم الحلول أو الاتحاد، وليس في الآية ما يشير إلى ما ذكروا.

(*) البابية والبهائية في الميزان، مجموعة من علماء الأزهر، مطبوعات الأزهر، مصر، ١٩٨٥م. برنامج "أسئلة عن الإيمان"، القمص زكريا بطرس، قناة الحياة الفضائية.

٢. الحلول والاتحاد: يقتضي وجود خالق ومخلوق، وبمداومة المخلوق على رياضات روحية معينة حلَّ في الخالق كحلول الزبدة في اللبن أو الماء في الإناء، فهذا هو الحلول، أو اتحد به حتى صار شيئًا واحدًا، وهذا هو الاتحاد.

التفصيل:

أولا. الحلول والاتحاد عقيدة وثنية أبطلها الإسلام:

الذهاب إلى تقديس أنواع من الجماد أو الحيوان أو بعض البشر أو الكواكب والنجوم هو اعتقاد موروث عن المجتمعات البدائية التي لم يُهذِّبها التمدن والحضارة، في عبارات فلسفية هيأت له أن يشيع في المجتمعات التي عرفت طرفًا من المدنية والنظام، على نحو ما نرى في النصرانية من اعتقاد اجتماع اللاهوت والناسوت في شخص المسيح عليه السلام، وما ظهر في الإسلام من مذاهب باطنية منحرفة ادعت حلول روح الله عز وجل في أشخاص بعينهم.

وفي العصور الأخيرة ظهرت مذاهب هي من جنس الباطنية[1] القديمة، لكن كأنها تلكأت في الزمن فجاءت متأخرة بعد أن أدركت البشرية التقدم العلمي، وأصبح الاعتقاد بمثل هذا ضربًا من الجنون والخلل العقلي، وذلك كالبهائية[2] التي خلعت القداسة على مؤسسها البهاء وولده عبد البهاء عبَّاس، وكأن ذلك كله ضرب من عبادة الشيطان الذي حذر القرآن منه من قبل، قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (٦٢)﴾ (يس).

إن الإله الحق لا يشبه الخلق، ولا الخلق يشبهونه، وهو غني عن الخلق، والخلق كلهم محتاجون إليه، وهو عز وجل ذو صفات وكمالات مطلقة لا حدود لها، ولا نهاية لها، وحقيقة لا يصل إليها الخلق مجتمعين، فكيف يَحُلُّ من هذا شأنه في كائن محدود في ذاته وصفاته وعمره وجميع شأنه؟!

كيف يحل اللامحدود في المحدود؟! إذًا تنقلب الحقائق فيصير اللامحدود محدودًا، والمحدود لامحدودًا، وقلب الحقائق مستحيل عند جميع العقلاء.

ثانيًا. الأدلة على بطلان القول بالحلول عقلا ونقلا:

ما ينبغي أن يحل الإله عز وجل في عبد من عباده - كما زعمت النصارى في المسيح - وهو سبحانه قد بين حقيقته البشرية، فقال عز وجل: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ﴾ (النساء: ١٧١)، وقال عز وجل عنه وعن أمه: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ (المائدة:٧٥)، وهذا من أبين الأدلة النقلية على أن المسيح بشر، وليس من صفات الله تبارك وتعالى مثل هذه الصفات التي من شأنها النقص، تعالى الله عما وصفه به هؤلاء الواصفون.

ولقد تناسَوْا أن العبد عبد، وأن الإله إله؛ والله عز وجل يقول: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (١٧٢)﴾ (النساء)، وغفلوا

---

١. البَاطِنيَّة: مصدر صناعي من باطِن، وهي مجموعة فِرَق إسلامية مبتدعة، تعتقد أن للدين ظاهرًا وباطنًا، وأن لكل ظاهرٍ باطنًا، ولكل تنزيل تأويلًا.

٢. البهائية: دعوة أسَّسها حسين علي نوري الميرزا، المعروف بالبهاء (١٨١٧م - ١٨٩٢م)، إيراني مستعرب، ويقال: أخذها عن علي بن محمد الشيرازي الملقب بـ "الباب"، ويقول بوحدة الله والكون، وأن لا أسماء، ولا صفات، ولا أفعال له، والبهائية تنادي بوحدة كل الديانات، وتدافع عن الملكية الخاصة، وغايتها المُعْلَنة السلام العالمي الذي يأتي عن طريق اعتناق الديانة البهائية التي ليس لها طقوس ولا رجال دين، من آثار البهاء ما سماه "الكتاب الأقدس" بالعربية، و "الإيقان" بالفارسية، و"الهيكل" أكثره بالعربية.

عن أن العبادة توفيق وأن الهداية منحة، وأن العبد مهما أطاع واتقى متقلب في نعم الله التي لا تعد ولا تحصى، ولا يملك من أمر نفسه أو غيره شيئًا.

ومن قال عن نفسه: إنه الحق! أو: ما في الجبة إلا الله أو: أنا من أهوى، ومن أهوى أنا، وكذلك من قال:

لقد صار قلبي قابلًا كل صورة

فمرعىً لغزلان وديرًا لرهبان

وبيتًا لأوثانٍ وكعبةَ طائفٍ

وألواحَ توراةٍ ومصحفَ قرآنِ

أدين بدين الحب أنّى توجهت

ركائبه، فالحب ديني وإيماني

كل هؤلاء إما مخبولون فقدوا وعيهم وزاغ منهم البصر، وإما منافقون يحملون وثنيات الأمم ويريدون أن يصدوا عن سبيل الله[1].

وعقلًا: الإله الحق لا يشبه الخلق، ولا الخلق يشبهونه، وهو غني عن الخلق، والخلق كلهم فقراء إليه، وهو ذو صفات وكمالات مطلقة لا حدود لها، ولا نهاية لها، وحقيقة لا يصل إليها الخلق مجتمعين، فكيف يحل من هذا شأنه في كائن محدود في ذاته وصفاته، وعمره، وكل ما يتصل به؟

إذن تنقلب الموازين والحقائق، فيصير اللامحدود محدودًا، والمحدود لامحدودًا، وهذا قلب للحقائق، وقلب الحقائق مستحيل عند جميع العقلاء.

هذا موقف الإسلام من تلك العقيدة كما تظهره نصوصه، وهو كذلك موقف تؤيده الدلائل العقلية، والمعتقَد النصراني إنما أقرَّ مثل هذا بناءً على تصوره الخاص للمسيح عليه السلام؛ ولذلك فإن فكرة حلول الإله تبرير للإفك، لكنه تبرير له بإفك أفظع منه، وبما لا يقبله دين صحيح ولا عقل سليم، والقرآن الكريم لم يكن في آية من آياته مقرًّا لهذا الإفك بحالٍ من الأحوال، ولم تنص المواضع المشار إليها على ذلك الباطل البين.

والآيات تذكر أن الله تعالى نادى موسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ٥٢﴾ (مريم)، وقال: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ﴾ (القصص: ٣٠).

ولم تقل الآيات إن الله عز وجل تجسَّد في جماد، أو في شجرة.

إنه سمع النداء وألقى الله في قلبه هذا النداء، ولم تذكر الآيات أكثر من ذلك.

التجسُّد: تجسد الإله المنزَّه عن الشبيه في بشر أو شجر، أمر غير مقبول لا عقلًا ولا شرعًا.

وقد ناقش علماء العقيدة المسلمون منذ القِدمَ هذه الفكرة، فكرة حلوله عز وجل في بعض خلقه ـ وقد تقدم أنها لا تخص النصارى وحدهم، وأنها ظهرت عند طوائف من المنتسبين إلى الإسلام، ناقش المتكلمون ذلك كله وبيَّنوا مجافاته للإدراك العقلي لا للنصوص الدينية وحدها.

وذلك أن المحلَّ الذي يجوِّز هؤلاء أنَّ ذاته تبارك وتعالى تحل فيه لا يتصوَّر فيه أن يكون قديمًا متى تقرَّر أن الله عز وجل هو واجب الوجود القديم الذي لا ينازعه في القدم سواه، ولا يجوز ـ كذلك ـ أن يكون محلًّا حادثًا؛ فإن الله تبارك وتعالى إن كان محتاجًا إليه كان ذلك نقصًا فيه، وإن لم يكن محتاجًا

---

1. الإلهيات في العقيدة الإسلامية، د. محمد سيد أحمد المسير، دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٩٩م، ص٦٤.

إليه لم يكن القول بالحلول أولى من القول بعدمه.

ويضاف إلى ذلك أيضًا أن المحل المُدَّعَى إن كان قابلًا للانقسام فما حل فيه كان بمنزلته في التشكل والانقسام، وهو ما لا يليق بجلاله ﷻ وإن لم يكن قابلًا للقسمة فهو بمنزلة الجوهر[1] الفرد في الصغر والضآلة، وذلك أيضًا لا يليق بصفاته ﷻ.

ثالثًا. طرق تَلَقِّي الأنبياء الوحي من الله ﷻ:

لا يتلقى الأنبياء الوحي من الله تعالى عن طريقة الحلول في النبي أو الرسول كما زعموا، بل كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ ۝٥١﴾ (الشورى). وطرق الوحي إما الرؤية الصادقة، وإما الإلهام والقذف في القلب من غير رؤية، وإما أن يُكلِّم الله نبيه بما يريد من وراء حجاب يقظة أو منامًا، وإما بإرسال الملك، والملك إما أن يتمثل في صورة رجل، أو في صورته التي خلقه الله عليها، أو يأتي على صورته الملائكية لكنه لا يُرى[2]. ولا يتصوَّر أن يحل الله ﷻ في نبي ليبلغه وحيه، والله تعالى منزَّه أن يحل في مخلوق، لا في نبي ولا في غيره.

والروح التي في الجسد، وتحل فيه ما هي إلا خلق من خلق الله، وليس حلولها يعني أن الله حل في إنسان، وإلا لكان الناس جميعًا حلت فيهم آلهة أو إله، بل كل الكائنات الحية التي بها حياة يحل فيها الإله، فهل حل الإله فيها جميعًا[3]؟!

وليس في هذه الآية ما يصلح شاهدًا في قضية الحلول؛ فإن قصارى ما ترشد إليه الآية أن موسى عليه السلام قد سمع صوتًا آتيًا من قِبل الشجرة، لا أن الله حلَّ فيها، ولا أن كلامه ﷻ مخلوق في الشجرة، فذلك وهذا مما لا تفيده الآية، وهما كذلك مما يُنزَّه الله ﷻ عنه.

الخلاصة:

- إن القول بالحلول أو الاتحاد وَهْم قديم كانت ذهبت إليه الوثنيات الأولى في صورة عبادة أصناف الجماد أو الكائنات الحية، ثم تحول إلى العقائد السماوية بعد تبدليها في صورة عبارات مصقولة، لكنها عند التأمل لا تخفى حقيقته.
- ولقد جاء الإسلام فهدم هذه العقيدة من أصولها، ثم تابع علماء العقيدة المسلمون تنفيدها بمسالك عقلية تظهر ما بها من ضعف وتهافت.
- إيحاء الله تبارك وتعالى لأنبيائه لا يلزم عنه حلوله ﷻ أو جزء منه في ذات النبي، بل للوحي طرق أخرى كثيرة بيَّنها الله ﷻ في كتابه، وشوهدت في أحوال نبيِّه ﷺ.

---

١. الجوهر: حقيقة الشيء وذاته، أو أصله ومادته، وهو ما قام بنفسه، ويقابله العَرَض وهو ما يقوم بغيره.

٢. رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ في ضوء الكتاب والسنة، د. عماد السيد الشربيني، مطابع دار الصحيفة، مصر، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ص٢٧١: ٢٧٨ بتصرف.

٣. انظر: البابية والبهائية في الميزان، مجموعة علماء الأزهر، مرجع سابق. الجواب الفسيح لما لفَّقه عبد المسيح، الألوسي، تحقيق: د. أحمد حجازي السقا، دار الجيل، بيروت، د. ت.

الشبهة الحادية والعشرون

ادعاء أن الله عز وجل كائنٌ في كل مكان بذاته(*)

مضمون الشبهة:

يعتقد بعض الطوائف أن الله عز وجل في كل مكان بذاته، على ما في ذلك من تمهيد للقول بالحلول واختلاطه عز وجل بمخلوقاته، وينكرون ما تواتر عن السلف والأئمة من إثبات استوائه عز وجل على عرشه وعلوه وفوقيته. وقد يستدلون على ذلك بظواهر بعض الآيات؛ كقوله عز وجل: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ (الحديد: ٤).

وجها إبطال الشبهة:

١) إثبات العلو والفوقية لله تعالى عقيدة ثابتة لها دلائلها الكثيرة من نصوص القرآن، فضلًا عن دلالة الفطرة والعقول السويّة.

٢) علوُّهُ تعالى لا ينافي شمول علمه وإحاطته بالخلائق، وأنه أقرب إليهم من حبل الوريد.

التفصيل:

أولا. إثبات العلو والفوقية لله تعالى:

أخبرنا الله تبارك وتعالى أنه في السماء مستوٍ على عرشه، فقال: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (١٦) أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ (١٧)﴾ (الملك)، وفي الحديث الصحيح: "أنا أمين من في السماء، يأتيني خبر السماء صباحًا ومساء"[1].

وجاء في الصحيح أيضًا أن النبي ﷺ سأل جارية معاوية بن الحكم السلمي "أين الله؟ قالت: في السماء. قال: "من أنا؟ قالت أنت رسول الله، قال: "أعتقها فإنها مؤمنة"[2].

معنى كونه عز وجل في السماء:

وليس المراد بأن الله عز وجل في السماء أنَّ جُرُم[3] السماء تحويه، تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا، بل المراد بالسماء: العلو والفوقية، فقد وصف نفسه عز وجل بأنه الأعلى، فقال: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١)﴾ (الأعلى) وبأنه تبارك وتعالى العلي العظيم: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٢٥٥)﴾ (البقرة).

معنى استوائه على عرشه:

قال عز وجل: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ (٥)﴾ (طه). ومذهب أهل السنة وأصحاب الحديث أنهم يثبتون استواءه على العرش، ولا ينفونه[4]، ولا يُكيِّفون[5].

قال داود بن علي الأصبهاني: كنت عند ابن الأعرابي، فأتاه رجل فقال ما معنى قوله عز وجل: ﴿الرَّحْمَٰنُ

(*) هل القرآن معصوم؟ موقع إسلاميات، عبد الله عبد الفادي.

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب بعث علي بن أبي طالب وخالد بن الوليد إلى اليمن (٤٠٩٤)، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج (٢٥٠٠).
٢. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة (١٢٢٧).
٣. الجِرْم: النجم أو الكوكب.
٤. النفي: مذهب المُعَطِّلة، وهم الذين ينفون صفات الله تعالى، وينسبون إليه النقص.
٥. التكييف: هو تعين كُنْه الصفة؛ يقال: كيَّف الشيء؛ أي: جَعَل له كيفيَّة معلومة.

عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾. فقال ابن الأعرابي: هو على عرشه كما أخبر، فقال: يا أبا عبد الله، إنما معناه استولى، فقال ابن الأعرابي: فما يدريك؟ العرب لا تقول استولى على الشيء حتى يكون له مضاد، فأيهما غلب فقد استولى عليه، أما سمعت قول النابغة:

إلا لِمِثلكَ أو مَن أنتَ سابِقُهُ

سَبْقَ الجوادِ إذا استولَى على الأَمَد

وهذا النهج وهو معرفة معنى الاستواء وجهل الكيفية والنهْي عن البحث فيها ـ هو منهج السلف الصالح، فعندما سئل الإمام مالك عن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ كيف استوى؟! قال ما معناه: "الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة".

ويقول القرطبي: "كان السلف الأُوَل ﷺ لا يقولون بنفي الجهة، ولا ينطقون بذلك، بل نطقوا هم والكافة بإثباتها لله ﷻ، كما نطق كتابه، وأخبرت رسله، ولم ينكر أحد أنه استوى على عرشه حقيقة، وخص العرش بذلك لأنه أعظم مخلوقاته، وإنما جهلوا كيفية الاستواء فإنه لا تعلم حقيقته"[1].

والعلوُّ والفوقيَّة ثابتان بالكتاب والسنة وإجماع الملائكة والأنبياء والمرسلين ـ عليهم السلام ـ وأتباعهم ـ على الحقيقة ـ من أهل السنة والجماعة، وهو سبحانه وتعالى فوقهم مستويًا على عرشه عاليًا على خلقه بائنًا منهم، يعلم أعمالهم ويسمع أقوالهم ويرى حركاتهم وسكناتهم، لا تخفى عليه منهم خافية، والفطرة السليمة والقلوب المستقيمة مجبولة[2] على الإقرار بذلك ولا تنكره، فأسماؤه الحسنى دالة على ثبوت جميع معاني العلوِّ له تعالى كاسمه الأعلى، واسمه المتعالى، واسمه الظاهر وغيرها.

وهذه الأسماء تدل على ثبوت جميع معاني العلوِّ لله تعالى ذاتًا وقهرًا وشأنًا، ومن ذلك التصريح بالاستواء على عرشه كما قال ﷻ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ (الأعراف)، وقوله ﷻ: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾ (الرعد)، وفي حديث أنس في فضل الجمعة وتسميته في الآخرة "يوم المزيد" يقول في آخره: "وهو اليوم الذي استوى فيه ربك على العرش"[3].

وعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنهما ـ قال: كانت زينب ـ رضي الله عنها ـ تفخر على أزواج النبي ﷺ وتقول: زوَّجكُنَّ أهليكُن، وزوجني الله من فوق سبع سماوات[4].

وعن جابر بن سليم قال: سمعت رسول الله ﷺ

---

١. العقيدة في الله، د. عمر سليمان عبد الله الأشقر، دار السلام، القاهرة، دار النفائس، الأردن، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ص٢٠٦.

٢. المجبولة: المفطورة، المطبوعة.

٣. صحيح: أخرجه البيهقي في معرفة السنن والآثار (١٨٤١)، وصححه بمجموع الطرق في العلو (١/ ٣١).

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ (هود: ٧) (٦٩٨٤).

يقول: "إن رجلًا ممن كان قبلكم لبس بُرْدَين فتبختر، فنظر الله إليه من فوق عرشه فمَقَتَه، فأمر الأرض فأخذته، فهو يتجلجل فيها"[1].

وروى ابن أبي شيبة عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: لما قُبض رسول الله ﷺ قال أبو بكر الصديق ﷺ: "أيها الناس إن كان محمد إلهكم الذي تعبدونه فإن إلهكم قد مات، وإن كان إلهكم الله الذي في السماء فإن إلهكم لم يمت"، ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى اللَّهُ الشَّٰكِرِينَ (١٤٤)﴾ (آل عمران)[2].

وعن أبي أمامة الباهلي ﷺ قال: لما لعن الله إبليس وأخرجه من جنَّته ومن سماواته وأخزاه قال: "رب أخزيتني ولعنتني وطردتني عن سماواتك وجوارك، فوعزتك لأُغوينَّ خلقك ما دامت الأرواح في أجسادهم"، فأجابه الرب ﷻ فقال: "وعزتي وجلالي وارتفاعي على عرشي، لو أن عبدي أذنب حتى ملأ السماوات والأرض خطايا، ثم لم يبقَ من عمره إلا نَفَسٌ واحد، فندم على ذنوبه لغفرتها، وبدَّلت سيئاته كلها حسنات"[3].

١. صحيح: أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٧/ ٦٣) برقم (٦٣٨٤)، وصححه ابن القيم في اجتماع الجيوش الإسلامية (٥٥).

٢. صحيح: أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب المغازي، باب ما جاء في وفاة النبي ﷺ (٣٧٠٢١)، والبزار في مسنده (١/ ٦١) برقم (١٠٣)، وصححه الذهبي في العلو (١/ ٦٢).

٣. انظر: معارج القبول بشرح سلم الوصول، حافظ بن أحمد حَكَمي، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، ط١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، ج٢، ص١٣١: ١٥٠.

ومن أقوال التابعين في مثل هذا ما روي عن كعب الأحبار ﷺ أنه قال: قال الله ﷻ في التوراة: "أنا الله فوق عبادي، وعرشي فوق جميع خلقي، وأنا على عرشي أُدبِّر أمور عبادي، ولا يخفى عليَّ شيء في السماء ولا في الأرض" وعن مسروق أنه كان إذا حدَّث عن عائشة - رضي الله عنها - قال: حدثتني الصديقة بنت الصديق حبيبة الله المُبرَّأة من فوق سبع سماوات[4]. وعن سفيان قال: كنت عند ربيعة بن أبي عبد الرحمن فسأله رجل فقال: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ (٥)﴾ (طه)، كيف استوى؟ فقال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، ومن الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التصديق®.

ثانيًا. علو الله ﷻ لا ينافي قربه؛ فقد أحاط علمه وقدرته بكل شيء:

إن استواء الله ﷻ على عرشه وإثبات فوقيَّته في السماء لا ينافيه أنه ﷻ في كل مكان بعلمه وقدرته، فلا يعزب عن علمه شيء دقَّ أو جلَّ في السماوات ولا في الأرض، وعندما نقول هذا لا نعني أنه تعالى يشغل حيِّزًا مكانيًّا كسائر الأجسام، عندما نقول: إنه واحد أحد، فإننا نشير إلى جلاله وإلى عظمته، وعندما نقول: إنه معنا نقصد أنه معنا بعلمه وقدرته لا بذاته وهو بلا شبيه، تعالى أن يكون له شبيه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١)﴾ (الشورى).

٤. ذكره الذهبي في العلو للعلي الغفار (٣١٧)، وقال: إسناده صحيح.

® في **"عقيدة السلف في تفسير استواء الله على العرش"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الخامسة والثلاثين، من هذا الجزء.

أي أن الله ﷻ على الرغم من أنه يحيط بنا بصفاته هذه، وأقرب إلينا من حبل الوريد، إلا أننا لا نملك الوصول إليه في عليائه ﷻ.

والمقصود بـ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ (الحديد: ٤)، أي: بعلمه؛ لأن الآية تتكلم عن سعة علم الله وإحاطته بكل شيء: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧)﴾ (المجادلة).

إن نفوسًا كثيرة من المؤمنين تستشعر معية ربها ﷻ ومراقبته وجلاله على وجه أجلى ممن ينظرون إليهم من الناس، ويدعوهم ذلك إلى ملازمة أوامره ومجانبة نواهيه.

إن الله ﷻ أمرنا أن ننظر إلى آثار رحمته، وأن نتفكر في خلقه، وليست عقولنا مؤهلة لأن تستوعب معية الله لنا أكثر من الاعتبار بآثار صفاته من علمه ورحمته، وتفضله وبره.

قال الإمام ابن تيمية في العقيدة الواسطية بعد أن سرد الآيات والأحاديث في الصفات: وقد دخل فيما ذكرنا من الإيمان بالله الإيمان بما أخبر به في كتابه وتواتر عن رسول الله ﷺ وأجمع عليه سلف الأمة من أنه ﷻ فوق سماواته على عرشه عَلِيٌّ على خلقه، وهو سبحانه معهم أينما كانوا، يعلم ما هم عاملون، كما جمع بين ذلك في قول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤)﴾ (الحديد)، وليس معنى قوله ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ أنه مختلط بالخلق؛ فإن هذا لا توجبه اللغة، وهو خلاف ما أجمع عليه سلف الأمة، وخلاف ما فطر الله عليه الخلق، بل القمر آية من آيات الله من أصغر مخلوقاته، وهو موضوع في السماء، وهو مع المسافر وغير المسافر أينما كان، والله سبحانه فوق العرش، رقيب على خلقه، مهيمن عليهم، مطلع عليهم، إلى غير ذلك من معاني ربوبيته.

وكل هذا الكلام الذي ذُكر عن الله تعالى من أنه فوق العرش وأنه معنا حقٌّ على حقيقته لا يحتاج إلى تحريف، ولكن يُصان عن الظنون الكاذبة، مثل أن يُظن أن ظاهر قوله: "في السماء" أن السماء تُقِلُّه أو تُظِلُّه، وهذا باطل بإجماع أهل العلم؛ فإن الله قد وَسِعَ كرسيه السماوات والأرض، وهو الذي يمسك السماوات والأرض أن تزولا، ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره[1].

وجاءت امرأة من "ترمذ" كانت تجالس جَهْمًا فدخلت الكوفة، فقيل لها: إن ههنا رجلًا قد نظر في المعقول، يقال له أبو حنيفة فأتيه، فأتته فقالت: أنت الذي تعلم الناس المسائل وقد تركت دينك، أين إلهك الذي تعبده؟ فسكت عنها سبعة أيام لا يجيبها، ثم خرج وقد وضع كتابا سمَّاه: "إن الله ﷻ في السماء دون الأرض". فقال له رجل: أرأيت قول الله ﷻ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾؟ قال: هو كما تكتب إلى رجل: إني معك، وأنت غائب عنه.

---

١. انظر: معارج القبول بشرح سلم الوصول، حافظ بن أحمد حَكَمي، مرجع سابق، ج٢، ص ١٣٠: ١٥٠.

وسئل الإمام أحمد: الله فوق السماء السابعة على عرشه بائن من خلقه، وقدره وعلمه بكل مكان؟ قال: نعم، هو على عرشه، ولا يخلو شيء من عِلْمه، وقيل له: ما معنى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾؟ قال: علمه محيط بالكل، وربنا على العرش بلا حد ولا صفة.

وقال أبو عمرو الطلمنكي: أجمع المسلمون من أهل السنة على أن معنى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ ونحو ذلك من القرآن أنه عِلْمه، وأن الله ﷻ فوق السماوات بذاته، مستوٍ على عرشه، كما نطق به كتابه، وعلماء الأمة وأعيان الأئمة من السلف لم يختلفوا أن الله على عرشه فوق سماواته. وقال أبو نصر السِّجْزِيُّ: "أئمتنا متفقون على أن الله ﷻ بذاته فوق العرش وعلمه بكل مكان".

الخلاصة:

- الله واحد أحد، في السماء مستوٍ على عرشه، وليس معنى كونه في السماء أن جُرُم السماء تحويه ؛ بل المراد بالسماء: العلو والفوقية، وليس معنى استوى على عرشه: استولى على عرشه، بل استواؤه سبحانه وتعالى معلوم بلا كيفية ولا تشبيه، ولا تعطيل ولا تمثيل، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١)﴾ (الشورى).

- علو الله تعالى لا ينافي قربه، فقد طال علمه وقدرته كل شيء، فهو معنا بقدرته وعلمه وجلاله وإرادته؛ وعليه، فعبارة "الله في كل مكان" خاطئة، إذا أراد بها قائلها أن الله كائن في كل مكان بذاته.

الشبهة الثانية والعشرون

إنكار وجود الله تعالى(*)

مضمون الشبهة:

تنكر طائفة من الملحدين[١] والماديين[٢] وغيرهم أن يكون لهذا الكون إله خالق مدبِّر ميسِّر، ويزعمون أنه وُجد صدفة، وأن الطبيعة بقوانينها هي التي تسير في حركة ذاتية يحكمها قانون التطور والارتقاء؛ فالعناصر والكائنات تتطور وترتقي من حالٍ إلى حال، ومن كونٍ إلى كون، فالقرد يتطور إنسانًا، والإنسان ينتهي إلى تراب، ولا يوجد إله يخلقه، أو يحييه، أو يميته.

وجوه إبطال الشبهة:

١) التدبر في نظام الكون وتناسقه يفضي بالضرورة إلى الإقرار بالألوهية والوحدانية جميعًا.

٢) إنكار وجود الله دعوى إلحادية لا دليل عليها، بل الأمر على عكس ذلك، فالأدلة قائمة على وجود الله تعالى في الكون والآفاق والأنفس، وحدوث الكون مصادفةً مستحيل من الناحية العلمية والعقلية، وقد نفى العلم الحديث نظرية التطور.

٣) الفطرة السوية تتجه إلى فاطرها وتؤمن بوجوده، وليس الإلحاد إلا انحرافًا عن الفطرة السليمة.

(*) نقد الثقافة الإلحادية، د. أحمد عبد الرحمن إبراهيم، مرجع سابق.

١. المُلحِدُون: جمع مُلْحِد، وهو الذي ينكر الألوهية ويرفض أدلتها.

٢. الماديُّون: جمع مادي، وهو الذي يرجع كل شيء إلى المادة؛ أي: صاحب نظرة مادية للأمور.

٤) الآثار المروِّعة للثقافة الإلحادية تؤكد زيغ أصحابها عن صراط الله المستقيم.

٥) رجوع كثير من الملحدين واعترافهم بوجود الله بعد طول تدبُّر وإنعام نظر، وإعمال عقل في رحاب الله وخلقه.

التفصيل:

أولا. نظام الكون وتناسقه شاهد على ألوهية الله ﷻ ووحدانيته:

كل هذه أسئلة حارت فيها العقول، وعجزت عن إجابتها الأفهام؛ لأنها اعتمدت على أفكار إلحادية مسبقة تنكر وجود الخالق ﷻ، تلك القيود التي كبلت العقول عن أن تنطلق في رحاب الخلق لتستدل به على الخالق، وطمست على الأفهام، فلم تتفتح لتدرك مظاهر القدرة ودلائل الإعجاز في بديع صنع الله في الآفاق وفي الأنفس، ولكن كما يخاطب القرآن الوجدان البشري ليوقظه إلى حقيقة الألوهية، فإنه كذلك يخاطب العقل البشري ليفكر ويتدبر، وينظر في آيات الله في الكون ليعرف دلالتها، وإليك نماذج من الأسئلة التي ترد على العقل ليتفكر ويتدبر.

- هل يمكن أن يوجد هذا الكون الهائل بغير خالق؟
- هل يمكن أن يدبر شئون هذا الكون الضخم إلا إله قادر عليم حكيم؟
- هل يمكن أن يكون لهذا الإله شريك في الملك، أو شريك في التدبير؟
- هل آيات القدرة المبثوثة[1] في تضاعيف الكون[2] تشير بأن هذا الإله يمكن أن يعجز عن أمر من أمور الخلق، أو التدبير، أو الرزق، أو الإحياء، أو الإماتة، أو البعث، أو الجزاء؟

وتلك كلها أمور سبق للقرآن أن خاطب فيها وجدان الإنسان وعقله؛ فكما عرض هذه الأمور كلها على الوجدان عرضًا مؤثرًا ينتهي باقتناع الوجدان وإدراكه لحقيقة الألوهية، فكذلك يعرضها على العقل؛ يناقشه ويوقظه للتفكير المنطقي السليم، الذي يؤدي في النهاية إلي الغاية ذاتها، وهي إدراك حقيقة الألوهية، ومن ثم وجوب الإيمان بالله الواحد دون شريك.

والآيات التي تخاطب العقل وتدعو إلى التأمل والتدبر كثيرة في القرآن نجتزئ بذكر نماذج منها؛ كقوله تعالى: ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١) ﴾ (الذاريات).

ولو تأمل الإنسان بعقله الآيات المبثوثة في الأرض، والآيات المبثوثة في النفس لأصابه العجب والذهول لكل آية من هذه الآيات المعجزة، التي ينم كل منها على وجود الخالق سبحانه، وعلى قدرته المعجزة التي لا تقف عند حدٍّ.

فالأرض جِرْمٌ صغير بالنسبة للأجرام السماوية الضخمة التي يزخر بها هذا الكون، لا تعدو أن تكون كحبَّة الرمل بالنسبة للصحراء الواسعة التي لا يأتي البصر على آخرها. ومع ذلك ففيها ـ على ضآلتها ـ من آيات الله المعجزة ما يعجز الخيال عن تتبعه فضلًا عن إحصائه، وفيها من الخصائص التي أودعها الله بها ما يذهل العقول.

١. المبثوثة: المنتشرة.

٢. تضاعيف الكون: نواحيه وأرجاؤه.

فقد هيأها الله ـ وحدها فيما نعلم حتى اليوم من الأجرام الأخرى ـ بخاصية الحياة، وجعل لها من الظروف ما يجعل الحياة عليها ممكنة الوجود والاستمرار، فكتلتها محسوبة بحساب رباني دقيق يجعل جاذبيتها تحتفظ حولها بغلاف جوي لا يتبدد، وفي هذا الغلاف يوجد الأكسجين[1] المطلوب لتنفس الكائنات الحية، وبالقدر المطلوب لتنفس هذه الكائنات بلا زيادة فيه ولا نقصان؛ لأن الزيادة والنقصان هما معًا مما يضر هذه الأحياء! وحرارتها محسوبة بذلك الحساب الرباني الدقيق، بالصورة التي تحتملها الكائنات الحية فلا تموت من شدتها ولا من ضعفها!، والأقوات فيها محسوبة بحيث تفي بحاجة تلك الكائنات من الغذاء مع توازن دقيق بين كل هذه الكائنات وبين أقواتها: ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ ﴾ (الحجر)، ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا ﴾ (فصلت: ١٠).

وعلى ذكر التوازن في الأرض بين الكائنات الحية والتوازن في الأقوات، فقد ذكرت الأنباء أن الشيوعيين في الصين سولت لهم أنفسهم الشريرة أن يقتلوا جميع العصافير الموجودة في الصين بحجة أنها تأكل عشرة في المائة من مجموع الغلال التي يزرعونها! فجندوا في كل القرى والمدن فرقًا تتناوب الضرب على الدفوف وقطع الصفيح ليل نهار لمدة ثلاثة أيام، فكلما أرادت العصافير أن تأوى إلى عشوشها؛ لتنام أو تستريح أزعجها الصوت فعادت إلى الطيران، حتى هلكت جميع العصافير من الجوع والعطش، والتعب وعدم النوم، وفرح الشريرون بأنهم قضوا على تلك المخلوقات الصغيرة اللطيفة، واطمأنوا إلى أن المحصول سيصل إليهم كاملًا غير منقوص! ولكن الله كان لهم بالمرصاد! فإن الحشرات الضارة التي كانت تلك العصافير تأكلها فتمنع أذاها عن الزرع بحكمة الله وتدبيره، انتشرت في الأرض بعد موت العصافير فأكلت خمسين في المائة من المحصول! وهكذا حين أراد هؤلاء أن يغيروا التوازن الذي أوجده الله في الأرض بحكمته أصابهم الجزاء الرادع من عند الله، وكانت هذه آية لهم لو كانوا يعتبرون!

وهكذا لو مضينا نتتبع آيات الله في الأرض لوجدنا عجائب لا تنتهي: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ وَجَنَّـٰتٌ مِّنْ أَعْنَـٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ (الرعد).

فالأرض فيها قطع متجاورات تختلف بِنْية كل منها عن الأخرى رغم تجاورها، بعضها ينبت الزرع وبعضها لا ينبته، وبعضها يصلح لأنواع معينة من الزرع دون غيرها، وتلك وحدها عجيبة.

ثم إن الأرض الواحدة تنبت أنواعًا شتى من الزروع والنخيل والأعناب كلها يسقى بماء واحد، ولكن بعضها يختلف عن بعض، حتى النوع الواحد، كالنخيل تخرج منه النخلة المفردة والنخلة المزدوجة، وتلك عجيبة أخرى.

ثم إن هذه الزروع مختلفة الطعوم والمذاقات، يفضل

---

١. الأكسجين: عنصر غازي من عناصر الهواء، عديم اللون والطعم والرائحة، يكوِّن خُمْس الهواء الجوي، يعدُّ أساس التأكسد والاحتراق وضروريًّا لتنفُّس الإنسان والحيوان.

الناس في طعامهم بعضًا منها على بعض، وتلك عجيبة ثالثة.

ثم إن الطعم الواحد قد يفضله إنسان ولا يفضله إنسان آخر حسب ذوقه الخاص المركب في طبعه، وتلك عجيبة رابعة، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ (الرعد).

أما الآيات في الأنفس فإنها أعجب! فالخلية[1] الواحدة الملقحة التي يتكون منها الجنين تشتمل على كل خصائص الجنس البشري، وهي لا تكاد ترى! فينمو منها إنسان كامل فيه كل خصائص الإنسان!

ثم إنها تنقسم وتتخصص في أثناء نمو الجنين، فيصبح جزء منها رأسًا، وجزء آخر يدًا، وجزء ثالث قدمًا، وهكذا. ثم إنها تحتوي كذلك على جزئيات تحمل الخصائص الوراثية التي يرثها الجنين من الأب والأم أو الأجداد، فقد يحمل الجنين صفة من الأب، كلون الشعر مثلًا، وصفة من الأم كلون العينين وصفة من أحد الجدود، كالطول أو القصر، أو شكل الأنف، أو شكل الأذن. بل الأعجب من ذلك وراثة الصفات النفسية والعقلية، كالكرم أو البخل، والشجاعة، أو الجبن، والذكاء أو الغباء، والميل إلى العلوم أوالميل إلى الآداب!

وهذه الصفات العقلية ذاتها: ما هي؟ كيف توجد؟ وأين توجد؟ كيف يفكر العقل؟ كيف يتذكر الإنسان ما يتذكر؟

إن كل أبحاث العلم حتى هذه اللحظة قد عجزت عن أن تقول لنا كيف يفكر العقل، وكيف يتذكر! وأين تكون الأفكار، وأين تختزن المعلومات، وكيف يستدعيها الإنسان حين يريد استدعاءها، وكيف تخطر على باله أحيانًا بغير استدعاء!

والصفات النفسية كذلك، ما هي؟ كيف توجد وأين توجد؟ كيف تتكون في النفس صفة الكرم، أو البخل، أو الشجاعة، أو الجبن؟ وفي أي مكان تكمن هذه الصفة في الإنسان؟ في جسمه؟ أين؟ في مخه؟ أين؟ هل هي شيء معنوي أو مادي؟ وفي كلا الحالين كيف تؤثر في تصرفات الإنسان وسلوكه؟

وأعجب من ذلك: كيف تورث؟!

ولو مضينا نتتبع خصائص الإنسان، وآيات الله في الأنفس، لما انتهينا من العجب لكل خصيصة وكل آية، ولأدركنا أن هذا كله لا يمكن أن يحدث من تلقاء نفسه بهذه الدقة المذهلة، لا بد له من مُوجِد، ولا بد أن يكون هذا الموجد حكيمًا وقادرًا إلى حدِّ الإعجاز، وإلا ما استطاع أن ينشئ هذا الخلق الدقيق المعجز، الذي تحتوي كل جزئية منه على عجائب لا يحصرها العقل.

ومن أجل ذلك يقول الله ﷻ: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ (الذاريات)، ﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾﴾ (الأنبياء).

في هذه الآيات يخاطب القرآن العقل لكي يتدبر

---

١. الخلية: وحدة بناء الأحياء من نبات أو حيوان، صغيرة الحجم لا تُرى بالعين المجرَّدة، وتتألف المادة الحية للخلية ـ وهي البروتوبلازم ـ من النواة والسيتوبلازم وغشاء بلازمي يحيط بها، ويحيط بالخلية النباتية كذلك جدار خلوي يتكون من السليلوز.

الأمر ويستخلص نتيجة منطقية لما يرى حوله من الآيات، ويطالبه أن يأتي بالبرهان على ما يدعيه مخالفًا للحق الظاهر.

فالحق الظاهر أن هذا الكون متناسق إلى أبعد ما يتصور العقل من التناسق والتنظيم: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ ۖ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (٤)﴾ (الملك).

فدورة الفلك المضبوطة التي لا تختل قيد شعرة في هذا الكون العريض كله، ودورة الليل والنهار الناشئة من حركة الأفلاك، والتي تأتي في موعدها المضبوط بالدقيقة والثانية وأجزاء الثانية على مدار الفصول، وعلى مدار القرون والأجيال.

وخواص المادة التي أودعها الله فيها ـ لا تخطئ مرة واحدة على مرِّ الزمن، ولا تختلف مرة عن مرة، فالحديد هو الحديد، والنحاس هو النحاس، والأكسجين هو الأكسجين، لا يتغير تركيبها ولا خواصها، ولا يتغير سلوكها إزاء الحرارة والبرودة، أو إزاء الضغط أو في تفاعلاتها الكيماوية مع غيرها من العناصر. لا يحدث مرة واحدة أن يتكون الماء إلا من ذرة الأكسجين وذرتين من الأيدروجين[1]، ولا يحدث مرة أن يسخن الحديد فلا يتمدد، ولا يحدث مرة أن يُطْرق النحاس فلا ينطرق.

والذرة التي هي أبسط التكوينات التي أمكن للعلم حتى اليوم أن يكشف عنها في نظامها الدقيق العجيب المكون من نواة[2] ـ هي البروتون[3] ـ وأجسام صغيرة غاية في الدقة ـ هي الإلكترونات ـ تدور حولها في نظام دقيق، متجاذبة معها ومتعادلة في الشحنة الكهربائية في وضع يشبه الشمس ومن حولها الكواكب.

والخلية الحية وسلوكها العجيب في غذائها وإفرازها ونموها وتكاثرها، والكائنات الحية وخصائصها التي تميز كل جنس منها عن الآخر، وتميز كل نوع من أنواع الجنس عن الآخر، فللنبات عامة خصائصه، ولكل نوع من النبات خصائصه، وللحيوان خصائصه، ثم لكل نوع من أنواعه خصائصه.

ثم إن الإنسان أعقد الكائنات الحية وأرفعها، وكل جزء في تكوينه عجيبة في تناسقه وأداء وظيفته، هل يمكن مع ذلك كله إلا أن يكون في السماوات والأرض إله واحد مسيطر مدبر حكيم خبير هو الله ﷻ؟ ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (الأنبياء: ٢٢).

أليس كل إله يخلق بمفرده كيف يشاء؟ فكيف يتطابق الخلق الصادر عن واحد من الآلهة مع الخلق الصادر عن إله غيره؟ كيف تكون الشجرة التي يخلقها واحد من الآلهة متطابقة تمامًا في كل أحوالها مع الشجرة التي يخلقها إله آخر؟ كيف يكون الماء الذي يخلقه أحد الآلهة هو الماء نفسه الذي يخلقه الإله الآخر من ذرة من الأكسجين وذرتين من الأيدروجين؟

كيف تنتظم دورة الفلك التي ينشئها إلهان مختلفان، ويشرف على شئونها أكثر من إله؟ هل يمكن أن تنتظم

١. الأيدروجين أو الهيدروجين: غاز عديم اللون والطعم والرائحة، وهو أخفُّ العناصر، يتحد مع الأكسجين بنسبة خاصة فيكوِّن الماء.

٢. النواة: جزء الذرة الجوهري الذي تدور حوله الإلكترونات، ويتألَّف من بروتونات ونيوترونات، والجمع نَوَيات ونَوًى.

٣. البروتون: أحد الجسيمات الأساسية التي تدخل في تركيب النواة، وشحنته موجبة.

إذا تعددت الإرادة التي تهيمن عليها والسلطان الذي يُسيِّرها؟

ألا يحدث أن واحدًا من الآلهة يريد الشمس أن تشرق من المشرق وآخر يريدها أن تشرق من المغرب! وكيف يصير الأمر؟

ألا يحدث أن واحدًا من الآلهة يريد للإنسان أن يستوي على قدميه ويسعى في الأرض يبتغي الرزق ويعمر الأرض، وآخر يريد له أن يمشي على أربع كالحيوان، أو يبقى لاصقًا بالطين على ساق واحدة كالنبات؟ فكيف يصير الأمر؟

ألا يحدث أن واحدًا من الآلهة يريد للحديد أن يكون صلبًا تصنع منه الأدوات الصلبة التي تعين الإنسان على عمارة الأرض وتعينه على صنع السلاح الذي يقاتل به لإعلاء كلمة الله، بينما إله أخر يريد أن يكون الحديد طريًّا لينًا عديم الشكل؟ فكيف يصير الأمر؟

هل ينضبط شيء حينئذٍ في الكون كله؟ وهل يستقيم الأمر؟ أم يصبح الكون فوضى، تتصادم فيه الأفلاك وتتعارض، وتتصادم فيه الإرادات المشرفة عليه وتتعارض، ويصبح كالعقد المنفرط لا يجمعه نظام؟ من أجل ذلك يخاطب القرآن العقل فيقول له: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ (الزخرف)، ثم يخاطبه مرة أخرى متحديًا بعد هذا البيان: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ﴾ (الأنبياء: ٢٤).

نعم! فليبحث العقل عن برهان! إن الأمر ليس فوضى، يقول فيه القائل بهواه! بل لا بد لكل قول من برهان، فهاتوا برهانكم! هل تستطيعون أن تبرهنوا - والكون بهذا الاتساق المعجز - أن هناك إرادة أخرى تسيطر على الكون غير إرادة الله؟

فإن عجز العقل عن البرهان - وهو لا محالة عاجز - فليتدبر أمره، وليؤمن بالله الواحد الذي لا شريك له في الملك ولا في السلطان: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ (المؤمنون).

في مثل هذه المناقشة العقلية التي ذكرناها في الفقرة السابقة، يُجري السياق هنا مناقشة مع العقل البشري، يقدم لها بمجموعة من الآيات يلفت فيها العقل إلى بعض الحقائق المُسلَّم بها، التي لا يجادل فيها أحد ولا ينبغي أن يجادل فيها: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ (المؤمنون).

فإذا سلَّم الإنسان ابتداء بأن الأرض ومن فيها من صنع الله وإنشائه وهو مالكها، وإذا سلم بأن السماوات السبع هي لله، هو منشئُها وهو ربها ورب العرش العظيم، وإذا سلَّم بأن ملكوت كل شيء لله، وهو المدبر فيه وحده، وهو الذي يجير بقوته ولا يجار عليه؛ لأنه صاحب العظمة والسلطان.. بدهيات لا يملك عقل أن

ينكرها وإلا جابَهَ هذا السؤال الوارد في سورة الطور: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) ﴾ (الطور)، وهو سؤال مسكت ملجم يتحدى كل منكر.

إذا سلَّم الإنسان بكل هذا فقد لزمه - منطقيًّا - أن يسلِّمَ بالنتيجة التي تؤدي إليها هذه المقدمات، وهي أنه إله واحد لا شريك له، ولا يمكن أن يكون له شريك؛ لذلك يكرر السياق التذكير بعد كل مقدمة من المقدمات: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾، ﴿فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾، ولكن السياق هنا لا يكتفي بالتذكير المصحوب بالتقريع[1]، بل يمضي مع العقل البشري خطوة أخرى في المناقشة فيعرض أمامه هذه الحقيقة ليتدبرها:

لنفرض جدلًا أنه كان مع الله آلهة أخرى فكيف يكون الموقف؟ ﴿إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ (المؤمنون: ٩١).

في الفقرة السابقة في آية سورة "الأنبياء" كان يعرض أمر الفساد الذي كان لا بدَّ أن يحدث في السماوات والأرض لو كان فيهما آلهة إلا الله ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ (الأنبياء: ٢٢). وما دام هذا الفساد غير حادث، والكون منضبط في حركته كما نرى، فقد انتفى - إذًا - وجود آلهة غير الله.

وفي هذه الآية من سورة "المؤمنون" يعرض الأمر من الوجهة الأخرى، وجهة الآلهة ذاتهم - لو أنهم أكثر من إله واحد - وما كان لا بد أن يحدث بينهم من صراع ونزاع: ﴿إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ (المؤمنون: ٩١).

فإذا كان كل إله خلق جزءًا من الخلق فهل يُعقل أن يتنازل عن خلقه لإله آخر؟ أم المعقول والبدهي أن يتشبث بخلقه ويستحوذ عليهم، ويحاول أن تكون له السيطرة عليهم وحده؟ وعندئذٍ ماذا يحدث؟! يحدث نزاع بين الآلهة المزعومة على السيطرة! هذا يريد أن يسيطر وهذا يريد أن يسيطر! كل منهم يريد أن تكون له وحده الكلمة النافذة في الكون، ويكون أمره هو المطاع! هذا يصدر أمرًا ويطلب تنفيذه، وذاك يصدر أمرًا مضادًا ويطلب تنفيذه، وكلٌّ يتشبث بكلمته زاعمًا أنه هو الأعلى وهو الأحق بأن تُسمع كلمته وتُطاع!

فهل هذه الآلهة - المتوهَّمة - تستحق الاحترام وهي هكذا تتعامل مع بعضها البعض؟! وهل يستقر حال الكون وهي - في صراعها على السلطة - تصدر الأوامر المتباينة للكون، فيحار الكون لأي أمر يذعن ولأي أمر يطيع؟! كلا! ما كان حال الكون ليستقر لو أنها آلهة متعددة تتصارع فيما بينها وتتنازع، وما كان الكون ليبدو متناسق الحركة، متناسق الصنعة، متناسق التدبير.

والعقل البشري مكلف أن يفكر ويتدبر.. فما دام الإنسان قد سلم - أو ينبغي أن يسلم - بأن الأرض لله، والسماوات السبع لله، والملكوت لله، والتدبير لله.. فماذا بقي - إذن - من عمل تقوم به تلك الآلهة الأخرى، المزعومة؟

وما دام الكون في سيره - دائمًا - لا يبدو عليه الخلل والعشوائية والاضطراب، بل يظهر فيه الاتساق الكامل والانضباط، أفلا يدل ذلك على وحدة السيطرة التي تدبر شئونه وترعاه؟! قال تعالى: ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ

١. التقريع: التعنيف والتوبيخ.

عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾ (النمل).

هنا في الحقيقة خطاب للوجدان والعقل في آن واحد، وقد أسلفنا القول بأن القرآن كثيرًا ما يقرن خطاب الوجدان مع خطاب العقل في سياق واحد، ولكنا هنا سنركز تركيزًا أكبر على أدلة العقل وبراهينه، وفيما مضى من الحديث عن الوجدان في الفصل السابق ما فيه الكفاية.

يبدأ السياق بسؤال في الآية الأولى بعد حمد الله والسلام على عباده الذين اصطفاهم بالنبوة والرسالة، وهذا السؤال يواجه الإنسان بعامة، وعقله بصفة خاصة: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

والإجابة عن السؤال تقتضي الموازنة - إن كان هناك مجال للموازنة - بيّن الله ﷻ، وبين الآلهة المزعومة التي يعبدها بعض الناس مع الله، أو من دون الله، ليتبين أيهما خير: آلله أم تلك الآلهة المدعاة؟

والسياق القرآني يبادر العقل بما يعينه على معرفة الإجابة الصحيحة، إن كان يجهلها لسبب من الأسباب، - فيقدم له أول المعينات في صورة سؤال آخر لو اهتدى لإجابته - وهي بَدَهية في الحقيقة - لاهتدى في الوقت ذاته لإجابة السؤال الأول الذي تصدَّر السياق، وهو قوله تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

تسأل الآية الثانية في السياق: من الذي خلق السماوات والأرض؟ ومن الذي أنزل عليكم من السماء ماء فأنبت به حدائق بهيجة المنظر، ما كان لكم أن تنبتوا شجرها، لولا ما أنزل الله لكم من السماء من ماء، ولولا ما أودع فيها - هي ذاتها - من خاصية النمو حين ينزل عليها الماء؟

وقبل أن يجيب الإنسان الذي يُوجَّه إليه ذلك السؤال، يبادره السياق بسؤال ثالث يحمل في طياته إجابة السؤال السابق: يقول: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾؟.

وهكذا يحاصره السياق حصارًا كاملًا بحيث لا يجد مفرًّا من الإجابة الوحيدة التي يستقيم بها الأمر كله! ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾؟ كلا! وإذًا فالسؤال السابق ليست له إلا إجابة واحدة كذلك: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾ (النمل: ٦٠)؟ هو الله تعالى!

ولقد كان يكفي العقل والوجدان معًا هذه الجولة لتقرَّ النفس بألوهية الله الواحد بلا شريك، ولكن الله العليم الخبير يعلم من أحوال النفس البشرية أنها تحتاج إلى التذكرة مرَّات ومرَّات؛ ومن ثم يبدأ السياق على النسق ذاته جولة ثانية، وثالثة، ورابعة، وخامسة. ﴿أَمَّن

جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١) ﴾ (النمل).

فإذا كانت **الجولة الأولى** مع خلق السماوات والأرض، ومع الماء النازل من السماء إلى الأرض، ومع الحدائق النابتة من نزول الماء، فهذه الجولة كلها في الأرض، تذكر جَعْلَ الأرض مستقرًّا للإنسان يجد فيها رزقه ومعاشه ومتاعه المقدَّر له إلى حين، وتذكر جَعْلَ الأنهار خلال هذه الأرض، وجَعْلَ الرواسي لها لتكون سببًا في استقرارها، وجَعْلَ الماء العذب الذي أعده الله لشرب الكائنات الحية محجوزًا عن الماء المالح الذي تَعُجُّ به البحار والمحيطات. وكلها من آيات رحمة الله بالإنسان، كما أنها من آيات قدرته، فمن غير هذا الإله القادر يستطيع أن "يجعل" كل هذه الأشياء على صورتها التي هي عليها؟ وعندئذ يجيء التعقيب في مكانه: أإله مع الله؟ وإجابته قد تقررت منذ الجولة السابقة، ولكنه المزيد من التوكيد.

أما الجولة الثانية ففي محيط البشر، تذكرهم بما يقع لهم، ولكنهم ينسونه في غفلتهم: أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف ما به من سوء؟ ومن يجعلكم خلفاء الأرض جيلًا بعد جيل، ترثون الأرض بعد آبائكم وتتمكنون فيها وتسخرونها لمعايشكم؟ أيتمُّ ذلك من تلقاء نفسه؟ وكيف يتم إذا لم يخلقكم الله أصلًا من أصلاب آبائكم؟ وكيف يتم إذا لم يُبقِ الله الأرض لترثوها منهم؟! ثم يجيء التعقيب المكرر، ليزيد الأمر توكيدًا في النفس: أإله مع الله؟، والإجابة هي الإجابة بالنفي بكل تأكيد.

والجولة الثالثة مع البشر كذلك، ولكنها تذكر نعمًا أخرى من نعم الله على الإنسان، من يهديكم في ظلمات البر والبحر؟ فإذا كان ضوء الشمس يهديكم بالنهار ولكنكم تنسون النعمة وتغفلون عنها، فإنكم أولى أن تتذكروا الهداية في الليل والظلمة محيطة في البر وفي البحر، فهنا تتلمسون الهداية فلا تجدونها إلا بعون الله لكم، سواء بالنجوم تحدد لكم اتجاهكم، أو بالقمر يرسل نوره فيكشف جانبًا من الظلمة، أو فيما هداكم الله إلى عمله من المشاعل والمصابيح التي تنير الظلام. ثم نعمة أخرى يُذكِّر الله بها الإنسان: ومن يرسل الرياح تبشر برحمة الله المتمثلة في السحاب والمطر﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ﴾؟ كلَّا! ﴿ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (النمل: ٦٣).

وتجيء الجولة الأخيرة كالأولى، تشمل السماوات والأرض، وتربط ما بين السماوات والأرض، وتزيد عليها ذكر البعث: من الذي يبدأ الخلق ثم يعيده؟ أهناك غير الله من تبلغ قدرته أن يخلق مِنْ لا شيء؟ ومن يعيد الخلق حين يشاء؟ ومن يرسل لكم الرزق من السماء والأرض؟ ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾!

وحين يصل هذا السياق إلى غايته يكون الوجدان والعقل قد وصلا كذلك إلى غايتهما من التمثل لهذه الحقيقة الكبرى: حقيقة وحدانية الله ﷻ بلا شريك فإذا جاء ـ بعد ذلك ـ التحدي الأخير: ﴿ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾، فليس له جواب إلا الاقتناع الكامل والتسليم: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ

﴿... ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ (يونس).

السياق هنا قريب من السياق السابق في آيات سورة "النمل" ولكنه يختلف عنه في أمرين:

الأول: أنه في السياق السابق كان يذكر آيات الله في السماوات والأرض والناس ثم يسألك: أإله مع الله؟ وتكون الإجابة الضمنية الطبيعية هي: لا! ليس مع الله إله. ليس لله شريك في الخلق، ولا في الملك ولا في التدبير.

أما هنا فالسياق يشير إلى الشركاء بالذات، ويركز عليهم، يركز عليهم لينفي وجودهم، ولكنه لا ينفيه نفيًا مباشرًا، إنما من خلال سؤال مكرر: هل من شركائكم - المزعومين بطبيعة الحال - من يفعل كذا أو كذا مما يفعله الله؟ فإذا كان الجواب بالنفي - ولا بد أن يكون بداهة كذلك - فماذا يفعل الشركاء إذن؟ وإن لم يكن لهم عمل فما معنى وجودهم؟ إنهم إذن لا وجود لهم ما داموا لا يعملون شيئًا على الإطلاق!

والثاني: أنه ينبه العقل الغافل إلى طريق التفكير الصحيح. إنه لا يجوز للعقل - الذي خلقه الله للتفكر والتدبر - أن يأخذ الأمور بالظن، دون تمحيص وبرهنة وإثبات، والظن لا يغني شيئًا من الحق، فعلى الذين يأخذون القضية بالظن أن يتخلوا عن هذا الطريق الخاطئ ويتبعوا الطريق الصحيح، طريق الدليل الصحيح والبرهان.

تبدأ الآية الأولى بسؤال حاسم: من يرزقكم من السماء والأرض؟ من يملك السمع والأبصار؟ من يخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي؟ من يدبر الأمر؟ وهي لمحات سريعة في مجالات شتى في آن واحد، تحاصر العقل وتحصره في إجابة واحدة: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ (يونس: ٣١) وإذا كان الأمر كذلك "أفلا تتقون" وقد عرفتم الإجابة الصحيحة على السؤال!

﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ (يونس)؟ الله الذي عرفتموه، وعرفتم أنه هو الذي يرزقكم من السماء والأرض، ويملك سمعكم وأبصاركم ويخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، ويدبر الأمر.. هو ربكم الحق، لا ربوبية لغيره، فكيف تتجهون إلى غيره؟ كيف تحيدون عن الحق الواضح فتضلون؟ فإن من تجاوز الحق فليس أمامه سوى الضلال: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾﴾ (غافر)؛ لأنهم يصرون على مجاوزة الحق فيقعون في الضلال.

ثم تجيء المناقشة التي أشرنا إليها: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ (يونس: ٣٤): فإذا كان الجواب بالنفي - كما لا بد أن يكون: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾، فإذا

اتضح هذا الأمر: أن الله يبدأ الخلق ثم يعيده، بينما الشركاء المزعومون لا يبدءون خلقًا ولا يعيدون: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أنَّى تصرفون عن الحق وتتبعون الزور والإفك؟

ثم مناقشة أخرى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ (يونس: ٣٥)، والجواب - كالمرة السابقة - بالنفي. فلم يُؤْثر عن أحد من أولئك الشركاء المزعومين أنه أنزل لهداية البشر كتابًا ولا أرسل رسولًا! فإذا كان الأمر كذلك: ﴿قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾، فيرسل الرسل وينزل الكتب ويدعو الناس إلى ما فيه صلاح الدنيا وصلاح الآخرة، ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢٥)﴾ (يونس).

ثم يمد السياق المناقشة خطوة أخرى: إذا كان الله يهدي للحق، والشركاء المزعومون لا يهدون إلى الحق، فمن أحق أن يتبع ويطاع: ﴿أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّي﴾، آلله أحق أن يتبع أم أولئك الذين لا يهتدون من ذات أنفسهم ويحتاجون هم أنفسهم إلى من يهديهم؟ والإشارة هنا إلى الأصنام التي كان العرب يعبدونها في الجاهلية، ولكنها في الحقيقة تنطبق على كل من يتوجه إليه الناس في كل عصر، ممن لا يملكون لأنفسهم الهدى، ويتصدون لهداية الناس! فإلى أي شيء يهدونهم إلا إلى الضلال؟ ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾؟

أين عقولكم التي تفكرون بها؟ وكيف أدت بكم هذه العقول إلى هذا الحكم الفاسد الذي تحكمون به في القضية، فتقولون - بألسنتكم أو بأفعالكم -: إن هؤلاء الشركاء أولى بالاتباع من الله، وهم لا يملكون الهدى لأنفسهم فضلًا عن هداية الناس؟

السبب هو أنهم لا يحكِّمون عقولهم في الحقيقة، ولو حكَّموها لَحَكَمَتْ بالصواب، فالأدلة قائمة، والبراهين موجودة، ولكنهم يتبعون الظن فيضلون عن الصواب: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾، والله ﷻ أعلم بهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾، ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥)﴾ (الطور).

هذه الآية تحمل أكبر تَحَدٍّ للعقل البشري الضال خلال التاريخ.. وكأنها نزلت للضالين اليوم الذين ينكرون وجود الله ويلجُّون في الغي والإلحاد.

إن الذين يلجون في الغواية إلى هذا الحدِّ لا ينكرون وجود الله في الحقيقة، فلا يمكن للفطرة - مهما ضلت - أن تنكر وجود الله الخلاق، ولكنهم - لسبب من الأسباب - يكابرون ويتظاهرون بالإنكار.

وحتى أولئك الذين يعيشون في ظل الإلحاد، في الدول الشيوعية، ويُدرَّسُ لهم الإلحاد في المدارس، ويتربون عليه، ويتلقَّونه في كل حصة من حصص الدراسة - حتى هؤلاء لا تقرُّ نفوسهم بإنكار وجود الله إلا مجاراة للأوضاع، وخوفًا من سطوة الدولة هناك، وإليك مثالًا يثبت لك هذه الحقيقة.

حين صعد جاجارين رائد الفضاء الروسي الأول إلى الجو، أخذته روعة الكون وذهل لما رآه، لقد رأى الكون على صورة أخرى غير التي نراها ونحن على سطح الأض مغلفين بالغلاف الجوي، لم ير السماء زرقاء كما نراها نحن، إنما رآها سوداء تمامًا، ورأى الكواكب والنجوم في داخلها لامعة شديدة اللمعان، لقد كان المنظر - كما يصفه رواد الفضاء - يشبه قطعة من

المُخْمَل[1] الأسود مرصعة بالجواهر اللامعة.

وفوجئ جاجارين بما رآه.. فوجئ بالتجربة الجديدة، والمشهد الجديد كما ذكرنا آنفًا يوقظ الحس من غفلته، ويوقظ المشاعر من سباتها، ويجلي الكون جديدًا كأنما يواجهه الإنسان لأول مرة، فيدرك من دلائل إعجازه ما كان غافلًا عنه من قبل، ويحس بيد الله المبدعة وآثارها في تضاعيف هذا الكون.

وهذا هو الذي حدث لجاجارين، لقد نسي كل إلحاده الذي ربته المدرسة عليه.. نسي كل الدروس التي لُقِّن فيها أنه لا وجود لله تبارك وتعالى .. وأخذ يحملق في الكون مدهوشًا من صنعة الله تعالى، مبهورًا بما رآه من إعجاز.

وحين هبط إلى الأرض كان أول تصريح أدلى به للصحفيين الذين استقبلوه: "حين صعدت إلى الجو أخذتني روعة الكون فمضيت أبحث عن الله"! وهكذا تنطق الفطرة حين تواجه الحقيقة! وهذا على الرغم من كل الإلحاد الذي لُقِّن لجاجارين"[2].

كلا! إن الفطرة لا يمكن أن تَنْكُل أبدًا عن الشهادة: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ (الأعراف: ١٧٢)، إنما الذي يحدث أن الإنسان الضال يكابر في هذه الحقيقة؛ لأنه لا يريد أن يخضع لله، ولو أقرَّ علانية بوجود الله للزمه أن يطيعه وأن يعبده، وهو - لأمر من الأمور - لا يريد، وبدلًا من أن يبدو مقصرًا وناكلًا[3] - باعترافه - فإنه يتفلسف فيدعي أنه لا يؤمن بوجود الله.

كيف تم من العدم بغير خالق ؟ ثم كيف انتظم بعد أن تم؟ ثم كيف حافظ على نظامه كل تلك الملايين من السنين التي لا يحصيها العقل البشري دون أن يحدث في نظامه خلل أو اضطراب؟!

هل يتم ذلك كله بغير خالق؟! هل يتقبل العقل هذا القول، حتى إن ضل هذا العقل وسار في الظلمات؟

يقولون: إن الطبيعة هي الخالق! كذبوا! وما الطبيعة؟! يقولون: إن الطبيعة تخلق كل شيء ولا حدَّ لقدرتها[4]، سبحان الله! أليس هذا هو الله؟ هو الذي يخلق كل شيء ولا حدَّ لقدرته؟! فلماذا نسمي الله بالطبيعة؟ أي منطق في هذه التسمية العجيبة؟ ألا إنه الهوى، وليس العقل، وليست "الفلسفة"!

الهوى الذي يمنع الإنسان من الاعتراف بالحق مع أنه - في داخله - يعلم أنه الحق! ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ (النمل: ١٤).

ولكن القرآن يتحداهم، يتحداهم منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا، وسيظل يتحداهم حتى يرث الله تعالى الأرض ومن عليها، ﴿أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾، أما أنهم هم الخالقون فأمر لم يزعمه أحد من المضلِّين! بقي السؤال الأول بغير جواب: ﴿أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾، وهو السؤال الملجم المسكت، الذي لا يملك أحد من المكابرين أن يرد عليه بالإيجاب.

---

١. المُخْمل: القطيفة، نسيج له وبَر.

٢. من طريف ما يروى أن الدولة غضبت على جاجارين بسبب هذا التصريح، وأمرته أن يضيف إليه ما ينفيه، فقال: ".. فبحثت عن الله فلم أجده"! ونشرت الصحف تصحيحه الثاني بعد الأول بساعات!!

٣. الناكِل: الضعيف، الجبان.

٤. هكذا يقول دارون، فيقر بالقدرة الإلهية، ولكنه لا ينسبها إلى الله تعالى!

ولم يبق إلا أمر واحد، هو أن يكون هناك خالق، هو الذي خلق الخلق بقدرته، وهو الذي يدبر الأمر وحده بلا شريك... وذلك هو الأمر الذي لا تملك الفطرة أن تنكره وإن ضلت وإن أمعنت في الضلال. إنما ينكره المكابرون باللسان لِكِبْرٍ في نفوسهم عن عبادة الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿٥٦﴾﴾ (غافر).

ونستعيذ بالله كما أمرنا الله، ونؤمن في الوقت ذاته بأن أولئك الجاحدين لا يجحدون الله في الحقيقة إنما هم فقط يتظاهرون، وحتى إن وصلت الغاشية بهم إلى أن تغشى قلوبهم وأرواحهم، وسمعهم وأبصارهم، فهم عرضة لأن يتيقظوا لحقيقة الألوهية كما تيقظ لها جاجارين[1] ®.

ثانيًا. إنكار وجود الخالق دعوى إلحادية لا دليل عليها، بل الأدلة قائمة على وجود الله تعالى[2]:

سبق بيان الأدلة التي عرضها القرآن الكريم على وجود الله تعالى، وإذا كانت الأدلة على وجود الله واضحة في الكون والآفاق والأنفس وفي كل شيء، فإن علماء الكلام دافعوا قديمًا عن العقيدة الإسلامية، وصاغوا أدلة يدافعون بها عن وجود الله تبارك وتعالى في وجه الملحدين.

يقول د. يحيى هاشم: "لقد أرغمت التحديات متكلمي الإسلام على توجيه أنظارهم إلى المباحث التي يدور فيها الاحتكاك بين الإسلام وتلك العقائد، لقد كان لهذا العلم في هذا المجال هدف جليل يتمثل في المحافظة على عقائد المسلمين وكان عليه أن يواجه أعتى أعداء الإسلام وأخطرهم وأقواهم سلاحًا وأشدهم تمكنًا، وأكثرهم تحالفًا وأوسعهم تنوعًا".

وقد صاغ المتكلمون أدلتهم على وجود الله وأشهر ما يستدلون به:

- **دليل الحدوث**: يقول الإمام الأشعري: من قصد إلى بَرِّية لم يجد فيها قصرًا مبنيًّا فانتظر أن يتحول الطين من حالة الآجُرِّ وينتضد بعضه على بعض بغير صانع ولا بانٍ كان جاهلًا، وإذا كان تحول النُّطْفَة[3] عَلَقَة[4] ثم مُضْغَة[5]، ثم لحمًا ودمًا وعظمًا أعظم في الأعجوبة كان أولى أن يدل على صانع النطفة ونقلها من حال إلى حال.

والإمام الباقلاني من المتكلمين يستدل بدليل الحدوث وتغير الموجودات من حال إلى حال، ويعزو هذا الاستدلال إلى الخليل إبراهيم عليه السلام في حجاجه مع قومه؛ ذلك بأنه لما رآها متغيرة من حال إلى حال علم أنها محدثة مفطورة مخلوقة لله تبارك وتعالى، وأن الله تعالى هو الذي خلقها فقال عند ذلك: ﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ

---

1. ركائز الإيمان، محمد قطب، مرجع سابق، ص٤٣: ٥٨.

® في **"طريقة القرآن في عرض العقيدة"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الثالثة عشرة، من هذا الجزء.

2. العقيدة الإسلامية في مواجهة التيارات الإلحادية، فرج الله عبد الباري، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٤م، ص٥٠: ٥٣.

3. النُّطْفَة: خليّة جنسية ذَكَرِيَّة موجودة في المَنِيِّ.

4. العَلَقَة: قطعة من دم غليظ جامد.

5. المُضْغَة: العلقة التي خُلق الإنسان منها إذا صارت قطعة لحم، قدر ما يمضغ.

﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ (الأنعام).

ويُعلِّق الباقلاني على قول رسول الله ﷺ الذي جاء عن عمران بن حصين ﷺ، حيث قال: بينما أنا عند النبي ﷺ فدخل ناس من أهل اليمن فقال: "اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم"، قالوا: قبلنا جئنا لنتفقه في الدين، ولنسألك عن أول هذا الأمر ما كان.

قال: "كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، ثم خلق السماوات والأرض وكتب في الذكر كل شيء"[١].

يعلق الباقلاني على هذا الحديث بقوله: "قد بين نبينا ﷺ بأحسن بيان يتضمن أن جميع الموجودات سوى الله محدثة مخلوقة"[٢].

ويلاحظ أن الباقلاني يرجع إلى نصوص الكتاب الحكيم والسنة المطهرة في الاعتماد على حدوث العالم، وأن محدثه هو الله ﷻ.

يقول الشهرستاني: "وقد سلك المتكلمون طريقين في إثبات الصانع تعالى، وهو الاستدلال بالحوادث بإمكان الممكنات على مرجح لأحد طرفي الإمكان ويدعي كل واحد في جهة الاستدلال ضرورة وبديهة"[٣].

ودليل الحدوث الذي يستدل به المتكلمون صياغته كالآتي:

- العالم ينقسم إلى جواهر وأعراض، ولا يخرج عنهما.
- الأعراض حادثة، والدليل على حدوثها أننا نشاهدها موجودة بعد أن لم تكن، كحركة الجسم بعد سكونه فهذه الحركة ثابتة بالمشاهدة، وسكونه حادث؛ لأنه بمجيء الحركة قد انعدم، ولو كان قديمًا لاستحال عليه العدم؛ لأن ما ثبت قِدَمُه استحال عَدَمه.
- الجواهر[٤] كذلك حادثة؛ لأنها لا تخلو عن الحوادث، وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث، أما أنها لا تخلو عن الحوادث فلأنها لا تخلو عن الحركة والسكون، وهما حادثان، فالجواهر لا تخلو عن الحوادث[٥].

إذا ثبت هذا فكل حادث لا بد له من مُحْدِث، وهذا بالبداهة، ولا يصح أن يكون المُحْدِثُ للعالم نَفْسَه؛ إذ إنه يصبح ـ على هذه الحال ـ متقدمًا على نفسه ومتأخرًا عنها وهذا باطل؛ لأن كون الشيء الواحد متقدمًا على نفسه ومتأخرًا عنها في وقت واحد فاسد باطل بالبداهة.

هذا المحدِثُ للعالم المُوجِد له لا بد أن يكون مغايرًا له في صفاته؛ فلا يكون حادثًا بل يجب أن يكون قديمًا، هذا المحدِثُ للعالم هو الله تعالى.

والاستدلال بحدوث العالم على وجود الله تعالى،

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في قول الله ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ (الروم: ٢٧) (٣٠١٨)، وفي مواضع أخرى.

٢. الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به، الباقلاني، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٦٣م، ص٣٠، ٣١.

٣. نهاية الأقدام في علم الكلام، الشهرستاني، تحقيق: أحمد فريد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٤م، ص١٢٤، ١٢٥.

٤. الجواهر: جمع الجوهر، وهو حقيقة الشيء وذاته، أو أصله ومادته، وهو ما قام بنفسه، ويقابله العَرَض، وهو: مايقوم بغيره.

٥. الوحدانية، د. بركات دويدار، دار الآفاق، العربية، القاهرة، ط١، د. ت، ص٣٤٩، ٣٥٠.

اتفق المتكلمون عليه من مُعْتَزِلة[1] وأشاعِرة[2]، وماتُريديَّة[3][4]، على خلافات يسيرة في صياغة هذا الدليل فيما بينهم.

استدلال الفلاسفة الإسلاميين، على وجود الله "دليل الإمكان":

أما الفلاسفة الإسلاميون فقد ابتدءوا استدلالهم على وجود الله ﷻ بأن نظروا في مطلق الوجود، فوجدوا أن منه ما لا يتصوَّر في العقل عدمه، وما لا يتصور في العقل وجوده وهو الممتنع المستحيل، ومنه ما يتصوَّر فيه الوجود والعدم، وهذا الصنف الثالث هو عامة الموجودات، وهو ما تعارفوا على نعته بالإمكان الذاتي، وهو معنى يحتاج إلى مخصِّص يرجِّح فيه جانب الوجود على جانب العدم، وهذا المخصِّص لا بد ـ وإن تسلسل ـ أن ينتهي إلى موجود واجب الوجود هو علة غيره، وليس هو علة لشيء غيره[5].

١. المُعْتَزِلة: فِرْقة من الفلاسفة المسلمين، تعدُّ أول مذهب في علم الكلام الإسلامي، اعتمدت على المنطق والقياس في مناقشة القضايا الكلامية، نشأت في البصرة في أواخر القرن الأول الهجري، ويرجع اسمها إلى اعتزال واصل بن عطاء حلقة شيخه الحسن البصري حينما سُئِل الحسن عن مسألة مرتكب الكبيرة.

٢. الأشاعرة: فرقة من المتكلمين ينتسبون إلى مؤسسها أبي الحسن الأشعري، تقوم على أساس من التوسُّط بين السَّلَف والمعتزلة، يخالفون المعتزلة في بعض آرائهم، ويقولون إن معرفة الله بالعقل تحصل، وبالسمع تجب.

٣. الماتريديَّة: فرقة من فِرَق علم الكلام السُّنِّي، تنسب لشيخها أبي منصور الماتريدي، التزمت في ردها على المخالفين وعرضها للقضايا بمنهج التوسط بين العقل والنقل.

٤. انظر: الأسس المنهجية لبناء العقيدة الإسلامية، د. يحيى هاشم، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧٨م، ص٣٥.

٥. العقيدة الإسلامية في مواجهة التيارات الإلحادية، د. فرج الله عبد الباري، مرجع سابق، ص٥٣: ٥٥.

أقسام منكري الألوهية:

ويمكن تقسيم المنكرين للألوهية إلى ثلاثة أقسام:

١. الذين يدعون أزلية الكون وصدوره عن المادة بدون خالق.

٢. الذين يقولون: إن الكون خلق بالصدفة.

٣. القائلون بالتطور.

وهذه الأقسام الثلاثة تختلف في أشكالها وتتحد في مضمونها الذي ينتهي إلى إنكار وجود الخالق ﷻ، ونحن بهذا التقسيم نريد أن نحاصر الماديين في كل جزئية من الجزئيات التي زعموا أنها تؤيد إنكار وجود الله تعالى.

القسم الأول: أزلية الكون وقيامه بنفسه بدون خالق:

إن ادعاء قيام الكون بنفسه ووجوده منذ الأزل شبهة قال بها الماديون قديمًا وحديثًا، فالقدامى زعموا أن العالم قديم، وأنه نشأ من عناصر مادية، على اختلاف فيما بينهم في تحديد هذه العناصر بين الماء والهواء والنار والتراب، أو هذه العناصر مجتمعة كما ذهب "أنبادوقليس" من فلاسفة اليونان، وانتقلت هذه الآراء إلى من عُرفوا بالدهرية[6] في المجتمع الإسلامي، الذين ذهبوا إلى القول: "بقدم العالم وأزليته وأنكروا العلة الفاعلية، وكانوا لا يقرون إلا بما أوجده العيان أو ما يجري مجرى العيان".

واستمرت هذه النزعة المادية التي تقول بقدم العالم واكتفائه بنفسه على نحو آلي بدون حاجته إلى إله،

٦. الدَّهْرِيَّة: فرقة مادّية ظهرت في العهد العباسي جحدت الصانع المدبِّر، وقالت بِقِدَم الدهر، وبأن العالم لم يزل موجودًا كذلك بنفسه، كما أنكرت أي شيء لا يمكن إدراكه بالحواس.

استمرت إلى العصر الحديث الذي دعمت التجارب العلمية فيه النزعة إلى المادية، وتساءل الطبيعيون[1] لم لا نمد المادة نفسها إلى غير نهاية فنعتبرها الله؟ ولماذا نبحث للكون عن علة مفارقة له؟ وعبَّر أحد الماديين عن ذلك بقوله: "إن كل شيء يفسر بالمادة والحركة، وأنهما أزليتان أبديتان، والعالم مدبر بقوانينهما وأن الكون ليس مُدبَّرًا من إله".

وقامت فلسفات مادية، كالماركسية[2] التي تبنَّت قول الماديين الأوائل في نظرتهم إلى الكون، وظهر هذا في تعليق "لينين" على عبارة "هيراقليطس": هذا العالم الذي هو سواء بالنسبة للجميع لم يخلقه إله من الآلهة، ولا واحد من البشر، ولكنه كان دائمًا - كما هو اليوم، وسيستمر دائمًا - نارًا بمعايير لاندلاعها، ومعايير لخمودها.

يقول "لينين" تعليقًا على هذه العبارة "عرض ممتاز لمبادئ المادية الجدلية"، ووصل الأمر بالماديين إلى أن أنزلوا المادة مكان الله، وذهبوا إلى أن أهم الصفات التي يوصف بها الله وهي القِدَم والخلق وجدناها تضاف عادة للمادة، فالله أَمْره نافذ، وكذلك القوانين الآلية الميكانيكية.

ويمكن وضع تصور الماديين في نقاط محددة هي:

- العالم قديم أوجد نفسه بدون علة خارجية.
- لا وجود للإله.
- اعتبار أن المادة هي الله.

وهذه التصورات مفندة ومردود عليها بما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية وبما استنبطه علماء الإسلام من القرآن والسنة، وبما انتهى إليه العلم الحديث في شأن قدم المادة. لقد نزل القرآن بخطاب شامل للبشرية كلها، فكان يواجه المشرك كما كان يواجه المنكر للألوهية، وكان يواجه اليهود والنصارى.

وإذا كان وجود الله فطرة فُطر الناس عليها، فإن هناك بعض التراكمات على تلك الفطرة تحجب الإنسان عن معرفة الله رب العالمِين، وكذلك فإن الأدلة القرآنية راعت - في المقام الأول - أن تزيل هذه التراكمات واستثارت ملكات الإنسان ووجَّهته نحو ربه ﷻ، ومع إثارة الفطرة اهتمت الأدلة القرآنية بلفت نظر الإنسان إلى الكون ونظامه ودقته وإبداعه، ومن هنا كانت أدلة القرآن الكريم هي جماع الأدلة وهي منبع الأدلة التي تمخضت عنها أقوال الحكماء في هذا الباب.

دلالة الاختراع:

وهذه الأدلة تعني إثبات أن الله ﷻ خلق الكون كله لا على مثال سابق، وتهدف هذه الأدلة إلى إثبات حدوث العالم والرد على القائلين بقِدَمه وأزليته، وهذه الأدلة على سبيل المثال لا الحصر، هي قول الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ

---

١. الطبيعيُّون: هم قوم أكثروا بحثهم عن عالم الطبيعة، وأكثروا الخوض في علم تشريح الحيوان، فرأوا فيها عجائب صنع الله تعالى، وبدائع حكمته مما اضطروا معه إلى الاعتراف بفاطر حكيم، إلا أنهم لكثرة بحثهم عن الطبيعة ظهر عندهم - لاعتدال المزاج - تأثير عظيم في قوام قوى الحيوان به، فظنوا أن القوة العاقلة من الإنسان تابعة لمزاجه أيضًا، وإنها تبطل ببطلان مزاجه فينعدم، ثم إذا انعدم فلا يعقل إعادة المعدوم كما زعموا، فذهبوا إلى أن النفس تموت ولا تعود، فجحدوا الآخرة، وأنكروا الجنة والنار، والحشر والنشر، والقيامة والثواب، فلم يبق عندهم للطاعة ثواب، ولا للمعصية عقاب.

٢. الماركسية: مذهب نظري يدعو إلى إلغاء حق الفرد في التَّملُّك ويدعو إلى الملكيَّة العامة للشعب.

لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ (البقرة). وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ (البقرة). وقول الله تبارك تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (الأنبياء)، وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ (العنكبوت).

وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾﴾ (السجدة). وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾ (فصلت). وقوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾ (الطور). وقوله تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ (الواقعة).

إن هذه الآيات تقرر أن الكون لم يكن ثم كان بإرادة الله ﷻ، وهذا الخلق تم بإرادته ومشيئته في الوقت الذي حدده، يقول تبارك وتعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾﴾ (القصص).

وذلك لأن الله ﷻ فعَّال لما يريد، وهذا الخلق والاختراع تم بالأمر "كن"، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ (النحل).

هذه الآيات مجتمعة تقرر أن الحياة لم تكن، ثم كانت بأمر الله في الوقت الذي أراده، ولفظ (خلق) إشارة إلى التكوين. ويقرر المفسرون في هذه الآيات أن السماوات والأرض كانتا معدومتين فأوجدهما الله، والممكنات باعتبار ذاتها وحدها تكون معدومة، واتصافها بالوجود لا يكون إلا من واجب الوجود وهو الله تعالى.

والقرآن الكريم يؤكد الدلالة الضرورية من الخلق على الخالق؛ لأن الشيء لا يمكن أن يوجد بدون علة، ولا يمكن أيضًا أن يكون هو علة صياغة نفسه، ولذلك ركَّز الله رب العالمين على خلقه للأشياء وإيجادها من العدم، ولم يثبت أن أحدًا ادعى أنه أوجدها، وهذه الآيات التي تحدثت عن خلق السماوات والأرض من لا شيء كانت هي الملهمة لما صاغه علماء الإسلام من الأدلة على وجود الله ﷻ.

يقول الأشعري: "إن سأل سائل فقال: ما الدليل على أن للخلق صانعًا صنعه ومدبرًا دبره؟ قيل له: الدليل على ذلك أن الإنسان الذي هو في غاية الكمال والتمام، كان نطفة ثم علقة، ثم لحمًا ودمًا وعظمًا، وعلمنا أنه لم ينقل نفسه من حال إلى حال، وإذا كان تحول النطفة علقة ثم مضغة، ثم لحمًا، ثم دمًا وعظمًا، أعظم في الأعجوبة، كان أولى أن يدل على

صانع صنع النطفة ونقلها من حال إلى حال، وقد قال الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ (الواقعة)، فما استطاعوا أن يقولوا بحجة أنهم يخلقون ما يمنون".

ويرد على القائلين بقدم النطفة بناء على افتراض سؤالهم "فإن قالوا فما يؤمنكم أن تكون النطفة لم تزل قديمة؟ قيل لهم: لو كان ذلك على ما ادعيتم لم يجز أن يلحقها الاعتمال والتأثير، ولا الانقلاب والتغيير؛ لأن القديم لا يجوز انتقاله وتغيره".

فالأشعري قد استخدم دليل الحدوث والعناية للدِّلالة على أن كل ما سوى الله حادث، وليس بقديم.

وابن رشد في كتابه "مناهج الأدلة" يبين أن الأدلة على وجود الله تعالى التي دعا إليها الشرع واعتمدها صحابة رسول الله ﷺ تنحصر في جنسين:

- **دليل العناية: أي عناية الله بالإنسان وخلق جميع الموجودات من أجله.**
- **دليل الاختراع: أي اختراع الحياة في الجماد،** نجده في الأجنة وفي مثل فلق الحَبِّ، ومن الآيات التي تتحدث عن الاختراع خلق السماوات والأرض، وما بث فيهما من دابة.

والآيات التي أوردناها من هذا النوع، تقرر أن الكون مخلوق، وله بداية ونهاية، وأن مادته ليست أزلية، والله بدأه من لا شيء، وفي هذه الآيات من الأسرار ما لا يحصى؛ لأن العقول لا تستطيع أن تدركها، إذ إن كيفية الخلق والإعادة من الأمور التي اختص بها الحق سبحانه، وقد أفرد لهذه الطريقة ابن تيمية ـ رحمه الله ـ صفحات كثيرة من مؤلفاته، يذكر أن الدلالة بالخلق على وجود الله وتوحيده طريقة الأنبياء ـ عليهم السلام ـ وقد استدل بهذه الدلائل الخليل وموسى ـ عليهما السلام ـ، إذ إن العلم بافتقار المحدث أبين في العقل وأَبْدَه له.

ولهذا قال الله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ (الطور)، يقول جبير بن مطعم: لما سمعت رسول الله ﷺ يقرؤها أحسست بفؤادي قد انصدع، إذ كان كل من القسمين: وهو كونهم خلقوا من غير خالق، وكونهم خلقوا أنفسهم معلوم الانتفاء بالضرورة، فإن الإنسان يعلم بالضرورة أنه لم يحدث من غير محدث، وأنه لم يحدث نفسه، فلما كان العلم بأنه لا بد له من محدث، وأن محدثه ليس إياه علمًا ضروريًّا، عَلِمَ بالضرورة أن له محدثًا غيره، وكل ما يقدر فيه أنه مخلوق فهو كذلك، كالسماوات والأرض وغيرهما؛ لأن الخلق يتضمن الحدوث والتقدير، ففيه معنى الإبداع والتقدير.

وقد استدل العلماء بهذه الآيات في مناقشتهم للقائلين بِقِدَم العالم من الدهريين ببطلان الترجيح بلا مرجح، والدَّوْر[1]، والتسلسل. وإذا ثبت بالقرآن الكريم والسنة أن العالم حادث، وأن الذي خلقه هو الله، فإن العلم الحديث يثبت هو الآخر أن الكون له بداية وله نهاية، وذلك عن طريق علم الفلك وعلم الفيزياء.

يقول أحد العلماء: "إن أهم اكتشاف علمي في القرن العشرين أن الكون أصبح قابلًا للبحث باستخدام عِلْمَي الفيزياء والفلك".

---

١. الدَّوْر: توقُّف كل من الشيئين على الآخر في المنطق.

o دلالة علماء الفيزياء على حدوث العالم:

إن النظرة التي استند إليها الماديون في القول بأزلية المادة، وأن الكون قائم بنفسه بدون خالق له أصبحت بعد الاكتشافات العلمية المثيرة تسمى بالنظرة القديمة.

أما النظرة الجديدة فإنها تثبت أن المادة ليست أزلية وأن الكون له بداية وعلة أولى نشأ عنها، يقول الفيزيائي أدموند ويتكر ***Edmund whittaker***: "ليس هناك ما يدعو إلى أن نفترض أن المادة والطاقة كانتا موجودتين قبل الانفجار العظيم، وأنه حدث بينهما تفاعل فجائي، فما الذي يميز تلك اللحظة عن غيرها من اللحظات في الأزلية[1]؟ والأبسط أن نفترض خلقًا من العدم، أي إبداع الإرادة الإلهية للكون من العدم".

هذا هو العلم الذي يقرر أن الكون حادث، وأن وراءه إرادة أخرجته من العدم، وإن اكتشاف بعض القوانين العلمية الحديثة لينسف القول بأزلية المادة نسفًا، لإثبات حدوثها وصدورها عن إله حكيم.

من هذه القوانين ما يعرف بالقانون الثاني للديناميكا الحرارية، ومفاد هذا القانون أن المادة إذا ضغطت وسخنت ارتفعت درجة تعادلها الحراري، وكلما ازداد عدد الانكماشات العظيمة للكون ازدادت حرارته ودرجة تعادله الحراري، وبما أن درجة حرارة الكون ودرجة تعادله الحراري محدودتان في الوقت الراهن فلا بد من أنه كانت له بداية، وإن مظاهر الكون المتمثلة في الشمس المستعرة والنجوم المتوهجة والأرض الغنية بأنواع الحياة كلها دليل واضح على أن أصل الكون وأساسه يرتبطان بزمان بدأ من لحظة معينة، فهو إذًا حدث من الأحداث، ومعنى ذلك أنه لا بد لأصل الكون من خالق أزلي ليس له بداية، فالقانون يثبت أن الكون ما دام فيه حرارة فلا يمكن أن يكون أزليًّا؛ لأن الحرارة لا توجد بنفسها، ولو كان أزليًّا لكان باردًا وكان قد استهلك طاقته منذ زمن بعيد وتوقف كل نشاط فيه.

ثم إن هناك مواد مشعة في الكون، وهي تفقد أجزاء منها في كل فترة زمنية بانتظام وتتحول إلى مواد أخرى غير مشعة، ولو أن الكون أزلي لكانت هذه المواد المشعة قد تحولت بكاملها.

ويؤكد هذا د. بول كلارنس أيرسولد أستاذ الطبيعة الحيوية ومدير قسم النظائر والطاقة الذرية، يقول: "إن الأمر الذي نستطيع أن نثق به كل الثقة هو أن الإنسان وهذا الوجود من حوله لم ينشآ نشأة ذاتية من العدم المطلق، بل إن لهما بداية، ولا بد لكل بداية من مُبدِئ كما أننا نعرف أن هذا النظام الرائع المعقد الذي يسود هذا الكون يخضع لقوانين لم يخلقها الإنسان، وأن معجزة الحياة في حد ذاتها لها بداية، كما أن وراءها توجيهًا وتدبيرًا خارج دائرة الإنسان، إنها بداية مقدسة، وتوجيه مقدس، وتدبير إلهي محكم". وذلك يثبت أن الكون ليس أزليًّا، وأنه لم يخلق نفسه بنفسه.

o دلالة علم الفلك على حدوث الكون:

إذا كان علم الفيزياء الحديثة قد أثبت عن طريق القوانين العلمية أن الكون له بداية، فإن علم الفلك يؤكد ذلك أيضًا.

---

1. الأزليَّة: مصدر صناعي من أزل: دوام لا بدء له، وأما أزلية العالم فهو مذهب فلسفي يقول بأن العالم لا علة لوجوده فهو قديم.

يقرر الفلكي جاسترو ***Robert Jasterow*** "أن سلسلة الحوادث التي أدت إلى ظهور الإنسان بدأت فجأة وبعنف في لحظة معينة من الزمن، وفي ومضة ضوء وطاقة". ويقرر علم الفلك - أيضًا - أن الكون يتسع بالتسلسل الدائم، وأن كل مجاميع النجوم والأجرام تتباعد بسرعة مدهشة بعضها عن بعض، ولا يمكن تفسير هذه الحالة إلا بالتسليم بأن الكون له بداية، وكانت الأجزاء التركيبية مركزة ومجتمعة بعضها مع بعض، ثم بدأت الحركة والحرارة، والتسليم بهذه القوانين العلمية، ثم إنكار أن يكون لهذا الكون إله، كمن يدعي أن الأهرامات قامت بنفسها، مع تسليمه بأن الأهرامات بناها المصريون منذ أربعة آلاف سنة.

إن كل هذه الدلائل تثبت حدوث العالم وأن الكون نشأ من عدم.

كيف تنشأ الحياة من المادة التي لا حياة فيها؟

إن الله ﷻ يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾﴾ (الأنعام). هذا إعلان من الله أنه أخرج الحي من الميت، يجب التسليم به؛ لأنه لم يدَّعِ أحدٌ إلى الآن ذلك، وإن ادعاء خروج الحياة من اللاحياة بفعل الطبيعة أو بالتولد الذاتي قول يتناقض مع العقل ومع العلم في آن واحد، أما تناقضه مع العلم فلاستحالة كون المادة مصدر الحياة؛ لخلوها من الحياة، وما كان خاليًا من شيء قوة وفعلًا لا يمكنه مطلقًا أن يكون مصدرًا له، والمادة خالية من الحياة بالقوة؛ لأنها لو قَدَرت أن تُبْرِز الحياة ذات يوم لقدرت أن تبرزها قبل ذلك؛ لأن طبائع الأشياء لا تتغير، وإذا قدرت أن تبرزها قبل ذلك اليوم، فإنها قادرة أن تبرزها الآن، ولا يمكن أن توجد في وقت آخر، وذلك مقرر في مبادئ علوم الطبيعة[1]، أما خلوُّ المادة من الحياة بالفعل فشيء ثابت وظاهر؛ لأننا لم نرَ مادة جامدة أنبتت حياة.

أما تناقض القول بأن الحياة تخرج من اللاحياة مع العلم فيرجع إلى أن "جميع الجهود التي بذلت للحصول على المادة الحية من غير الحية قد باءت بخذلان وفشل ذريعين، ومع ذلك فإن من ينكر وجود الله لا يستطيع أن يقيم الدليل المباشر على أن مجرد تجمع بعض الذرات والجُزَيْئات[2] يمكن أن يؤدي إلى ظهور الحياة وصيانتها وتوجيهها بالصورة الموجودة في الخلايا الحية؛ لأن كل خلية من هذه الخلايا قد بلغت درجة من التعقيد يصعب على العلماء فهمها، وأن ملايين الملايين من الخلايا الحية على سطح الأرض تشهد بقدرة الله شهادة تقوم على الفكر والمنطق، وللشخص أن يقبل أن الحياة نشأت بدون إله، ولكنه حين يفعل ذلك فإنما يسلِّم بأمر أشد إعجازًا وصعوبة على العقل من الاعتقاد بوجود الله الذي خلق الأشياء ودبَّرها".

ونحن قطعًا نسلِّم بداية بأن الكون مخلوق لله، وأن الحياة تخرج من اللاحياة بإرادة الله، ولكن إذا كان الذين يدينون بالعلم وقوانينه هم الذين يردون على

---

١. علم الطبيعة: علم يبحث عن طبائع المادة وصورها، من حرارة وبرودة ورطوبة ويبوسة، ومعرفة قوانين تبدُّلها من حيث الصلابة والسيولة والغازية.

٢. الجُزَيْئات: جمع جُزَيء، وهو أصغر جزء مستقل من المادة يمكن أن يوجد منفردًا، وتظهر فيه خواص المادة وصفاتها، ويتركب من عدة ذرّات.

الملحدين بنفس منهجهم وطريقتهم، فإن المسلم عليه أن يستثمر تلك النقطة وأن يستأنس بردود هؤلاء العلماء بعد أن بنى يقينه على العلم الصادر عن الله ﷻ.

ادعاء عدم وجود الله:

فإن الله ﷻ يكذِّب الذين يزعمون ذلك؛ لأنه تعالى قد فطرهم على معرفته ووجوده ووحدانيته، يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾ (الأعراف)، وهذه الآيات الكريمة تبين أن الله ﷻ قد فطر الخلق على معرفته وتوحيده تبارك تعالى، ولذلك يقول: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (الروم)، والمفسرون أكدوا أن هذه الآيات تبين أن الله فطر الناس على الإقرار بوجوده ووحدانيته، ولهذا كان أكثر الناس على أن الإقرار بالصانع ضروري فطري؛ لأن اضطرار النفوس إلى الله تعالى أعظم من اضطرارهم إلى ما لا تتعلق به حاجتهم، ألا ترى أن كل الناس يعرفون من أحوال من تتعلق بهم منافعهم ومضارهم، مثل: ولاة أمورهم، وأصدقائهم، وأعدائهم، ما لا يعلمونه من أحوال من لا يرجونهم ولا يخافونهم، ولذلك فإن احتياج المخلوق للخالق أبين وأوضح؛ لأنه هو الذي يأتيهم بالمنافع ويدفع عنهم المضار.

أما إنكار وجود الله فإنه لا يكون إلا بعد أن تغيرت الفطرة بفعل وَساوِس الإنس والجن، وفسدت مدارك السمع والبصر والعقل، وهناك آيات كثيرة تثبت عدم الانتفاع بنعم الله من الناحية الإيمانية، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ (الأنعام)، وهناك الكثير من الآيات التي تبيِّن ذلك.

ولكن هذا الفساد يزول عن الإنسان ويرجع إلى ربه حين تصيبه البأساء والضراء، ففي ذلك الوقت تنقشع الغشاوة عن الفطرة، ويعود الإنسان إلى ربه، وقد صرح القرآن الكريم بذلك، يقول تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ (يونس).

ويقول الله تبارك تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ (الإسراء). ويقول تبارك وتعالى: ﴿وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ (النحل).

وهذه الآيات تبين أن الإنسان ساعة الضر وساعة الشدة لا يجد ملجأ ولا مفرًّا إلا إلى الله، وللإنسان أن يتأمل التعبير القرآني في اللجوء إلى الله، والاستعانة به

والاستغاثة بقوته ورحمته، هذا التعبير: ﴿فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ (النحل)، فإن الآية تظهر أن الإنسان يجأر؛ أي: يرفع صوته بالدعاء والتضرع والاستغاثة، وهذا يعني أن الدافع الفطري - والإحساس بأن الله هو المنقذ - عميق وقوي ومسيطر على النفس البشرية، ويظهر هذا الشعور حين يمس الإنسان أدنى بلاء.

ولذلك فإن الشهرستاني يعتبر أن أوضح الأدلة على وجود الله هو دليل الفطرة السليمة التي شهدت بضرورة فطرتها وبديهية فكرتها على صانع حكيم عالم قدير، والناس إن غفلوا عن الفطرة في حال السراء، فلا شك أنهم يلوذون به في حالة الضراء ويستشهد بالآيات السابق ذكرها.

والرسل إنما هم مبعوثون لتزكية الفطرة وتطهيرها عن تسويل الشيطان، فإنهم الباقون على أصل الفطرة، وما كان له عليهم من سلطان؛ ولذلك قال: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾﴾ (الأعلى)، ومن رحل إلى الله قربت مسافته حيث رجع إلى نفسه، فعرف احتياجه إليه في تكوينه وبقائه وتقلبه، وابن تيمية في "درء تعارض العقل والنقل" يولي كلام الشهرستاني اهتمامًا كبيرًا في الاستدلال على وجود الله.

ولا يقولن قائل: إننا نناقش قومًا كفروا بالله تعالى ورسله وكتبه، فكيف نستدل لهم بآيات من القرآن؟

والحق أن القرآن حين نبّه على الدلائل التي توصل إلى معرفته وخاصة دليل الفطرة لم يختص قومًا دون قوم ولم يخاطب نفسًا دون نفس، وإنما خاطب الناس كلهم؛ لأنه عالم بنفوسهم وتفكيرهم، يقول تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ (الملك)، وإذا لم يقتنع الإنسان - أيًّا كان زمانه، ومكانه، وتفكيره - بكلام الله فهل يتصور أن يقتنع بغير كلام الله؟ الحق أن الله ﷻ بعد أن أودع القرآن الكريم الدلائل على وجوده ووحدانيته قال: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾ (الجاثية)، أي: إذا لم يقتنع الملحد والكافر بآيات الله ودلائله فلن يؤمن بشيء آخر، ثم إن القرآن كان يخاطب أهل مكة، وهو يعلم أنهم على الكفر[1].

ولكن لأن أدلة القرآن الكريم تنفذ إلى النفس البشرية وتغيرها كان خطاب الله لهؤلاء، وما على الذي يَعْرِضُ كتابَ الله إلا أن يتحلى باللغة المناسبة والفطرة التي نأخذ منها دليلًا على وجود الله من هذه الأدلة التي يتساوى جميع الناس فيها على اختلاف ألسنتهم وألوانهم وتفكيرهم وفقرهم وغناهم، يشير لهذا د. فاروق الدسوقي في كتابه "القضاء والقدر" فيذكر أن ملحدي العصر يعمدون إلى إنكار الغيبيات لفقدهم الدليل المادي على وجودها فهم لا يؤمنون إلا بالمادة المحسوسة والمناهج التجريبية كوسائل للبحث، والقرآن الكريم يقدم لهؤلاء وسيلة تناسب ما يؤمنون به من الناحية الحسية، لا ليثبت لهم وجود الله، ولكن ليأخذ منهم اعترافًا صريحًا أن الله موجود في أعماق نفوسهم، فإذا أثبت أن الإيمان موجود في أعماقهم، فقد أثبت ما ينتهي إليه هذا الإيمان.

والمنهج الذي يقدمه القرآن لكشف حقيقة المنكرين

---

١. العقيدة الإسلامية في مواجهة التيارات الإلحادية، د. فرج الله عبد الباري، مرجع سابق، ص٥٦: ٧٢.

له هو "المنهج النفسي التجريبي حيث يجري عليهم تجربة نفسية تتلخص في أن نأخذ بعض الملاحدة في قارب صغير في بحر لجي حيث يوشك القارب أن يغرق بهم بشرط أن تكون التجربة دون علم هؤلاء الملاحدة، ثم علينا بعد ذلك أن نسجل مشاهداتنا وملاحظاتنا عن سلوكهم حيال هذا الخطر على حياتهم، وسنرى هل سيتوجهون إلى الأرض أم السماء؟ وهل سيدعون البحر أم رب البحر وخالقه؟ وعلينا أن نسألهم بعد ذلك: من أين لهم هذا الإيمان دون مناظرة أو مجادلة؟ إن القرآن الكريم يخبرنا أنهم في تلك اللحظة لا يؤمنون فقط بوجود الله، ولكن بأنه الواحد الأحد القادر، ونحن نتحدى ملاحدة هذا العصر أن يقيموا هذه التجربة بشرط أن يتحلوا بالأمانة والحياد، والرغبة في الوصول إلى الحق والحقيقة"، وصدق الله العظيم حين قال: ﴿ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ (الإسراء: ٦٧).

خلع صفات الله على المادة[1]:

الحق أن الماديين حين كفروا بالله آمنوا بالمادة وفعلوا مع المادة مثلما يفعل المؤمنون مع الله، فإذا كان المؤمن يؤمن بقوة غيبية لا ترى، هذه القوة هي قوة الله، فإن الماديين يؤمنون أيضًا بقوة غيبية لا ترى وهم مضطرون إلى ذلك، فما القانون العلمي والقوة والحركة والزمن والأزلي إلا مفاهيم لا تخضع للحس والمشاهدة، ومع ذلك لا يجرؤ أحد من الماديين أن ينكرها وإلا كان علمه ساذجًا واتهمه زملاؤه بالسطحية.

يقول وحيد الدين خان: "إن أي عالم من علماء عصرنا لا يستطيع أن يخطو دون الاعتماد على ألفاظ مثل القوة: ***Froce***، الطاقة: ***Energy***، الطبيعة: ***Nature***، وقانون الطبيعة: ***low of nature***، وما إلى ذلك، ولكن هذا العالم لا يدري ما القوة والطاقة، والطبيعة وقانونها، فهو قد صاغ كلمات تعبر عن وقائع معلومة لكي يبين عللًا غير معلومة، وهذا العالم لا يقدر على تفسير هذه الألفاظ تمامًا كرجل الدين لا يستطيع تفسير صفات الإله، وكلاهما يؤمن بدوره بعلل غير معلومة".

وإذا تتبعنا الماديين في كثير جدًّا من المواقف نجد أنهم لا يختلفون عن المؤمنين في مواقفهم، فإن عندهم إيمانًا بل، وعندهم إلهام داخلي.

يقول د. كونانت: "أعظم الفروض التمهيدية الكبرى التي جاء بها تاريخ العلم نشأت نتيجة لعملية ذهنية يعبر عنها أحيانًا بأنها "مسَّة من عبقرية" أو خاطرة ملهمة" أو "ومضة من خيال باهر"، وقلما يتبين فيها الناظر أنها كانت نتيجة لتمحيص النتائج كلها أو تحليل منطقي لها، أو محاولة منظمة لصياغتها أدت إلى ما انتهى إليه صاحبها".

ونستطيع أن نقول بدون تجاوز للحقيقة: إن المؤمن كما يعبد الله، ويتوجه إليه، فإن المادي يعبد المادّة ويتوجه إليها؛ لا فرق بين القدامى والمحدثين، فإن الشهرستاني وصف المادة بأنها معبود الدهريين. وكما يعتقد المؤمن في الرسل فإن المادي يعتقد في الفلاسفة الماديين الذين صاغوا مذهبه، وكما أن المؤمن له كتاب مقدس فإن المادي له - أيضًا - كتب مقدسة تتمثل في المؤلفات المادية، وكما أن المسلم يصلي ويعبد الله، فإن الماديين يفعلون ذلك كما في معابدهم البشرية، وكما أن المسلم

1. المرجع السابق، ص٧٣، ٧٤.

يذهب إلى بيت الله الحرام، فإن الماديين يطوفون حول قبور زعمائهم كما يحدث في الاتحاد السوفيتي.

العبادة لله لا للذ مادة[1]:

يتفق المؤمنون والماديون، كل فيما يعتقد: أن ظواهر العالم متغيرة وأن كل متغير له أصل صدر عنه، وظواهر العالم لها أصل تتغير عنه وهذا متفق عليه، ولكن الكلام في هذا الأصل، هل وجوده لذاته أو لغيره؟ المؤمنون يقولون: إن أصل الكون وهو الله وجوده لذاته، والماديون يقولون: المادة التي صدر عنها الكون وجودها لذاتها، والمؤمنون يجمعون على أن الله ذو سلطان لا رادَّ لأمره، تخضع له حركة الأشياء، والماديون يقولون ذلك ـ أيضًا ـ بالنسبة للمادة.

والسؤال الذي يُطرح للمؤمن والمادي هو:

هل هذا الأصل من جنس العالم الذي نعرفه أم ليس من جنسه؟

الماديون يقولون: إنه من جنس هذا العالم؛ لأنهم لا يعترفون بغير المادة، والمؤمنون يقولون: إنه ليس من جنس هذا العالم: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١)﴾ (الشورى).

والماديون يقعون في التناقض حين يقولون: إن أصل العالم من جنس العالم؛ لما يأتي:

- لأن القول بأنه من جنس هذا العالم المادي يقتضي كونه جزءًا منه، والقول بأنه أصل العالم يقتضي كونه غيره، وهذا تناقض.
- ولأن القول بأنه من جنس هذا العالم يقتضي كونه ذا بداية؛ لأن ما هو من جنس العالم له بداية كما أثبتت النظريات العلمية، وهم يقولون بأزليته.
- ولأن القول بأنه من جنس هذا العالم المادي يقتضي كونه فانيًا؛ لأن ما هو من هذا العالم يفنى، وهم قد قالوا بخلوده.

ولا يقال: إننا نريد بالأصل المادة من حيث هي مادة، وهي عندنا "أي الماديين" واجبة لا نهائية أبدية أزلية فلم نَقَع في التناقض.

ونحن نقول للماديين: إن ما تقولونه عن المادة المتصفة بما تقدم يخرجها عن كونها من جنس هذا العالم المادي الذي نعرفه؛ لأن ما نعرفه من هذا العالم المادي إنما هو أفراد؛ فنعرفه ممكن الوجود منتهيًا، له بداية وله نهاية، فما السبيل إلى معرفتكم المادة المطلقة التي وصفتموها بالأزلية والأبدية، وهي من جنس العالم المادي الذي نعرفه.

ولذلك فأنتم تقولون بشيء ليس من جنس العالم، وإن سميتموه مادة فهو خارج عنها غير متصف بصفاتها.

وبعد تلك المقارنة نخلص إلى أن المؤمنين يعبدون إلهًا حقًّا متصفًا بصفات الجلال والكمال. أما الماديون فيشركون مع الله غيره حين يتخذون المادة إلهًا، وهم في ذلك إنما يعبدون هواهم، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ اللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٣) وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٢٤)﴾ (الجاثية).

إن القرآن الكريم يرسم صورة للنفس البشرية حين

---

١. المرجع السابق، ص٧٤: ٧٦.

تترك الأصل الذي يحركها وتشعر به وهو الله، ثم تتعبد للهوى وتخضع له وتقيمه إلهًا قاهرًا لها مستوليًا عليها.

إن القرآن الكريم يعجب من هذا الذي اتخذ إلهه هواه بعد معرفته للحق الذي كان ينبغي أن يصده عما اتخذه من دون الله؛ ولكن لأنه لم يستجب لهدى الله فإنه استحق الإضلال من الله، وتركه في عمايته، ولذلك ختم على سمعه وقلبه، وجعل على بصره غشاوة.

فمهما قدمت له الأدلة والبراهين فلن يهتدي؛ لأنه رفض هداية الله بداية فاستحق الجزاء على ذلك الرفض، وكأن تلك الآية يقرؤها الإنسان للمرة الأولى وهو يرى التطابق بين الفكر المادي وأصحابه والتوصيف الدقيق لهم من الله في هذه الآية الفريدة، ولا يملك الإنسان إلا أن يقول سبحان من أنزل القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين، وخسارًا وبعدًا للظالمين الذين حجبوا أنفسهم عن التعرض لهداية الله وتوفيقه.

القسم الثاني: القائلون بالصدفة في خلق العالم[١]:

لقد وُجد قديمًا في فلاسفة اليونان من ذهب إلى أن الحياة نشأت اتفاقًا[٢] دون أي علة غائية أو علة خارجية، وبُني العالم على الاتفاق والمصادفة.

وهذا ما وُجد عند الدهريين الذين ذهبوا إلى أن العالم كان في الأزل أجزاء مبثوثة تتحرك على استقامة، فاصطكَّت اتفاقًا؛ فحصل عنها العالم الذي نراه!

وإذا كان القدامى من الماديين والدهريين قد ذهبوا إلى هذا القول فإن كثيرًا من الماديين المحدثين ذهبوا إلى القول بالصدفة لئلا يقرُّوا بوجود خالق، من هؤلاء: إرنست هِيكِل الذي ذهب إلى أن المادة هي الموجد الضروري للحياة، وأن الحياة ترجع إلى أصل واحد هو "المونيرا" التي تركبت اتفاقًا من "الأزوت[٣] والهيدروجين والأكسجين" ومنها تكونت الحياة.

ووصل الثقة بالصدفة وما ينتج عنها إلى زعم هكسلي بأنه لو جلست ستة من القرود على آلات كاتبة وظلت تضرب على حروفها لملايين السنين فلا نستبعد أن نجد في بعض الأوراق الأخيرة التي كتبوها قصيدة من قصائد شكسبير، فكذلك كل الكون الآن نتيجة لعمليات عمياء تدور في المادة لبلايين السنين.

بل وصل الأمر إلى أبعد من ذلك حين زعم هِيكِلّ عالم البيولوجيا[٤] أنه قادر على خلق الإنسان، يقول: "ائتوني بالهواء وبالماء وبالأجزاء الكيماوية وبالوقت وسأخلق الإنسان".

ويلخص الفيلسوف برتِراند رَسِّل تاريخ البشرية كلها في القول بالصدفة فيقول: "ليس وراء نشأة الإنسان غاية أو تدبير، إن نشأته وحياته، وآماله ومخاوفه وعواطفه، وعقائده - ليست إلا نتيجة اجتماع ذرات جسمه عن طريق المصادفة".

كانت هذه هي شُبَه القائلين بالصدفة، وهذه الشبهة لا تخرج في مضمونها عن الشبه الأولى اللهم إلا في الشكل فقط، ولكنَّ المضمون واحد.

---

١. المرجع السابق، ص٧٧: ٩٦ بتصرف.

٢. اتفاقًا: مصادفة.

٣. الأَزُوت: غاز شفاف لا لون له ولا رائحة ولا طعم، يعتبر من أهم العناصر الطبيعية الحياتية، وهو أكثر غازات الهواء مقدارًا، يدخل في تركيب المواد البروتينية والأنسجة الحية الحيوانية والنباتية.

٤. البيولوجيا: عِلْم عام يشمل علم الأحياء الحيوانية وعلم الأحياء النباتية.

وسنحاول أن نفنِّد تلك الشبهات مرتكزين على القرآن الكريم، مستخرجين منه الأدلة الباهرة التي تبطل القول بالصدفة؛ عن طريق ما أودعه الله في الكون والإنسان والحيوان والنبات من قصد وتدبير، مستأنسين بمفهوم العلماء حول إبداع الله في هذه الأشياء، مستعينين في الوقت نفسه بما قرره العلماء المحدثين من نتائج العلم الحديث حول ما نستشهد به من نماذج.

إن القرآن الكريم فيه من الدلائل التي تضيف إلى الخلق والإبداع العناية والقصد في الكون بأسره، من شمس، وقمر، وجبال، وأنهار، وإنسان، وحيوان، ونبات؛ لأن كل مخلوق خَلَقه الله تعالى إنما خَلَقه لغاية وخلقه بقدر معلوم، وإن غاب عن المخلوقين فلا يغيب عن الخالق مصداقًا لقوله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩) ﴾ (القمر).

وسنحاول عرض نماذج من الآيات التي تتحدث عن الكون، وما فيه من ليل، ونهار، وشمس، وقمر، وكذلك الآيات التي تتحدث عن خلق الإنسان والعناية به، ثم خلق الحيوان، ثم خلق النبات.

الآيات الكونية:

ويعرف هذا الاستدلال بـ: دليل الآفاق:

- يقول الله تبارك تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) ﴾ (آل عمران).
- ويقول ﷻ: ﴿ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٩٦) ﴾ (الأنعام).
- ويقول الله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥) ﴾ (يونس).
- ويقول تبارك وتعالى: ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ (الرعد: ٢).
- ويقول تبارك وتعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) ﴾ (إبراهيم).
- ويقول تعالى: ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠) ﴾ (يس).

هذه الآيات على سبيل المثال لا الحصر هي التي يستدل بها العلماء فيما يسمَّى بـ: الدليل الغائي:

وقد قال بهذا علماء الإسلام وعلى رأسهم ابن رشد، وقال به الغربيون واعتبره "كانط" أوضح الأدلة كلها على وجود الله تبارك وتعالى، ولكن مع كل ما قاله العلماء تبقى آيات القرآن شاهدة على أن هذا الكون خلقه الله وأبدعه وسخره، وأي انحراف وخروج عن المسار الذي رسمه الله لمخلوقاته سيحيل العالم إلى فوضى واضطراب، ولن تعمر الأرض، بل لن تبقى.

والآيات التي عرضناها خير دليل على ذلك، فإن في خلق السماوات والأرض، واختلاف الليل والنهار لدلائل عظيمة شاهدة على الإبداع والعناية، ولذلك كانت من المعجزات التي أيد الله رسوله بها.

فعن ابن عباس قال: أتت قريش اليهود، فقالوا: ما جاءكم به موسى من الآيات؟ قالوا عصاه ويده بيضاء للناظرين، وأتوا النصارى، فقالوا: كيف كان عيسى فيكم؟ قالوا: كان يبرئ الأكمه، والأبرص، ويحيي الموتى، وأتوا النبي فقالوا: ادع لنا ربك يجعل لنا الصفا ذهبًا، فدعا ربه فنزلت هذه الآية: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (190) ﴾ (آل عمران)، "فليتفكروا فيها"[1].

إن الشمس والقمر وسَيْرهما الدقيق لمن الدلائل على وجود الصانع تبارك وتعالى وعلمه وقدرته، وحكمته، فَفَلْق ظلمة الليل بنور الصبح من أعظم النعم؛ لأن الأحوال الفلكية أعظم في القلوب وأكثر وقعًا في النفوس من الأحوال الأرضية، وإن الناظر إلى السماء وما فيها من كواكب تزينها ويُهتدى بها في ظلمات الليل، ليمكن أن يتدبر بهذه النجوم والأفلاك، ويستدل بها على اللطيف الخبير.

إلا أن الشيء الذي يلفت النظر ويثير الانتباه هو حركة الشمس والقمر، وسير كل منهما في فلك يسبحون، فهذا من أعظم الدلائل وأبينها على القصد والغاية، فضلًا عن أن العلماء المحدثين قد اكتشفوا أنَّ أفضل تعبير عن حركة الشمس والقمر هو لفظ "السباحة".

يقول وحيد الدين خان: "كان الإنسان في العصر الغابر يشاهد النجوم تتحرك وتبتعد عن أماكنها بعد وقت معين، ولذلك لم يكن هذا التعبير القرآني موضع دهشتهم واستغرابهم، ولكن البحوث الحديثة قد خلعت على هذه التعبيرات ثوبًا جديدًا فليس هناك تعبير أروع ولا أدق من "السباحة" لدوران الأجرام السماوية في الفضاء البسيط اللطيف.

فالشمس والقمر لا ينبغي لأحدهما أن يترك فلكه الذي حُدِّد له لجريانه ودورانه، والمسافات التي جعلها الله بين مدارات الكواكب بعيدة شاسعة حتى لا تصطدم، وكلٌّ مقدر له أن يسير في فلكه سبحًا فيه، كما عبَّر القرآن الكريم.

ويأتي الإعجاز في وضع الشمس والقمر بالنسبة للأرض. إن الله ﷻ أتقن حركة الشمس والقمر، وقدر بُعْدُهما عن الأرض، فالشمس التي نعدها اليوم وسيلة حياتنا تبلغ درجة حرارة سطحها اثْنَيْ عَشَرَ ألف درجة فِهْرِنْهَيت[2] والمسافة بينها وبين الأرض تبلغ ما يقرب من ٩٣ مليون ميل، وهذا البعد الهائل لا يتغير أبدًا بالزيادة أو النقصان، وفي ذلك عبرة وتقدير من العزيز العليم؛ لأن هذه المسافة لو نقصت واقتربت الشمس من الأرض فإن الحياة تصبح مستحيلة على الأرض، ولو أن هذه المسافة بعدت ـ أيضًا ـ فإن البرودة الشديدة التي تنجم عن هذا البعد سوف تقضي على الحياة على وجه الأرض، ولو حل محل الشمس نجم آخر، فإن الأرض ستصبح تنُّورًا[3] رهيبًا، لا حياة فيه لإنسان أو حيوان، أو نبات أو جماد.

هذا عن الشمس.. فماذا عن القمر؟

إن القمر قد جعل الله له مسافة معينة يبعد بها عن

١. أخرجه الطحاوي في شرح مشكل الآثار (١٠/ ٢٣٤) برقم (٤٠٠٧).

٢. الفِهْرِنْهَيت: مقياس لدرجة الحرارة.

٣. التنُّور: الفُرْن الذي يُخْبَز فيه.

الأرض، ومن هذه المسافة يُنْتفع بالقمر، ويسير الناس في ضوئه ويتغنى الشعراء بطيفه، فماذا لو اختلف بعد هذه المسافة التي عليها الآن؟ إن المد[1] في المحيطات والبحار الذي يرتبط بالقمر كان سيبلغ من القوة بحيث إن جميع الأراضي التي تحت منسوب الماء كانت ستُغمر مرتين في اليوم بماء متدفق يزيح بقوته الجبال نفسها وفي هذه الحالة ربما لم تكن لتوجد الآن القارات، ولكانت الكرة الأرضية من الممكن أن تتحطم من جراء هذه الاضطرابات وكان المد الذي في الهواء سيحدث أعاصير كل يوم.

من الذي قدر هذه الأمور كلها؟ الصدفة العمياء أم قدرة الله الواحد القهار؟

سنضرب مثالًا بسيطًا من الواقع العالمي:

إن الدول الكبرى الآن تتبارى[2] وتتباهى في إطلاق الأقمار الصناعية فهل إذا زعم أحد أن ألف قمر صناعي، أو مائة أو عشرة أو قمرًا واحدًا، خرج من الأرض، وأخذ يسير في مدار مرسوم متزن حول أرضنا نتيجة لتفاعلات كيميائية بين الأسلاك والحديد وبقية المواد المختلفة هل سيجد هذا الإنسان من يصدقه؟ إن الدنيا بأسرها ستسخر من هذا الإنسان؛ لأنه قد أنكر علم العلماء وتقنيات محطات الفضاء، ومهارة الفنيين والمدربين، قمر صغير لا يصدق أحد بأنه نشأ من تلقاء نفسه ويأتي من يزعم من الماديين أن هذا العالم وجد بالصدفة بما يحويه من ملايين من الأفلاك والنجوم والمجرات[3] السابحة في مداراتها المنتظمة، التي يذهب علماء الفلك إلى أن مصادفة مرور نجمين متقاربين لدرجة تكفي لإحداث مدٍّ خفَّاق هدام هي في نطاق الملايين، وأن مصادفة التصادم نادرة لدرجة وراء الحسبان.

إن هذا النظام العجيب والمحكوم القائم على التدبير والتنظيم هو الذي جعل أحد كبار الملحدين وهو "براتراند رسل" يقول: "إننا نجد حتى في مملكة الكواكب عمليات تنطوي على خصائص غائية لا تختلف اختلافًا جوهريًّا عن ملامح السلوك الغرضي في الحيوانات العليا".

أين ذهبت المصادفة التي زعمها رسل وادعى أن تاريخ البشرية كلها قائم عليها؟ إن الإبداع والنظام والتقدير في الكون يجعل كبار الملحدين يعترفون بالقوة العليا المهيمنة والمدبرة والمسيطرة، ولكن يمنعهم من الإيمان بها والدعوة إليها الاستكبار والهوى.

الإنسان:

إن الله ﷻ خلق الإنسان في أحسن تقويم، وسخر له الكائنات كلها، ولفت الله تعالى نظر الإنسان إلى نفسه، وطلب منه أن يتأملها ويتدبر ما فيها من لطيف الصنع وعظيم الغاية، وجاء ذلك في قوله ﷻ: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ (فصلت)، وفي قوله ﷻ: ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (الذاريات: ٢١)،

---

١. المَدُّ: ارتفاع ماء البحر على الشاطئ وامتداده إلى البر، عكسه الجَزْر.

٢. تتبارى: تتسابق.

٣. المَجَرَّات: جمع مَجَرَّة، وهي مجموعة كبيرة من النجوم، بالإضافة إلى غازات وغبار، تتراءى من الأرض كوشاح أبيض يعترض السماء.

ويمتن رب العزة تعالى على الإنسان فيقول: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾﴾ (مريم).

ويذكر الإنسان بالنعم الظاهرة فيقول: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ (الملك). ويقول ﷻ: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ (البلد).

وهذه الآيات في مجموعها تتحدث عن الإنسان وما أودع الله فيه من ملكات، وأعضاء، ويسمي العلماء هذا الدليل: الدليل النفسي.

والحق أن الذي يقرأ ما كتبه المفسرون، وعلماء الإسلام حول ذلك الدليل النفسي يرى أن العلماء لم يهتموا بالجانب الظاهري فقط من هذه النعم، وإنما التفتوا إلى الجانب الباطني في الإنسان، من إلهام وإدراك وشعور وفرح وحزن، وغير ذلك من المدارك والمشاعر التي لا تُرى ولا تُشاهد، وإن الآيات لتشير إلى ذلك في وضوح وجلاء.

ومن العلماء الذين اهتموا بالجانب النفسي في الإنسان من هداية ومعرفة بالله تبارك وتعالى ورجوع إليه الإمام الغزالي في "إحياء علوم الدين"، وهو يذكر أن من أهم نعم الله على الإنسان الأشياء الحاصلة للنفس، وهي من أخص النعم، كالفضائل النفسية التي يرجع حاصلها - مع تشعب أطرافها - إلى الإيمان وحسن الخلق، والإيمان يشمل علم المكاشفة وهو العلم بالله تعالى وصفاته وملائكته ورسله، ويشمل - أيضًا - علم المعاملة مع الخلق، وحسن الخلق الذي يشمل: ترك مقتضى الشهوات والغضب، ويسمى هذا النوع بالعفة، ويشمل مراعاة العدل في الكفِّ عن مقتضى الشهوات.

ويخلص إلى أن "الفضائل الخاصة بالنفس المقربة إلى الله تعالى أربعة: علم مكاشفة، وعلم معاملة، وعفة، وعدالة".

ولم يكتفِ الغزالي بلفت النظر إلى النعم النفسية التي في داخل الإنسان، ولكنه أوْضَحَ النعم الظاهرة التي أنعم الله بها على الإنسان، وأعظم تلك النعم نشأته التي يقف الخلق عاجِزين أمام صنع الله فيها، وتكوينه من نطفة ثم علقة ثم مضغة، والإنسان إذا فكر في عملية تكوينه في بطن أمه وجد آياتٍ وآيات، ذلك الجزء الذي يصنع العين لماذا يصنع العين؟

والجنين لا حاجة له بالعين، وهو في بطن أمه من الذي نَظَّم للإنسان هذا الجهاز البصري ليرى به ما حوله بعد خروجه إلى الحياة؟ من الذي كوَّن للعين أغشية بصرية رقيقة، وعدسة محكمة، وماء زجاجيًّا مقدرًا، وشبكية[1] تتكون إحدى طبقاتها من ثلاثين مليون عود بصري، وثلاثة ملايين مخروط بصري[2]؟

ومن الذي أخبر ذلك الجزء من النطفة أن ينشئ العصب البصري[3]، ويشق له فتحة بقدر محدد في الجمجمة، ويصنع مركزًا بصريًّا في المخ، ويربط به ذلك العصب البصري.

١. الشَّبَكِيَّة: غشاء عَصَبِي مبطِّن لقاع العين، وهو الذي يستقبل المرئيات.

٢. المخروط البصري: تركيب دقيق في الشبكيَّة مسئول عن الضوء والرؤية.

٣. العَصَب البَصَري: العَصَب الذي ينقل الإثارة البصرية من العين إلى جذع الدماغ.

وما يقال في العين يقال في الرئتين، إن الجنين لا حاجة له إلى الرئتين بل لو دخل قليل من الهواء إلى القرار المكين[1] لأحدث فيه أضرارًا بالغة، فلماذا يصنع إذن هذا الجهاز التنفسي لاستقبال الهواء؟ إن الذي صنع وإن الذي قدر هو العالم بما يحتاج إليه الجنين بعد خروجه إلى الحياة، ولا نملك إلا أن نقرأ قوله تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾ (النجم).

وما يُذكر عن الجنين في بطن أمه يُذكر عن الإنسان بعد أن يخرج إلى الحياة، وما فيه من نعم ظاهرة من يدين ورجلين، وسمع وبصر، وإدراك وإحساس، وعقل وإدراك ولقد عرض "الإمام الغزالي" هذه النعم الظاهرة في بيان رائع وأسلوب بديع مبينًا الترابط الذي يأخذ بالألباب بين بعض أعضاء الإنسان وبعضها الآخر.

الإنسان وأعضاؤه في العلم التجريبي:

إذا كان المفسرون وعلماء الإسلام الكبار؛ أمثال الغزالي وابن الوزير وغيرهما الكثير قد لفتوا الأنظار إلى النعم الداخلية والخارجية للإنسان، وبيَّنوا بديع صنع الله فيه، فإن العلماء التجريبيين قد انكبوا على دراسة الإنسان من الناحية العضوية وخرجوا بنتائج لا يملك الإنسانإلا أن يقول: سبحان الله الذي خلق فسوى، والذي قدر فهدى، وفي الوقت ذاته لا يملك إلا أن يسخر من الماديين الذين يقولون بالصدفة، فماذا قال التجريبيون[2]؟

- **مخ الإنسان:**

إن ملايين الأخبار تجري ليل نهار على جهازنا العصبي، وهذه الأخبار هي التي توجه القلب في تدفقه وفي حركاته، وتتحكم في حركات الأعضاء المختلفة، وتتحكم في الحركات الرئوية، ولو لم يكن هذا النظام موجودًا في أجسامنا لصارت الأجسام تلفيقًا مبعثرًا يسلك كل منها مسلكًا خاصًا. ومركز هذا النظام مخ الإنسان، وفيه يوجد ألف مليون خلية عصبية، ومن هذه الخلايا تخرج الأنسجة العصبية، ويجري في هذه الأنسجة نظام إرسال واستقبال للأخبار بسرعة سبعين ميلًا في الساعة، ومن خلال هذه الأنسجة نتذوق ونسمع، ونرى، ونباشر سائر أعمالنا.

- **حاسة الذوق:**

توجد ثلاثة آلاف من الشعيرات[3] المتذوقة، ولكل منها مسلك عصبي متصل بالمخ، وبواسطة هذه الشعيرات يحس الإنسان بالمذاقات المختلفة، ولولا هذه الشعيرات ما شعر الإنسان بطعم حلاوة أو مرارة.

- **حاسة الإبصار:**

يوجد في كل عين مائة وثلاثون مليونًا من الخلايا الملتقطة للضوء تقوم بمهمة إرسال المجموعة التصويرية إلى المخ.

- **حاسة السمع:**

يوجد في الأذن عشرة آلاف خلية سمعية، ومن

---

١. المَكِين: الحصين المَحْمِي.

٢. التجريبيُّون: جمع التجريبي، وهو من يقيم المعرفة على ما تدركه الحواس وحدها، وينكر وجود مبادئ فطرية في النفس وقوانين صادرة عن العقل، ويقابل تلك النظرةَ النظرةُ العقلانية.

٣. الشعيرات: قنوات صغيرة جدًّا تماثل الشَّعْرَة في دِقَّتها.

خلال نظام معقد يسري من هذه الخلايا يسمع مخنا.

- **حاسة الإدراك والإحساس:**

توجد أنسجة حسية على امتداد جلد الإنسان فإذا قربنا شيئًا حارًّا فإن ثلاثين ألفًا من الخلايا الملتقطة للحرارة تحس بهذه العملية وترسلها إلى المخ، وإذا قربنا شيئًا باردًا إلى الجلد فإن ربع مليون من الخلايا يرسل هذا الإحساس إلى المخ فيرتعد عند ذلك الجسم، ثم تتسع الشرايين الجلدية فيسرع مزيد من الدم إليها وتزودها بالحرارة.

- **النظام العصبي:**

وهو في الإنسان يشتمل على عدة فروع منها الفرع المتحرك ذاتيًّا، ويقوم بأعمال الهضم والتنفس، وحركات القلب، وتحت هذا الفرع يوجد نظامان:

أحدهما: النظام الخالق للحركة. ***Sympathetic system.***

الثانى: المانع للحركة. ***Payasy Sympathetic.***

والنظام الثاني يقوم بعملية المقاومة والدفاع. والنظام الأول لو ترك الأمر له لزادت نبضات القلب زيادة يترتب عليها موت صاحبها، ولو ترك الأمر للنظام الثاني لتوقفت حركة القلب توقفًا تامًّا، ولكن توزعت أعمال النظامين بدقة وعناية، فالنظام الثاني يسود عند النوم، فيسود السكون جميع الحركات الجسمية.

وبعد هذه الدلائل الكبرى التي أودعها الله في الإنسان يأتي هِيكِل ويقول: ائتوني بالماء والهواء وسأخلق الإنسان.. هنا يقول: إني سأخلق، فكأن الصنعة لا بد لها من صانع.

يقول كريس مويس: "إن هِيكِل يتجاهل في دعواه الجينات الوراثية[1] فإن أول شيء سيحتاج إليه عند خلق الإنسان هو الذرات التي لا سبيل إلى مشاهدتها، ثم يخلق الجينات أو حَمَلة الاستعدادات الوراثية بعد ترتيب هذه الذرات حتى يعطيها ثوب الحياة، وإن إمكان الخلق بعد هذه المحاولة لا تعدو أن تكون واحدة على عدة بلايين، ولو افترضنا أن هِيكل نجح في محاولته فإنه لن يسميها "صدفة" بل سوف يقررها ويعدها نتيجة لعبقريته".

ومع هذا الادعاء فلم ينجح أحد إلى الآن في خلق نطفة أو خلية حية فضلًا عن الإنسان، وما زال التحدي قائمًا وسيظل: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾ ﴾ (لقمان).

في الدَّواب:

إن نعم الله لا تحصى على الإنسان في الأنعام؛ فقد سخرها الله له، تحمله من بلد إلى بلد، ويلبس من أصوافها وأوبارها، ثم يأكل منها لحمًا، ويشرب منها لبنًا، ولقد وردت آيات في القرآن الكريم تتحدث عن القصد والعناية والغاية من خلق الدواب والأنعام، لا يمكن أن تكون إلا من فعل قادر حكيم عليم.

يقول الله تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ (الأنعام). ويقول تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا

---

١. الجينات الوراثية: جزيئات مادِّيَّة دقيقة توجد في صبغيات الخلية وإليها تُعْزَى الصفات المميِّزة للكائن الحي، وبها تفسَّر قوانين مِنْدل الوراثية.

﴿خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ٦٦﴾ (النحل). ويقول سبحانه عن النحل: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ٦٨ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ٦٩﴾ (النحل).

هذه الآيات يبين الله فيها أنه ما من دابة ولا طائر إلا أمة مثل أمة الإنسان في كونها جماعات، وفي كونها مخلوقات يشبه بعضها بعضًا، ويأنس بعضها ببعض ويتزوج كل جنس مع جنسه، وأن الله دبَّر أمرها وخلقها، وهداها، وتكفل برزقها.

ولقد قام العلماء المحدثون بدراسة سلوك الحيوانات في العقود الأخيرة، وانتهوا إلى وجود جماعات حيوانية حقيقية، ولم يتم اكتشاف تفاصيل هذه التنظيمات إلا منذ عهد قريب، وسوف ندرس بعض الإشارات التي وردت في القرآن الكريم عن الحيوانات والطيور، ومنافعها، وما ألهمه الله هذه الحيوانات والطيور، من إبداع ودقة ونظام.

- **الأنعام:**

إن العبرة التي يلفت الله تعالى نظر الإنسان إليها هي خروج اللبن ذي القيمة الغذائية العالية من بين فَرْثٍ[1] ودم، وإذا كان القدامى من العلماء قد نظروا إلى الآية على أنها من الناحية الظاهرية معجزة من أكبر النعم على الإنسان، فإن العلم الحديث كشف دلالات ما كانت لتخطر على بال أحد أودعها الله في تلك الآية.

ولقد لفت النظر إلى هذه الدلائل اللجنة التي وضعت تفسير المنتخب الصادر عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، وأبرز هذه الدلائل ما أورده موريس بوكاي في كتابه "الأسفار المقدسة في ضوء المعارف الحديثة" يقول في تعليقه على هذه الآية: "تأتي المواد الأساسية التي تتكفل بتغذية الجسم عامة من تفاعلات كيميائية تحدث في القناة الهضمية[2]، وتأتي هذه المواد من عناصر موجودة في محتوى الأمعاء، وعندما تصل هذه المواد الموجودة بالأمعاء إلى المرحلة المطلوبة في التفاعل الكيميائي فإنها تمر عبر جدار الأمعاء نحو الدورة العامة، ويتم هذا الانتقال بطريقتين: إما مباشرة، بواسطة ما يسمى بالأوعية الليمفاوية، وإما بشكل غير مباشر، بواسطة الدودة البابية التي تقود هذه المواد إلى الكبد حيث تقع عليها بعض التعديلات، ثم تخرج من الكبد لتذهب أخيرًا إلى الدورة الدموية[3] بهذا الشكل، إذ يمر كل شيء بالدورة الدموية، والغدد الثديية[4] هي التي تفرز مكونات اللبن وتتغذى هذه الغدد، إذا جاز القول، بمنتجات هضم الأغذية التي تأتي بواسطة الدم الدائر.

الدم إذن يلعب دور المحصل والناقل للمواد المستخرجة من الأغذية، ويُغَذِّي الغدد الثديية منتجة اللبن مثلما يغذي أي عضو آخر، كل شيء يحدث هنا ابتداءً من مواجهة محتوى الأمعاء مع الدم في الجدار

---

١. الفَرْث: بقايا الطعام في البطن.

٢. القناة الهضميَّة: قناة في جوف الجسم تتصل بها أعضاء الجهاز الهضمي، تبدأ بالفم وتنتهي بنهاية القولون النازل، وتضم البلعوم والمريء والمعدة والأمعاء.

٣. الدورة الدَّمَويَّة: دوران الدم في الجسم من الأوردة إلى الشرايين، ومن الشرايين إلى الأوردة.

٤. الغُدَد الثَّدْيِيَّة: غدد تفرز اللبن الذي يرضع منه الطفل.

الأمعائي نفسه، هذه المعلومة المحددة التي تُعدُّ اليوم من مكتسبات الكيمياء وفسيولوجيا الهضم، كانت غير معروفة مطلقًا في عصر النبي ﷺ وإن معرفتها لترجع إلى العصر الحديث، وإنَّ تحدِّي الله للبشر ليظهر في هذه الآية فإن البشرية في أوج تقدمها لا تستطيع أن تخرج لبنًا من بين فرثٍ ودم كما بينت الآية، بهذا الترتيب الدقيق المعجز.

- **النحل والنمل:**

إن النحل والنمل من عجائب المخلوقات، ولقد هداها الله ﷻ إلى أمور يعجز علماء العصر عن أن يرتبوها أو يخططوا لها على هذا النحو.

فالنحل لها مملكة خاصة بها، ولها ملكة تقوم على رعاية شئون المملكة وتدافع عنها، وإن البيت الذي تبنيه النحلة لهو من أعجب العجب في شكله السداسي بالذات دون سائر الأشكال؛ لأن الشكل السداسي إذا انضمت بعض أشكاله إلى بعض صار شكلًا مستديرًا كاستدارة الرحى، ولا يبقى فيه فروج ولا خلل، ويشد بعضه بعضًا حتى يصير طبقًا واحدًا لا يدخل من بيوته رءوس الإبر، مما يعجز عن صنعه البشر، فمن الذي ألهمها ذلك، هل هي الصدفة العمياء أو العزيز العليم؟

ثم الإلهام لها من قِبَل الله أن تتخذ من الجبال بيوتًا ومن الشجر ومما يعرشون، وهو الترتيب الذي يتناسب مع حياة الإنسان فقد ألهمها الله ﷻ أن تكون مستعدة لأن تحيا في الكهوف والجبال مع الإنسان في طوره الحجري يوم كان الإنسان يسكن الكهوف والمغارات، كما ألهمها أن تسكن الأشجار عندما انتقل الإنسان من حياة الرعي والتنقل إلى حياة الزراعة والاستقرار، ثم ألهمها في النهاية أن ترحل إلى الخلية عندما يتعلم الإنسان الصناعة ويتحضر على فنونها.

فالمراحل الثلاث التي ذكرت في سياق الوحي للنحل هي أوامر إلهية لطبيعة النحل أن تستجيب لحاجات الإنسان كلما طوَّر الإنسان حياته، ثم هناك الإلهام الذي يتخاطب النحل عن طريقه، وهو الرقص الذي تعرف بواسطته الاتجاه الذي يجب أن تتخذه، والمسافة التي توجد عليها الزهور التي سيُمتص رحيقها، وأخيرًا العسل الذي يخرج من بطونها بما يحويه من شفاء للناس، وهذا ما قرره علماء العلم الحديث أخيرًا، وصدق الله العظيم الذي قدر فهدى.

- **النمل:**

له شأن آخر في التنظيم والترتيب والهداية، من أول خروج النملة من بيتها للبحث عن الطعام إلى الحصول عليه والرجوع به إلى بيتها، ذلك بأنها تخرج للبحث عن رزقها، فإذا وجدته حملته، فإذا لم تستطع حمله استدعت زميلاتها فيتعاونَّ جميعًا في حمله، وحين تَخْزِينه تنظر إليه فإذا كان مما ينبت فلقته فلقتين، فإذا كان في فلقها إنباتان اثنان عمدت إلى كل فلقة ففلقتها اثنتين، فمن الذي أخبرها أن هذا النبات ينبت في فلقتين وهذا لا ينبت؟ إنه الله تعالى الذي رزقها حاسة شم قوية تدرك بها ما يدركه غيرها بالبصر أو السمع.

والأمثلة لا تحصى على هداية الله للكائنات التي خلقها، والمتأمل في سلوكها وما تقوم به من أفعال لا يمكن أن يقول إنها صادرة عن الصدفة العمياء، وما تفعله ثعابين البحر من هجرات طويلة وعودة صغارها إلى مواطن آبائها الأصلية إلا نموذج لتلك الهداية،

والأمثلة كثيرة في عالم الطيور والزواحف، والحيوانات، وجميعها أدلة تشهد بخالق بارئ مصور خَلَق كل شيء فقدره تقديرًا.

النبات:

من الأدلة البليغة التي تثبت العناية، والقصد في النبات ما ذكره الله في الآيات التي تتحدث عن النبات وعجائب صنع الله فيه وتزاوُجه، نذكر منها:

- قول الله تعالى: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ (الرعد).
- وقول الله ﷻ: ﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ (النحل).
- وقول الله تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ﴾ (الحج).
- وقوله تبارك تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ ﴾ (لقمان).
- وقوله ﷻ: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ (يس).

هذه الآيات في مجموعها تقرر أمرين:

الأول: إعطاء كل نبات خاصية معينة في الطعم والشكل بالرغم من كون النباتات متجاورة متلاصقة، ومع ذلك ترى وهي تُسْقى بماء واحد ومتعرضة لحرارة واحدة، بالرغم من ذلك كله يراها الإنسان متغايرة الثمر في الأشكال، والألوان، والطعوم والروائح، ومتفاضلة في الأكل، منها الحلو ومنها المر، فلو كانت الصدفة هي التي أنتجت هذه الأشياء هل كانت ستراعي هذا التفاضل؟ نقول: كلا وألف كلا، إن الذي خلقها "قادر مريد موقع لأفعاله على وجه دون وجه".

الثاني: التناسل في النبات: ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ (الذاريات: ٤٩)، وإن من عجائب صنع الله في النبات عملية التلقيح والتناسل بين النباتات بعضها بعضًا، لقد كشف العلم الحديث عن أن التناسل في النبات يتم بطريقتين:

١. **جنسية:** وهذه الطريقة هي التي تحدد العملية البيولوجية التي تهدف إلى إظهار فرد جديد مطابق لذلك الذي ولده، ويتم هذا التناسل الجنسي بواسطة تزاوج عناصر ذكرية بعناصر أنثوية تنتهي إلى مكونات التجديد المجتمعة على نفس النبات أو المنفصلة عنه.

٢. **لاجنسية:** وهذه الطريقة يتم التكاثر فيها عن انقسام عضو يكتسب بانفصاله عن النبات الأصلي نموًّا يجعله شبيهًا بذلك الذي خرج عنه.

ولكن كيف، ومتى بدأت هذه العمليات؟ لا يكفي أن يكون هنالك ضوء ومواد كيميائية وهواء لكي ينمو النبات، إن هنالك قوة داخل البذرة تنبثق في الظروف المناسبة تؤدي إلى قيام كثير من التفاعلات المتشابكة، إن تلك البذرة تتكون من أعداد لا حصر لها من العناصر

والعمليات، وتكون نباتًا جديدًا يكون له مثل صفات النبات الذي يخرج عنه بحيث لا تنتج حبة القمح إلا قمحًا، ولا بذرة البرتقال إلا برتقالًا، وعلى الرغم من التشابه القريب جدًّا بين أنواع النباتات إلا أن لكل نبات صفاته ومميزاته وخواصه، إن كل هذه الترتيبات تدل على نظام رائع، وجمال لا مثيل له ولا حدود له، كل هذه العجائب يراها الإنسان أينما اتجه في عالم النبات العجيب.

ونحن لا نملك إلا أن نردد قول الله ﷻ: ﴿صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍ﴾ (النمل: ٨٨)، وقوله ﷻ: ﴿هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ١١﴾ (لقمان).

استحالة المصادفة من الناحية العملية:

يعد هذا التنويع من الدلائل التي تثبت بما لا يدع مجالًا للشك أن القول بالصدفة خرافة الماديين، فإننا نعمد في هذه السطور لنأخذ من علم الحساب والإحصاء خطأ القول بالمصادفة من الناحية الرياضية، ولقد أورد كريسي موريسون رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك مثالًا يوضح ذلك، يقول: "لنفترض أن معك كيسًا يحوي مائة قطعة من الرخام، تسع وتسعون منها سوداء، وواحدة بيضاء، والآن هز الكيس، وخذ منه واحدة: إن فرصة سحب القطعة البيضاء لا تزال بنسبة واحد إلى مائة غير أن فرصة سحب القطعة البيضاء مرتين متواليتين هي بنسبة واحد إلى عشرة آلاف، والآن جرب مرة ثالثة: إن فرصة سحب تلك القطعة البيضاء ثلاث مرات متوالية هي بنسبة مائة إلى عشرة آلاف مرة بنسبة واحدة من المليون ثم جرب مرة أخرى أو مرتين تصبح الأرقام فلكية".

هذا مثال واقعي من الممكن أن يقوم به أي إنسان في بيته، فلننقل هذا المثال إلى خلق الكون بالمصادفة، ولنجرب عليه ما حدث في قطع الرخام، فسوف ينتج لنا ما لا يُتَصور بأي مقياس من المقاييس.

إن البروتينات من المركبات الأساسية في جميع الخلايا الحية تتكون من خمسة عناصر هي: الكربون[1] والأيدروجين، والنيتروجين[2]، والأكسجين، والكبريت[3]، وعدد الذرات في الجزيء البروتيني الواحد ٤٠٠٠٠ ذرة، وعدد العناصر الكيميائية في الطبيعة ٩٢ عنصرًا موزعة توزيعًا عشوائيًّا، واحتمال اجتماع هذه العناصر الخمسة لكي تكون جزيئًا من جزيئات البروتين يمكن حسابه لمعرفة كمية المادة التي ينبغي أن تُخلط خلطًا مستمرًا لكي تؤلف هذا الجزيء، ثم لمعرفة طول الفترة الزمنية اللازمة لكي يحدث الاجتماع بين ذرات الجزيء الواحد.

ولم تقف محاولة العلماء عند حد، فقد قام العالم

---

١. الكربون: عنصر لا فِلزِّي، أساسي في تكوين الفحم بجميع أنواعه، يوجد على صور مختلفة؛ بعضها متبلور كالفحم، وبعضها غير متبلور كالماس، ويدخل في تركيب جميع الكائنات الحيَّة.

٢. النيتروجين: عنصر غازي، يشكل ما يُقارب خُمس الهواء بالكتلة، لا لون له ولا رائحة، يدخل في العديد من المعادن وفي البروتينات، ويستخدم بشكل واسع في كثير من الصناعات المهمة؛ منها الأمونيا، وحمض النتريت، والأسمدة.

٣. الكِبْريت: مادة معدنية لا فلزيّة، صفراء اللون، هشَّة، لا تنحل في الماء، عديمة الطعم والرائحة، شديدة الاشتعال، ذات لهب أزرق، توجد حول البراكين، تدخل في صناعة البارود الأسود، ومبيدات الحشرات، وتركيب بعض المستحضرات الصيدليّة؛ كالأدوية والمراهم، وفي صناعة الثِّقاب.

الرياضي السويسري "تشارلز يوجيه جاي" بحساب هذه العوامل جميعها، فوجد أن الفرصة لا تتهيأ عن طريق المصادفة لتكوين جزيء بروتيني واحد إلا بنسبة واحد إلى رقم عشرة مضروبًا في نفسه ١٦٠ مرة، وهو رقم لا يمكن النطق به أو التعبير عنه بكلمات، وينبغي أن تكون كمية المادة التي تلزم لحدوث هذا التفاعل بالمصادفة لإنتاج تكوين هذا الجُزَيء على سطح الأرض وحدها بطريق المصادفة بلايين لا تحصى من السنوات قدَّرها العالم السويسري بأنها عشرة مضروبة في نفسها ٢٤٣ مرة من السنين.

كم يحتاج خلق الإنسان؟ كم يحتاج خلق الحيوان؟ إذا كانت هذه الأرقام من أجل إنتاج خلية حية واحدة، ومن العجيب أن ينسب المادي الكون إلى المصادفة ولا ينسبه إلى الله، بالرغم من أن الإمكان الرياضي في توفر العلل اللازمة للخلق عن طريق الصدفة في نسبتها الصحيحة هو ما يقرب من لا شيء[®].

القسم الثالث: القائلون بالتطور[1]:

وهذه الشبهة نتائجها متضمنة في الشبهتين السابقتين؛ إذ إنها في التحليل النهائي تهدف إلى أن الكون أزلي أبدي، وأنه وُجد بنفسه بدون خالق، وأن الأحياء تتطور من جماد إلى حيوان، ومن حيوان إلى إنسان.

والقول بالتطور ليس من مبتدعات الماديين المحدثين، ولكن يعود القول بالتطور إلى الطبيعيين الأوائل في اليونان، فقد أشاروا عرضًا إلى التطور، وصرح به أنكسمندر في تفسيره لنشأة الكون، حيث زعم أن الأحياء تطورت بعد أن تولدت من التراب، والماء والهواء، فالكائنات كانت في الأصل سمكًا، ثم تطورت إلى الأنواع المختلفة التي نراها، والإنسان منحدر من حيوانات مائية مختلفة عنه بالنوع حملته في بطنها زمنًا طويلًا.

وفي الفلسفة الحديثة عُرف القول بالتطور عند لامارك الفيلسوف الفرنسي ١٧٤٨ ـ ١٨٢٩ م، وعُرف كذلك عند ديدور ١٧١٣ـ ١٧٨٤م، ولكنه اشتهر وارتبط باسم الفيلسوف الإنجليزي تشارلز داروين ١٨٠٩ ـ ١٨٨٢م، الذي ذهب إلى أن الباحث الطبيعي إذا تدبر أصل الأنواع وأنعم النظر فيما يقع بين الكائنات العضوية انتهى به البحث إلى أن الأنواع لم تُخلق مستقلة منذ البدء، بل نشأت من أنواع أخرى، وقد اعتمدت نظرية"داروين" في المقام الأول على مجموعة من الحفريات، ومجموعة من الأحياء البحرية، ومن هذه وتلك وُجِدَ هناك تشابه عميق بين الأحياء بعضها وبعض، فخطر له فرض مؤقت هو تطور هذه الأنواع على الرغم من أن لها أصلًا واحدًا أو بضعة أصول نمت وتكاثرت وتنوعت في زمن مديد بمقتضى قانون الانتخاب الطبيعي، هذا عن الكائنات الحية.

أما عن الإنسان فقد ترك داروين مسألة الإنسان معلقة، ولكنه عاد فرأى أن ليس هناك من موجب لاستثنائه من قانون التطور، وقد تبعه في هذه النظرية كثير من الفلاسفة الماديين منهم توماس هكسلي

® في **"تأكيد العلم الحديث مبدأ الغائية في الكون"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الثانية والثلاثين، من الجزء السابع (الإيمان والتدين).

١. العقيدة الإسلامية في مواجهة التيارات الإلحادية، فرج الله عبد الباري، مرجع سابق، ص٩٧.

وأرنست هكل وذاعت هذه النظرية ذيوعًا كبيرًا في الأوساط العلمية بالرغم من عدم علميتها.

الرد على التطوريين:

١. **من القرآن:**

لقد عرضنا نماذج من الآيات القرآنية التي أوضحت أن الكون لم يكن شيئًا ثم كان بأمر الله، وأردفنا ذلك بمقررات العلم الحديث التي أثبتت عدم أزلية الكون واستحالة صدور الكون عن مادة لا حياة فيها، **وهنا نؤكد أمرين:**

الأول: أن الله ﷻ أعلن الإبداع في خلق الأشياء كلها في قوله تعالى: ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ (الذاريات)، وهذه الآية وغيرها كثير من الآيات في القرآن ترد على الذين يقولون بالتطور من النبات إلى الحيوان، ومن الحيوان إلى الإنسان.

الثاني: أن الله ﷻ قد سَخِرَ من الذين يقولون ذلك ونفى عنهم العلم، يقول تعالى: ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾ (الكهف)، فالذين يتحدثون عن تطور الكائنات بعضها من بعض لم يشاهدوا خلق هذه الكائنات، ولو سألنا واحدًا منهم هل شاهدت نباتًا تحول إلى حيوان؟ سيجيب بالنفي، ولو سألنا آخر هل شاهدت قردًا تحول إلى إنسان؟ سيجيب بالنفي.

وحينئذٍ يقعون في التناقض؛ لأن العلم الذي يبنون عليه إلحادهم، ويتبجحون بنتائجه، ويقوم على التجربة والحس والمشاهدة يتناقض مع ما يدعونه؛ لأنه يتنافى مع أبسط قواعد البحث العلمي وهو التحقق من صحة الفروض، وهم لم يتحققوا بعد من فروضهم حول التطور، فكيف ينادون بنظرية التطور على أنها حقيقة؟

حقائق القرآن اليقينية عن خلق الإنسان:

إن أول ما نبدأ به حديثنا عن خلق الإنسان هو آدم عليه السلام.

الله ﷻ يقرر أنه خلق آدم من تراب وقبل ذلك لم يك شيئًا، يقول تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ (الحجر)، وهذه الآية تبين أن آدم مخلوق بإرادة الله، ولم يتطور عن نبات أو حيوان، وبعد أن خلقه خلق زوجه حواء، على اختلاف بين المفسرين هل خلقت من ضلعه أو خلقت من جنسه، ومعرض اختلافهم حول تفسير قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ (النساء).

فهل النفس هنا يقصد بها آدم أم أن النفس هنا بمعنى الجنس، أي من جنس واحد؟ ولن نعرض لاختلافهم، فالذي يهمنا هو أن آدم وحواء هبطا من الجنة أسوياء مخلوقين لا متطورين عن شيء آخر، وهذا إن دل فإنما يدل على أن آدم عليه السلام ظهر في أعلى مراحل النضج البشري، يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ ۖ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي

أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ (البقرة).

وشيء آخر نضيفه قبل أن نترك آدم عليه السلام وهو أن إرادة الله لا تخضع لنواميس البشر ومقاييسهم، وإلا فماذا يقول التطوريون في خلق عيسى عليه السلام الذي شبهه الله بخلق آدم عليه السلام.

هذا ما يتعلق بخلق آدم وأنه مخلوق بداية ولم يتطور عن شيء. أما سائر البشر فإن الله قد أشار إلى خلقهم منذ أن كانوا نطفة إلى أن اكتملت صورتهم وحَسُنَ خَلْقُهُم، يقول الله تبارك تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ (المؤمنون).

هذه الآية وغيرها كثير من الآيات التي تتحدث عن الإنسان ومراحل خلقه المختلفة، منذ أن كان سائلًا منويًّا إلى كمال تكوينه، توضح أن الإنسان مزود من قبل الله تعالى بخصائص معينة تظهره في أحسن صورة، ولا مجال للتداخل على الإطلاق بين الحيوان والإنسان؛ لأن كلًّا منهما خَلْقٌ مستقل عن الآخر، فلا يمكن للحيوان أن يتجاوز نوعه، ولا يمكن للإنسان أن يتجاوز نفسه، فهما خلقان، والإنسان مميز بالنفخة الإلهية التي صار بها إنسانًا مسخرًا، له ما في الأرض جميعًا، مجهزًا لحمل الأمانة التي كلفه الله بها، فالأطوار التي يمر بها الإنسان، سواء وهو في بطن أمه أم بعد خروجه للحياة، لا تمت للتطور الذي يتكلم عنه التطوريون بصلة، فهذه المراحل والأطوار لا تعدو أن تكون نموًّا للإنسان من النطفة إلى العلقة إلى المضغة، وكذلك من الطفولة إلى الصبا إلى الشباب إلى الكهولة إلى الشيوخة، وهذه الأطوار لم تخرجه عن كونه إنسانًا فيه كل مقومات الإنسان، يشير إلى هذا موريس بوكاي في قوله: "إن مقولات القرآن عن التناسل البشري تعبر في ألفاظ بسيطة عن حقائق أولية أنفقت البشرية مئات السنين لمعرفتها".

أما ما يستند عليه التطوريون في دعواهم من وجود تشابه بين الإنسان والإنسان، وبينه وبين الحيوان، فلا ينهض دليلًا على التطور وإنما يستخدم شاهدًا على قدرة الله عز وجل فإنه على الرغم من هذا التشابه؛ فإن لكل إنسان صورة تختلف عن صورة الآخر، هذا فضلًا عن أن البشرية كلها منذ خلقت إلى أن يفنى العالم لن يجد فيها العلماء بصمات إنسان مشابهة لبصمات إنسان آخر على امتداد تاريخ البشرية كلها، فمن الذي أوجد هذا الاختلاف؟ العناصر المتطورة التي لا تحس ولا تشعر أم الله الخالق البارئ المصور؟ إنه الله الذي خلق فسوى، والذي قدر فهدى.

إن دعاة التطور لا دليل لهم من عقل أو حس، يقول الأفغاني: "من واهياته ما كان يرويه دارون عن جماعة كانوا يقطعون أذناب كلابهم، فلما واظبوا على عملهم هذا قرونًا صارت الكلاب تولد بلا أذناب، كأنه يقول حيث لم تَعُدْ للذَّنبَ حاجة كَفَّت الطبيعة عن هبته، وهل يُصْمِت إذن هذا المسكين خبر العبرانيين والعرب، وما يقومون به من الختان لآلاف السنين وإلى الآن لم يولد واحد منهم مختونًا إلا لإعجاز".

وسوف يتضح لنا تهافت نظرية التطور من خلال

العلم الحديث عند عرضنا لنقد نظرية التطور.

٢. العلم الحديث ونقده لنظرية التطور:

بعد أن قدمنا وجهة النظر الإسلامية وهي من وجهة نظرنا كافية لإبطال نظرية التطور، إلا أننا نريد أن نتبع وجهة النظر القرآنية بما انتهى إليه العلم من نتائج حول التطور.

ونحن حين نعرض وجهة النظر الحديثة فإنما نعرضها لأمرين:

الأول: أن الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها فهو أحق بها.

الثاني: هو كما يقول أستاذنا د. عبد الله الشاذلي: إن إبطال بعض الآراء العلمية بما يناقضها في نفس المجال وبنفس المنهج العلمي ذاته يجعلها تتناقض، ويترتب على ذلك أن تتأرجح وتسقط؛ ولأن بعض البشر يميلون إلى سماع آراء المعارضين، ومن ثمَّ فإن سماع وجهة النظر الغربية في بطلان القول بالتطور لا يعد تدعيمًا لوجهة نظر القرآن، وإنما هو اعتراف بالحقيقة التي أقرها القرآن الكريم.

وتتلخص وجهة النظر الغربية في نقد التطور في الآتي:

١. إن هذه النظرية ظنية وليست قائمة على التجربة أو المشاهدة، ونظرية التطور لم يلاحظها أحد أو جربها في معمله؛ لأن ذلك ضرب من المستحيل، فهي نظرية معقدة فضلًا عن أنها تتعلق بماضٍ سحيق جدًّا موغل في القِدَم؛ ولذلك فإن أصحابها يتعاملون معها لا على أنها فرض علمي، أو تجربة علمية، ولكن على أنها عقيدة، يقول السير آرثر كيث: "إن نظرية الارتقاء عقيدة أساسية في المذهب العقلي". وتعرف - أيضًا - في أحد المعاجم العلمية بأنها "نظرية قائمة على تفسير بلا برهان".

٢. لقد ألف مجموعة من العلماء كتابًا تحت عنوان "خلق لا تطور" وانتهوا فيه إلى ما يأتي:

- الجماد غير قادر على تحسين نفسه، بل هو على الضد يميل إلى التجرد أو الاستقرار، ولا فائدة من الاعتماد على طول الزمن؛ لأن طول الزمن يؤدي إلى الانحلال والتفكك، وبسبب انقراض المعادن وتفتت الصخور، وعلى هذا فالزمن عامل رئيسي للهدم وليس للبناء، ومن ثم فالزمن هو العدو الأول للتطور، وليس سلاحًا يتسلح به التطور، وعلى عكس ما يزعم دعاة التطور.

- هناك إجماع من العلماء المشتغلين بالأحياء على أن الحياة لا بد أن تأتي من الحياة، وليس هذا فحسب، وإنما الإجماع منعقد على أن كل كائن حي يأتي بمثله، ولذلك فإن الاستدلال بقانون الانتخاب الطبيعي[1] يفسر عملية بقاء الأصلح، ولا يمكن - أبدًا - أن يفسر حدوث هذا الأصلح، وهذا ما جعل العلماء يذهبون إلى أن التطور هو أحد السنن الكونية والذي يحتاج إلى من يبدعه، فهو - إذن - من خلق الله وصنعه.

إن كل ما يفعله الانتخاب الطبيعي هو أنه إحدى الطرق التي تسلكها بعض الكائنات في سبيل البقاء، أو الزوال عن طريق الحياة، والتكاثر بين الأنواع المختلفة أما الأنواع ذاتها التي يتم فيها الانتقاء فإنها تنشأ عن

١. الانتخاب الطبيعي: نظرية داروين القائلة بأنّ بقاء الأنواع الحيوانية والنباتية لأفضلها تكيُّفًا مع البيئة، ومنها نظرية تنازع البقاء.

خطوات تخضع لقوانين تسير بعناية وتدبير، ولا تخضع للصدفة العمياء.

الإصرار على الكفر هو سبب تمسك الماديين بنظرية التطور:

والسؤال الذي يطرح هنا إذا كانت نظرية التطور غير ثابتة علميًّا فلماذا التمسك بها والإصرار عليها من جانب الماديين؟

وإن تعجب فعجب قولهم: إن العلماء الماديين يعترفون بأن النظرية ما هي إلا فروض لم تتحقق، ولكن التخلي عن نظرية التطور سيجعلهم يؤمنون بخالق للكون، وهم لا يريدون ذلك، ومن ثَمَّ فهم يفضلون اتباع الظن على اتباع الحق، هكذا يقولون.

يقول آرثر كيث: "إن نظرية النشوء والارتقاء غير ثابتة علميًّا ولا سبيل إلى إثباتها بالبرهان، ونحن لا نؤمن بها إلا لأن الخيار الوحيد بعد ذلك هو الإيمان بالخالق الخاص المباشر، وهذا ما لا يمكن حتى التفكير فيه".

وهذه هي إرادة الإلحاد، وهذا هو الكبر والتعصب للباطل، فماذا يقال لهؤلاء من برهان وإقناع؟ ثم ماذا يناقشون وقد عرفوا الحق وأعرضوا عنه؟

ثالثًا. الفطرة تتجه إلى الخالق وتؤمن بوجود الله:

كل مولود يولد على الفطرة، والفطرة بذاتها تتجه إلى الله عالمة بوجوده ﷻ، ومؤمنة بأنه إله واحد لا يوجد في الكون كله سواه.

كيف تهتدي الفطرة إلى خالقها؟

إن الله ﷻ يخبرنا في كتابه أنه حين خلق الخلق عرَّفهم بنفسه، وبأنه ـ جلَّت قدرته ـ هو ربهم الذي خلقهم، والذي ينبغي أن يدينوا له ـ سبحانه ـ بالعبودية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ (الأعراف).

والرسول الكريم ﷺ يخبرنا كذلك: "ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه، أو يُمَجِّسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء، ثم يقول أبو هريرة ـ راوي الحديث: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ (الروم: ٣٠)[(1)].

والحقيقة أن الفطرة البشرية تتيقظ لوجود الخالق في سن مبكرة جدًّا، أصغر بكثير مما نظن!

فنحن نظن عادة أن الشخص الكبير وحده هو الذي يتفكر في وجود الله تبارك وتعالى وفي وحدانيته، ولكننا إذا لاحظنا حياة الطفل الصغير نجد أنه في مرحلة معينة من عمره يبدأ يسأل والديه أسئلة لا تنتهي:

من الذي عمل السماء؟ لماذا كانت السماء زرقاء؟ أين تذهب الشمس في الليل؟ لماذا لا تظهر الشمس لنا في الليل؟ أين يذهب النور حين يأتي الظلام؟ لماذا تلمع النجوم؟ أين تنتهي الأرض؟ لماذا كانت هذه الزهرة ذات رائحة والزهرة الأخرى ليس لها رائحة؟ من أين جئتُ؟ أين كنت قبل أن أجيء؟... إلخ.

فما معنى هذه الأسئلة في الحقيقة، وما دلالتها؟

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه؟ (١٢٩٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة (٦٩٢٨).

إن دلالتها الحقيقية أن فطرة هذا الطفل قد بدأت تستيقظ، بدأت تتعرف على خالق السماوات والأرض من خلال مخلوقاته المشهودة المحسوسة، بدأت رويدًا رويدًا تتعرف على حقيقة الألوهية التي أشهدها الله عليها منذ خلقها، وبدأ إدراكها لها ينمو كما تنمو البذرة الكامنة في باطن الأرض، حتى تترعرع وتخضرّ[1] ®.

أصل قضية الإلحاد وكيف نشأت:

وفي كتابه "الإسلام والعقل" يعرض لنا د. عبد الحليم محمود مسألة الإيمان والإلحاد عرضًا رائعًا في الفصل السادس تحت عنوان "تأملات في الإيمان والإلحاد"[2].

يقول: يخلط كثير من الناس بين التوحيد وإثبات وجود الله، وهما أمران بان - في وضوح - اختلافُهما واختلاف موقف الإسلام منهما، إذ إن الإسلام استفاض استفاضة كثيرة في إثبات التوحيد؛ وذلك لأنه حق لا مرية فيه، ويقين لا شك فيه، وقد عَمِي عنه الوسط الذي كان بجزيرة العرب فأشركوا بالله.

أما موقف الإسلام بالنسبة لإثبات وجود الله؛ فإنه مختلف اختلافًا كبيرًا عن موقفه بالنسبة لإثبات التوحيد.

إن القرآن لم يتحدث عن إثبات وجود الله: إن الله في العرف الإسلامي، وفي أعراف أصحاب الفِطَر السليمة موجود، ووجوده لا يتمارى فيه اثنان، ومع ذلك فإن الوضع الحالي في جميع الأجواء الشرقية والغربية، قد ألف نزعة ترى أن إثبات وجود الله مسألة تحتاج إلى برهان، وهذه النزعة الناشئة عن التعود في حاجة ماسة إلى بيان الوضع الصحيح في هذا الموضوع الخطير، ومن أجل ذلك نرى من الواجب علينا معالجة هذا الموضع في شيء من الاستفاضة.

يقول الله ﷻ عن جوهر رسالة نوح عليه السلام في العقيدة: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢٥) أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۖ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٢٦) ﴾ (هود). ويقول ﷻ عن جوهر رسالة صالح في العقيدة: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ (هود: ٦١). وعن جوهر رسالة شعيب في العقيدة: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ (هود: ٨٤).

وهكذا في رسالة جميع الأنبياء إذ يقول الله تعالى في تعميم مطلق: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥) ﴾ (الأنبياء).

إلام تشير هذه الآيات؟ إنها لا تتحدث عن إثبات وجود الله، وإنما تتحدث عن الشرك، أي الاعتقاد في آلهة كثيرة.

ولقد كانت الثورة ضد الشرك وتحطيم الأصنام من المهام الكبرى في الرسالة الإسلامية، حتى إن العالِم الكبير أبا الريحان البيروني حينما أخذ يبين الطابع الأصيل لكل دين قال عن الإسلام: "إن الطابع الأصيل للإسلام إنما هو التوحيد".

وإذا كان البيروني حينما تحدث عن طابع كل دين،

---

1. ركائز الإيمان، محمد قطب، مرجع سابق، ص١٤، ١٥.

® في **"الأدلة على وجود الله"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثانية، من الجزء السابع (الإيمان والتدين).

2. الإسلام والعقل، د. عبد الحليم محمود، مرجع سابق، ص٨٦: ١٠٤.

إنما يتحدث عن طابع الأديان في وضعها الراهن، فإنه مما لا شك فيه أن الشرائع ـ على الرغم مما ذكره البيروني عن سماتها المختلفة ـ تشترك جميعها في مبدأ التوحيد.

وكل نبيٍّ بَشَّر بالتوحيد، ولكن الإنسانية كانت تنحرف بالعقيدة بعد موت الرسول من التوحيد إلى الشرك، والشرك إسراف خاطئ في الإيمان، وما كانت الإنسانية تنحرف قط من التوحيد إلى الإلحاد، وما كان للإلحاد وجود قط فيما قبل الحضارة اليونانية القديمة.

ونشأ الإلحاد ـ انحرافًا فطريًّا ودينيًّا ـ مع الحضارة اليونانية القديمة، نشأ يجاور الشرك ويجاور التوحيد، لقد كانت هذه الحضارة تشتمل ـ في العقيدة ـ **على ثلاثة تيارات:**

١. الشرك: وهو دين الدولة الشائع، وتقاليدها الراسخة، يتمثل في فنها الذي يمثل الشرك في قوة، والذي أثار الإعجاب للإتقان الذي كان يتمثل فيه، والذي ما زال يثير الإعجاب إلى الآن، ويتمثل في أدبها الذي يعكس صورة لعقيدتها، وتاريخ اليونان الفكري والأدبي مليء بصور الشرك المختلفة، مفعم بالوثنية، ولكن الشرك في اليونان ـ كغيره من ألوان الشرك ـ أعطى للآلهة صورة غير كريمة تتناسب مع مكانتها، بل لقد وصل بها ـ أحيانًا ـ إلى صورة تنحط عن صورة البشرية الآثمة.

أرأيت الآلهة ترتشي وتظلم وتزني؟

لقد كانت هذه بعض صور الآلهة في اليونان القديمة، وهي صور أساغها الإلف والتكرار والعادة، وشب عليها الأطفال والشبان فلم تثر انتباههم أو توقظهم، وفي فترة من فترات هذه الحضارة ـ فترة القرن الخامس، والرابع، والثالث قبل الميلاد على الخصوص ـ نشأت مجموعة من العباقرة لا تكاد تحصى، وكأن السماء في هذه الفترة تمطر عباقرة على تفاوت فيما بينهم في الاتجاه وفي المكانة.

هؤلاء العباقرة أكثرهم استقر على رفض الشرك، أي رفض الدين الرسمي الشائع للدولة، ولو قدر الله لليونان إذ ذاك دينًا صادقًا لاستمسكوا به، وما تردت الإنسانية في الأخطاء الكثيرة التي نشأت عن الحضارة اليونانية في عالمها الفكري الذي انفصل عن الوحي لا من اختيار ورغبة، وإنما على أسف شديد لفقدان الوحي والرسالة الصادقة.

يدلنا على هذا الأسف، وعلى تقديرهم للوحي، قصة يرويها التاريخ حدثت في عهد سقراط، وهي قصة عميقة في مغزاها كل العمق: جلس سقراط ومعه اثنان من كبار فلاسفة المدرسة الفيثاغورية المشهورة التي أسسها فيثاغورس الفيلسوف الصوفي الكبير، جلس ثلاثتهم يبحثون في جد واهتمام موضوع مصير الروح بعد الموت: هل الموت هو الخطوة الأخيرة للإنسان ينتهي بعده روحًا وجسدًا، أو إنه انتقال من حال إلى حال والروح باقية؟ هل الإنسان خالد بجوهره وهو الروح، أو إنه فانٍ جسمًا وروحًا؟ وأجهدهم البحث، وانتهى بهم إلى عدة براهين تثبت خلود الروح، وأنها لا تفنى بفناء الجسم، وسكنوا يستريحون قليلًا، ولكنهم في فترة راحتهم أخذوا يتدبرون ما انتهوا إليه، ثم قال أحدهم ـ نتيجة لتأمله ـ ولكن المسألة ما زالت في حاجة إلى مزيد من اليقين.

ولقد كان ذلك هو ما انتهى إليه الآخرون في

تأملهم، وقال أحدهم معقبًا على ذلك: "ولكن هذا نهاية شوط العقل". وأسِفوا جميعًا على أنه لم ينزل وحي، يفصل في هذا الموضوع.

ثم أخذ أحدهم يتحدث عن تشبيه دقيق يتعلق بوسيلة العبور في محيط ما وراء الطبيعة، والمحيط المادي إنما يتأتى في أعراف الناس عن طريقين:

أحدهما: السفينة يعبر بها الإنسان المحيط آمنًا مطمئنًا من شاطئ إلى شاطئ.

أمّا الثاني: فإنه لوح من خشب، مصير راكبه الغرق في أغلب الظن.

ووسيلة عبور محيط ما وراء الطبيعة هي الوحي، وهو السفينة الآمنة المتينة، أما فهو العقل وهو لوح الخشب الذي لا يصل في أغلب الظن إلا إلى غرق راكبه.

ولقد كان فلاسفة اليونان في لهفة على أن ينزل عليهم الوحي في جدته ونضرته وصدقه، ولم يقدر لهم ذلك، ورفضوا الشرك، دينهم الرسمي، فما هو البديل؟ إنه لوح الخشب. وركبوه: ركبه سقراط، وركبه أفلاطون، وركبه أرسطو، وركبه من قبلُ السوفسطائيون[1]، وركبه من بعد أبيقور، وركبه الرواقيون[2]، إلام وصل بهم؟ لقد وصل بهم إلى:

١. السوفسطائيون: فرقة تنكر الحِسِّيَّات والبدهيَّات وغيرها، وتُعْنَى بالجدل والتلاعب بالألفاظ بقصد الإقناع، وهي فرقة يونانية قديمة عارضها سقراط وكشف عن مغالطتها.

٢. الرُّواقيُّون: جمع رُواقي، وهو المنسوب إلى الرواقية، وهي صورة من صور مذهب وحدة الوجود، اشتهرت بآرائها الأخلاقية التي تخضع الخير الأسمى للعقل، وهم من أتباع زينون الفيلسوف اليوناني؛ لأنه كان يعلمهم في رُوَاق، وهم يرون أن السعادة في الفضيلة، وأن الحكيم لا يبالي لَذَّة أو أَلَمًا.

٢. **التوحيد:** فيما رأى سقراط وأفلاطون وأرسطو وكثير غيرهم.. وهذا هو التيار الثاني الذي كان في اليونان في عصرها القديم، بيد أن توحيد هؤلاء ليس هو التوحيد كما نزل على لسان الصادقين المعصومين صلوات الله عليهم وسلامه، ولم يمثل توحيد المدرسة السقراطية في جزئياته وفي تفاصيله التوحيد الصادق.

٣. وأدى بهم في فريق آخر إلى **الإلحاد**، الإلحاد المطلق، الإنكار لما بعد الطبيعة وللبعث والرسالة، وكان ذلك على لسان "أبيقور" ومن لف لفه في اليونان، ومن قبله أو في زمنه، أو من بعده.

لقد فقدوا في منطقهم الميتافيزيقي[3] الاعتماد على الوحي الإلهي فَقَادَهم ذلك إلى مسالك شتَّى، ولو كان هناك وحي لقادهم وقاد عقولهم إلى الشاطئ في أمن وسلام.

ومنذ هذه اللحظة دخل الإلحاد في العالم مبتدئًا من اليونان، وأصبحت مسألة التدين في الجو الفكري المتابع لهذا التيار اليوناني مسألة عقلية لا شأن لها بالوحي، وأخذت تسير في مجراها العقلي العادي.

المؤمنون يبرهنون عقليًّا على إيمانهم، والملحدون يزيفون المنطق برهنة على إلحادهم، لقد أخذت المسألة في هذا الطريق مع أنها شعور وفطرة وبداهة، وما من شك في أنه كان للمؤلفين منطق جميل في الإثبات، نذكر منه شيئًا من إثبات سقراط.

قال سقراط لصاحبه الذي ينكر وجود الله: أي الناس من يعجبك براعته في الصنائع؟

٣. الميتافيزيقا: فرع من الفلسفة يبحث في الموجود الذي خرج من عالم الواقع إلى عالم المعقول.

فقال: نعم، وسمّى من الشعراء والمصورين ممن كان يعده أبرع من غيره.

فقال سقراط: أيهما عندك أرفع شأنًا؟ أمن يصنع التماثيل العارية عن الحركة والعقل، أو من يصور الأشباح الحية المتحركة؟

فقال: من يصنع الصور الحية، اللهم إلا إذا كانت تلك الصور من عمل المصادفة والإتقان، لا من عمل العقل.

قال سقراط: إذا فرضنا أشياء لا يظهر المقصود منها، وأشياء أخرى بينة القصد والمنفعة، فما قولك في تلك الأشياء؟ وما هي التي عندك من فعل العقل؟ وما هي التي عندك من فعل الإتقان؟

قال: لا شك أن ما ظهر قصده ومنفعته من فعل العقل.

قال سقراط: أولست ترى أن صانع الإنسان في أول نشأته جعل له آلات الحس لما في تلك الآلات من المنفعةالظاهرة؟ فأعطاه البصر والأذنين ليبصر ويسمع ما يكون لعيشه صادقًا، وما فائدة الروائح لو لم تكن لنا الخياشيم؟ وكيف ندرك المطاعم ونفرق بين الحلو والمر ولو لم يكن لنا لسان نذوق به؟ إن بصرنا معرض للآفات.

أولست ترى كيف اعتنت القدرة الإلهية بذلك، فجعلت الأجفان كالأبواب لتمنع ما يصيب البصر، وجعلت الأهداب كالمناخل لتقيها من أضرار الرياح؟ وما قولك في آلة السمع، وهي تقبل جميع الأصوات ولا تمتلئ أبدًا؟.

أما رأيت الحيوانات، كيف رتبت أسنانها الأمامية، وأعدت لقطع الأشياء فتلقيها إلى الأضراس فتدقها دقًّا؟ فإذا تأملت في ترتيب ذلك، أيمكنك أن تشك: هل هي من فعل الإتقان أم من فعل العقل؟

قال أرسطو ديموس: نعم إذا تفكرنا في ذلك لا نشك في أنها من فعل صانع حكيم كثير العناية بمصنوعاته.

ومهما يكن في هذا الاستدلال من جمال، ومهما يكن في استدلال المؤلهين العقليين[1]، أمثال أفلاطون وأرسطو وديكارت من قوة، فإن في المسألة مع ذلك انحرافًا مهدت له ظروف اليونان التي فقد فيها الوحي، وهذا الانحراف لم يجد من يصححه.

ما الوضع الطبيعي للمسألة؟

قص عليَّ صاحب لي قصة هزت شعوري هزًّا قويًّا، وأخذت أفكر فيها عدة أيام، وما كنت أتخيل أن يصل صدق الإيمان إلى هذه الدرجة.

قال صديقي ـ وهو سوداني ـ يحتل مكانة مرموقة في العلم والإيمان: إن في أطراف السودان (قرية صغيرة) تكاد تكون منعزلة لا يكاد يطرق أبوابها غريب، ويسكن (بهذه القرية) رجل صالح يسير في حياته على تقوى من الله، وعلى بصيرة من دينه، عاش هذا الرجل وعالمه ـ كل عالمه ـ هو (هذه القرية) التي لم يفارقها قط.

لقد تعود فيها على (أناس معينين) وعلى (ألوان محددة)، و(ملابس) لا تكاد تختلف من فرد لآخر، إنه في تصوره الحسي محدود بهذه القرية.

---

١. العقليين: أنصار المذاهب الفلسفية التي تجعل للعقل الأولوية في تحصيل المعرفة، ومن هؤلاء: أفلاطون، ديكارت، ليبنتز، كانط، لكن الكلمة تطلق خاصة على فلاسفة القرن الثامن عشر الذين رفضوا إقامة المعرفة على الإيمان.

وفي يوم من الأيام اقتضت الظروف ـ في صورة من الحتمية ـ أن يذهب إلى مدينة بعيدة.

وكان هذا في حياته حدثًا هائلًا، فإنه لا يعرف الطرق، ولا المسالك، ولا كيف يسير، ولا بد من السفر.. فاصطحب معه أحد أبناء القرية ممن لهم دراية بالأمور وسافرا، وعلى مشارف المدينة رأى الرجل الصالح منظرًا تعجب له، رأى (ضابطًا إنجليزيًّا)!!

ورؤية ضابط إنجليزي في السودان ـ إذ ذاك ـ كانت أمرًا عاديًّا، ولكن صاحبنا لم ير هذه الصورة من قبل، وسار تفكيره على النسق التالي: ما لهذا (الكائن) قد (حلق لحيته) على هذه الصورة حتى لكأنه قد "سنْفَرها" إلى أن أصبحت وكأنها لم تكن.

وما له قد كتف نفسه في ملابسه على هذه الصورة، ثم ربط نفسه ـ أيضًا ـ بحزام في الوسط.

وما له.. وما له.. ثم سأل مرافقه: ما هذا؟ فقال مرافقه: هذا (خواجة). ولم تكن هذه الكلمة قد دخلت قاموسه اللغوي، فعاد يسأل: وما خواجة؟

فقال صاحبه: (يعني: كافر)، وكان هذا مبلغ علم مرافقه، فإذا بالرجل يرتجف قليلًا ويضطرب، ويسأل في اهتمام وقلق: (أهو كافر بالله؟). فقال رفيقه: "نعم كافر بالله" فإذا بالرجل الصالح يمتلئ جسمه وشعوره (بالاشمئزاز) من هذا الكافر، فإذا بهذا (الاشمئزاز) يزاد شيئًا فشيئًا.

وفي سرعة سريعة، وصل الاشمئزاز إلى غايته (فتقايأ).

وكما يحدث الاشمئزاز من (القاذورات المادية) فإنه يحدث من (القاذورات المعنوية مثل الكفر بالله).

والكافر بالله ـ فيما رأى صاحبنا ـ إنما هو مجموعة من (القاذورات المعنوية). لا تستحق إلا الاشمئزاز إلى درجة التَّقايُؤ.

أما منطقه في هذا الاشمئزاز فهو أن المنكر للجميل تشمئز منه النفس، ويزداد هذا الاشمئزاز ويعظم كلما كان الجميل كبيرًا وكان المنكر مُتَبَجِّحًا، وإننا إذا نظرنا إلى ما بنا من نعمة فإننا نجدها من الله: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ (النحل: ٥٣)، وإذا نظرنا إلى كمية هذه النعم نجد أنها لا تحصى: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ (النحل: ١٨)، فمن أنكر هذه النعم وهي محيطة به، ووصل به إنكاره للجميل إلى درجة الكفر، فإنه يكون قد بلغ في إنكار الجميل منتهاه، فيبلغ الاشمئزاز منه منتهاه.

وما كان صاحبنا يفكر في منطق لشعوره، وإذا كنا نحن نلتمس المنطق لهذا الشعور، فإن هذه الظاهرة إنما تعبر أبلغ تعبير عن (صدق الإيمان)، و (صفاء الفطرة).

لقد فوجئت حقًّا بهذه الدرجة من صدق الإيمان، وأخذت أربطها بما سبق أن قرأت من أفكار تتناسق معها، أفكار أثرت في نفسي كثيرًا حينما قرأتها.

إنها أفكار طائفة من (أعلام الفكر) لم يستعبدها (الإلف الذهني)، ولا (العادات الفكرية) فيما يتعلق بمسألة الإلحاد والكفر.

إن خط (الإلف والعادة) في هذا الموضوع هو أن يذكر المؤمنون الأدلة على وجود الله التي ترجع إلى دلالة الأثر على المؤثر، وهي دلالة قوية، فيحاول (الملحدون) متعسفين الرد عليها.

كلا أيها المؤمنون! إن المسألة (أقدس) من أن توضع هذا الوضع، (وأوضح) من أن تحتاج إلى (برهان).

يقول الإمام العالم الحجة ابن عطاء الله ـ رحمه الله ـ: "وإذا كان (الكائن) من الكائنات من هو غَنِي بوضوحه عن إقامة دليل، (فالمكوِّن) أولى بغناه عن الدليل منها".

ويقول:

- كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك؟
- أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المُظْهِر لك؟
- متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك؟
- ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك؟
- كيف يتصور أن يحجبه شيء، وهو الذي أظهر كل شيء؟
- كيف يتصور أن يحجبه شيء، وهو الظاهر قبل وجود كل شيء؟
- كيف يتصور أن يحجبه شيء، وهو أظهر من كل شيء؟
- كيف يتصور أن يحجبه شيء، وهو أقرب إليك من كل شيء؟
- كيف يتصور أن يحجبه شيء، ولولاه ما كان وجود شيء؟

شتان بين من يستدلُّ به أو يستدلُّ عليه.

والمستدل به عرف الحق (لأصله)؛ فأثبت الأمر من (وجود أصله)، و (الاستدلال عليه) من (عدم الوصول إليه). وإلا (فمتى غاب) حتى يستدل عليه؟ (ومتى بعد) حتى تكون الآثار هي التي توصل إليه؟

ويقول الإمام أبو الحسن الشاذُلِي ـ رحمه الله ـ: "ومن أعجب العجب أن تكون الكائنات موصلة إليه، فليت شعري! هل لها وجود معه حتى توصل إليه، أو هل لها من الوضوح ما ليس له حتى تكون هي المظهرة له"؟

ويقول: "كيف يُعْرَف (بالمعارف) من به (عُرِفَت المعارف)؟ أم كيف يُعْرَف بشيء من سبق وجودُه وجودَ كلِّ شيء؟

ويقول أيضًا: "إنا لننظر إلى الله ببصائر الإيمان، فأغناها ذلك عن الدليل والبرهان".

ويقول ـ رحمه الله: "وأرباب الدليل والبرهان عموم عند أهل الشهود والعيان؛ لأن أهل الشهود والعيان قدسوا الحق في ظهوره عن أن يحتاج إلى دليل يدل عليه. وكيف يحتاج إلى الدليل من نصَّب الدليل؟ وكيف يكون معروفًا به وهو المعروف عنه؟"

إن محاولة الاستدلال على وجود الله محاولة خاطئة، والسير على النحو الموجود الآن من الجدل في هذا الموضوع "سير منحرف عن الطريق الصواب".

رابعًا. الآثار المروعة للثقافة الإلحادية تؤكد انحرافها عن صراط الله المستقيم:

إننا حين نشرع في عملية المسح لمظاهر الإخفاق الاجتماعي والفردي للثقافة الأوربية، نريد أن نتأكد من الرابطة السببية بين هذه المظاهر ـ كنتيجة ـ والثقافة كسبب.

هل للثقافة صلة بظواهر مثل: إدمان الخمر،

والجذام الجنسي، والأمراض العقلية، والجريمة، والقلق، والملل، والاغتراب[1] أو الغربة التي تعاني منها المجتمعات الأوربية والأمريكية؟

ماذا يقول فلاسفة أوربا ومفكروها في هذه المسألة (مسألة الإلحاد)؟

يقول يونج ***c. g. Jung*** العالم النفسي الشهير (١٨٧٥ ـ ١٩٦١م): "طلب مني أناس كثيرون، من جميع الدول المتحضرة، مشورة لأمراضهم النفسية، في السنوات الثلاثين الأخيرة، ولم تكن مشكلة أحد من هؤلاء المرضى ـ الذين جاوزوا النصف الأول من حياتهم، وهو ما بعد ٣٥ سنة ـ إلا الحرمان من العقيدة الدينية.

ويمكن أن يقال: إن مرضهم لم يكن إلا أنهم فقدوا الشيء الذي تعطيه الأديان الحاضرة للمؤمنين بها في كل عصر، ولم يُشفَ أحدٌ من هؤلاء المرضى إلا عندما استرجع فكرته الدينية".

فما هذا الشيء الذي فقدوه ولم يشرحه يونج؟ الشيء الذي فقدوه، ولم يبينه "يونج" هو الإيمان بوجود الله تعالى القوي القادر الذي يتضرع إليه الإنسان في السراء والضراء، ويستصرخه ساعة المحنة، وهو الإيمان بحياة أخرى باقية، يلقى الإنسان فيها الجزاء العادل، ويفوز بالنعيم جزاء عمله الحسن، وإن لم يعترف له الناس في هذه الحياة بإحسانه له، أو إتقانه إياه، أو إخلاصه فيه، وهو الأمل في سيادة العدالة الإلهية التي لا يفلت منها طاغية، أو ظالم، أو مختال، وهو الإيمان بأن العبد ليس وحيدًا في هذه الحياة، وإنما معه ربه الرحمن الرحيم.

والإلحاد الذي أنتجته الفلسفة الحسية المادية النفعية يحرم الإنسان من كل هذه النعم، ويدعه بلا أمل ولا أمن، ويقبل الإنسان على الدنيا فيصطدم بالآخرين ويحتدم الصراع، ويتردد الإنسان بين الملل والألم كما يقول شُوبِنْهَوَر ـ المَلَل إذا فاز في الصراع وأشبع بطنه وفرجه، والألم من الحرمان إذا انهزم ولم يشبع حاجاته، فالإلحاد يهدم الدين، ولا يعطي الناس شيئًا بديلًا.

ولعل هذا هو ما يفسر لنا مظاهر التعاسة والجريمة، وإدمان الخمر، والانتحار، وطغيان الشعور بالملل والقلق، والغربة النفسية في المجتمعات الملحدة.

يقول سبيرو ***Spiro***: "في ظني أن كل حضارة تخلق ضغوطًا وأزمات، بعضها عام وبعضها فريد، لا بد للشخصية أن تواجهها، وأن التراث الاجتماعي يزود الإنسان إلى حد كبير أو صغير بأساليب منظمة اجتماعيًّا للتخفيف من حدتها إن لم يكن لحلها أو التخلص منها، وأن معدل انتشار الباثولوجيا السيكولوجية (أي: الأمراض النفسية) في أي مجتمع هو محصلة لا للضغوط التي يخلقها المجتمع فحسب، وإنما للوسائل المنظمة اجتماعيًّا التي يقدمها التراث الاجتماعي لحل هذه الضغوط والتخلص منها، وأن أولئك الأفراد الذين يعجزون ـ لسبب من الأسباب ـ عن حل الضغوط (التي تخلقها الحضارة) بالوسائل (التي تقدمها هذه الحضارة لحلها) يقومون بحلها بأساليب غريبة من

---

١. الاغتراب لغة، يعني: ترك العشيرة والوطن، ومصدر الكلمة لاتيني، وهو يعني فقدان الجوهر أو السقوط في التبعية أو فقدان الذات المميزة، أو فقدان التواصل مع المجتمع.

العصاب[1] أو الذُّهان[2]، وأنه بقدر ما تخلق الحضارات المختلفة من أنماط مختلفة من الضغوط نجد أن الأساليب الغربية لحل هذه الضغوط ـ من العصاب أو الذهان ـ تعكس اختلالات حضارية".

فكل الحضارات تفرز ضغوطًا على الأفراد، وبعض هذه الضغوط مشترك أو متشابه في كل الحضارات، وبعضها نوعي يخص حضارة بعينها أو ثقافة بعينها، والثقافة السائدة في أيِّ مجتمع تقدم للفرد وسائل مشروعة، كالقيم الخلقية والنُّظُم التشريعية، لكي يواجه بها هذه الضغوط، وبقدر نجاح هذه الوسائل وفعاليتها يكون انحسار المرض النفسي والمرض العقلي، والعكس صحيح أيضًا؛ وعلى هذا يصح المبدأ القائل بأن تفشي هذه الأمراض دليل على الإخفاق الثقافي.

ومعنى هذا أن العلاقة السببية بين الثقافة والأمراض العقلية إنما هي حقيقة علمية.

ويؤكد لوبشر Laubscher صحة الرابطة السببية بين الثقافة وظاهرة الانتحار، إذ وجد أن:

- نسبة الانتحار بين الإفريقيين في جنوب إفريقيا ١ ـ ١٠٠,٠٠٠.
- وبين البريطانيين ١٠ ـ ١٠٠,٠٠٠.
- وبين الأمريكيين ١١ ـ ١٠٠,٠٠٠ .

(سبب تباين النسبة هو تباين الثقافة).

ولكي نزيد هذه الحقيقة وضوحًا نأخذ مثالًا من الحياة الإسلامية، إن الإسلام يحتم على المسلمين العفة وتجنب الفحشاء، وكل ما من شأنه أن يؤدي إليها؛ وهذا المطلب الخلقي يمثل ضغطًا على الأفراد، لكن الإسلام يقدم للمسلم الوسائل الخلقية المشروعة لتمكينه من النهوض بواجبات العفة، فهو يبني مجتمعًا خاليا من المثيرات الجنسية كالتبرج، كما أنه يحث على الزواج، ويسمح بتعدد الزوجات، ويبيح الطلاق؛ وهكذا ييسر للمرء المسلم التزام العفة، دون أن يدفع ثمن ذلك أمراضًا نفسية وعقلية.

ونأخذ مثالًا آخر من الثقافة الأوربية، وهو النزعة "الليبرالية"[3] المتطرفة. لقد أدت فكرة الحرية الفردية، دون ضوابط أخلاقية أو دينية، إلى ذيوع الإباحية والزنا، وتفكك الأُسَر، وكثرة الأطفال اللُّقطَاء بكل ما تعنيه هذه الظواهر من ضغوط، دون أن تقدم الثقافة الأوربية الوسائل التي تُمكِّن الفرد من مواجهة هذه الضغوط؛ ولهذا انتشرت الوسائل المرضية الشاذة في مواجهتها ـ أعني بذلك: العصاب والذهان.

ويؤكد علماء الإيكولوجيا[4] على وجود هذه العلاقة السببية بين "الثقافة" ومظاهر النجاح أو الإخفاق الفردي والجماعي "فإن الثقافة جزء من عموم البيئة، كأشعة الشمس، والحرارة، والمطر، والتضاريس.

إن المعتقدات الدينية والفلسفية، والتقاليد الاجتماعية، والمؤسسات السياسية، هي بعض العوامل الكثيرة ـ غير البيئة المادية والاقتصادية ـ التي تحدد

---

١. العُصاب: مرض يتميَّز باضطرابات انفعالية وعاطفية.

٢. الذُّهان: اختلال شديد في القوى العقلية، يؤدي إلى اختلال جميع وسائل التكيف والتوافق العقلي والاجتماعي والمهني والديني، مع فقد القدرة على الاستبصار.

٣. اللِّيبراليَّة: مذهب يقوم على الاعتقاد في أهمية حرية الفرد ورفاهيته، وإمكانية التقدم الاجتماعي من خلال تغيير التنظيم الاجتماعي وتجديده.

٤. الإيكولوجيا: علم البيئة، فرع من الأحياء يدرس العلاقات بين الكائنات الحية وبيئتها.

مصير بني الإنسان؛ فهي تؤثر بطريقة غير مباشرة، ولكنها فعالة وقوية، إنها تسيطر على أسلوب الحياة، وعلى المظهر المادي فيها، وتنعكس على أنماط السلوك، وعبر هذه التأثيرات، وكثير غيرها، يُفْرَضُ الطابعُ الخاص لكل ثقافة معينة".

وهناك أبحاث ودراسات تخصصية تؤكد العلاقة السببية بين الثقافة وإدمان الخمر مثلًا؛ ففي مؤتمر جامعة "باث" - في إنجلترا عام ١٩٨٠م أشار أحد البحوث إلى أن المذاهب الاعتقادية ***Belief systems*** هي أول أسباب الإدمان.

وربط مارسيليو ديديه في بحث آخر قُدِّم للمؤتمر نفسه بين الإدمان والثقافة تحت عنوان "وصفة ثقافية للإدمان" وصرَّح بيتر شيلر بأن الإدمان يمكن أن يعالج بمنهج ثقافي، وقال: ريتشارد سوين: "الظاهر أن العامل الهام هو مبلغ اندماج تناول الخمر - بصورة رسمية - في الحضارة".

والدليل على ذلك انحسار تعاطي الخمر لدى اليهود، لمعاداة القيم اليهودية للإدمان، ونظافة المجتمعات الإسلامية منه بسبب تحريم الإسلام له.

وقد أدرك الإسلاميون هذه العلاقة السببية بين الثقافة من جهة، وبين صحة الفرد والمجتمع وسلامته نفسيًّا وروحيًّا - من جهة أخرى.

يقول الشيخ محمد عبده في معرض حديثه عن الأنبياء ورسالاتهم: "والدليل على سلامة شهودهم، وصحة ما يحدثون عنه، أن أمراض القلوب تُشْفى بدوائهم، وأن ضعف العزائم والعقول يتبدل قوة في أممهم التي تأخذ بمقالهم، ومن المنكَر في البديهة أن يصدر الصحيح عن معتل، ويستقيم النظام بمختل".

فصحة الفرد والجماعة، وسعادتها، وقوتها، دليل صدق الرسالات التي جاء الرسل بها، كما أن اختلال الفرد والجماعة وتعاستها - كما هو الحال في أوربا اليوم - دليل على عَطَب[1] المبادئ الإلحادية التي تمثل جوهر الثقافة الحسية المادية السائدة فيها.

ويكشف المودودي عن الخدعة التي تحجب العلاقة السببية بين الثقافة والإخفاق الفردي والاجتماعي، فيقول: إن العالم المعاصر يشبه الطفل الذي يثق بالمشاهدة الحسية، فيحسب النار لعبة جميلة، وجل ما بينهما من الفرق أن خطأ هذه المشاهدة لا يلبث أن يظهر جليًّا بالتجربة؛ لأن النار التي يحسبها لعبة ويشرع في اللعب بها تكون ذات لهب، ولا تلبث أن تدل الذي يتناولها بيده أنها ليست بلعبة.

وبالعكس من ذلك، فإن خطأ المشاهدة في هذا الطريق - أي المنهج المادي الأوربي - لا يبدو في عشية أو ضحاها، وربما لا يظهر لكثير من الناس طوال حياتهم؛ لأن النار التي يلعبون بها في هذه الحياة الدنيا ليست بحامية، ولا تصيب الذي يلمسها بيده بضرر عاجل، بل يصطلي بها البشر آمادًا بعيدة وأحقابًا طويلة، وهم لا يحسون بلظاها.

إن النتائج السلبية الضارة للإلحاد لا بد أن تَحِيق[2] بالمجتمعات الملحدة مثلما أن الحرق لا بد أن ينتج عن ملامسة النار، والفارق الوحيد هو تأخر النتائج في الظهور في حالة الإلحاد، وحدوثها الآني في حالة النار.

---

١. العَطَب: الفساد.

٢. تَحِيق: تلحق.

ولربما أضفنا إلى ذلك فارقًا آخر هو أن رفع اليد عن النار يوقف الحرق في الحال، وإن استمر الألم بضعة أيام، أما في حالة الإلحاد أو الاختلالات الثقافية بصفة عامة، فمن المستحيل القضاء على السبب بالسرعة نفسها، كما أن من المستحيل تجنب الأضرار والنتائج السلبية لعشرات السنين.

فالأخطاء الاعتقادية، مثل الأخطاء العلمية والرياضية، لا بد أن تفضي بالحياة المبنية عليها إلى البوار والإخفاق، ولا بد أن تنتقم الحقيقة لنفسها من كل من يغفلها أو يستهين بها ويسلك في هذه الحياة طريقًا مناقضًا لمقتضياتها، وإن تأخر الانتقام في حالات وعاجل الناس في حالات أخرى.

وهذه أوربا يشهد فلاسفتها ومفكروها بأن السعادة قد ضاعت منها. يقول بِرتراند راسل: "إن حيوانات عالمنا يغمرها السرور والفرح، على حين كان الناس أجدر من الحيوان بهذه السعادة، ولكنهم محرومون من نعمتها في عالمنا الحديث" ولقد: "أصبح من المستحيل الحصول على هذه النعمة، أي: السعادة".

لقد ضاعت السعادة، وهي الهدف الأقصى للحياة الأوربية وللأخلاق الأوربية، وذلك على الرغم من كل مظاهر التقدم المادي، لقد ضاع - إذن - كل شيء!

فهل بعد هذا إخفاق؟ وهل بعد هذا قنوط؟ وهل فوق هذا انتقام؟ لا أظن.

ومن العجيب حقًّا أن محاولات الإصلاح في الغرب لم تتجه إلى إجراءات ثانوية لا تمس المصدر الثقافي لهذه الاختلالات أو الإخفاقات وذلك على الرغم من كشف عدد من العلماء والفلاسفة للاتجاه الصحيح[1].

خامسًا. رجوع كثير من الملحدين واعترافهم بوجود الله بعد طول تأمل وثاقب نظر:

نتيجة للآثار السلبية المدمرة للكفر والإلحاد، وبعد التفكير العميق والتأمل الطويل، رجع كثير من الماديين إلى فطرته الأصلية واعترف بوجود الله، وأدركوا أن الوجود لا يمكن أن يقتصر على المادة، وأن المعرفة لها مصادر وموضوعات غير حسية وغير مادية، وأن الأخلاق لا يمكن أن تخضع لمعايير المنفعة المادية وحدها؛ ففي عصرنا هذا حاول إدموند هسرل (١٨٥٩ - ١٩٣٨م) إثبات ضرب آخر من الوجود غير الوجود الحسي وغير الوجود الذهني أسماه "الوجود الماهوي"، وتابع نيكولاي مارتن (١٨٨٢م - ١٩٥٠م) فلسفة "هسرل" مؤكدًا استقلال "الوجود الماهوي" عن الوجود المادي وعن الوجود الذاتي، مع إنكار لوجود الله!! وقوام "الوجود الماهوي" أو "الوجود المثالي" عند هسرل وهارتمن، الحقائق المنطقية والرياضية والقيم الخلقية، فهذه الحقائق والقيم "موجودات مثالية" - لا مادية ولا ذاتية.

إن هذه الحقائق وهذه القيم لا تخضع لإرادة الإنسان، إنها تقف في وجه هذه الإرادة وتتمرد عليها، وهذا هو الدليل على وجودها المستقل، أي أن دليل الوجود عند هذه المدرسة هو التمرد على إرادة الإنسان، أوبعبارة أخرى: الموضوعية التي تتسم بها المبادئ العلمية والقيم الخلقية.

---

١. نقد الثقافة الإلحادية، د. أحمد عبد الرحمن إبراهيم، مرجع سابق، ص٣٧: ٤٣.

وبوسعنا أن نضيف إلى هذا برهان ديكارت الوجودي وبراهين كانط المستندة إلى الأخلاق أو الفروض الأخلاقية الأساسية التي أثبتنا بها وجود الله.

بل إن الفلسفة الوجودية المشهورة بإلحادها لم تخل من التيار الديني؛ فاتجاه كركجارد وكارل ياسبرز الديني معروف في تاريخ الفلسفة المعاصرة، فكلاهما يُبْقي على الديانة النصرانية وسط ضجيج المادية والإلحاد.

وفضلًا عن هذا فإن مقاومة النزعة المادية جاءت - أيضًا - من بعض رواد العلم التجريبي نفسه؛ فالعلماء التجريبيون، في مجالات الفيزياء والكيمياء والأحياء، وغيرها، انقسموا من حيث مذهبهم الوجودي إلى ماديين وغير ماديين، وإن كانت الأغلبية الساحقة تتبع المادية الحسية، وتصر على رفض كل شيء لا يخضع للتجربة والملاحظة، بما في ذلك الإيمان بالله.

فهذا ألكسيس كاريل يقرر بوضوح أن النزعة المادية هي سبب الشر والخطأ والقصور في الثقافة الأوربية، وأن الخلاص من المادية هو الطريق القويم لتصحيح كل الأخطاء والانحرافات، وإحداث التغييرات الجذرية الكبرى المطلوبة في الحياة الأوربية، ويدرك كاريل أن المادية المسيطرة سوف تقاوم اتجاهه بكل قوة، فيقول: "ولما كان من الواضح أن تحرير الإنسان من المذهب المادي سوف يقلب أغلب جوانب حياتنا، فإن المجتمع العصري (المادي) سوف يعارض بكل قوته هذا التقدم في آرائنا".

ويدعو كاريل إلى أن يسير الإنسان قُدُمًا في طريق الدين، وأن يحاول أن يعرف الله، أو بتعبيره هو، أن يحاول فهم الإنسان أو المصدر الغيبي غير المنظور لهذا العالم. ولا يلجأ كاريل إلى إيراد البراهين العقلية على وجود الله، ويقول: إن "الشخص المتجرد من حب متاع الدنيا يمكنه أن يشعر بوجود الله كما يشعر بحرارة الشمس، أو بعطف أحد الأصدقاء عليه".

ويؤمن كاريل بأن عبادة الله يمكن أن تشفي المرضى على نحو معجز، ويذكر أن دراسات عن الشفاء الإعجازي عن طريق الصلاة قد بدأت في الولايات المتحدة، وإن كانت الصلاة أسمى من أن يفهمها الفلاسفة والعلماء؛ لأنها: "سمو لا يدركه العقل، إنها استغراق الشعور في تأمله لمبدأ يخترق عالمنا، ويسمو عليه".

ويؤيد كاريل الاتجاهات المعاصرة لدراسة ما وراء الطبيعة، أو الميتافيزيقا، أو الوجود غير المادي، ويعيد إلى الميتافيزيقا الثقة حين يقرر أنها مثل الفسيولوجيا[1] وعلم النفس، وإن كانت مجالًا لتعدد الآراء والمذاهب. وهو بهذا يتصدى لمزاعم كثيرة روجت لها الفلسفات المادية والوضعية والعقلانية[2].

والملاحظ أنه كلما اتسع نطاق العلوم وانكشفت دقائق الطبيعة وأسرارها فقدت فلسفة الماديين والملحدين مكانتها، وها هم كبار رجال العلم على مستوى العالم يعتقدون جميعًا، ويؤمنون بقوة خارقة مدركة متعالية عن إدراك البشر، أو يعتقدون أن للخلق سرًّا لا يمكنهم إدراكه.

---

١. الفسيولوجيا: علم وظائف الأعضاء في الحيوان والنبات.

٢. نقد الثقافة الإلحادية، د. أحمد عبد الرحمن إبراهيم، مرجع سابق، ص٢١: ٢٣.

ومن هؤلاء: نيوتن، وهو من كبار علماء الفلك والرياضيات، وباستير، عالم الطب ومنشيء علم البكتريولوجيا[1]، ولاباس، أحد كبار الرياضيين والفلكيين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

يقول أحد العلماء، وهو كميل فلاماريون في كتابه "الله في الطبيعة":

إذا انتقلنا من ساحة المحسوسات إلى الروحانيات، فإن الله يتجلى لنا بمفهوم روح دائم موجود في حقيقة كل شيء، ليس سلطانًا يحكم من فوق السماوات، بل هو نظام مستتر مهيمن على كافة الموجودات، وليس مقيمًا في جنة مكتظة بالصلحاء والملائكة، بل إن الفضاء اللانهائي مملوء به، فهو موجود مستقر في كل نقطة من الفضاء، وفي كل لحظة من الزمان.

وبتعبير أصح هو قيوم لا نهائي منزه عن المكان والزمان، والتسلسل والتعاقب. وهذا من النتائج القاطعة التي استنبطت من تلك القواعد الثابتة للعلم كنسبية الحركة وقدم القوانين.

إن النظام العام الحاكم في الطبيعة يدل على أن القدرة المطلقة الإلهية هي الحافظة المستترة للكون، وهي النظام الحقيقي، هي المصدر الأصلي لكافة القوانين الطبيعية وأشكالها ومظاهرها.

أما لابلاس فبعد أن درس المجموعة الشمسية يقول: "إن النظام المحير للعقول المشاهد في حركات الأجرام التي تتألف منها المجموعة الشمسية لا يمكن أن يُحمل على التصادف، بل التصادف كلمة لا يصح النطق بها في لغة العلم.

إن التصادف معدوم ومحال في هذا العالم الذي نرى فيه كل شيء خاضعًا لقوانين الموازنة وقوانين الحساب التي عينتها إرادة غيبية وحكمة بالغة"[2].

إن مجموعة كبيرة من العلماء والأدباء، والفلاسفة الأوربيين، وغير الأوربيين، تحذر من مغبة السير على الخطوط الثقافية الأوربية وتنقد أصول هذه الثقافة وفروعها، وتبذل قصارى جهدها للكشف عن أفكار ومبادئ ثقافية جديدة. ونريد الآن أن نعرض نماذج من آراء هؤلاء الغربيين وتحذيراتهم فهذه التحذيرات تمثل تقويمًا إجماليًّا لثقافتهم.

ونبدأ برأي جون ستيوارت مل (١٨٠٦م - ١٨٧٣م) الفيلسوف الإنجليزي المشهور، صاحب المذهب النفعي في الأخلاق، وأحد أنصار النزعة الليبرالية الكبار، يأخذ مل على النظريات الأوربية في الإنسان ضيق أفقها الذي أفضى بها إلى: "فَهْم جزء من الحقيقة على أنه الحقيقة كلها".

ويقول مِل في نقده لهذه النظريات: "إنها كانت مصيبة في ما أثبتت، مخطئة في ما أنكرت". يريد أنها حين اعترفت بالجانب المادي، أو الاقتصادي، أو الاجتماعي في حياة الإنسان، كانت على حق، ولكن إنكار الجوانب الأخرى، لحساب جانب واحد كان خطأ.

وهذا هو أحد العيوب الأساسية في الفلسفات الأوربية الحديثة والمعاصرة، أعني: عجزها عن النظر إلى الحياة الإنسانية نظرة شاملة لكل جوانبها، فزعمت

١. البكتريولوجيا: علم الجراثيم، وله أهميته في الطب في مكافحة الأمراض الميكروبية.

٢. عرفت الله، محمد إبراهيم، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، ص٩، ١٠.

أيديولوجية[1] فرويد - مثلًا - أن السعادة الإنسانية ترتهن بالحياة الجنسية الخالية من الكبت، في حين اقتنع ماركس بأن الاقتصاد هو مركز الوجود.

هذه النزعة التجزيئية المتطرفة هي الخاصية المشتركة للفلسفة الحديثة.

إن جانبًا واحدًا من جوانب الحياة الإنسانية ينتزع من سياقه الصحيح، ويبالغ في أهميته مبالغة تتجاوز كل الحدود المعقولة، فهم - بعبارة أخرى: يتصورون الجزء - خطأً - على أنه الكل".

وهكذا نرى أن الخلل الأساسي في الموقف الأوربي هو خلل ثقافي، بل في قلب الثقافة وجوهرها، ألا وهو النظرة في الإنسان، ويقول بيتريم سوروكين **Pitirim A. Sorokin**[2]: "إن كل جانب من حياة المجتمع الأوربي مريض وعقله مريض، ولا تكاد توجد نقطة صغيرة واحدة على جسده إلا ويعتورها الألم، ولقد اضطرب جهازه العصبي بجميع أليافه العصبية، فلم يعد قادرًا على أداء عمله على النحو السديد. ويبدو أننا نعيش بين عهدين: عهد ثقافتنا الحسية المحتضرة - ثقافة ماضينا المجيد، وعهد الثقافة المثالية المقبلة في الغد الخلاق؛ إننا نعيش ونفكر، ونعمل في اللحظات الأخيرة من عهد حسي مشرق امتد ستمائة عام، ولا تزال أشعة الشمس المائلة تبرز أمجاد عهدنا الماضي، ولكن الضياء يذوى، وفي الظلام المتكاثف يعسر أن نرى بوضوح، وأن نقود أنفسنا في أمان عبر لحظات الاضطراب عند الغسق.

إن ليل فترة الانتقال بدأ يلوح أمام أعْيُنِنا تصحبه كوابيسه المزعجة، وظلامه المخيف، ورعبه الذي يزلزل القلوب، وعلى الرغم من ذلك يلوح لنا - من وراء ذلك الليل - فجر ثقافة مثالية جديدة عظيمة، ربما يتلبث هناك لكي يُحيي إنسان المستقبل".

فالمجتمع الغربي في أزمة شاملة، والمرض تفشى في جسده وعقله، في حضارته وثقافته، في سلوكه وفي فكره، إن ثقافته الحسية تحتضر وتموت، والأمل يراود سوروكين في بزوغ فجر ثقافة "مثالية" جديدة، وتعيش أوربا اليوم في عتمة، وتضطرب خطواتها، ويحل عليها ليل فترة الانتقال "من ثقافة الحس إلى ثقافة الفكر" بظلامه وكوابيسه المزعجة.

ويرى هارولد تيتوس **Harold H. Titus** أن نظرة الأوربيين إلى الإنسان تنطوي على خطأ قاتل، والدليل على ذلك هو مسيرة الأحداث في العقود الأخيرة من هذا القرن: "لقد فاز الإنسان بقوى جديدة كبرى، في مجالات العلم والتكنولوجيا، غير أن هذه القوى استخدمت لأغراض التدمير بكثرة زائدة، ولقد مدد الإنسان بسرعة نطاق معرفته وَجوَّدَ نوعيتها، غير أنه لم يتقدم نحو السعادة وخفض العيش إلا قليلًا، هذا إذا كان قد تقدم في هذا الاتجاه على الإطلاق، ولقد صمم الإنسان المخططات، وأنشأ المؤسسات العديدة ليفوز بمزيد من الأمن والراحة، ومع ذلك فهو يعاني

١. الأيديولوجية: عبارة عن مجموعة الآراء والأفكار والمعتقدات والفلسفات التي يؤمن بها شعب أو أُمَّة أو حزب أو جماعة.

٢. سورو كين "بيتريم ألكسندرفيتش": عالم اجتماع أمريكي من أصل روسي، ولد سنة ١٨٨٩م، كان أستاذًا في جامعة لينتجراد، هاجر إلى الولايات المتحدة سنة ١٩٢٣م، والتحق بجامعة منيوسوتا سنة ١٩٢٤م، ثم في هارفارد سنة ١٩٣١م، وله مؤلفات كبيرة وعديدة، توفي سنة ١٩٦٨م.

من الخوف العقلي والوجداني، فيما يتصل بمعنى الحياة وطبيعة العالم الذي يعيش فيه، ونوع الحياة التي يريد أن يحياها مع إخوته من بني البشر".

فثمة إذن خطأ جسيم في بناء الثقافة الأوربية ألا وهو نظرتها إلى الإنسان وحياته، ومكانته في هذا العالم، والأحداث الواقعية في الحياة الأوربية والأمريكية تبرهن على وجود هذا الخطأ المميت. فقوة العلم تستخدم لإبادة البشر "٦٠ مليون قتيل في الحرب العالمية الثانية" وتدمير المدن، والتقدم العقلي والعلمي والصناعي لم يقرب الأوربيين من مثلهم الأعلى وهو السعادة، وإذا كانت الراحة البدنية قد تحققت فإن خوف الأوربيين من أن يكونوا قد فهموا معنى الحياة خطأ هو خوف ملازم لعقولهم، إنهم ليسوا على يقين من صحة مفاهيمهم، وهذا هو الخلل الجذري في موقفهم الراهن تجاه الإنسان والحياة الإنسانية، وهو خلل ثقافي دون ريب.

صفوة القول إذن أن قوة العلم قد سخرت لإبادة الإنسان نفسه، ومعرفته المتنامية أبعدته عن السعادة وعن فهم نفسه وحياته، وهذا هو التناقض عينه، ويقرر العالم البيولوجي كونكلين ***E. g-Conklin*** في كتابه ***"Man, Real and Ideal"*** الإنسان، الواقع والمثال" أن "الجنس البشري الآن في أشد أزمة مرَّ بها في تاريخه الطويل".

ويقول نوثروب ***F. S. C. Nothrop*** ـ وهو عالم اجتماع: "إن عالمنا هذا عالم متناقض، فالمنجزات التي تمثل أمجاده هي التي تهدده بالدمار، ويبدو أننا كلما تقدمنا في الحضارة، فقدنا القدرة على الحفاظ عليها".

يشير بذلك إلى الحقيقة القائلة بأن تاريخ التطور العلمي والحضاري في أوربا هو في الوقت نفسه تاريخ تطور القدرة على التدمير والتخريب والإفناء، والعلة من وراء هذا التناقض في عالمنا المعاصر ـ وهو عالم أوربي غربي أو مغرب ـ تتمثل في عطب أصاب الثقافة الأوربية، فهي قد ركزت جهودها للكشف عن مصادر القوة، دون أن تعنى بإيجاد الضوابط أو الكوابح الأخلاقية التي تضمن إخضاعها للأهداف الإنسانية.

وأما بِرْتراند رسل (١٨٧٢م ـ ١٩٧٠م) الفيلسوف والرياضي الإنجليزي فقد أفزعته إلى أبعد الحدود مظاهر التدمير والتخريب والقتل التي عَمَرت بها الحرب العالمية الثانية، وما أحدثه هتلر وموسوليني فيها من أساليب وحشية، فقال رسل: "إن وصف الإنسان بأنه وحش ظُلْم للوحوش، إن مركبًا من الذكاء العلمي، شر إبليس هو الذي تمثل في قادة الدولتين الأوربيتين ألمانيا وإيطاليا، ملأ أوربا بالرعب والفزع والخوف الذي لا نظير له، ولقد تخيل الإنسان جهنم في الماضي، ولكنه جسد ذلك الخيال في وقائع في أوربا في العصر الحديث".

فهذا هو الإنسان وهذه هي الإنسانية التي أنضجتها الثقافة الأوربية، لقد تحول الإنسان الأوربي إلى وحش، وليس في الحرب فقط، كما ذكر برتراند رسل، "ولكن في الاستعمار، ومعاملة الشعوب الملونة، في آسيا وإفريقيا وأمريكا، ولا يزال إلى اليوم عاجزًا عن الكف عن استغلالها وظلمها ونهبها.

ويدعو ألكسيس كاريل (١٨٧٣م ـ ١٩٤٤م) إلى إحداث تغييرات جذرية في المبادئ والاهتمامات

والاتجاهات الأساسية للثقافة الأوربية المعاصرة، بحيث تمتد اهتماماتها العلمية والفكرية لتشمل الإنسان من جميع جوانبه، بدلًا من التركيز على جسمه وإهمال روحه وأخلاقه، أو الانصراف إلى علوم الجماد والحيوان على حساب علوم الإنسان الروحية والعقلية، والأخلاقية والجمالية.

وينادي كاريل بضرورة: "قلب الحضارة الصناعية، وظهور فكرة أخرى للتقدم البشري". ويقول: "إن من الواجب أن يحول اهتمام البشرية من الآلات وعالم الجماد إلى جسم الإنسان وروحه، إلى العمليات العقلية والعضوية التي ابتدعت الآلات، وابتدعت دنيا نيوتن وآينشتين".

ويتهم كاريل النزعة المادية، والصناعية الطاغية في الثقافة الغربية بتحطيم "الثقافة والجمال والأخلاق"، كما يتهم التعليم العلمي التجريبي بأنه السبب في ذيوع الغباء وبلادة الذهن، ويصور كاريل الأصداء الاجتماعية للانحراف الثقافي، فيقول: "إن الشرطة في المجتمعات الغربية أصبحت هي التي تحمي المجرمين، وأصبح الأثرياء ينعمون بكل الحقوق، ويستطيعون اقتراف كل الرذائل الخلقية دون أن يفقدوا احترام الناس.

وكلنا يعلم أن كتاب كاريل: "الإنسان ذلك المجهول" إنما هو حملة علمية ضد التوجهات الثقافية والاجتماعية والفلسفية الأوربية، ودعوة قوية إلى إحداث تغيرات أساسية، وقلب الأوضاع الخاطئة، وإيجاد ثقافة جديدة أو فكر جديد، وأهداف وغايات إنسانية جديدة لأوربا وأمريكا.

وتردد أصداء هذه الصرخة على لسان عالم آخر أمريكي من أصل فرنسي أيضًا، مثل كاريل تمامًا، وهو حائز على جائزة نوبل في العلوم لعام ١٩٧٦م، بالاشتراك مع عالم آخر، هذا العالم هو رينيه دوبو الذي نادى بثورة فكرية وشعورية، يكون هدفها إنشاء معتقدات إيجابية جديدة وأخلاق اجتماعية جديدة، ودين جديد، ويرى أن هذا العمل يحتاج إلى جهد جماعي وإيمان موحد، لكن هذا الإيمان غير موجود، ولهذا فإنه يرى أن أهم الواجبات الملقاة على الأمريكيين والأوربيين اليوم هو: البحث عن معنى لحياتهم. أي عن الإيمان بهدف كبير لحياتهم يجعل لهذه الحياة معنى.

ويرجع دوبو القول بأن البشرية سوف تدمر نفسها بنفسها، والترسانات النووية جاهزة لدى المعسكرين المتناحرين لإنجاز هذا الهدف على أكمل وجه، وحتى لو لم يقع الدمار الشامل فإن دوبو يرجح تخلي البشرية عن قيم المدنية الغربية؛ إن الوجود الإنساني مهدد بالأسلحة النووية، وتلوث البيئة، ونفاد الطاقة وما يعنيه من انعدام التيار الكهربائي، ثم فساد الأخلاق والآداب، وهناك تهديد آخر يتمثل في نمو التشديد في القوانين الخانقة للمجتمع الإنساني، وضياع حرمة المنزل الأمر الذي قد يؤدي إلى استحالة الحياة المتحضرة.

ويعدد دوبو مظاهر الإخفاق في الحياة الأمريكية والأوربية فيذكر ضمن قائمة المشكلات الطويلة: المشكلة العنصرية، والعزلة، والقلق، والغربة النفسية، وقبح المدن والحواضر الكبرى، وألوان المظالم الفردية والطبقية والدولية، والجنون العام الذي يسبب تهديدًا

دائمًا بالحرب النووية.

ويضيف إلى ذلك: اضطراب وسائل النقل والتركيز الزائد على الراحة البدنية والمادية، وذيوع الأنانية، وافتقاد السلوك الاجتماعي والتضحية "بالكيف" في مجالات التربية والإنتاج، وذيوع الرغبة في امتلاك القوة عن طريق العدوان، وجمع المال بالطرق العدوانية وغير المشروعة، وتدمير الجمال الطبيعي، واغتصاب البيئة "كأننا الجيل الأخير الذي يعيش على ظهر هذه الأرض"، هكذا يقول دوبو في حسرة وألم.

وأما المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي فيبدو متحفظًا كطابع قومه"الأنجلو ساكسون" كما يتحلى كلامه بنبرة من التفاؤل حين يتعرض لتقويم الثقافة الغربية، فهو يرى أن قصور الطاقة الإبداعية لدى الأقلية الزائدة هو سبب انهيار الحضارات، ويقول: إن أوربا لاتزال تملك هذه الطاقة الإبداعية، ومن ثم الأمل في استمرار الحضارة الغربية.

وعلى الرغم من نبرة التفاؤل هذه فإن توينبي يقرر أن عصر اضطرابات الحضارة الغربية قد أناخ[1] ـ بلا مراء ـ بكلكله[2] على الغربيين، وعصر الاضطرابات بحسب نظرية توينبي هو المرحلة الأولى لانهيار الحضارة، ثم تتلوها مرحلة الدولة العالمية، ثم الانهيار. ومعنى هذا أن الحضارة الغربية لا تزال تأمل في الحياة بضعة قرون.

و توينبي ـ مع ذلك ـ لا يستطيع أن يخفي سخطه وحمقه على الفراغ الروحي: "الذي خلقناه بأيدينا، فراغ يتمثل في ترحيبنا بروح إفريقيا الاستوائية في الموسيقى والرقص، وفي إبرام محالفة ـ غير مقدسة ـ بين فن النحت وبين روح بيزنطية كاذبة يبدو أثرها في التصوير والنقش البارز، وقد حطت تلك التأثيرات على بيت ألفته خاليًا ومزينًا". (يعني أوربا).

ولا تمت مظاهر هذا الانحدار ـ في جوهرها ـ إلى الفن لكنها روحانية الطابع؛ فإحلال الفنون الإفريقية محل الفنون الأوربية ـ في أوربا نفسها ـ إنما هو في رأيه: "نتيجة نوع من الانهيار الروحاني في حضارتنا الغربية". أي في الثقافة الأوربية نفسها "فكلمة حضارة هنا لا يمكن أن تعني إلا الثقافة" إذن أوربا تعاني من الفراغ الروحي أو الانهيار الروحي، الأمر الذي حمل الأوربيين على اقتباس الفنون الإفريقية، فنون المستعمرات الأوربية السابقة، فنون الزنوج الذين يصنَّفون طِبْقًا للعنصرية الأمريكية والأوربية في أدنى درجات البشر.

وهذا رجاء جارودي، الذي وجد خلاصه الروحي في اعتناق الإسلام، يقرر أن "الحضارة الغربية تمضي بالعالم إلى الهاوية بما أنتجته من آلات واختراعات تملأ حياتنا وتغزونا من كل جانب وتشوش تصورنا"، ويضيف: "لا بد من تأمل مستقل في المسار التاريخي لتطور الحضارة الغربية، وما آلت إليه"، والهدف من وراء ذلك بطبيعة الحال هو تغيير مسارها الخطر إلى أهداف إنسانية صحيحة.

إن العلوم الأوربية أدت إلى تدمير ستين مليون إنسان منذ الحرب العالمية الثانية وقنبلة هيروشيما؛ وإذا استمرت الأوضاع على ما هي عليه فإننا سنواجه

١. أناخ عليه: ثَقُل عليه وضغط.
٢. الكَلْكَل: الصدر، أو هو ما بين التَّرْقُوتين.

أضعاف أضعاف ما عشناه من ويلات وكوارث".

ولا تزال الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي ودول أوربا الغنية تنفق بسَرَف وبذخ على التسليح في حين تضن بمعوناتها على الأطفال الجياع في العالم، بل إن الولايات المتحدة تلقي بالكثير من إنتاجها الزراعي في البحر، وتشجع المزارعين على عدم زراعة أراضيهم، في حين يخيم شبح الجوع على ربع أطفال العالم النامي، ويموت بسبب الجوع وسوء التغذية والعلاج أربعون ألف طفل كل يوم، في عالم يملك وسائل إيقاف ذلك، وهذه وصمة عار للثقافة السائدة.

ويقول مكتب الأمم المتحدة للأطفال: إن ٢٦٠ مليون نسمة في ٢٤ دولة يعانون آلام الجوع، وإن ١٠٠ مليون طفل ينامون جائعين كل ليلة. والدول الأوربية والولايات المتحدة الأمريكية مسئولة مسئولية مباشرة عن هذه المصائب؛ لأنها هي السبب في التوتر الدولي وإشعال الحروب والنزاعات الإقليمية؛ من أجل تسويق السلاح وتوسيع مناطق النفوذ، ثم إنها هي السبب في فقر الكثير من دول إفريقيا وآسيا التي نهبتها أيام الاستعمار لصالح تنمية الدول الأوربية، ولصالح إعمار القارة الأمريكية بسواعد العبيد المجلوبين من إفريقيا.

الخلاصة:

- إذا لم يكن لهذا الكون إله، فكيف خُلق؟ ولماذا خُلق وكيف يدبر أمره؟ وما مصيره؟ كل هذه أسئلة حارت فيها عقول المنكرين، ولم يجدوا لها جوابًا شافيًا، وكان الجواب في الدين.
- إن إنكار وجود الله دعوى إلحادية لا دليل عليها، بل الأدلة العلمية والعقلية تناقضها، وتقضي بوجود الخالق ﷻ.
- دائمًا ما تتجه فطرة الإنسان إلى الخالق وتؤمن بوجوده؛ لأنها مفطورة على ذلك، ولكن الإنسان هو الذي طمس على هذه الفطرة بجحوده ونكرانه.
- إن نشأة الإلحاد تُعدُّ انحرافًا طارئًا على الفطرة السليمة التي توقن بوجود الله؛ لذلك فهو انحرافٌ عن المسار الصحيح للإنسان.
- إن مما يؤكد زيغ الإلحاد عن صراط الله المستقيم، تلك الآثار المروعة الناتجة عن الثقافة الإلحادية، وما الأمراض النفسية والعقلية وذيوع الجرائم. وتفشي الإدمان والشذوذ والانتحار إلا أمثلة لهذه الآثار المروعة.
- إن رجوع كثير من الملحدين واعترافهم بوجود الله بعد طول تأمل و نظرٍ ثاقب يعد دليلًا جَليًّا يشهد بأن الفطرة السليمة تتجه إلى الله تعالى وتؤمن بوجوده.
- ولا تنسَ أن علماء أوربا وفلاسفتها قد حذَّروا المجتمعات والحكومات من عواقب ما أنتجته الثقافة الإلحادية من ظواهر تحمل بين طياتها[1] عوامل انهيارها وسقوط حضارتها عاجلًا أو آجلًا؛ بسبب الفساد العَقَدي الذي تنطوي عليه.

---

١. تحمل بين طيَّاتها: تتضمن.

الشبهة الثالثة والعشرون

ادعاء قِدَم العالم(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المشككين أن العالم قديم قِدَم الخالق، وأنه نشأ من عناصر مادية، كالماء والهواء، والنار، والتراب، ويستدلون على ذلك بقولهم: إن كل شيء يفسر بالمادة والحركة، وأنهما عنصران أزليان أبديان، والعالم مدبَّر مسيَّر بقوانينهما.

وجها إبطال الشبهة:

١) العلم الحديث أثبت حدوث العالم من العدم.

٢) النقل والعقل يدلان على حدوث العالم من العدم.

التفصيل:

أولا. العلم الحديث أثبت حدوث العالم من العدم:

العالم حادث من العدم بدليل قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ (الأنبياء: ٣٠)، وقد أثبت العلم الفيزيائي أن الكون ـ السماء والأرض ـ كان كتلة ضئيلة، فانفتقت بانفجار حراري عظيم، منذ خمسة عشر بليون سنة، وذلك قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ (فصلت: ١١) بعد أن خلق الأرض من الكتلة الدخانية في يومين: ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ (فصلت: ٩).

وأكد كثير من علماء الكون أنه باستعلام قوانين الفيزياء لاستنباط الكيفية التي كان الكون عليها حين نشأته وبداية تكوينه، تبين أن الكون كان في بدايته حارًّا وكثيفًا، وكان غازيًّا وكانت مادته وإشعاعه ممتزجين معًا امتزاجًا يختلف فيه تمامًا عمَّا نعرفه عنهما، من حيث تميزهما الواضح عن بعضهما.

فالإشعاع والمادة في بداية نشأة الكون سَلَكا سُلوكًا لا يكاد يميز أحدهما عن الآخر، وهم يعتقدون أن درجة حرارته كانت عالية جدًّا مما أدى إلى الانفجار العظيم. وبعد اكتشاف القانون الثاني للحرارة الديناميكية، ثبت أن هذا العالم وُجِدَ بعد عدم، وبالتالي فهو مُحْدَث وليس قديمًا.

وهذا القانون الذي نسميه "قانون الطاقة المتاحة"، أو "ضبط التغيير" يثبت أنه لا يمكن أن يكون وجود الكون أزليًّا، فهو يصف لنا أن الحرارة تنتقل دائمًا من وجود حراري إلى عدم حراري، والعكس غير ممكن، وهو أن تنتقل دائمًا هذه الحرارة من وجود حراري قليل، أو عدم وجود حراري، إلى وجود حراري أكثر، فإن ضابط التغيير هو: التناسب بين الطاقة المتاحة والطاقة غير المتاحة.

وانطلاقًا من هذه الحقيقة القائلة بأن العمليات الكيماوية والطبيعية جارية، وأن الحياة قائمة، يثبت لدينا قطعًا أن الكون ليس بأزلي؛ إذ لو كان أزليًّا لكان من اللازم أن يفقد طاقته منذ زمن بعيد، بناء على هذا القانون، ولما بقي في الكون بَصِيص[1] من الحياة.

يذكر هذا التحقيق العلمي الحديث عالم أمريكي في

(*) البابية والبهائية في الميزان، مجموعة من علماء الأزهر، مرجع سابق.

١. بَصِيص: أثر خفيف.

علم الحيوان هو (إدوارد ثوركسيل) فيقول: وهكذا أثبتت البحوث العلمية ـ دون قصد ـ أن لهذا الكون بداية، فأثبت تلقائيًا وجود الإله؛ لأن لكل شيء بداية لا يمكن أن يبتدئ بذاته، ولا أن يحتاج إلى المحرك الأول ـ الخالق الإله ـ وقد قال نفس الكلام السير جيمس: تؤمن العلوم الحديثة بأن عملية تغير الحرارة سوف تستمر حتى تنتهي طاقاتها كلية، ولم تصل هذه العملية حتى الآن إلى آخر درجاتها؛ لأنه لو حدث لما كنا الآن موجودين على ظهر الأرض حتى نفكر فيها.

إن هذه العملية تتقدم بسرعة مع الزمن، ومن ثم لا بد لها من بداية، ولا بد أنه قد حدثت عملية في الكون يمكن أن نسميها "خَلْقًا" في وقت ما، حيث لا يمكن أن يكون هذا الكون أزليًا، وهناك شواهد طبيعية كثيرة أثبتت أن الكون لم يكن موجودًا منذ الأزل، وأن له عمرًا محدودًا، وعلى سبيل المثال نجد علم الفلك يقرر أن الكون يتسع بالتسلسل الدائم، وأن كل مجاميع النجوم والأجرام والأجسام الفلكية تتباعد بسرعة مدهشة، بعضها عن بعض، ويمكن أن نفسر هذه الحالة تفسيرًا جيدًا إذا نحن سلمنا بوقت للبدء كانت فيه الأجرام التركيبية مركزة ومجتمعة بعضها مع بعض، ثم بدأت الحركة والحرارة، ويقدر العلماء أن هذا الكون قد وجد نتيجة الانفجار فوق العادة منذ ٥٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ سنة، فالإيمان بهذا الكشف العلمي، وهو أن للكون عمرًا محدودًا يتعارض مع إنكار وجوده[1].

ثانيًا. النقل والعقل يدلان على حدوث العالم من العدم:

قد تضافرت الأدلة على حدوث العالم، وقد ثبت علميًّا صدق كثير من هذه الأدلة، وقد ذكرنا بعضها في الفكرة الأولى، وأما في هذه الفكرة فسندلل بالنقل والعقل، ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٤) ﴾ (السجدة). وقوله: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ (١٩) قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) ﴾ (العنكبوت)، وقوله: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ (٣٦) ﴾ (الطور).

وهذه الآيات مجتمعة تقرر أن الحياة لم تكن كائنة، ثم كانت بأمر الله، أوجدها الله في الوقت الذي أراده، ولفظة "خلق" إشارة إلى التكوين، ويقرر المفسرون في هذه الآيات أن السماوات والأرض كانتا معدومتين، فأوجدهما الله، والممكنات باعتبار ذاتها وحدها تكون معدومة، واتِّصافها بالوجود لا يكون إلا من واجب الوجود وهو الله تعالى.

يقول الأشعري: "إن سأل سائل فقال: ما الدليل على أن للكون صانعًا صَنعه ومدبرًا دبَّره؟ قلنا: الدليل على ذلك الإنسان، فالإنسان الذي هو غاية الكمال والتمام، كان نطفة ثم تحولت إلى علقة ثم إلى لحمٍ، ودم وعظم، وعلمنا أنه لم ينقل نفسه من حال إلى حال، وإذا كان تحول النطفة علقة، ثم مُضْغة، ثم لحمًا، أعظم في

---

١. الإسلام يتحدى، وحيد الدين خان، تعريب: ظفر الإسلام خان، مراجعة: د. عبد الصبور شاهين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢٢، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠١م، ص٧٤، ٧٥.

الأعجوبة كان أولى أن يدل على صانع صنع النطفة، ونقلها من حال إلى حال، وقد قال الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ (الواقعة)، فلم يستطيعوا أن يقولوا بحجة أنهم يخلقون ما يمنون.

فإن قالوا: فما يدريكم أن تكون النطفة لم تزل قديمة؟

قلنا لهم: وأين كانت قبل مجيء صاحبها، أو قبل وصوله إلى مرحلة البلوغ والرشد؟ ولو كان ذلك - القدم - جائزًا لم يجز أن يلحقها الاعتمال والتأثير، ولا الانقلاب والتغيير، ولا الموت؛ لأن القديم لا يجوز تغييره وانتقاله".

حقًّا، فقد كان الله ولم يكن شيء قبله وكان عرشه على الماء، ثم خلق السماوات والأرض، وكتب في الذكر كل شيء، كما قال النبي ﷺ، فالنبي ﷺ قد بين بأوجز كلام، وأحسنه بيانًا ما يتضمن أن جميع الموجودات سوى الله محدثة مخلوقة: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ (الحديد: ٣).

وصحيح الدلالة العقلية يثبت أن العالم حادث من العدم؛ إذ إن العالم مخلوق ولا بد لكل مخلوق من خالق، ولا يجوز عقلًا أن يُوْجَدَ المخلوق والخالق في آن واحد، فالصانع لا بد أن يكون سابقًا للصنعة.

والخالق أزلي الوجود؛ إذ لو كان مسبوقًا بالعدم لكان لا بد من مؤثر في إيجاده، ومحال أن يكون مع ذلك إلهًا؛ فلا بد أن يكون الإله هو السابق عليه والموجد له، فيكون هو القديم إذًا، وهذا هو المطلوب بيانه.

أو أن يكون ذلك السابق أيضًا مسبوقًا بعدم، وأن موجودًا قد أثر فيه فأوجده، وهكذا، فيستلزم ذلك فرض التسلسل، وهو باطل بالبرهان العلمي.

فلا بد إذًا أن تكون الموجودات كلها مستندة في وجودها إلى ذات واجبة الوجود؛ ولا تكون هذه الذات واجبة الوجود إلا إذا كانت مؤثرة في غيرها غير متأثرة بسواها، وذلك يستلزم أن تكون متصفة بالقدم.

وإنما يستشكل العقل - بعد هذا - تصوُّر حقيقة هذه الذات واجبة الوجود، وتصوُّر ماهية فعلها في الكون، وكيف اتجهت إلى العدم المحض فأحدثت عنه وجودًا هو ذلك الكون ممدود الأطراف والنواحي؟! والعجز في مثل هذا ليس طعنًا في العقل وقدرته على الإدراك؛ فحسبه أن يرى آثار الصفات الإلهية في الكون، وأن يتدبر فعله ﷻ فيما يولد أو يموت، أو ما يحدث أو يزول، وما يسكن أو يضطرب في ذلك الكون الشاسع.

إن العقل وقف عن إدراك الروح، فالعقل لم يدرك الروح، ولم يعرف حقيقتها، منذ الأزل وحتى الآن، فهو واقف أمام أمرها - وهي متوغلة فيه - يقول: "لا نعرف شيئًا من أمر الروح" وإذا كانت الروح مخلوقًا من مخلوقات الله تعالى، وعجز الإنسان عن إدراكها، فكيف يدرك خالقها تبارك وتعالى؟ ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ (الأنعام)، ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ (الإخلاص).

الخلاصة:

- إن الفكرة القائلة بقدم العالم مثل خلقه فكرة باطلة، ويستدل القرآن على بطلانها عقلًا بأن الذي يُخلق لا يكون خالقًا، ولا بد أن يسبق الخالق خلقه في الوجود، إن الصنعة لا يمكن أن تصاحب صانعها في

بدء الوجود، بل لا بد أن تتأخر عنه.

- إن قانون "الطاقة المتاحة" أو "ضابط التغيير" يثبت أن الحرارة تنتقل دائمًا من وجود حراري إلى عدم حراري، والعكس غير ممكن. وعليه، فجريان الحياة وقيامها يثبت أن الكون ليس أزليًّا؛ إذ لو كان أزليًّا لكان من اللازم أن يفقد طاقته منذ زمن بعيد.

الشبهة الرابعة والعشرون

إنكار ثبوت عقيدة التوحيد في الشرائع السماوية(*)

مضمون الشبهة:

ينكر بعض المغالطين ثبوت عقيدة التوحيد في الشرائع السماوية، ويدَّعون أنها أقرَّت عقيدة التثليث، مستدلين على ذلك ببعض شعائر المسلمين؛ كقولهم في الأذان: الله أكبر؛ فاستخدام صيغة أفعل تدل على أن هناك أكثر من إله، هذا أكبرهم. وكذلك قول المسلمين: بسم الله الرحمن الرحيم؛ كما يقول النصارى: بسم الآب والابن والروح القدس، كما يستدلون على ذلك بقوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ (المؤمنون) حيث تدل صفة أفعل (أحسن) أيضًا على وجود أكثر من خالق، هذا أحسنهم، ويتساءلون: كيف بعد هذا يُدَّعى أن الإيمان في الإسلام مؤسس على التوحيد؟

وجوه إبطال الشبهة:

١) الحقيقة الواضحة في القرآن هي التوحيد الخالص، ونفي ألوهية غير الله، ونبذ الشرك، وهذا هو الأساس الذي تصح معه جميع الأعمال.

٢) التوحيد هو أصل جميع الشرائع، والأنبياء دينهم واحد وإلههم واحد.

٣) ليس في القرآن الكريم ما يسوغ أن يكون إشارة إلى إقرار التثليث ونحوه من صور التعدُّد.

التفصيل:

أولا. التوحيد الخالص في القرآن الكريم:

إن التوحيد هو الأساس الذي تقوم عليه العقيدة الصحيحة في الإسلام، وتصح معه جميع الأعمال، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾ (الكهف)، ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ (الزمر)، ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ (الزمر).

فدلت هذه الآيات، وما جاء بمعناها على أن الأعمال لا تُقبل إلا إذا كانت خالصة من الشرك، **والتوحيد ثلاثة أنواع:**

توحيد الربوبية[1]:

وهو الذي أقر به الكفار على زمن رسول الله ﷺ ولم

(*) هذا هو الحق: رد على مفتريات كاهن الكنيسة، ابن الخطيب، المطبعة المصرية، القاهرة، ١٩٧٩م. الجذور التاريخية والجسور الحضارية بين الإسلام والغرب، د. محمد محمد أبو ليلة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، مصر، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.

١. توحيد الربوبية: الاعتقاد الجازم بأن الله ﷻ رب كل شيء، ولا رب غيره، أو بعبارة أخرى: الإقرار بأن الله هو الخالق لكل شيء، وهو المدبِّر، وهو الذي يعطي ويمنع، ويحيي ويميت، لا يشاركه أحد في فعله ﷻ.

يدخلهم في الإسلام، وقاتلهم رسول الله ﷺ، واستحل دماءَهم وأموالهم، وهو توحيد بفعله تعالى، والدليل قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ (يونس)، وقوله تعالى: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ (المؤمنون).

والآيات على هذا كثيرة جدًّا، أكثر من أن تحصر، وأشهر من أن تذكر[1] ®.

توحيد الألوهية:

وهو التوحيد الذي وقع فيه النزاع في قديم الدهر وحديثه، وهو: توحيد الله بأفعال العباد؛ كالدعاء والنذر، والنحر، والرجاء، والخوف، والتوكل، والرغبة والرهبة، والإنابة.

وذلك كما في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ (غافر)، وكل نوع من هذه الأنواع عليها دليل من القرآن.

وأصل العبادة تجريد الإخلاص لله تعالى وحده، وتجريد المتابعة للرسول ﷺ قال تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ ﴾ (الجن)، وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ (الأنبياء)، وقال الله تبارك تعالى: ﴿ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَـٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَـٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿١٤﴾ ﴾ (الرعد)، وقال تبارك وتعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَـٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ ﴾ (لقمان).

توحيد الذات والأسماء والصفات:

قال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾ ﴾ (الإخلاص)، وقال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾ (الأعراف)، ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ (الشورى)[2] ®.

مما سبق يتبين أن التوحيد هو أساس العقيدة الصحيحة، ولأهميته كان اهتمام الرسل - عليهم السلام - بإصلاح العقيدة أولًا ودعوة الناس إلى توحيد الله ﷻ وترك عبادة ما سواه، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ

---

١. مجموعة التوحيد: الرسالة الأولى، محمد بن عبد الوهاب، دار الفكر، بيروت، د. ت، ص٣، ٤.

® في "إقرار بني آدم بربوبية الله في عالم الذَّرِّ" طالع: الشبهة الرابعة، من الجزء السابع (الإيمان والتدين).

٢. مجموعة التوحيد: الرسالة الأولى، محمد بن عبد الوهاب، مرجع سابق، ص٤، ٥.

® في "تعدد الصفات الإلهية دليل علي كمال الله" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثامنة والثلاثين، من هذا الجزء. وفي "طريقة السلف في إثبات الصفات الإلهية" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الخامسة والثلاثين، من هذا الجزء.

﴿بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ (النحل: ٣٦)، وكل رسول يقول أول ما يخاطب قومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ (الأعراف: ٥٩)، قالها نوح، وهود، وصالح، وشعيب، وسائر الأنبياء لأقوامهم.

وقد بقي رسول الله ﷺ في مكة بعد البعثة ثلاثة عشر عامًا يدعو الناس إلى التوحيد، وإصلاح العقيدة؛ لأنها الأساس الذي يقوم عليه بناء الدين[1].

وقد تبين أن الإسلام نبذ الشرك ونفى تعدد الآلهة، فليس في هذا الوجود من إله إلا الله ﷻ.

ثانيًا. التوحيد هو الأصل الذي دعت إليه جميع الشرائع، والأنبياء دينهم واحد وإلههم واحد:

وهذا في القرآن مذكور في مواضع كثيرة، وكذلك في الأحاديث الصحيحة مثل ما جاء، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة، والأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد"[2]، ومثل صفته في التوراة: "لن أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء، ففتح به أعينًا عميًا، وآذانًا صمًا، وقلوبًا غلفًا"، ولهذا وحد الصراط والسبيل في مثل قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝﴾ (الفاتحة)، ومثل قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ (الأنعام: ١٥٣).

والإسلام دين جميع المرسلين، قال نوح عليه السلام: ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۝﴾ (يونس)، وقال الله حاكيًا عن سحرة فرعون: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ۝﴾ (الأعراف)، وقال حاكيًا عن فرعون: ﴿آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۝﴾ (يونس)، وقال الحواريون: ﴿اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ۝﴾ (آل عمران)، وقال يوسف عليه السلام: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ۝﴾ (يوسف)، وقال موسى: ﴿يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ۝﴾ (يونس)، وقالت بلقيس: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (النمل: ٤٤)، وقال ﷻ عن التوراة: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾ (المائدة: ٤٤).

وقد وردت نصوص عديدة في التوراة تدعو إلى التوحيد، وتحذر من صور الشرك، فقد جاء في سفر الخروج: "أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية". (الخروج ٢٠: ٢)، وفي سفر التثنية: "فتحب الرب إلهك من كل قلبك، ومن كل نفسك ومن كل قوتك، ولتكن هذه الكلمات التي أنا أوصيك بها اليوم على قلبك، وقُصَّها على أولادك، وتكلم بها حين تجلس في بيتك، وحين تمشي في الطريق، وحين تنام وحين تقوم، واربطها علامة على يدك،

---

١. عقيدة التوحيد، د. صالح بن فوزان، مرجع سابق، ص٦، ٧.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾ (مريم: ١٦) (٣٢٥٩)، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب فضائل عيسى عليه السلام (٦٢٨١).

ولتكن عصائب بين عينيك، واكتبها على قوائم أبواب بيتك وعلى أبوابك. ومتى أتى بك الرب إلهك إلى الأرض التي حلف لآبائك إبراهيم وإسحاق ويعقوب أن يعطيك إلى مدن عظيمة جيدة لم تبنها، وبيوت مملوءة كل خير لم تملأها، وأبآر محفورة لم تحفرها، وكروم وزيتون لم تغرسها، وأكلت وشبعت، فاحترز لئلا تنسى الرب الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية. الرب إلهك تتقي، وإياه تعبد، وباسمه تحلف. لا تسيروا وراء آلهة أخرى من آلهة الأمم التي حولكم، لأن الرب إلهكم إله غيور في وسطكم، لئلا يحمي غضب الرب إلهكم عليكم فيبيدكم عن وجه الأرض". (التثنية ٦ : ٥ ـ ١٥)، وكما نهوا عن عبادة الأوثان نهوا عن عبادة النجوم وغيرها، كما جاء: "ولئلا ترفع عينيك إلى السماء، وتنظر الشمس والقمر والنجوم، كل جند السماء التي قسمها الرب إلهك لجميع الشعوب التي تحت كل السماء، فتغتر وتسجد لها وتعبدها ". (التثنية ٤: ١٩).

بل أمروا أن يعاملوا بالشدة جميع الأمم التي تدين بعبادة الأوثان؛ كقوله في سفر التثنية: "فإنك تحرمهم، لا تقطع لهم عهدًا، ولا تشفق عليهم، ولا تصاهرهم. بنتك لا تعط لابنه، وبنته لا تأخذ لابنك؛ لأنه يرد ابنك من ورائي فيعبد آلهة أخرى، فيحمي غضب الرب عليكم ويهلككم سريعًا، ولكن هكذا تفعلون بهم: تهدمون مذابحهم، وتكسرون أنصابهم، وتقطعون سواريهم، وتحرقون تماثيلهم بالنار". (التثنية ٧: ٢ ـ ٥).

وكما أمروا بالقسوة على الأمم الوثنية، أمروا بمثل ذلك في حق من يشرك منهم: فقد أمر موسى عليه السلام بني لاوي ـ رهطه ـ بقتل عبدة العجل حين عُبد العجل في غيبته، وفي سفر التثنية: "إذا قام في وسطك نبي أو حالم حلمًا، وأعطاك آية أو أعجوبة، ولو حدثت الآية أو الأعجوبة التي كلمك عنها قائلًا: لنذهب وراء آلهة أخرى لم تعرفها ونعبدها، فلا تسمع لكلام ذلك النبي أو الحالم ذلك الحلم؛ لأن الرب إلهكم يمتحنكم لكي يعلم هل تحبون الرب إلهكم من كل قلوبكم ومن كل أنفسكم، وراء الرب إلهكم تسيرون، وإياه تتقون، ووصاياه تحفظون، وصوته تسمعون، وإياه تعبدون، وبه تلتصقون، وذلك النبي أو الحالم ذلك الحلم يقتل، لأنه تكلم بالزيغ من وراء الرب إلهكم الذي أخرجكم من أرض مصر، وفداكم من بيت العبودية، لكي يطوحكم عن الطريق التي أمركم الرب إلهكم أن تسلكوا فيها، فتنزعون الشر من بينكم، وإذا أغواك سرًّا أخوك ابن أمك، أو ابنك أو ابنتك أو امرأة حضنك، أو صاحبك الذي مثل نفسك قائلًا: نذهب ونعبد آلهة أخرى لم تعرفها أنت ولا آباؤك من آلهة الشعوب الذين حولك، القريبين منك أو البعيدين عنك، من أقصاء الأرض إلى أقصائها، فلا ترض منه ولا تسمع له ولا تشفق عينك عليه، ولا ترق له ولا تستره، بل قَتْلًا تقتله، يدك تكون عليه أولًا لقتله، ثم أيدي جميع الشعب أخيرًا، ترجمه بالحجارة حتى يموت". (التثنية ١٣: ١ ـ ١٠).

وكما أمرت التوراة بعبادة الله وحده ونبذ الشرك وعبادة غير الله، كذلك وجد في الإنجيل ما يدل على أن الله واحد لا شريك له، وما ذهبوا إليه من التثليث وادعاء آلهة مع الله، هو وهْم باطل لا دليل عليه من

كتابهم، وهذا التوحيد قد بيِّنته نصوص من أناجيلهم على النحو التالي:

١. **إنجيل متى**: "وإذا واحد تقدم وقال له: أيها المعلم الصالح، أي صلاح أعمل لتكون لي الحياة الأبدية، فقال له: لماذا تدعوني صالحًا، ليس أحد صالحًا إلا واحد وهو الله". (متى ١٩: ١٦، ١٧). فهذا القول يقلع أصل التثليث، وما رضي تواضعًا أن يطلق عليه لفظ الصالح. أيضًا ولو كان إلهًا لما كان لقوله معنى، وكان عليه أن يبين، لا صالح إلا الآب وأنا وروح القدس، ولم يؤخر البيان عن وقت الحاجة. وإذا لم يرضَ بقوله "الصالح"، فكيف يرضى بأقوال أهل التثليث التي يتفوهون بها في أوقات صلاتهم: يا ربنا وإلهنا يسوع المسيح لا تضيع من خلقت بيدك؟

وورد في قول إبليس للمسيح: "إن كنت ابن الله فاطرح نفسك إلى أسفل، لأنه مكتوب: أنه يوصي ملائكته بك، فعلى أياديهم يحملونك، لكي لا تصدم بحجر رجلك، قال له يسوع: مكتوب أيضًا: لا تجرب الرب إلهك، ثم أخذه أيضًا إبليس إلى جبل عال جدًّا، وأراه جميع ممالك العالم ومجدها، وقال له: أعطيك هذه جميعها إن خررت وسجدت لي، حينئذ قال له يسوع: اذهب يا شيطان! لأنه مكتوب: للرب إلهك تسجد، وإياه وحده تعبد". (متى ٤: ٦ ـ ١٠).

ويقول المسيح لتلاميذه: "متى صليتم فقولوا: أبانا الذي في السماوات، ليتقدس اسمك، ليأت مَلَكوتك، لتكن مشيئتك كما في السماء، كذلك على الأرض، خبزنا كفافنا وأعطنا اليوم، واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضًا للمذنبين إلينا، ولا تدخلنا في تجربة، لكن نجنا من الشرير؛ لأن لك الملك والقوة والمجد إلى الأبد آمين". (متى ٦: ٩ ـ ١٣).

ويقول: "أفما قرأتم ما قيل لكم من قبل الله القائل: أنا إله إبراهيم، وإله إسحاق، وإله يعقوب، ليس الله إله أموات، بل إله أحياء". (متى ٢٢: ٣١، ٣٢).

٢. **إنجيل مرقس**: "فجاء واحد من الكتبة، وسمعهم يتحاورون، فلما رأى أنه أجابهم حسنًا سأله: أية وصية هي أول الكل، فأجابه يسوع: إن أول كل الوصايا: اسمع يا إسرائيل: الرب إلهنا رب واحد، وتحب الرب إلهك من كل قلبك، ومن كل نفسك، ومن كل فكرك، ومن كل قدرتك، هذه هي الوصية الأولى، وثانية مثلها هي أن تحب قريبك كنفسك، ليس وصية أخرى أعظم من هاتين". (مرقس ١٢: ٢٨ ـ ٣١).

٣. **إنجيل يوحنا**: قال عيسى عليه السلام في خطاب الله: "وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته". (يوحنا ١٧: ٣)، فبين عيسى عليه السلام أن الحياة الأبدية عبارة عن أن يعرف الناس أن الله واحد حقيقي، وأن عيسى عليه السلام رسوله. وما قال: إن الحياة الأبدية أن يعرفوا أن ذاتك ثلاثة أقانيم ممتازة بامتياز حقيقي. وأن عيسى إنسان وإله، أو أن عيسى إله مجسم، فلو كان اعتقاد التثليث مدار النجاة لبيَّنه، وإذ ثبت أن الحياة الأبدية اعتقاد التوحيد الحقيقي لله واعتقاد الرسالة للمسيح، فضدها يكون موتًا أبديًّا وضلالًا بينًا ألبتة. والتوحيد الحقيقي ضدٌّ للتثليث الحقيقي. وكون المسيح رسولًا ضد لكونه إلهًا؛ لأن التغاير بين المرسَل والمرسِل ضروري.

وهذه النصوص السابقة تدل على أن المسيح عليه السلام

دعا إلى عبادة الله وحده، ولم يَدْعُ أحدًا إلى عبادته هو، والقرآن يشهد له أنه ما خالف الأنبياء والمرسلين في دعوة التوحيد، قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ ﴾ (الزخرف).

ويذكر لنا القرآن صورة لما سيكون يوم القيامة، حين يسأل عيسى عليه السلام عما يقوله النصارى من أمرهم أن يتخذوه وأمه إلـهَيْن من دون الله، فيجيب على ذلك البهت بهذا الجواب المفحم: ﴿ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ (المائدة). فتبين أن التوحيد هو أصل جميع الأديان، دعت إليه التوراة ودعا إليه الإنجيل، وإنما طرأت مزاعم التعدد بالتثنية أو الثليث في هذه القصائد في طور متأخر من تاريخها، ولم تكن تعرفها النصوص الأولى التي لم تزل - على رغم تبديلها - تحتفظ بما يشهد للاعتقاد الأول فيها، وهو التوحيد[1] ®.

١. انظر: دعوة أهل الكتاب إلى دين رب العباد، د. سعيد عبد العظيم، مرجع سابق. إظهار الحق، رحمة الله بن خليل الهندي، مرجع سابق.

® في **"الإشارات إلى التوحيد في الكتاب المقدس"** طالع: الوجه الثالث، من الشبهة السابعة، من الجزء الثامن (مقارنة الأديان). وفي **"عقيدة التوحيد في التوراة"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة الأولى، من الجزء الثامن (مقارنة الأديان).

ثالثًا. تهافت المزاعم عن إقرار الإسلام لبعض صور التثليث:

من العجيب - بعد كل ما تقدم - أن يلتمس أناسٌ إشارات إلى التثليث في القرآن الكريم وغيره من العبادات التي يرددها المسلمون في عباداتهم، ويقدمون هذا الفهم الخاطئ لهذه الإشارات التي يتوهمونها على الآيات الصريحة الكثيرة التي تشرح التوحيد خالصًا من شوائب الشرك.

ومن ذلك استدلالهم بما يقال في أول القرآن عند التسمية: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ بأنه مثل ما جاء في الإنجيل عن عيسى عليه السلام: "فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم، وعمِّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس". (متى٢٨: ١٩)، فالمسلمون بهذا في نظرهم يعتقدون بتثليثهم. والجواب: أن التثليث ليس من المسيحية التي أتى بها المسيح، فالمسيح جاء بالتوحيد الخالص الذي دعا إليه جميع الأنبياء، وقد تقدم بيان ذلك.

أما زعمهم أن ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ هي مثل: الآب والابن والروح القدس، فهذا فهم خاطئ وتحريف؛ لأن الله تعالى في البسملة معناه: الذات الموصوفة بصفات الكمال، ونعوت الجلال، وصفات الله عز وجل باعتبار الخير والإحسان الصادِرَيْن عن قدرته[2].

فهذا - إذن - ليس تثليثًا، والله عز وجل كما هو رحمن ورحيم، فهو - أيضًا - ملك وقدوس، وسلام ومؤمن

٢. انظر: الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة، القرافي، مرجع سابق.

ومهيمن... إلخ، فأسماء الله وصفاته كثيرة، لا يعقل أن يقال إن الله يتعدد بتعدد صفاته وأسمائه®.

وأما استدلالهم بقول الله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ (المؤمنون)، فهذا فهم خاطئ، فقوله في هذه الآية: ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾؛ أي: المقدِّرين، والعرب تطلق الخلق وتريد التقدير، ومنه قول زُهَير:

ولأنت تَفْرِي ما خَلَقْتَ وبعـ

ـضُ القَوْمِ يخلُق ثم لا يَفْرِي

فقوله: يخلق ثم لا يفري؛ أي: يُقَدِّرُ الأمر، ثم لا ينفذه لعجزه عنه كما هو معلوم[1].

فكيف يزعمون ذلك والله تبارك وتعالى ينفي الخلق عن غيره، فيقول تعالى: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ (النحل)، ويثبت الخلق له وحده سبحانه: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ (الأعراف)، أي: له الخلق وليس لغيره، ويتحدى الله تعالى أن يكون الشركاء الذين يُعْبدون من دونه يَخْلُقون: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ (الحج).

وأما زعمهم بأن قول المؤذن: "الله أكبر" يقتضي أن هناك مقارنة بين إلهين أكبر وأصغر، فهذا الفهم الفاسد يبرهن على فساده آيات كثيرة، جاءت صريحة قاطعة بأن لا إله إلا الله، حتى أصبحت حقيقة إسلامية يعرفها جميع الناس عن الإسلام دين التوحيد، الذي لا يؤمن فيه المؤمن بإله مع الله.

أما التكبير بهذه الصيغة في الأذان وفي الصلاة، وفي الذكر فهو تنبيه للعاقل بأنه مهما كَبُرَ عندك شيء فانتبِه إلى أن الله أكبر منه؛ ليترك كل ما في يده مهما كان شأنه عنده، ويُقبل على ربه ومناجاته، فليس هناك أكبر من الله تعالى. من هنا اقتضت الحكمة أن يُفْتَتَح بها الأذان ويُختتم، وتُفْتَتَح بها الإقامة للصلاة وتُختتم، وتُفتتح بها الصلوات وتتخلل أعمالها، ليكون التكبير تنبيهًا متواليًا يرد المسلم إلى ربه كلما شرد به تفكيره إلى ما يهمه من أمر دنياه.

ومن هنا كان التكبير شعار المجاهدين المنتصرين الفاتحين، فهو مصدر إلهام لهم، وقوة إيمانية لهم، حيث لا يجدون فوق الله كبيرًا، وبهذا تتحطم على أيديهم قوى الطغيان والبطش مهما أوتيت، وكيف يكون التكبير اعترافًا ضمنيًّا بإله مع الله، وإن كان أصغر، مع أن كل تكبير في أذان أو إقامة أو صلاة، أو ذكر يعقبه إعلان بأنه: لا إله إلا الله، لا إله غيره، لا إله معه، لا إله إلا هو سبحانه؟!

الخلاصة:

- إن توحيد الله ﷻ هو الحقيقة الواضحة الجلية التي دعا إليها الإسلام، وتوحيد الله ﷻ ونفي ألوهية غير الله، ونبذ الشرك، وتعدد الآلهة أمور يعلمها كل مسلم ولا تخفى على أحد؛ لأن الإسلام جعل التوحيد هو الأساس الذي تصح معه جميع الأعمال.
- والتوحيد هو دعوة جميع الأنبياء، وكذلك هو

® في **"موقف الإسلام من عقيدة التثليث"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة السابعة، من الجزء الثامن (مقارنة الأديان).

١. أضواء البيان، محمد الأمين الشنقيطي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ج٥، ص٧٨١.

أول ما بدأ به رسول الله ﷺ دعوته، وظل في مكة ثلاث عشرة سنة، يدعو إليه، والتوحيد دين جميع المرسلين، أقرَّته التوراة والإنجيل، على الرغم مما فيهما من أمور تتنافى مع العقيدة الصحيحة، كالقول بالتثليث.

- وما زعمه هؤلاء من إقرار الإسلام لصور من التثليث هو زعم طائش لا يستند إلى فهم سليم لهذه الإشارات والشواهد التي استدلوا بها، وهو يخالف ما يجعلونه أصل إيمانهم.

الشبهة الخامسة والعشرون

دعوى اختلاف تصور الإله عند المسلمين عنه لدى سائر الأنبياء(*)

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض المغالطين أن الإله الذي يؤمن به المسلمون هو إله خاص بهم وحدهم، مختلف عن الإله الذي دعت إليه كل الرسالات وديانات كل الرسل من قبل؛ فليس هو إله إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، وموسى، وعيسى - عليهم السلام، ومتى تقرر أن وحي الله في جانب العقائد لا يتبدل كان ذلك بمجرده طعنًا في الإسلام وعقيدته؛ بما أن تصوره عن الإله لا يكاد يُعرف عن أحد من الأنبياء السابقين.

وجها إبطال الشبهة:

١) العقيدة في الله التي بُعث بها الأنبياء جميعهم لم يختلف مضمونها منذ بعثة سيدنا آدم عليه السلام إلى بعثة خاتم النبيين محمد ﷺ وهي الإيمان بوجود الله ووحدانيته.

٢) الصورة التي تقدمها الكتب المقدسة لغير المسلمين من اليهود والنصارى للألوهية فيها من التشويه وإثبات صفات النقص ما يتنزه جناب الألوهية عنه، وهو ما لا نجده في التصور الإسلامي عن الإله.

التفصيل:

أولا. العقيدة الصحيحة التي بُعث بها الأنبياء عليهم السلام:

إن العقيدة الصحيحة لم يختلف مضمونها منذ بعثة آدم عليه السلام إلى خاتم النبيين محمد ﷺ، ومضمونها الذي تعاقب الرسل والأنبياء على الدعوة إليه هو: الإيمان بوجود الله ووحدانيته، وتنزيهه عن كل ما لا يليق به من صفات النقص، والإيمان باليوم الآخر، والحساب، والجنة والنار، وما إلى ذلك.

فكان كل رسول يدعو قومه إلى الاعتقاد بهذه الأمور، وكان كل منهم يؤكد بذلك دعوة من بُعث قبله، ويُبشِّر ببعثة من سيأتي بعده، وهذا وضحه الله عز وجل في كتابه المبين في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ (الأنبياء)، وقوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ (الشورى).

بل إن من يتتبع آيات القرآن الكريم، يلاحظ أن

(*) قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية: نقد مطاعن رد شبهات، فضل حسن عباس، مرجع سابق.

اسم الإسلام كان هو الاسم القديم والدائم لهذه العقيدة، يقول تعالى: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ (آل عمران)، وفي قوله تعالى عن سحرة فرعون: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ (الأعراف) وفي قوله تعالى عن حواريِّي عيسى عليه السلام: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ (آل عمران)، ومن ذلك يتبين أن الدين الحق واحد لم يتعدد، وأن كلمة "الأديان السماوية" التي تتكرر على ألسنة عوام الناس كلمة خاطئة، فليس ثمة إلا دين حق سماوي واحد تعاقبت الأنبياء والرسل على الدعوة إليه، والبعثة به.

وكيف يمكن للدين الحق أو الاعتقاد الصحيح أن يتعدد أو يختلف على ألسنة الأنبياء والمرسلين، وأمور العقيدة تكون دائمًا من قبيل الإخبار، والخبر الواحد لا يمكن أن ينقل على أشكال ووجوه عديدة متخالفة، ثم تكون كلها أخبارًا صحيحة سماوية صادقة؟

إن الذي تطور وتغير مع الزمن، وعن طريق بعثة الرسل والأنبياء، إنما هو التشريع على اختلافه، من عبادات ومعاملات... وغير ذلك. والحكمة في ذلك أن التشريع إنما هو إقامة الأحكام التي يتوخى منها تنظيم حياة المجتمع والفرد، وبَدَهي أن يكون للتطور الزمني واختلاف الأمم والأقوام أثر في تطور شرائعهم، ففكرة التشريع - إذًا - قائمة على ما تقتضيه مصالح العباد في دنياهم وآخرتهم، وهذه المصالح كثيرًا ما تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة، فقد بُعث موسى عليه السلام إلى بني إسرائيل، وكان الشأن يقضي - بالنسبة لحال بني إسرائيل إذ ذاك - أن تكون شريعتهم شديدة وقائمة في مجموعها على أساس العزائم لا الرخص، ولما مرت أزمنة وبُعث فيهم سيدنا عيسى عليه السلام جاءهم بشريعة أسهل وأيسر، وانظر إلى قول الله تعالى على لسان عيسى عليه السلام وهو يخاطب بني إسرائيل: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ ﴾ (آل عمران)، فقد بين لهم أنه فيما يتعلق بأمور العقيدة، مصدق لما جاء في التوراة، ومؤكد له ومجدد للدعوة إليه، أما بالنسبة للتشريع وأحكام الحلال والحرام، فقد كُلِّف ببعض التغييرات وإيجاد بعض التسهيلات؛ فَعَمَلُ الرسول بالنسبة للعقيدة ليس سوى تأكيد نفس العقيدة التي بعث بها من قبله دون أي مخالفة أو تغيير.

والذي يدرس شئون العقيدة وبراهينها، إنما يدرس تلك الحقائق التي ألزم الله عباده بالإيمان والاعتقاد بها منذ بعثة آدم عليه السلام إلى أن يرث الأرض ومن عليها، وتلك هي العلاقة بين العقيدة الإسلامية وكل ما جاء به الأنبياء والرسل - عليهم السلام -، وأهل الكتاب يعلمون هذه العلاقة، ويعلمون وحدة الدين، ويعلمون أن الأنبياء إنما جاءوا ليُصدِّق كل منهم الآخر فيما بُعِث به، وما كانوا ليتفرقوا إلى عقائد متباينة مختلفة، ولكنهم اختلفوا وتفرقوا فيما بينهم، واختلقوا على الأنبياء ما لم يقولوه على الرغم مما جاءهم من العلم في ذلك، بغيًا بينهم، وصدق الله إذ يقول: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ

ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ ﴾ (آل عمران)[1].

ثانيًا. أهل الكتاب حرَّفوا كتبهم وغيَّروا عقيدتهم، أما العقيدة الإسلامية فبقيت على الأصل الصحيح:

جاء الإسلام بالعقيدة الصحيحة المؤكدة لما أرسل الله به رسله من قبل بصورة متكاملة ونظرة متوازنة توافق الفطرة الإنسانية، ويستسيغها العقل البشري، على النقيض من تلك الصورة التي عرضتها اليهودية والنصرانية المحرَّفتين للإله، فالإله الذي نؤمن به وندين بشرعه هو إله واحد لا شريك له، متصف بصفات الكمال، ووضوح هذا التصور يقابله وضوح هذه الشريعة الإسلامية وكمالها ومواءمتها لأحوال الناس، وتميز العقيدة يدل دلالة يقينية على تميز الشريعة، فإن الإله الذي له حق العبودية هو وحده الذي له حق التوجه والعبادة، وهو وحده الذي له حق التشريع.

وإليك تصور الإله عند اليهود والنصارى؛ لتعلم الفرق بين العقيدة الصحيحة التي تتفق مع الفهم الفطري السليم، وبين هذا الانحطاط والسقوط:

الإله عند اليهود:

اتصف اليهود بالطبيعة المادِّية، فقد كانوا دائمًا مائلين إلى تشبيه الإله وتجسيمهم قال القرآن الكريم: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ (البقرة)، وعلى الرغم من بقايا النظرة الصحيحة للإله كإله واحد مستحق للعبودية، طغت طبيعة اليهود الحِسية على هذا التوحيد الخالص، وألبست الإله ثوب الخصوصية لهذا الشعب.

فإله اليهود ليس عالِمًا بكل شيء، كما أنه ليس معصومًا من الخطأ. ويهوه إله اليهود يأكل ويشرب ويأمر بالسرقة، يهوه إله قاس ومدمر، متعصب لشعبه، ليس إله كل الشعوب، بل إله بني إسرائيل فقط، وهو بهذا عدو للآلهة الآخرين، كما أن شعبه عدو للشعوب الأخرى، وقد قسم لهم الشعوب قسمين: أمما قريبة، وهؤلاء جزاؤهم التحريم والقتل، وأما الأمم البعيدة فقد جاء النصُّ عليهم بما يلي: "حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستبعد لك، وإن لم تسالمك بل عملت معك حربًا فحاصرها، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، وأمّا النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة، كل غنيمتها، فتغتنمها لنفسك، وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك". (التثنية ٢٠: ١٠ ـ ١٤).

ولا يمكن أن يقبل عاقل أن تكون هذه الدعوة دعوة رب إله، وإن شاءوا أن يعرفوا دعوة الإله لعبيده فليقرءوا ما خاطب به الإسلام شعوب الأرض إبّان الفتوحات الإسلامية®.

الإله عند النصارى:

المسيح ـ كما يدعي المسيحيون ـ إله النصارى، فالله

١. كبرى اليقينيات الكونية، د. محمد سعيد رمضان البوطي، مرجع سابق، ص٧٤.

® في **"مقام الألوهية في التوراة"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثانية، من الجزء الثامن (مقارنة الأديان).

عندهم هو الذي نزل وظهر كإنسان، وصُلِب وصعد إلى السماء، فهو ذو طبيعة واحدة، كما يرى الأرثوذكس[1]، أو هو إله ذو طبائع ثلاث فهو آب وابن وروح قدس، وكل واحد، منهم متفرد عن الآخر، ولكنهم ليسوا ثلاثة، بل إله واحد وهو ليس واحدًا بسيطًا، ولكنه آلهة ثلاثة، والعقلية التي تؤمن وتعتقد هذه العقيدة لا يمكن أن تكون سوية، وما يقال عن النصرانية يقال عن اليهودية من سفاهة العقيدة في الإله، وغباوة التصور العنصري، الذي يرى الإله إلهًا خاصًّا لشعب خاص، وباقي شعوب الأرض خلقوا من طينة مختلفة.

العقيدة الإسلامية في الله:

هذه العقيدة يصورها أدق تصوير قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)﴾ (الإخلاص)، إنها أحدية الوجود، فليس هناك وجود حقيقي إلا وجوده، وكل موجود آخر فإنما يستمد وجوده من ذلك الوجود الحقيقي، ويستمد حقيقته من تلك الحقيقة الذاتية، وهي من ثم أحدية الفاعلية، فليس سواه فاعلًا في شيء من هذا الوجود أصلًا، وإذا استقر هذا التفسير ووضح هذا التصور خلص القلب من كل غاشية، ومن كل شائبة، ومن كل تعلق بغير هذه الذات الواحدة المنفردة بحقيقة الوجود وحقيقة الفاعلية، فعندئذٍ يتحرر العبد من جميع القيود، ويتحرر من الرغبة في غير الله، والرهبة من غير الله، وهو لا يفقد شيئًا متى وجد الله، ومن ذا يُرهب ولا وجود لفاعلية إلا الله؟!

يلي هذه الدرجة درجة يرى فيها القلب يد الله في كل شيء ووراؤها الدرجة التي لا يرى فيها شيئًا في الكون إلا الله، ويصحب هذا نفي فاعلية الأسباب ورد كل شيء وكل حدث وكل حركة إلى السبب الأول الذي منه صدرت، وبه تأثرت، قال تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٧)﴾ (الأنفال)، وقال تعالى: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٢٦)﴾ (آل عمران)، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٣٠)﴾ (الإنسان).

ومن هنا ينبثق منهج متكامل للحياة: منهج لعبادة الله وحده الذي لا حقيقة لوجود إلا وجوده، ولا حقيقة لفاعلية إلا فاعليته، ولا أثر لإرادة إلا إرادته، ومنهج للاتجاه إلى الله وحده في الرغبة والرهبة، وإلا فما جدوى التوجه لمن لا حقيقة لوجوده، ولا حقيقة لفاعليته؟ إنه منهج للتلقي عن الله وحده، تلقي العقيدة والتصور والقيم والموازين، والشرائع والقوانين والأوضاع والنظم، والآداب والتقاليد، فالتَّلقِّي لا يكون إلا عن الوجود الواحد والحقيقة المفردة في الواقع وفي الضمير، ومنهج للتحرك والعمل لله وحده ابتغاء القرب من

١. الأرثوذكس: هي إحدى الكنائس الرئيسة في النصرانية، وقد انفصلت عن الكنيسة الكاثولوكية الغربية، وتمثلت في عدة كنائس مستقلة ولا تعترف بسيادة روما عليها، ويجمعهم الإيمان بأن الروح القدس منبثقة عن الآب وحده، وعلى خلاف بينهم في طبيعة المسيح، وتدعى "أرثوذكسية" بمعنى مستقيمة المعتقد مقابل الكنائس الأخرى، ويتركز أتباعها في المشرق؛ ولذلك يطلق عليها "الكنيسة الشرقية".

الحقيقة، ومنهج يربط مع هذا بين القلب البشري وبين كل موجود بروابط الحب والأنس والتعاطف والتجاوب[1]. هذه العقيدة الصافية هي التي ترتاح إليها الفطر السَّويَّة، وتقبلها العقول السليمة، وهي العقيدة التي جاء بها الرسل جميعًا.

الخلاصة:

- العقيدة الصحيحة لم يختلف مضمونها منذ بعثة آدم عليه السلام إلى بعثة خاتم النبيين محمد ﷺ، وهو الإيمان بوجود الله ووحدانيته وتنزيهه عن كل ما لا يليق به من صفات النقص، والإيمان باليوم الآخر والحساب والجنة والنار.
- ليس هناك إلا دين حق سماوي واحد تعاقبت الأنبياء والرسل على الدعوة إليه والبعثة به، وعمل الرسول بالنسبة للعقيدة ليس سوى تأكيد لنفس العقيدة التي بُعث بها مَنْ قبله دون أي تخالف أو تغير.
- جاء الإسلام بالعقيدة الصحيحة الواضحة بصورة متكاملة ومتوازنة للإله، توافق الفطرة الإنسانية ويستسيغها العقل البشري، ففي حين اتصف اليهود بالطبيعة المادية التي تميل إلى تشبيه الإله وتجسيمه، وزَعَمَ النصارى أن المسيح هو الله جاء الإسلام ليقر عقيدة الوحدانية واتصافه عز وجل بالكمال والجلال، وتنزيهه عن كل ما لا يليق بجانب الألوهية، هذه هي العقيدة النقية، وهي التي ترتاح إليها الفطرة السوية، وتقبلها العقول السلمية، وهي العقيدة التي جاء بها كل الأنبياء والمرسلين من آدم عليه السلام إلى محمد ﷺ، وبهذا البيان بطل الزعم القائل: إن الإله الذي يعبده المسلمون يختلف عن إله الديانات السماوية الآخرى.

1. شبهات المستشرقين حول العبادات في الإسلام، ناصر محمد السيد، مركز التنوير الإسلامي، القاهرة، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٦م، ص١٠٠: ١٠٧.

الشبهة السادسة والعشرون

زعم منافاة العدل الإلهي لمغفرة ذنوب الصائمين(*) ®

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المشككين أن الفضل الذي رتَّبه الإسلام على صوم رمضان من غفران للذنوب والخطايا ينافي ما هو معروف من عدله تبارك وتعالى، وهو العدل الذي تجلَّى في النصرانية التي تُقِرُّ أن المسيح عُذِّب وصُلِب من أجل ذلك الغفران، لا أنه صام ليلة خيرًا من ألف شهر، فإن هذا ونحوه - في زعمهم - مما لا يستحق ذلك الجزاء، بل يوشك أن يكون فتحًا لباب المعصية والجرأة عليها.

وجوه إبطال الشبهة:

١) لا بد من مكفرات للذنوب؛ حتى لا يُغلق باب التوبة فيُقْنَط من رحمة الله عز وجل، وتزداد الشرور والفساد.

٢) تكفير الذنوب - الكبائر والصغائر - مقيَّد بشروط لا بد من تحققها.

٣) العقل يقبل غفران الذنوب بالاستغفار

(*) هل القرآن معصوم؟ موقع إسلاميات، عبد الله عبد الفادي. www. islmmevat. com

® في "عدم منافاة العدل الإلهي لتكفير الذنوب بالصلاة" طالع: الشبهة الثانية عشرة، من الجزء الثالث عشر (العبادات والمعاملات الاقتصادية).

والصوم والتوبة ونحوها في الإسلام، بينما يرفض عقيدة الفداء من أجل الخلاص.

التفصيل:

أولا. أثر تكفير الذنوب في إخلاص العبادة لله:

إن فتح باب التوبة أمام الإنسان له مقصد عظيم من قبل الخالق تعالى، فقد شرعها ـ أي: التوبة ـ لعباده؛ حتى لا يتوجهوا لغيره ولا يتعلقوا إلا به، ولا يقنطوا من رحمته، كما أنها تعمل على الحد من انتشار الشرور والآثام وشيوع الفساد في الأرض، فالإنسان متى علم أن ذنبه لن يُغفر أبدًا، وأن باب التوبة موصد أمامه، وأنه بذلك إلى الهلاك صائر لا محالة، فإنه سيقنط وييأس من الرحمة؛ ويؤدي به ذلك إلى التمادي في الشر والفساد، فأيُّهما أفضل عقلًا: أن يقع الإنسان في الذنب مرة واحدة ثم يجد باب التوبة أمامه مفتوحًا فيتوب ويكفر عن ذنبه؟ أم أن يجد باب التوبة موصدًا ولا مخرج له فيتمادى في الشرور؟ لأنه يَئِس من غفرانه وغسله ومحوه عنه، وبذلك ينتشر الفساد في الأرض وتعم الشرور؛ فمن قتل نفسًا سوف يستمر في ذلك فيقتل مائة نفس، ومن سرق مرة سوف يستمر في السرقة ويسرق آلاف المرات، ومن تعدى وظلم الآخرين سوف يستمر في عدوانه وظلمه.. وما إلى ذلك من ضروب الفساد بسبب القنوط واليأس من المغفرة والرحمة.

نقول: إن الصوم مكفر من بين مكفرات الذنوب الكثيرة، فالذنوب أمراض متنوعة، والأمراض تحتاج إلى أدوية متنوعة، بل إننا نجد المرض الواحد يحتاج إلى أدوية متنوعة، وإذا نظرنا نظرة إجمالية إلى مكفرات الذنوب الكثيرة التي جاءت في ديننا الحنيف وجدناها في جملتها تقود العبد إلى هجر المعاصي؛ ومن هنا نفهم كيف تأتي هذه المكفرات ماحية للذنوب.

وصوم رمضان ليس مجرد جوع وعطش، بل تراه يتمثل في تقوى الصائم لربه، واستشعاره وهو صائم أنه يمتثل أمر الله تعالى ونهيه، وبالتالي فالامتثال والطاعة لا يتجزأان، وقد جاء في الحديث: "رُب صائم حظه من صيامه الجوع والعطش"[1].

وتشريع الصوم محاط بزواجر عن الأخطاء وترغيب في الخيرات، بحيث لو امتثلها الصائم كان نموذجًا طيبًا للطهر والنقاء، فيكون خاليًا من الخطايا؛ فثبت بذلك أن الصوم ـ بحق ـ من بين مكفرات الخطايا، وهذا هو عين عدل الله وفضله وإحسانه.

على أن التكفير عن الخطايا والذنوب ليس قصرًا على باب الصوم وحده؛ فقد رتب الله ﷻ على بعض الذنوب مكفرات حتى يَتَهيَّأ للمذنب غفران ذنبه والعودة إلى الله ﷻ، **وأمثلة ذلك:**

- ما رتَّبه على الـمُظاهِر[2] من عتق الرقبة، فإن لم يجد فصيام شهرين متتابعين، فإن لم يستطع فإطعام ستين مسكينًا. هذا ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ

١. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي هريرة ﷺ (٨٨٤٣)، وابن خزيمة في صحيحه، كتاب الصيام، باب نفي ثواب الصوم عن الممسك عن الطعام والشراب (١٩٩٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٤٩٠).

٢. الُمظاهِر، من: ظاهَرَ الرجل امرأته يظاهرها ظهارًا، والظِّهار هو: تشبيه الرجل زوجته أو جزءًا سائغًا منها، أو جزءًا يعبر به عنها بامرأة محرمة عليه تحريمًا مؤبدًا، أو بجزء منها يحرم عليه النظر إليه؛ كالظهر والبطن والفخذ.. إلخ.

﴿يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾﴾ (المجادلة).

- ما رتَّبه لقبوله توبة قاتل النفس المؤمنة خطأً من كفارة الصيام ودفع الدِّية[1]، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾﴾ (النساء).

- ما رتَّبه تبارك وتعالى لتوبة قاذف المحصنات المؤمنات الغافلات، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾﴾ (النور).

- ما رتَّبه لتوبة الزاني في قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾ (النور).

إلى غير ذلك من أنواع الكفارات التي جعل الله ﷻ فيها مخرجًا لعباده؛ ليتوبوا إليه ويرجعوا، ولا يتمادَوْا في الباطل والغي، وهذا مَحْضُ تفضُّلٍ من الله تعالى وعدل.

ثانيًا. الكبائر من الذنوب لا يغفرها إلا التوبة منها بشروطها:

وهنا تأتي الإجابة عن السؤال: هل مجرد الصوم يؤدي إلى الخلاص وغفران الخطايا؟ وهل يتنافى ذلك مع عدل الله ورحمته؟

فنقول: إن الصيام والصلاة والحج والزكاة وكل أعمال الطاعات وفعل القربات؛ من صيام النوافل، وقيام الليل، ومساعدة المساكين والمحتاجين، وغيرها - كل ذلك يكفر ذنوبًا كثيرة عن الإنسان، لكن هناك الذنوب الكبائر التي لا يكفرها ولا يغفرها إلا التوبة إلى الله تعالى بشروطها، وهي: الإقلاع عن الذنب، والندم على ارتكابه - وهو حزن القلب كلما تذكره وبُغض المعصية - والعزم الأكيد على عدم العودة إليه، ورد الحقوق أو المظالم لأهلها فلا يدعي إنسان أنه تاب من هذا الجرم وهو مستمر عليه، وغير نادم على فعله السابق، وإلا فلا تقبل توبته؛ لأن عزمه على عدم الرجوع إليه ضعيف، كما لا تُقبل التوبة من إنسان لم يرد المظالم والحقوق لأهلها، فكيف يدعي أنه تاب وهو مُعْتَدٍ ظالم لغيره.

وهذه الكبائر مثل: القتل، الزنا، الربا، السرقة، وغيرها، كلها شرور عظيمة ومفاسد فادحة، إذا انتشرت في المجتمع أهلكته ودمرته؛ لذلك لا بد من الانتهاء عنها حتى تُغفر الذنوب، والقيام بكفارة كل ذنب على حدَةٍ، كما هو مفصل لدى الفقهاء والعلماء في

---

1. الدِّية لغة: مصدر وَدَى القاتلُ القتيلَ يَدِيه دِيَةً إذا أعطى وَلِيَّه المال الذي هو بدل النفس، واصطلاحًا: مال يجب بقتل آدمي حُرٍّ عوضًا عن دمه.

الشريعة، وهذا ما يوضحه الحديث الصحيح" الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنب الكبائر"[1].

فالشروط التي ينبغي توافرها حتى يكفر الصيام والصلاة وغيرهما الذنوب هو اجتناب الكبائر، وكذلك التوبة منها إن وقع فيها، والتوبة منها بشروطها الخاصة كل ذنب له توبته؛ فمثلًا: لا ينتظر إنسان أن يَغْفِر له صيامُ رمضان ذنوبَه وهو معتدٍ وظالمٌ للآخرين، فلا بد حتى يغفر له أن يَرْجع عن ذلك، بل يرد المظالم لأهلها.

ثالثًا. موقف العقل من تكفير الذنوب في الإسلام وعقيدة الفداء النصرانية:

في العقيدة الإسلامية إذا ارتكب الإنساني ذنبًا فهو الذي يتحمله ويتحمل مسئولية نفسه ولا يتحمله عنه غيره: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ (المدثر: ٣٨). والقانون العام في الإسلام، وهو كذلك قانون العدل الإلهي: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾ (النجم)، وعليه فعلى الإنسان الذي اقترف ذنبًا أو خطيئة أن يتوب سريعًا منها ويكفر عنها حتى تغفر له؛ فلا يتحمل أحد عنه ذنوبه، وإنما المسئولية والمُساءلَة تقع على عاتق صاحبها، وعليه هو - لا غيره - أن يتخلص ويتطهر من ذنوبه وأوزاره بتحمله وقيامه وحده بالسبل والوسائل التي من شأنها أن تخلصه، وكل هذا يقبله العقل ويستسيغه؛ بل إن الفلاسفة - في طائفة عظيمة منهم - يقولون: الإنسان حر وحريته تستلزم مسئوليته عن قراره وهو معنى يشبه أن يكون متفقًا عليه والعقول السليمة، وهو الذي أقرَّه الإسلام في جلاء وحسم، أما التجسد والخلاص عن طريق صلب المسيح عليه السلام والإيمان به في العقيدة المسيحية التي يتغنى بها هؤلاء، فأين هو من عدل الله وقداسته؟ وأين العدل الإلهي في أن تتحمل البشرية خطيئة لم ترتكبها ويولد كل إنسان مخطئًا دون أن يرتكب شيئًا؟ أم من العدل الإلهي أن يصلب أو يقتل واحد ليُغْفَر للناس جميعًا ذنبٌ لم يرتكبوه؟ إنها معادلة متناقضة تتحيَّر العقول في فهمها، بل لا تستطيع أن تقبلها أبدًا؛ مما يَضْطَرُّ الإنسان إلى رفضها رفضًا قطعيًّا.

وهل من قداسة الله تبارك وتعالى - التي تَعْني تنزهه عن الشبيه والمُماثِل - أن يتجسد في شخص إنسان؟ تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا، فهذه الأسطورة أسطورة ابن الله الفادي أو المخلص لأبناء آدم من خطيئة أبيهم، هذه المقولة غير المعقولة لا تصلح أساسًا للتعامل البشري؛ إذ إنها تنفي المسئولية الشخصية فكيف ارتضاها الله سبحانه لكي تكون سنته في التعامل مع البشر؟

وإذا افترضنا أن واحدًا من البشر ذهب إلى المحكمة متلبسًا بجريمة قتل، يده ملوثة بالدم وثبتت إدانته من كل وجه، أيحق له أو لمحاميه أن يدافع قائلًا: أنا قَتَلْت، ولكن زيدًا من الناس سيتحمل عني هذه المسئولية فحاكموه هو؟

فإذا كان هذا لا يجوز في عرف البشر ومنطقهم، فكيف يصح أمام عدالة الله القائل: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ

1. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر (٥٧٤).

أُخۡرَىٰ (٣٨) وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ (٣٩)﴾ (النجم).

والتوراة التي توجد بين يدي القوم تؤكد ذلك قائلة: "لا يقتل الآباء عن الأولاد، ولا يقتل الأولاد عن الآباء، كل إنسان بخَطَئِه يقتل"؛ وبناء عليه، فقضية فداء المسيح - المدعو إلهًا سنة ٣٢٥م - للبشرية قضية كاذبة خاطئة لا يرضى بها الواقع ولا يقبلها العقل السليم، بل رفضها الدين الصحيح (الإسلام)[1].

الخلاصة:

- لا بد من مكفرات الذنوب حتى لا يُغلق باب التوبة في وجه الناس فيقنطوا من رحمة الله وييأسوا منه، ويؤدي بهم ذلك إلى التمادي في الذنوب، فتزداد الشرور ويعم الفساد.
- الكبائر من الذنوب لا يكفرها إلَّا التوبة بشروطها، وهي: الإقلاع عنها، والندم عليها، والعزم على عدم الرجوع إليها، ورد المظالم لأهلها، كما أن الإصرار على الصغيرة يجعلها كبيرة من الكبائر، كما روي: لا كبيرة مع استغفار، ولا صغيرة مع إصرار.
- العقل يستسيغ طريقة الإسلام في تكفير الذنوب، وهي أن يتحمل الإنسان جريرته، وعليه وَحْدَه كفارتها حتى تُغْفَر ذنوبه، بينما لا يقبل العقل السليم عقيدة الفداء في المسيحية والتي تقوم على منظومة متناقضة لا عدل فيها ولا رحمة، وهي أن يولد الإنسان مخطئًا ويتحمل جرمًا لم يرتكبه، ثم يقتل أفضل الناس وأبرُّهم؛ ليُغفر للناس خطأٌ لم يرتكبوه، إن العقول السليمة حينما تسمع ذلك تضطر إلى أن ترفضه بل أن تستهجنه.

الشبهة السابعة والعشرون

الزعم أن تعذيب العُصاة يوم القيامة ينافي الرحمة الإلهية(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المغالطين أنّ ما قرَّره الإسلام في أمر العصاة من عذاب يوم القيامة إنما يتنافى مع ما يتصور في جناب الألوهية من رحمة ورأفة، وأن ترتيب عذاب الخلد للكافرين على ذنب محدود الزمان في الدنيا هو أدنى إلى التساؤل عن رحمة الله ﷻ بعباده.

وجها إبطال الشبهة:

١) لا يدخل أحد الجنة بعمله، بل بفضل من الله ﷻ، ولا يدخل أحد النار إلا بعمله وجزاء ما كسبت يداه في الدنيا.

٢) مبدأ الثواب والعقاب عامٌّ في التصورات الدينية، وعامٌّ كذلك في النظم التربوية والاجتماعية.

التفصيل:

أولا. فضل الله ﷻ في الجزاء على العمل:

إن الله خلق الإنسان لعبادته ﷻ وخلق للإنسان كل شيء، فلا ينبغي للإنسان أن يشغل بما خُلِقَ له عما خلق

---

١. المسيحية بين التوحيد والتثليث وموقف الإسلام منها، د. عبد المنعم فؤاد، مرجع سابق، ص١٨٥.

(*) النظر في الأدلة العقلية حول إثبات الذات الإلهية.

من أجله، قال الله ﷻ: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ (الذاريات).

فمهمة الإنسان وغاية وجوده عبادة الله ﷻ، فإن تشاغل الإنسان عنها حَقَّ عليه العذاب.

ونعيم المتقين في الجنة فضل من الله ﷻ وليس حقًّا عليه، ولا بسبب أعمالهم، روى أبو هريرة ؓ عن النبي ﷺ أنه قال: "لن يُدخل أحدًا عملُه الجنة، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: لا، ولا أنا. إلا أن يتغمدني الله بفضل ورحمة فسدِّدوا وقاربوا"[1].

حتى الرسول ﷺ لن يدخل الجنة بعمله، إلا أن يتغمده الله برحمته، فالنعيم من الله فضل، والعذاب منه عدل، والإنسان ملك لله تعالى فإن شاء عذبه، وإن شاء رحمه.

وليس معنى ذلك اتصاف الله بالعبثية، فقد أرسل إلى البشر الأنبياء والمرسلين؛ ليوضحوا لهم طريق الهداية: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ (النساء:١٦٥)، وذلك بعد أخذ الميثاق الأول: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ (الأعراف: ١٧٢).

فمن زاغ عن السبيل الصحيحة الواضحة، أو عاند واستكبر كان العذاب له حقًّا، وكانت النار له عدلًا، ومبدأ الثواب والعقاب مبدأ طبيعي للغاية، أليست الدولة تضع ذلك المبدأ لمواطنيها؟ أليست الأمُّ تضع عقابًا لأبنائها الصغار حتى يفرقوا بين الصواب والخطأ؟ إذن فوجود المبدأ - الثواب والعقاب - في حد ذاته ضمان لعدم انحراف حرية الاختيار، ولهذا لا يمكن أن نجدَ ثوابًا وعقابًا على أمرٍ لا اختيار فيه، وما دام الإنسان مختارًا فلا بد أن يتحمل نتيجة اختياره.

إذن، فوجود مبدأ الثواب والعقاب أمر ضروري للغاية مع وجود الاختيار، ما دام الإنسان مختارًا لأن يفعل أو لا يفعل، فلا بد إذن من وجود الثواب والعقاب، وإلا فسدت حرية الفعل.

ثانيًا. العدالة الحقة تقتضي أن يكون هناك حساب وجزاء:

والمراد بالحساب والجزاء، أن يقف كل إنسان منا أمام الحق ﷻ فيعرِّفه بأعماله التي عملها، وأقواله التي قالها، وما كان عليه في حياته الدنيا من إيمان أو كفر، واستقامة أو انحراف، وطاعة أو عصيان، وما يستحقه على ما قدَّم من إثابة وعقوبة، وأخذٍ للكتاب باليمين، إن كان صالحًا، بالشمال إن غلبت عليه شِقْوته.

إن العدالة الحقة لا تكون في هذه الدنيا، فكيف يأخذ الضعيف حقه؟

إن الإنسان المستقيم في حياته، كأنه في سجنٍ مظلم، والإنسان المجرم يفسق ويعربد في هذه الحياة، ويتلذذ ويتمتع، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾ (محمد)، ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ (الفرقان).

فأين تكون متعة المستقيم؟ إن الآخرة تصويب للأوضاع، ورد للاعتبار، وتحقيق للعدالة، والله ﷻ

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المرضى، باب نهي تمني المريض الموت (٥٣٤٩)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى (٧٢٩١).

يختبر الناس بتأخير الفصل بينهم، والغَبْن جزء من نظام الدنيا، وهو من امتحاناتها الصعبة، ولا بد من أخذه في الاعتبار، ولذلك جاء في الحديث القدسي، في إجابة دعوة المظلوم: "وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين"[1].

فتبارك الله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (الملك: ٢).

إن العبد الذي سعى لتحقيق الغاية التي خُلق من أجلها ـ عبادة الله ـ لا يستوي، ولا ينبغي أن يستوي، مع العبد الذي أفرط على نفسه في العصيان، فضلًا عن أن يتساوى مع المجرم الذي أنكر وجود الله أو أشرك مع الله غيره، أو جحد فرضًا من فروض الله تعالى.

ولذا فإن الله تعالى قال في الحديث القدسي: "وعزتي، لا أجمع على عبدي خوفين ولا أمنين، إذا خافني في الدنيا أمَّنْته يوم القيامة، وإذا أَمِنَني في الدنيا أخفته يوم القيامة"[2]. ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ (النازعات). فمن خاف الله في الدنيا، فامتثل أوامره واجتنب نواهيه كان من الآمنين يوم القيامة، ومن عصى الله وأَمِنَ عقابه في الدنيا خوَّفه الله يوم القيامة.

فأين العدل؟ هل هو في تصوركم أم في التصور الإسلامي الحق؟

إن الله قد جعل الدنيا دار عمل وابتلاء، والآخرة دار حساب وجزاء؛ فمن عمل مثقال ذرة خيرًا يره، ومن عمل مثقال ذرة من شر سيجده.

هذا ما يحكم به المنطق والعدل والحق، فلماذا تعجبون أيها المتوهمون، من تعذيب الكافرين أو المجرمين بالنار؟ إن هذا ما جنوه لأنفسهم: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾﴾ (الحج). وقد أخبر الله عن عدله المطلق؛ فلا تظلم نفس شيئًا، قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ (الأنبياء).

وأما أهل التوحيد والإيمان الذين خلطوا عملًا صالحًا وآخر سيئًا، فإن عدل الله يقتضي أن يعذبهم بمقدار ذنوبهم، ثم يئول أمرهم إلى النعيم المقيم، جزاء إيمانهم وطاعتهم وعملهم الصالح، ومع ذلك فأمرهم مفوَّض إلى الله تعالى، فقد يخفف عنهم العذاب، وقد يتجاوز عنهم فلا يعذبهم: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ (التوبة: ١٠٢)، ذلك ومن أراد الدنيا أعطاه الله تعالى منها ما أراده له، ومن أراد الآخرة، وسعى لها سعيها، وهو مؤمن، فأولئك كان سعيهم مشكورًا: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا

---

١. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي هريرة ﷺ (٨٠٣٠)، وصححه الأرنؤوط في تعليقه على المسند.

٢. صحيح: أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب الرقاق، باب حسن الظن بالله تعالى (٦٤٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٤٨٢) برقم (٧٧٧)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٦٦٦).

﴿ كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ﴾ (الإسراء)®.

الخلاصة:

- الله أرحم بالناس من الأم بولدها، ولكنه يعذب من استحق العذاب حتى لا تتحوَّل الدنيا إلى غابة للوحوش، يأكل القوي فيها الضعيف.
- إنه لا يدخل الجنة أحد بعمله، فالنعيم فضل من الله يمتن به على المؤمنين، والعذاب عدل من الله يعاقب به الظالمين الغاشمين.
- من أشد أنواع الظلم ظلم النفس، ومنه الشرك بالله: ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (لقمان) ومن الظلم الرغبة عن دين الله، كما فعلت قريش مع الرسول ﷺ، أو التبديل والتحريف في كتبه ﷻ المنزلة، كما فعلت اليهود والنصارى.
- الحياة الدنيا ليست محلًّا للعدل والجزاء، فلا بد من الآخرة لتصحيح الأوضاع وتحقيق العدل والجزاء.

الشبهة الثامنة والعشرون

الزعم أن التوبة والغفران لا قيمة لهما إذا كانت جهنم موعدًا للناس أجمعين(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المشككين أنه لا قيمة للتوبة والغفران ما دام مصير الناس إلى جهنم، كما ورد في القرآن: ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ (الحجر) وإذا كانت طائفة واحدة من الطوائف الإسلامية هي التي ستخلص كما في الحديث: "إلا واحدة" أفلا يكفي هذا لإثارة خوف سائر المسلمين من مصيرهم المحتوم؟! ويظنون أن ذلك مبعث قلق وخوف يكدران حياة المسلِم ويُفْسدانها.

وجوه إبطال الشبهة:

1) من مقررات العقيدة الإسلامية أن النار إنما هي مثوى وجزاء للكافرين وحدهم، لا يخلد فيها غيرهم.

2) الآيات والأحاديث التي تعلق بها هؤلاء لا تشهد لدعواهم، والتفسير الصحيح يصوب أغاليطهم في ذلك.

3) طريقة القرآن في الوعد والوعيد تحدث توازنًا في نفسية المسلم، فلا تذهب إلى إفراط أو تغليب للخوف أو للرجاء.

التفصيل:

أولا. النار مثوى الكافرين:

إن النار مثوى الأشرار من الكفار، وليست مثوى كل الناس كما توهَّم هؤلاء، فهي دار الذين عصوا ربهم بعدما أمرهم بطاعته، ولم يتوبوا إليه ويستغفروه، قال الله ﷻ: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا

® في "عدالة مبدأ الثواب والعقاب" طالع: الوجه الأول، من الشبهة العاشرة، من الجزء السابع (الإيمان والتدين).

(*) هل القرآن معصوم؟ عبد الله عبد الفادي، موقع إسلاميات.

رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾ (الفرقان). وهي دار أعداء الله ﷻ، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾﴾ (فصلت)، وتنكيلًا بهم يحشرون إلى نار جهنم على وجوههم: ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾﴾ (الفرقان).

ويزاد التنكيل بهم فيحشرون عُميًا لا يرون، وبُكمًا لا يتكلمون، وصُمًّا لا يسمعون: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ (الإسراء)، ويزيد بلاؤهم فيحشرون مع آلهتهم الباطلة وأعوانهم وأتباعهم قال تبارك وتعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾﴾ (الصافات)، والنار مثوى المتكبرين: ﴿فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ (النحل)، ومن تمام عدل الله، وحكمته ﷻ أنه لا يأخذ أحدًا جزافًا من هذه الجموع التي لا تحصى، والتي أحصاها الله فردًا فردًا، وإنما يعلم من هم أولى بها صِلِيًّا، قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾﴾ (مريم)[1].

ثانيًا. المفهوم الصحيح للآيات التي استدلوا بها:

إن مفهوم الآيات ليس كما زعموا، ولو تدبروا الآيات التي وردت في هذا الباب - ورود النار - ما احتجوا بها لو كانوا يعقلون، وعلى فرض صحة ما ادَّعوه وما فهموه؛ فإن ذلك يكون على سبيل الخوف والرجاء، من العبد لربه، وقد غيرت هذه الآية أحوال الصالحين، فأسهرت ليلهم وعكَّرت عليهم صفو العيش، وحرمتهم الضحك والتمتع بالشهوات[2].

وما فعلوا ذلك إلا لأنهم أساءوا الظن بالنفس حتى تأتي ما هو خير، وتترك ما هو شر، ومعنى قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ (مريم)، وهذا معناه أن ورود جميع الناس النار لا يعني تعذيبهم فيها، وإنما معناه: مرورهم على الصراط الممدود على ظهر جهنم، فيقع فيها الظالمون حين يمرون على الصراط، وينجو المتقون - حسب أعمالهم - ويجوزون على الصراط، منهم من يمر كالبرق الخاطف، ومنهم من يمر كالريح العاصف، ومنهم كالفارس، وهكذا كلٌّ حسب عمله[3].

وفي مرور المتقين على النار دون عذاب، ثم نجاتهم منها فيه معرفة مقدار رحمة الله بهم وتفضله عليهم، فقد رأوا العذاب بأعينهم ونجاهم الله منه، ثم أدخلهم جنته، فالنجاة من العذاب نعمة ورحمة، والدخول في الجنة نعمة ورحمة: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ (آل عمران: ١٨٥).

---

١. القيامة الكبرى، د. عمر سليمان الأشقر، دار السلام، مصر، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ص٢٥٩، ٢٦٠.

٢. المرجع السابق، ص٢٦١.

٣. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، ج٣، ص١٣٢.

وفي الصحيح أنه ﷺ قال: "لا يدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحدٌ! الذين بايعوا تحتها قالت: بلى، يا رسول الله، فانتهرها، فقالت: حفصة: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ (مريم: ٧١)؟ فقال النبي ﷺ: قد قال الله ﷻ: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (٧٢)﴾ (مريم)[1]، وأشار ﷺ إلى أن ورود النار لا يستلزم دخولها، وأن النجاة من الشر لا تستلزم حصوله، بل تستلزم انعقاد سببه، فمن طلبه أعداؤه ليهلكوه ولم يتمكنوا منه يقال: نجاه الله منهم.

ولهذا قال الله ﷻ: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا﴾ (هود: ٦٦)، ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا﴾ (هود: ٩٥)، ولم يكن العذاب أصابهم ولكن أصاب غيرهم، ولولا ما خصهم الله به من أسباب النجاة لأصابهم ما أصاب أولئك، وكذلك حال الواردين على النار، يمرون فوقها على الصراط ثم ينجي الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثيًّا.

صفوة القول: أن الورود على النار ورودان:

الأول: ورود الكفار أهل النار، فهذا ورود دخول لا شك فيه، كما قال الله تبارك وتعالى في شأن فرعون: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨)﴾ (هود)، أي: بئس المدخل المدخول.

الثاني: ورود الموحدين، أي مرورهم على الصراط[2].

وأما آية الحجر التي استدل بها الكاتب على أن جميع الناس يدخلون جهنم أبرارهم وأشرارهم فلا تدل - كما فهم - على ذلك، بل الضمير في قوله: ﴿لَمَوْعِدُهُمْ﴾ (الحجر: ٤٣) يعود على الغاوين الذين تبعوا إبليس. وهم المذكورون في الآية التي قبلها: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (٤٢)﴾ (الحجر) ثم قال سبحانه: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣)﴾ (الحجر) أي: موعد هؤلاء الغاوين أجمعين، بدليل أنه قال بعد ذلك: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٤٥) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ (٤٦) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ (٤٧) لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ (٤٨)﴾ (الحجر).

وأما الحديث الذي أشار إليه الكاتب من أن طائفة واحدة من المسلمين هي التي تنجو من النار، وبقية طوائف المسلمين في النار، وأن ذلك مما يبعث على الخوف في نظره، وهو قوله ﷺ: "افترقت اليهود على إحدى أو اثنين وسبعين فرقة، وتفرقت النصارى على إحدى أو اثنتين وسبعين فرقة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة"[3].

فالحديث ضعَّفه بعض أهل العلم وصححه آخرون، وعلى فرض صحته، فإن الحديث ينبِّه إلى أن أصحاب الأهواء سيُدَسُّون في هذه الأمة فيفرقونها، كما حدث في الأمم السابقة، بل ما سيحدث في هذه الأمة

---

١. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أصحاب الشجرة أهل بيعة الرضوان ﷺ (٦٥٦٠).

٢. القيامة الكبرى، د. عمر سليمان الأشقر، مرجع سابق، ص٢٦٨.

٣. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي هريرة ﷺ (٨٣٧٧)، وأبو داود في سننه، كتاب السنة، باب شرح السنة (٤٥٩٨)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٠٣).

من التفرق أكثر؛ نظرًا لعمومها جميع الأمم والشعوب وخلودها على مرِّ الزمن، فالتفرق واتباع الأهواء في داخلها كثير.

فالحديث الشريف ينبه إلى المنجى والمخرج من هذه الأهواء ويدل عليه، ألا وهو اتباع نهج النبي ﷺ وأصحابه ﷺ، وفي ذلك توعية وحض لها على التمسك بسنة رسول الله ﷺ وأصحابه؛ ففيهما النجاة في الدنيا والآخرة.

ثالثًا. الإسلام يبشر أهله ومُتَّبعيه بالجنة وحسن المآب دائمًا:

إنَّ الإسلام لا يُقنِّط أهله من رحمة الله، وهو وإن خوفهم من النار وما فيها فإنما يريد أن يسلك بهم برًّا آمنًا وطريقًا غير طريق النار، وهذه رحمة أخرى، فلله الحمد على نعمة الإسلام، وكفى بها نعمة.

والآيات التي تدل على ذلك أكثر من أن تُحصى، من ذلك قوله تبارك تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ (يونس). وقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ (يونس: ٢)، وقوله الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ (فصلت).

فليس في حياة المسلم بعد هذه البُشريات - وما أكثرها في القرآن، وعلى لسان الرسول ﷺ - خوف ولا حيرة كما يزعم المدعون[1].

الفرق بين حياة المسلم وحياة غير المسلم:

حياة المسلم - وإن قُدِّرَ عليه في الدنيا أن يكون أقل الناس عبادة لله - هي خير وأعظم من حياة أحسن الناس في غير الإسلام؛ لأن بالإسلام والقرآن تطمئن النفس، ويهدأ البال، ويرضى كل واحد بما قسمه الله له، والحياة بعيدًا عن الإسلام كلها نكد وكدر، وهذا ما يفسره لنا كثرة الانتحار في الحضارة الغربية المادية، فهؤلاء قد يئسوا من حياتهم، وليس لهم غاية يرجونها إلا التمتع بالدنيا، وحياة المسلم كلها خير، فإن أصابه خير شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له، وليس ذلك إلا للمؤمن، كما قال النبي ﷺ وسِرُّ سعادة المسلم أنه يؤمن بإله واحد - وهو الله ﷻ وأنه الذي خلقه، وأنه المستحق للعبادة وحده.

وإن القرآن ليرسم صورة فاتنة للكون كله، فيها كل شيء عابد، وكل كائن خاشع وقانت، وهو بذلك يستميل الإنسان للتجاوب مع الكون، وهذا الشعور وحده يكسب في النفس طمأنينة وسكينة لا تحس بها نفس الكافر الذي يبدو كأنه نشاز في كون متناسق، أو نبت مقطوع الأصول لا امتداد له ولا ثبات ®.

---

١. مقدمة الفَرْق بين الفِرَق، محيي الدين عبد الحميد، وذُكرت بعض هذه الروايات في: الفرق بين الفرق، عبد القاهر بن طاهر البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص٢١: ٢٣.

® في **"أثر الإيمان الصحيح في استقامة الحياة"** طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الثالثة، من الجزء السابع (الإيمان والتدين). وفي **"حقيقة الإيمان وأثره في النفس والحياة"** طالع: الشبهة الأولى، من الجزء السابع (الإيمان والتدين).

الخلاصة:

- القرآن الكريم حافل بالآيات التي تَعِدُ المؤمنين الجنة وتُوعِد الكافرين بالنار، ولا يذهب أحد من المسلمين إلى تسوية المؤمن بالكافر في هذا، ومرجع هذا الزعم الفهم الخاطئ لطائفة من الآيات أفاض مفسرو المسلمين في شرحها وبيان حقيقة معناها.
- حديث النبي ﷺ في نجاة فرقة واحدة لا يفيد أن سواها خالد في النار، بل هم كسائر من يخالفون سنته ﷺ يعذبون بمقدار مخالفتهم، ثم يدخلون الجنة، على أن تنويه النبي ﷺ بذلك إنما هو هداية وإرشاد، ومن كمال تبليغه ﷺ.
- فكرة الإسلام عن الوعد والوعيد، والموازنة القرآنية المترددة في شأن نعيم الأبرار وعذاب الفجار، كل ذلك مما ينعكس في حياة المسلم هدوءًا واستقرارًا، وينعكس في حياة غيره ضنكًا وشقاءً يظهران في شعوره بالقلق والاضطراب النفسي، وفي الجرائم والشذوذ والإدمان، على نحو ما يُرى في المجتمعات الغربية.

الشبهة التاسعة والعشرون

الزعم أن القرآن مخلوق(*)

مضمون الشبهة:

تزعم طائفة من المغالطين أن القرآن الكريم مخلوق خلقه الله ﷻ، وأن القول بقِدَمه يفضي إلى القول بتعدد القدماء، وهو ما ينافي الوحدانية، وهم بذلك يذهبون إلى ما قال به النصارى في عيسى ؑ أنه كلمة الله على الوجه الذي يفسرونها به. ويستدلون على ذلك بأن القرآن شيء "والله خالق كل شيء"، وأنه ﷻ وصفه بالحدوث في قوله: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢﴾ (الأنبياء)، والمحدث مخلوق كائن بعد أن لم يكن.

وجوه إبطال الشبهة:

١) القرآن الكريم نفسه يصرِّح في كثير من آياته أنه كلام الله غير مخلوق.

٢) قدَّم أئمة المسلمين إبان المناظرات القديمة حول هذه المسألة الأدلة العقلية على تهافت القول بخلق القرآن.

٣) إثبات الصفات لله ﷻ لا يعني إثبات قدماء مع الله يشاركونه في ملكه وتدبيره، فإن الله بمجموع صفاته قديم، ولا يعقل إثبات ذات في الخارج مجردة من الصفات.

٤) لم يحدث القول بخلق القرآن عن تدبُّر في نصوص الإسلام ذاتها، بل التزمه بعض المسلمين تخلُّصًا من إلزامات النصارى في مجالس الجدل والمناظرة.

التفصيل:

أولا. دلالة القرآن نفسه على أنه غير مخلوق:

لو كان القرآن مخلوقًا لفني كما تفنى المخلوقات، ولكنه باقٍ بعد فناء كل شيء؛ إذ يقول تعالى حين يفنى كل شيء: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ (غافر: ١٦)، ويجيب ﷻ: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ۝١٦﴾ (غافر)، وهذا من القرآن،

(*) هل القرآن معصوم؟ عبد الله عبد الفادي، موقع إسلاميات.

فكيف يكون القرآن مخلوقًا؟!

لقد اشتمل القرآن الكريم على براهين تدل على أنه كلام الله وغير مخلوق، قال الشيخ الإمام الحافظ اللالكائي: سأل رجل أبا الهذيل العلاف المعتزلي البصري عن القرآن، فقال: مخلوق، فقال له: مخلوق يموت أو يخلد. قال: لا بل يموت. قال: فمتى يموت القرآن؟ قال: إذا مات من يتلوه فهو موته. قال: فقد مات من يتلوه، وقد ذهبت الدنيا وتصرمت، وقال الله ﷻ: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾، فهذا القرآن، وقد مات الناس. فقال: ما أدري!

كما أن القرآن من أمر الله، وقد قال تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ (الروم: ٤)، فإذا قيل: قبل مطلقًا وبعد مطلقًا، كان المراد به الأزل والأبد، والله ﷻ أطلق القول فيه، فقال: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾، ويقتضي أن يكون الأمر أزليًّا، ولا يزال وما يوجد أزلًا ولا يزال، فهو قديم، وأنه قبل الأشياء كلها وبعد الأشياء كلها، كما قال ﷻ، وما كان قبل الأشياء كلها وبعدها فلا يكون محدثًا؛ لأن المحدث ما كان له أول في الابتداء وآخر في الانتهاء"[1]؛ وقال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ (الأعراف)، فأخبر أن الأمر غير الخلق[2].

فإن الله ﷻ إذا سمى الشيء الواحد باسمين أو ثلاثة فهو مرسل غير منفصل، وإذا سمى شيئين مختلفين لا يدعهما مرسلين حتى يفصل بينهما. من ذلك قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ (يوسف: ٧٨)، فهذا شيء واحد سماه بثلاثة أسماء وهو مرسل، ولم يقل إن له أبًا وشيخًا وكبيرًا، وقال: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَـٰتٍ مُّؤْمِنَـٰتٍ قَـٰنِتَـٰتٍ تَـٰٓئِبَـٰتٍ عَـٰبِدَٰتٍ سَـٰٓئِحَـٰتٍ ثَيِّبَـٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾﴾ (التحريم)، فلما كانت البكر غير الثيب، لم يدع الكلام مرسلًا حتى فصل بينهما بالواو العاطفة.

ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ (فاطر: ١٩)، فلما كان البصير غير الأعمى فصل بينهما، ثم قال: ﴿وَلَا ٱلظُّلُمَـٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾﴾ (فاطر)، فلما كان كل واحد من هذا الشيء غير الشيء الآخر فصل بينهما. ثم قال تبارك وتعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَـٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ (الحشر)، فهذا كله شيء واحد، فهو مرسل ليس بمنفصل. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ (الأعراف: ٥٤)؛ وذلك لأن الخلق غير الأمر فهو منفصل[3]. من هذا يثبت أن القرآن غير مخلوق.

ثانيًا. الدلالة العقلية على أن القرآن غير مخلوق:

ولو افترضنا جدلًا أنه غير الله ـ كما يزعمون ـ أي:

١. الإباضية، عامر النجار، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٤م، ص١٠٦.

٢. تاريخ المذاهب الإسلامية، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٦م، ص٤٨٧.

٣. الرد على الجهمية والزنادقة، الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق وتعليق: عبد الرحمن عميرة، دار اللواء للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٢م، ص١١٣.

خلقه الله قائمًا بذاته ونفسه ـ فهذا محال؛ إذ لا يكون الكلام إلا من متكلم، كما لا تكون الإرادة إلا من مريد، ولا العلم إلا من عالم، ولا يعقل كلام قائم بنفسه يتكلم بذاته.

فإذا علمنا بطلان زعمهم أن القرآن "غير الله" علمنا أنه لا يمكن أن يكون مخلوقًا، وإنما هو صفة من صفاته جل في علاه.

ولقد ألزم الإمام عبد العزيز المكي بِشْرًا المريسي بين يدي المأمون بعد أن تكلم معه ملتزمًا ألا يخرج عن نص التنزيل في الحجة، فقال بشر: يا أمير المؤمنين، ليدع مطالبتي بنص التنزيل، ويناظرني بغيره، فإن لم يدع قوله، ويرجع عنه ويقر بخلق القرآن الساعة، وإلا فدمي حلال.

قال عبد العزيز: تسألني أم أسألك؟

فقال بشر: اسأل أنت.

فقلت له: يلزمك واحدة من ثلاث لا بد منها: إما أن تقول: إن الله خلق القرآن ـ وهو عندي أنا كلامه ـ في نَفْسِه، أو خَلَقَهُ قائمًا بذاته ونَفْسِه، أو خَلَقَه في غيره؟

قال: أقول خلقه كما خلق الأشياء كلها، وحاد عن الجواب.

فقال المأمون: اشرح أنت هذه المسألة، ودع بشرًا فقد انقطع.

فقال عبد العزيز: إن قال خلق كلامه في نفسه فهذا محال؛ لأن الله لا يكون محلًّا للحوادث المخلوقة، لا يكون منه شيء مخلوقًا.

وإن قال: خلقه في غيره، فيلزم في النظر والقياس، أن كل كلام خلقه الله في غيره، فهو كلامه، فهو محال أيضًا؛ لأنه يلزم قائله أن يجعل كل كلام خلقه الله في غيره هو كلام الله.

وإن قال: قائمًا بنفسه وذاته، فهذا محال؛ فلا يكون الكلام إلا من متكلم ـ كما لا تكون الإرادة إلا من مريد، ولا العلم إلا من عالم، ولا يعقل كلام قائم بنفسه يتكلم بذاته، فلما استحال من هذه الجهات أن يكون مخلوقًا. علم أنه صفة لله.

والحق أن القرآن الكريم ينظر إليه من زاويتين:

إحداهما: من حيث مصدره، وهو أن الله تعالى متصف بالكلام ﷻ.

ثانيهما: من حيث هذه الحروف المصورة بالمداد في المصاحف والنطق بها، فهذا محدث لأنه عمل من أعمال القارئ، وأعماله محدثة بلا شك.

ولقد رأينا مثيري هذه الشبهة ينكرون أن يتصف الله بالكلام لما علموا أن هذا يؤدي بهم إلى كون القرآن غير مخلوق، فراحوا يعللون ما أسند إليه سبحانه أنه تكلم به بأنه ﷻ خلق الكلام في الموضع الذي صدر عنه الكلام، فكلامه لموسى بخلقه الكلام في الشجرة[1]. وقلنا إن هذا باطل؛ إذ لو أن كلامه ﷻ يخلقه في غيره، لكان كل كلام في الدنيا كلامه سبحانه؛ لأن الله خلق كلام زيد في زيد، وخلق كلام عمرو في عمرو، وخلق كلام بكر في بكر، وكل إنسان يتكلم فإن الله هو الذي خلق كلامه فيه!! فإذا كان كلام الله هو ما خلقه في غيره فكل متكلم إنما يتكلم بكلام الله!! ولا فرق حينئذٍ بين القرآن وبين أيِّ هَذَيان.

---

1. تاريخ المذاهب الإسلامية، محمد أبوزهرة، مرجع سابق، ص١٥٧.

فهؤلاء أغفلوا الزاوية التي ينظر منها إلى مصدر القرآن، وأن الله متصف بالكلام، وأخذوا يلبسون على الناس من الزاوية الأخرى "من حيث الحروف المصورة بالمداد في المصاحف والنطق بها"، وقد انكشف مكرهم وبطل افتراؤهم عن مصدر القرآن، وأن الله متصف بالكلام بكون القرآن غير مخلوق، ولم ننكر عليهم أن الحروف المصورة بالمداد والنطق بها محدثة فهذا بالطبع من عمل القارئ وأعماله محدثة بلا شك.

ثالثًا. قِدَم صفاته ﷻ لا يعني إثبات قدماء مع الله:

وقِدَم صفات الله لا يعني تعدد القدماء؛ إذ لا انفصام بين الشيء وصفاته؛ فإذا قلنا: إن صفات الله قديمة، فهذا أمر طبيعي؛ إذ كان الله بصفاته ولا شيء معه، وهذا لا يؤدي إلى تعدد القدماء - كما يتوهم البعض - إذ لا يمكن لعاقل أن ينظر إلى صفات شخص ما على أنها أشخاص آخرون يشاركونه فيما يملك، ويكون لها من القدرة ما له، فتعمل كما يعمل وكأنها أشخاص مستقلة عنه، ولله المثل الأعلى فلا يمكن لعاقل كذلك أن ينظر إلى صفات الله على أنها آلهة أخرى مستقلة عنه تشاركه في ملكه. فالشيء وصفاته شيء واحد ولا انفصام بينهما.

ولعلك تدرك هذا حينما تقرأ قول الله تعالى: ﴿إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيۡخًا كَبِيرًا﴾ (يوسف: ٧٨)، فهذا شيء واحد سماه ثلاثة أسماء؛ لذا لم يفصل بينها، بعكس لو كان كل اسم أو صفة تطلق على شيء مختلف عن الآخر، فإنه يفصل بينها، كما في قوله تعالى: ﴿ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا﴾ (التحريم: ٥٠)، وقد تقدم ذلك قريبًا.

ولما كانت أسماء الله وصفاته تطلق على واحد لا إله غيره لم يفصل بينها قال ﷻ: ﴿ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ﴾ (الحشر: ٢٤).

وبدا بذلك أن كون القرآن غير مخلوق لا يؤدي إلى وجود قديم غير الله، ولا يؤدي إلى تعدد القدماء؛ إذ ليس في قدرة العقل أن يتصور ذاتًا مجردة عن صفاتها في الخارج، ومن أنكر ذلك فقد كابر وأحال.

وإن الله تعالى في القرآن لم يسم كلامه شيئًا، إنما الذي سُمِّيَ شيئًا الذي كان بقوله، ألم تسمع قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ﴾ (النحل: ٤٠)، فالشيء ليس قوله، إنما الشيء الذي كان بقوله، وفي آية أخرى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا﴾ (يس: ٨٢)، فالشيء ليس هو أمره، إنما الشيء الذي كان بأمره.

ومن الأعلام والدلالات أنه لا يعني كلامه مع الأشياء المخلوقة، قال الله للريح التي أرسلها على عاد: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا﴾ (الأحقاف: ٢٥)، وقد أتت تلك الريح على أشياء لم تدمرها، منازلهم ومساكنهم والجبال، التي بحضرتهم، فأتت عليها تلك الريح ولم تدمرها، وقال: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ﴾.

فكذلك إذا قال: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ (الرعد: ١٦) لا يعني نفسه ولا عمله ولا كلامه مع الأشياء المخلوقة، وقال لملكة سبأ: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ٢٣﴾ (النمل)، وقد كان ملك سليمان شيئًا، ولم تُؤْتَه، وقال الله تبارك وتعالى لنبيه موسى عليه السلام: ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ٤١﴾ (طه)، ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾ (آل عمران: ٢٨)، ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾ (الأنعام: ٥٤)، ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي

﴿نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ (المائدة: ١١٦).

فقد عرف من عقل عن الله أنه لا يعني نفسه مع الأنفس التي تذوق الموت، وقد ذكر الله ﷻ كل نفس، فكذلك إذا قال: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ لا يعني نفسه، ولا علمه، ولا كلامه مع الأشياء المخلوقة. وقد ذكر الله كلامه في غير موضع من القرآن، فسماه كلامًا، ولم يسمه خلقًا؛ كقوله: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ (البقرة: ٣٧)، وقوله: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ (البقرة: ٧٥)، وقوله ﷻ: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ (الأعراف: ١٤٣)، وقوله ﷻ: ﴿إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾ (الأعراف: ١٤٤)، ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ (النساء)[1].

واعلم أن الشيئين إذا اجتمعا في اسم يجمعهما وكان أحدهما أعلى من الآخر، ثم جرى عليه اسم مدح، كان أعلاهما أولى بالمدح وأغلب عليه، وإن جرى عليه اسم ذم، فأدناهما أولى به، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾ (البقرة)، ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ (الإنسان: ٦)، يعني: الأبرار دون الفجار، فإذا اجتمعوا في اسم الإنسان واسم العباد فالمَعْنِي به في قول الله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ (الإنسان: ٦): الأبرار دون الفجار؛ لقوله إذا انفرد الأبرار: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ (الإنفطار)، وإذا انفرد الفجار: ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ (الإنفطار). وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾ (البقرة)، فالمؤمن أولى به وإن اجتمعا في اسم الناس؛ لأن المؤمن إذا انفرد أُعطي الرحمة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ (الأحزاب)، فلما قال الله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ (الأنبياء: ٢)، جمع بين ذِكْرَين: ذكر الله وذكر نبيه، فأما ذكر الله إذا انفرد لم يجر عليه اسم الحدث، ألم تسمع إلى قوله: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ (العنكبوت:٤٥)، وقوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ﴾ (الأنبياء: ٥٠).

وإذا انفرد ذِكْرُ النبي ﷺ فإنه جرى عليه اسم الحدث، ألم تسمع إلى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ (الصافات). فذكر النبي ﷺ له عمل، والله له خالق مُحْدِثٌ، والدلالة على أنه جمع بين ذِكْرَيْنِ لقوله: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾﴾ (الأنبياء)، فأوقع عليه الحدث عند إتيانه إيَّانا، وأنت تعلم أنه لا يأتينا إلا بالإنباء، مبلِّغًا ومذكِّرًا، وقال الله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ (الذاريات)، ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾﴾ (الأعلى)، ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾﴾ (الغاشية).

فلما اجتمعا في اسم الذكر جرى عليهما اسم الحدث، وذِكْر النبي إذا انفرد وقع عليه اسم الخلق، وكان أولى بالحدث من ذكر الله الذي إذا انفرد لم يقع عليه اسم خلق ولا حدث، فوجدنا دلالة من قول الله: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ (الأنبياء: ٢) إلى النبي ﷺ؛ لأن النبي ﷺ كان لا يعلم فعلمه الله، فلما

---

١. الرد على الجهمية والزنادقة، الإمام أحمد بن حنبل، مرجع سابق، ص١١٥: ١١٧.

علمه الله كان ذلك محدثًا إلى النبي ﷺ[1].

رابعًا. منشأ القول بخلق القرآن:

إن قضية خلق القرآن لم تنبع عن اعتقاد صحيح موحًى به من عند الله، وإنما كانت ردًّا على النصارى الذين أرادوا أن يفسدوا على المسلمين عقيدتهم، ولكن كان الرد عليهم متسرعًا، فلم يستوعب معنى "كلمة الله"، و"روح منه" الوارد ذكرهما في الآية التي اتخذها اليهود والنصارى ذريعة للتشكيك في كتاب الله.

فالنصارى تعلم أن المسلمين لا يقولون: إن "كلمة الله" مخلوقة فيوصف القرآن بالتالي أنه مخلوق، لكنهم ـ على ذلك ـ كانوا يوجهون سؤالًا لبعض المسلمين مستغلين عدم وقوفهم على معنى الآية: ماذا تقولون في عيسى عليه السلام؟ فيجيب المسلمون بنص القرآن "كلمة الله" و"روح منه" فيوجهون سؤالًا آخر: "كلمة الله" مخلوقة أم غير مخلوقة؟ فإن قالوا: مخلوقة، قالوا: إن القرآن الكريم مخلوق، وإن قالوا: غير مخلوقة، قالوا: إذن المسيح عيسى عليه السلام قديم وإله وبذلك يبررون عبادتهم له.

فلكي تخرج هذه الطائفة من المسلمين[2] من هذا المأزق قالوا: إن القرآن مخلوق وهم بهذا الجواب ضلُّوا الطريق المستقيم، وكان أولى بهم أن يبينوا أن "كلمة الله" في هذا المقام تعني أن الله خلق عيسى عليه السلام بمجرد كلمة "كن" فكان، أي أنه لم يخلق على مقتضى العادة في تكوين الأحياء، ولله درُّ الحافظ ابن كثير حين قال: ليست الكلمة صارت عيسى وإنما بالكلمة صار عيسى، كما أن معنى "روح منه" أي أن الله عز وجل أنشأ روح عيسى بأمر منه، لا بالأسباب التي تجري في خلق الأحياء، على أن "من" في مثل هذا لا تفيد التبعيض، بل كل شيء هو من الله خلقًا وإيجادًا، كما قال عز وجل: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ (الجاثية: ١٣)[3].

وعلى ما سبق يتضح لنا أن هذه الشبهة ـ قضية خلق القرآن ـ لم تنبع عن اعتقاد صحيح موحى به من عند الله، وإنما كانت نتيجة لجدال أهل الباطل، وقد وقف أهل الهدى في وجهها حتى أبطلوها، وبينوا وجه الصواب فيها.

الخلاصة:

القرآن كلام الله غير مخلوق بلا شك؛ لأدلة عقلية ونقلية واضحة منها:

- كل مخلوق يفنى ويموت، والقرآن لا يفنى ولا يموت.
- القرآن من أمر الله، وقد بين الله أن الأمر غير الخلق.
- كلام الله صفة من صفاته، وليس كما يزعمون أنه "غير الله".
- القرآن كلام الله من حيث مصدره واتصاف الله به ليس محدثًا ولا مخلوقًا، أما من حيث الحروف المصورة بالمداد والنطق بها فهي محدثة.
- قدم صفات الله لا يعني تعدد القدماء؛ إذ لا انفصام بين الشيء وصفاته، ولا أحد يعقل وجود ذاتٍ

١. المرجع السابق، ص١٢٠: ١٢٣.

٢. المقصود بهذه: الطائفة المعتزلة ومن تابعهم في القول بخلق القرآن.

٣. انظر: تاريخ المذاهب الإسلامية، محمد أبو زهرة، مرجع سابق، ص١٥١ وما بعدها.

مجردة عن صفاتها.

- إن الله في القرآن لم يسم كلامه شيئًا، وإنما سُمِّي شيئًا الذي كان بقوله، كما أنه ﷻ لا يعني كلامه مع الأشياء المخلوقة بدلالة كثير من آيات القرآن.
- قضية خلق القرآن لا أساس لها؛ إذ لم تنبع عن اعتقاد صحيح موحى به من عند الله ﷻ، بل ظهرت لملابسات تاريخية خاصة، وسرعان ما تبيَّن وجه الحق فيها.

الشبهة الثلاثون

الفهم الخاطئ لنسبة الإضلال إلى الله تعالى (*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المشككين أن "الله" في الإسلام له سلطة الإضلال والهداية؛ فهو الذي يُضل من يشاء، ويعينه على الضلال مستندين ـ خطأً ـ إلى قول الله تعالى: ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ (إبراهيم: ٤). ويتساءلون: كيف يضل الله العباد وهو الذي أرسل الرسل وأنزل الكتب من أجل هداية البشر؟ أليس في هداية بعض الناس وإضلال بعضهم تحيزٌ لفريق دون فريق؟!

وجها إبطال الشبهة:

١) الله ﷻ هدى الناس جميعًا بمعنى أنه جعلهم قابلين لفعل الخير، كما جعلهم قابلين لفعل الشر، وهذه هداية الدلالة والإرشاد، وهي التي تترتب عليها هداية التوفيق وشرح الصدر أو عدمها.

٢) الآيات التي تنص على أن الله ﷻ يهدي من يشاء ويضل من يشاء لا تفيد ـ على التفسير الصحيح لها وللقضية بجملة جوانبها ـ انحيازًا ذميمًا لبعض العباد على بعض.

التفصيل:

أولا. إسناد الهداية والإضلال إلى الله ﷻ وحقيقتهما:

الله ﷻ حَكَم عدل، يأمر بالعدل، ويحكم بالعدل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ (النحل:٩٠)، وحض على الحكم به: ﴿وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ (النساء:٥٨)، والعدل معناه: إعطاء كل أحد ما يستحقه[1].

وهذه صفة حسنى لله ﷻ وهي صفة كمال، فهو لا يظلم الناس شيئًا، ولكن الناس أنفسهم يظلمون.

وقد هدى الله ﷻ الناس جميعًا بمعنى: أنه جعلهم قابلين لفعل الخير، كما جعلهم قابلين لفعل الشر، كما قال تعالى: ﴿وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ﴿١٠﴾﴾ (البلد)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ (الإنسان)، وهداهم جميعًا بأن أرسل إليهم رسله ليدلوهم على ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة، قال ﷻ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ (فصلت: ١٧).

والله ﷻ عندما نفى الهداية عن الكافرين والظالمين والفاسقين عَبَّر عن كفرهم وظلمهم وفسقهم بصيغة

(*) حتى الملائكة تسأل: رحلة إلى الإسلام في أمريكا، جيفري لانغ، مرجع سابق.

١. شرح العقيدة الواسطية، محمد صالح العثيمين، دار ابن الجوزي، الرياض، ط٣، ١٤١٦هـ، ج١، ص٢٢٩.

اسم الفاعل، بمعنى أنه أسند الكفر والفسق والظلم إليهم، فهم الذين امتنعوا بأفعالهم هذه عن قبول الهداية، فكيف يهدي الله تعالى من لم يقبل هدايته[1]؟!

المفهوم الصحيح لإضلال الله تعالى للعباد:

وأما عن معنى الإضلال فيقول الراغب الأصفهاني في المفردات: "وإضلال الله تعالى للإنسان على أحد وجهين:

أحدهما: أن يكون سببه الضلال، وهو أن يضل الإنسان، فيحكم الله عليه بذلك في الدنيا، ويعدل به عن طريق الجنة إلى النار في الآخرة، وذلك الإضلال هو حق وعدل؛ فالحكم على الضال بضلاله، والعدول به عن طريق الجنة إلى النار عدل وحق.

ثانيهما: أن يكون الإضلال من الله، وهو أن الله تعالى وضع جِبِلَّة الإنسان على هيئة إذا راعى طريقًا محمودًا كان أو مذمومًا ألفه واستطابه، ولزمه وتعذر صرفه وانصرافه عنه، ويصير ذلك كالطبع الذي يأبى على الناقل؛ ولذلك قيل: العادة طبع ثان، وهذه القوة في الإنسان فعل إلهي، وإذا كان كذلك، وقد ذكر في غير هذا الموضع أن كل شيء يكون سببًا في وقوع فعل صح نسبة ذلك الفعل إليه، فصح أن ينسب ضلال العبد إلى الله من هذا الوجه.

فيقال: أضله الله، لا على الوجه الذي يتصوره الجهلة ـ وهو "أن الله تعالى أجبر الضالين على الضلال" ـ ولكن لما قلناه من أنه جعل الإضلال المنسوب إلى نفسه ـ أي: جعل الله الإضلال المنسوب إليه تعالى ـ للكافر والفاسق دون المؤمن، بل نفى عن نفسه تعالى إضلال المؤمن، فقال جل شأنه: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ ﴾ (التوبة: ١١٥)، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾﴾ (محمد)، وقال في الكافر والفاسق: ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ (البقرة)[2].

ثانيًا. قوله: ﴿ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ ليس معناه الانحياز إلى بعض عباده دون بعض:

ليس معنى قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ (النور: ٤٦) الانحياز إلى بعض العباد دون بعض، وإن انحاز إلى قسم من عباده فليس من حق أحد أن يقول لماذا فعلت هذا؟ لأن الله تعالى هو مالك الملك، هو المتصرف، ولا يملك أحد حقًّا لأي ادعاء أو اعتراض عليه سبحانه، فهو سبحانه لا يُسْأل عما يفعل وهم يسألون.

إن الله تعالى يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وقد ذكر هذا في مواضع مختلفة، وبشكل متكرر في القرآن الكريم، فالمشيئة الإلهية هي الأساس الذي يجب الانتباه إليه، وهو أن الهداية والضلالة من خَلْقِ الله تعالى، ولكن السبب يعود إلى مباشرة العبد.

والله تعالى قد أرشد إلى ما يحبه، ودلَّ على ما يرضيه قال ﷻ: ﴿ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ

١. المفيد في علم التوحيد، حبيب الله حسن أحمد، مجموعة محاضرات ألقيت على طلاب كلية الدعوة، جامعة الأزهر، ص٢٨٩.

٢. المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، دار المعرفة، بيروت، د. ت، ص٢٩٩.

﴿الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ (الزمر: ٧)، فهل شكر الناس وامتنعوا عن الكفر؟

وإذا لم يشكروا وكفروا، فهل يريدون هداية كغيرهم، أليس الله عدلًا؟ وعدله أن يزيد الذين اهتدوا هدى وهذا هو المعنى، ثم إن مشيئته المطلقة في أن يهدي من يشاء، ويضل من يشاء تفهم على ضوء حكمته المطلقة؛ وأنه لا يفعل عبثًا، وإنما على ضوء عدله المطلق، وأنه لا معقب لحكمه، والله تعالى عدل بين خلقه فلم يعذِّبْهم، دون أن يرسل لهم رسله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ (الاسراء) .

الخلاصة:

- إن الله تعالى لا يظلم الناس شيئًا فهو الحكم العدل، فمن اهتدى زاده هدى، ومن ضل فإنما يضل على نفسه، والله ﷻ قد نسب إلى نفسه إضلال الكافرين والفاسقين والظالمين، ولم ينسب ذلك إلى نفسه في حق المؤمنين المهتدين، وذلك لعدة اعتبارات:

  - **الأول**: أن الله تعالى جعل قواهم مهيأة لأن يوجهوها للكفر والعصيان، فوجهوها إلى ذلك باختيارهم، وليس لهم عذر في هذا، ولا حجة لهم على الله، فقد أعطاهم العقل المميز، ودلَّهم على الطريق المستقيم عن طريق رسله.
  - **الثاني**: أنه حكم بضلالهم عندما اختاروا الضلال بأنفسهم.
  - **الثالث**: أن الضال وجد في نفسه معانيَ لم يصنعها بنفسه، وإن تسبب فيها عندما اختار الضلال، وهي ثمرة ضلاله وما يترتب على ذلك من الطَّبْع، والخَتْم، والرَّان.

- والله يضل من يشاء بما تقتضيه حكمته، وإذا كنتم تعترضون على مشيئة الله المطلقة، فهل تتصورون إلهًا يحدث في ملكه ما لا يشاؤه؟! فهل يصلح للألوهية إله يرغم على فعل لا يريده[1]؟! لكن هذه مشيئة الله الكونية العامة التي قد لا توافق مشيئته الشرعية، فهو تعالى يشاء شرعًا ما لا يشاؤه قدرًا، ويشاء قدرًا ما لا يشاؤه شرعًا، وهي مسألة دقيقة زلت فيها أفهام كثيرة.

الشبهة الحادية والثلاثون

ادعاء أن إمهال الله ﷻ العصاة إغراء لهم بالمعصية(*)

مضمون الشبهة:

يفهم بعض المغرضين خطأ أن إمهال الله ﷻ للعصاة في الدنيا، وعدم التعجيل بعقابهم إهمال وليس إمهالًا. ويتساءلون: أمن الحكمة أن تؤجل عقوبة المخطئ لأمد، أم يُعجَّل بها فيتعظ به الآخرون؟!

وجوه إبطال الشبهة:

١) الدنيا دار عمل وابتلاء، وليست دار ثواب وعقاب.

٢) إمهال الله ﷻ للعاصين وليس إهمالهم - سنة من سنن الله تعالى في خلقه، وله في ذلك الحكمة البالغة.

٣) قد يعجل الله تعالى العقاب والأخذ لبعض

---

١. المفيد في علم التوحيد، د. حبيب الله حسن، مرجع سابق، ص١٩١.

(*) بين الدين والحياة في رحلة قطار، د. عبد الحليم حفني، الهيئة العامة للكتاب، مصر، ١٩٩٤م.

العصاة، كما فعل في قوم عاد، وثمود وفرعون؛ ليكون فيهم عبرة وعظة لمن خلفهم.

٤) من رحمته تعالى أن جعل هناك موانع تحول دون نزول عذابه وعقابه للخلق، أو ترفع ذلك العذاب إذا نزل.

التفصيل:

أولا. الدنيا دار عمل وابتلاء، وليست دار ثواب وعقاب:

وهي لا تصلح أن تكون دار ثواب وعقاب؛ لأنها مخلوقة، ملعونة وملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه، وعالمًا أومتعلمًا كما أخبر النبي ﷺ[1].

وقد أخذ الله على نفسه عهدًا بأن يوم القيامة هو يوم الحساب، ومَنْ أصدق من الله حديثًا؟

وقد حذرنا الله تعالى من الدنيا وذكر أنها لعب ولهو، فقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ (محمد: ٣٦)، وقال ﷻ: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ ﴾ (الحديد: ٢٠)، وفضل الله ﷻ الآخرة وجعلها هي الباقية: ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ ﴾ (الأعلى)، وقال ﷺ: "إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر ماذا تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء"[2].

فالدنيا دار امتحان للعباد، فأما من زكى نفسه وحضها على الطاعة ونهاها عن المعصية فقد فاز بالآخرة، وأما من أتْبَع نفسه هواها، وأعطاها كل ما تأمر به وتشتهيه فقد خسر خسرانًا مبينًا.

ولقد أرسل الله الرسل للناس ليعلموهم الخير ويأمروهم به، وينهوهم عن الشر ويحذرونهم منه؛ حتى لا يأتي أحد يوم القيامة بحجة يحتج بها، وحتى يظهر الله تبارك وتعالى عدله أمام الخلق جميعًا، ولا يظلم ربك أحدًا.

ثانيًا. إمهال الله للعصاة من سنته في خلقه:

ولو شاء الله أن يهدي الناس جميعًا لفعل، ولو شاء أن يُنْزل على كل عاص بمجرد معصيته صاعقة من السماء أو عذابًا يهلكه على الفور لفعل، ولكن الله تعالى لا يَعْجَلُ بعجلة أحد؛ وعليه فقد ترك للإنسان التفكير في أمر نفسه بنفسه، بعد أن وفَّر له كل الوسائل التي تردعه عن المعصية؛ ليعود إلى رشده تاركًا المعصية عائدًا إلى الطريق القويم باختياره.

فقد أعطاه العقل الذي يميز به بين الخير والشر، والنافع والضار، ولو تأمل الإنسان أمر المعاصي وعواقبها لعلم أنها ضارة له في دنياه فضلًا عن آخرته، ومع ذلك بعث الله ﷻ إليه الرسالات السماوية التي فيها الأمر بالطاعات، وأوضح له عواقب المعاصي في الغابرين كي يعتبر، ووعده بالجزاء ثوابًا على الطاعة وعقابًا على المعصية، وأظهر له بعض حقائق ونماذج المثابين والمعاقبين ترغيبًا وترهيبًا.

فليس لأحد حجة ـ بعد ذلك ـ على الله، ثم هو فتح له باب التوبة، وقرب التائبين إليه، أما لو عاقب الله

---

١. حسن: أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب مثل الدنيا (٤١١٢)، والترمذي في سننه، كتاب الزهد، باب هوان الدنيا على الله ﷻ (٢٣٢٢)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٧٤).

٢. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الرقاق، باب أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء (٧١٢٤).

تعالى كل عاصٍ على معصيته لمنعِهم من المعاصي ما ترك على ظهر الأرض من دابة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾ (فاطر)، وقال الله ﷻ: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾﴾ (الكهف)، وفي سورة العنكبوت يقول الله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ (العنكبوت: ٥٣)، وقال ﷻ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾﴾ (إبراهيم).

ولقد أنظر الله تعالى إبليس، وهو أشد الخلق معصية لله تعالى، ومع ذلك لم يهلكه وهو قادر على أن يلقيه في النار دفعة واحدة.

يقول الشيخ الشعراوي - رحمه الله - في قوله: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾﴾ (الحجر): هنا تضاءل إبليس، ولو كان يملك من الأمر شيئًا لتصرف بذاتية قوته، ولكنه اتجه إلى الله يطلب منه أن يبقيه حتى يوم القيامة، إلى أن تقوم الساعة، ثم بعد ذلك يفعل به ما يشاء، وفي هذا نرى أن القوة لله جميعًا، وأن إبليس لا يستطيع أن يبقي نفسه يومًا واحدًا على قيد الحياة، أو ينجي نفسه يومًا واحدًا من العذاب[1].

فمن حكمته سبحانه أن أنظر وأمهل إبليس إلى يوم القيامة ابتلاء واختبارًا للعباد به، وأنظر العصاة ولم يأخذهم بغتة حتى يشهد عليهم البشر والشجر والحجر، ولا تكون لهم حجة أمام الله تعالى.

وأنظر بعض خلقه وأمهلهم حتى يتوبوا إليه ويرجعوا عمّا هم عليه من الطغيان، وكم رأينا من هذا الصنف في زماننا، ولله الحمد والمنة.

ثالثًا. تعجيل الله تعالى العذاب لبعض الأمم:

قد يعجِّل الله ﷻ العقاب والأخذ لبعض العصاة، كما فعل في قوم عاد وثمود وفرعون؛ ليكون فيهم عبرة وعظة لكل من خلفهم، وهذا من سنن الله تبارك تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ (يوسف: ١١١). ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ (هود).

ولقد أنزل الله تعالى بأسه بقوم فرعون لما طغوا وتجبروا، وكذبوا الرسل: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾﴾ (الفجر). وقال ﷻ في شأن قوم ثمود وعاد: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾ (الحاقة).

ولقد حضنا الله ﷻ على التفكر والتدبر في مصير الأمم الهالكة سلفًا، حتى لا نقع فيما وقعوا فيه، فيحل

---

1. دائرة معارف الفقه والعلوم الإسلامية، محمد متولي الشعراوي، دار أخبار اليوم، القاهرة، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م، ج١٠، ص٥١٣.

بنا ما حَلَّ بهم، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾﴾ (القمر). وقال: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾﴾ (القمر)، وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾﴾ (الكهف).

فكل الأمم الهالكة، التي قصها علينا القرآن الكريم، إنما أراد الله تعالى أن ينبهنا إلى شؤم المعاصي والتكذيب؛ رحمة منه بنا وحماية لنا من الهلاك، وهذا من تمام كرمه وفضله ورحمته بأمة الإسلام.

رابعًا. ما يرفع عقابه ﷻ أو يمنعه:

ومن رحمة الله ﷻ أن جعل هناك موانع تحول دون نزول العذاب والعقاب على الخلق.

فقد يرفع الله تعالى العقاب النازل على العباد بفضل دعاء عبد من عباده، وفي الأثر: إن الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل ـ أي من العقوبات ـ فعليكم عباد الله بالدعاء[1]. وقال ﷺ: "لا يرد القضاء إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر"[2].

ومن رحمته ـ أيضًا ـ أن شرع لنا صلاة الاستسقاء، حتى إذا أجدبت الأرض، وأوشكت الأنعام والحرث على الهلاك، خرج الناس إلى الخلاء متضرعين إلى الله تعالى أن يرفع هذا البلاء فينزل المطر بإذن الله، بفضل دعاء الناس، والتوبة والرجوع إليه سبحانه، والوعد المطلق بالإجابة في دعاء المؤمنين، ودعاؤهم لا يرد، فإما أن يعطوا ما سألوا، أو يدخر لهم خيرًا منه، أو يدفع عنهم من السوء بقدره[3].

الخلاصة:

- إن إمهال الله ﷻ لعباده وعدم تعجيل العقوبة لهم إنما هو لحكمة إلهية؛ ففي الإمهال أمل في رجوع الظالم عن ظلمه، والطاغية عن طغيانه، وفيه أيضًا أنه سبحانه يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، وفيه استدراج للعصاة والمتجبرين وإقامة للحجة عليهم أمام الناس، حتى لا يكون لهم حجة عند الله يوم القيامة.
- الدنيا دار عملٍ لا دار جزاء، وقد عجل الله تبارك تعالى لبعض عباده العقوبة في الدنيا، كقوم عاد وثمود وفرعون وغيرهم ممن أهلكهم ﷻ، والنار تنتظرهم في الآخرة حيث دار الجزاء، وجعل في إهلاكهم عبرة لمن يأتي بعدهم، حتى يرجع الضال إلى صوابه، ويتنبه الغافل من غفلته، فجعل في قصصهم عبرة لأولي الألباب.
- ومع كل ذلك فقد جعل تبارك وتعالى، موانع تحول بين البلاء أو العذاب وبين نزوله على العباد، وبَيَّن ما يرده وما يجلب رحمته تعالى، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ

---

١. حسن: أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الدعوات، باب في دعاء النبي ﷺ (٣٥٤٨)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٦٣٤).

٢. حسن: أخرجه الترمذي في سننه، كتاب القدر، باب لا يرد القدر إلا الدعاء (٢١٣٩)، والقضاعي في مسند الشهاب (٢/ ٣٦) برقم (٨٣٢)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٥٤).

٣. أضواء البيان، الشنقيطي، مرجع سابق، ج١، ص١٠٤.

﴿وَالْأَرْضِ﴾ (الأعراف: ٩٦)، وذلك كالدعاء الذي يرفع به القضاء والعذاب قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ (البقرة: ١٨٦). وقال الرسول ﷺ: "لا يرد القضاء إلا الدعاء".

الشبهة الثانية والثلاثون

ادعاء أن خروج آدم من الجنة كان عقابًا لذريته(*)

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض المغالطين أن إخراج آدم عليه السلام من الجنة إنما كان عقابًا لذريته من بعده، وقد تحملت هذه الذرية خطيئة أبيها القديم على غير جريرة[1] منها. وكأن هؤلاء يرمون الفعل الإلهي بالظلم، أو يقاربون بين فكرة الإسلام عن هبوط آدم إلى الأرض، وفكرة الفداء عند النصرانية، بجمع اشتراك الذرية في الحالين في تحمل وزر الخطيئة الأولى.

وجها إبطال الشبهة:

١) القرآن الكريم يصف الله بالعدل، ويصفه بكل صفات الكمال.

٢) إخراج آدم من الجنة، وذريته بالطبع ليس عقابًا لهم على معصية آدم، إنما مقصد خلق آدم هو خلافة الأرض وعمارتها.

التفصيل:

أولا. العقيدة الإسلامية مظهر للعدل الإلهي:

لله عز وجل وحده صفات الكمال ومن هذه الصفات العدل، فلا تجد كتابًا يصف الله تعالى بصفات الكمال والعدل مثل القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١١٥)﴾ (الأنعام)، وقال عز وجل: ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٢٩)﴾ (ق). وقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ (الكهف: ٤٩).

وفي الحديث القدسي: "يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا"[2]. ومن أسمائه الحسنى العدل والمقسط.

والحق أن المعتقد الإسلامي في ذلك بمنأى عما تورطت فيه العقائد الأخرى، ومنها ما له أصل سماوي، فإذا كانت التوراة تنسب إلى الله عز وجل أنه يمدُّ عذابه إلى الجيل الثالث والرابع، وكانت النصرانية إنما تقوم على فكرة الفداء، وأن الله - بزعمهم - قد أرسل على العالم ابنه الفادي ليتحمل عن بني آدم وزر خطيئة أبيهم الأولى، إذا كنا نجد ذلك وهذا في التوراة والإنجيل فلسنا واجدين من ذلك شيئًا فيما يأخذ به المسلمون من عقائد®.

(*) حتى الملائكة تسأل: رحلة الإسلام إلى أمريكا، د. جيفري لانغ، مرجع سابق.

١. الجريرة: الجناية والذنب.

٢. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم (٦٧٣٧).

® في "دفع التعارض بين العدل الإلهي والقدر" طالع: الوجه الخامس، من الشبهة الثانية والعشرين، من الجزء السابع (الإيمان والتدين).

ثانيًا. خروج آدم من الجنة له دلالته ومغزاه:

إن هذا الفهم فاسد لا وجود له في الإسلام؛ فليس في الإسلام خطيئة موروثة، بل الإنسان حرٌّ في اختياره، وهو وحده مسئول عن عمله، قال الله تعالى: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ (٣٨) وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ (٤١)﴾ (النجم)، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (الإسراء: ١٥)، فعقيدة النصارى الفاسدة هي التي تقول بالخطيئة الموروثة.

والله ﷻ أيضًا يعامل خَلْقه بفضله وكرمه لا بعدله، فقد يُكرم الولد لصلاح أبيه أو جده في حين أنه لا يعذبه ويخزيه بذنب أبيه أو جده، وحسبنا في ذلك قول الله ﷻ: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ (الكهف: ٨٢).

والله ﷻ لم يظلم آدم عليه السلام عندما أخرجه من الجنة، ولكن آدم هو الذي ترك طاعة ربه بأكله من الشجرة، والذي كان سببًا لخروجه من الجنة وما ظلمه ربه، وهذا أمر قدَّره الله تعالى عليه قبل أن يخلقه.

فقد أخبر الله ﷻ الملائكة قبل أن يخلق آدم قائلًا: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣٠)، ومن قال: إن الخير للإنسان أن يكون في الجنة من غير أن يسبق ذلك عمل يقدِّمه؛ ليشعر بقيمة ما بيده.

إننا إذا ذهبنا في الافتراضات؛ فإننا لا نجد أحكم ولا أعدل ولا أنسب من هذا الافتراض الذي كان، وهو أن الإنسان الحرَّ المختار قدَّر الله أن يعيش على هذه الأرض كما يعيش عليها باقي أفراد جنسه من بني آدم فيعمل ويعمل غيره فيتفاوتون في الأعمال، وينتج عن هذا التفاوت الجزاء يوم الجزاء. وهذا محض عدل إلهي محكم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، قال العقاد: "العقيدة الإلهية في الإسلام هي أكمل عقيدة في العقل، وهي أكمل عقيدة في الدين"[1].

"إن الخطيئة في التصور الإسلامي - خطيئة فردية والتوبة فردية، في تصور واضح بسيط لا تعقيد فيه ولا غموض، فليست هناك خطيئة مفروضة على الإنسان قبل مولده - كما تقول الكنيسة - وليس هناك تكفير لاهوتيٌّ؛ كالذي تقول الكنيسة به عن عبد الله ونبيه عيسى عليه السلام - ابن الله بزعمهم - حيث تدَّعي ظلمًا وزورًا أن الله قام بصلبه، تخليصًا لبني آدم من خطيئة آدم.. كلا!

فخطيئة آدم كانت خطيئته الشخصية، والخلاص منها كان بالتوبة المباشرة في يسر وبساطة وخطيئة كل ولد من أولاده خطيئة - كذلك - شخصية، والطريق مفتوح للتوبة في يسر وبساطة.. تصور مريح صريح يُحمِّل كل إنسان وزره، ويُوحِي إلى كل إنسان بالجهد والمحاولة وعدم اليأس والقنوط.. ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ (١٢)﴾ (الحجرات)[2] ®.

الخلاصة:

- الإسلام لا يصف الله إلَّا بكل صفات الكمال،

---

١. الفلسفة القرآنية، عباس محمود العقاد، دار السلام، القاهرة، د. ت، ص١٠٧، ١٠٨.

٢. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج١، ص٦١ بتصرف.

® في **"العدل الإلهي ووراثة خطيئة آدم"** طالع: الوجه الخامس، من الشبهة الرابعة، من الجزء التاسع (الأنبياء والرسل١).

ومنها صفة العدل، وقد دعا إلى العدل وأمر به قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ (النحل: ٩٠)، فكيف يأمر الله تعالى به ويصفه جاهل بالظلم، وكيف يحرم الظلم على نفسه وهو قد ظلم عباده؟ فقال: "إني حرَّمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا".

- وما صارت الأرض مستقرًا لذرية آدم عليه السلام من بعده إلا لحكمة الله عز وجل في جَعْل الأرض لهم مستقرًا ومتاعًا إلى حين، يعمرونها ويكونون خلفاء عليها، ثم يجزي كل محسن بإحسانه وكل مسيء على إساءته يوم الجزاء.

الشبهة الثالثة والثلاثون

إسناد صفات النقص إلى الله عز وجل (*)

مضمون الشبهة:

قد جرى كثير من طوائف أهل الكتاب الدينية تبعًا لنصوص محرَّفةٍ يثبتونها على نسبة صفات مظاهر الضعف البشري من البكاء والندم والمرض إلى الله عز وجل، وحين دعا الإسلام إلى الصدقة؛ ابتغاء مرضاة الله سَخِرت اليهود وقالت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘ﴾ (آل عمران: ١٨١). وهذا التصور لصفات الإله ينحطُّ بالعقيدة الدينية كلها عن أن تكون هادية للضمير أو مهذبة للوجدان عن أحد من متبعيها.

وجوه إبطال الشبهة:

١) ثبت لله عز وجل جميع صفات الكمال، فهو غني عن خلقه، وهم فقراء إليه، لا تزيد عبادتهم في ملكه شيئًا، ولا تنقص معصيتهم منه شيئًا.

٢) تصور صفات الأعراض البشرية لله تعالى تصور وثني ساذج للإله.

٣) التطاول على الله عز وجل برميه بالبخل قول ساذج لا يصدر عن عقل سليم.

التفصيل:

أولا. ثبوت الكمال لله عز وجل وافتقار المخلوقات إليه:

إن أكمل عقيدة عرفها دين، وأكمل عقيدة عرفها عقل هي العقيدة الإسلامية في الله تعالى، فهو عز وجل منزَّه عن مشابهة شيء من خلقه في ذاته وفي صفاته، فلا هو يشبه خلقه فيما يتصف به، ولا خلقه يشبهونه، والخلق كلهم محتاجون إليه، وهو غني عنهم جميعًا.

وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ أي: الكامل في صفاته، الذي افتقرت إليه جميع مخلوقاته، فكلمة ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ كلمة جامعة لجميع صفات الكمال لله®، وجامعة لجميع صفات النقص في المخلوقات، وأنها محتاجة إلى الله عز وجل[1]، كما قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ١٥﴾ (فاطر).

(*) حتى الملائكة تسأل: رحلة إلى الإسلام في أمريكا، جيفري لانغ، مرجع سابق. العنصرية اليهودية وآثارها في المجتمع، د. أحمد بن عبد الله بن إبراهيم الزغيبي، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ١٩٩٨م.

® في "تعدد الصفات الإلهية دليل على كمال الله" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثامنة والثلاثين، من هذا الجزء.

١. شرح العقيدة الواسطية، محمد صالح العثيمين، مرجع سابق، ج١، ص١٦١، ١٦٢.

والله ﷻ ما أمر المكلفين بعبادته لحاجته إليهم، ولكنه أمرهم بعبادته لحاجتهم إليه، ولعلمه تعالى أنهم لو تركوا عبادته وطاعته سيضلون الطريق، وسيعبدون من دونه ما لا ينفع ولا يضر، وستتشعب بهم طرق الضلالات، وهذا ما يشهد به الواقع ويؤيده التاريخ.

فالذين يتركون عبادة الله وطاعته ويعبدون إلهًا غيره أو معه، يعيشون في ظلمات الحيرة، ويتخبطون في دياجير[1] التِّيه والضلال، وقد نفى الله حاجته إلى الخلق فقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨)﴾ (الذاريات).

يقول الله تعالى في الحديث القدسي: "يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنّكم، كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئًا، يا عبادي، لو أن أولكم وأخركم وإنسكم وجنكم، كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم، ما نقص ذلك من ملكي شيئًا..." الحديث[2].

فالله تبارك وتعالى لا تنفعه طاعتنا، ولا تضره معصيتنا، قال الله تعالى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ (الزمر: ٧).

والله تبارك وتعالى لا يستفيد من عذابنا: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ﴾ (النساء: ١٤٧).

فإذا كان الله ﷻ غني عن عباده، لا تنفعه عبادتهم وطاعتهم، ولا تضره معصيتهم، فكيف نصف الله ﷻ بما وصفه به هؤلاء من صفات النقص؟

إن بالإنسان حاجة إلى الاعتقاد، كجوع المعدة إلى الطعام، فإمّا أن يسد حاجته في اعتقاد صحيح عن طريق الإيمان بالله الواحد الذي يستحق وحده العبادة؛ لتفرده بالخلق والتدبير، وهو سبحانه بعبادة العباد له يعطيهم ولا يأخذ منهم، ويحررهم من عبادة غيره ممن سخره الله تعالى له، وهو عبد مربوب مثله، والإنسان بطبيعته إن لم يلجأ إلى الله ﷻ بالتوحيد والعبادة، فإنه يلجأ إلى سد حاجته من الاعتقاد في معبودات فاسدة ليست أهلًا لأن تعبد، قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ (يونس: ١٨).

إن سجدة واحدة لله وحده تحرر صاحبها من آلاف السجدات لغيره، فالله وحده الذي يعبد؛ لأنه وحده - دون سواه - المستحق للعبادة، وطاعة غيره فيها نفع من المطيع للمطاع، وطاعته سبحانه وحده فيها النفع - كل النفع - للمطيع، فهي تنفعه في الدنيا والآخرة.

ثانيًا. تصور صفات الأعراض البشرية لله تعالى ما هو إلا تصور وثني ساذج للإله:

هذه النظرة لله تعالى تعتمد فيها الثقافة الغربية على روايات الكتاب المقدس، ففي أسفار العهد القديم تتكرر هذه الأوصاف للإله، بل إن هذه الأسفار - كما ينقل - صفات المخلوقين بكل ما فيها من نقائص إلى الإله؛ فإنها في المقابل لا تتورع عن أن تجعل من بعض الخلق آلهة، ولا مانع في هذه الأسفار من أن يكون الأنبياء صنّاعًا لأصنام.

فهذا الخلط بين الإله وصفات الألوهية بكل كمالها وتمامها، وبين الخلق وصفات المخلوقين بما فيها

---

١. الدَّياجير: جمع الدَّيْجُور، وهو شدة الظلمة.

٢. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم (٦٧٣٧).

من نقائص انعكس على تصور المؤمنين بهذه الأسفار للإله الحق.

يضاف إلى ذلك عامل آخر، وهو إرث الحضارة الغربية من الثقافة اليونانية التي تمتلئ بالوثنية والتعدد في الآلهة، وأنهم أشبه ما يكونون بحكام المقاطعات الذين يتصارعون على التوسع، ويتنافسون على ابتلاع كل ما في يد الآخر.

وإذن فقد ورثت الثقافة الغربية في جانب الألوهية انحرافين كبيرين:

أحدهما: يعود إلى التصورات الإغريقية الشعبية عن الآلهة، أو هذه التصورات ذاتها بعد أن صقلت بعبارات فلسفية.

والثاني: تراث العهدين، القديم والجديد، والإله فيهما يتعب ويستريح، ولا يستأني في أوامره فتبدو له البَدَوات فيندم، ثم يبكي حتى ترمد عيناه، وتعوده الملائكة، وقد يصادفه بعض خلقه فيصرعه.

ثم جاءت النصرانية فتقربت ـ بعد اضطهاد طويل ـ إلى الوثنيين في رومة بضرب من المساهلات والمسامحة في جانب العقيدة، حتى لقد قيل: إن رومة لم تتنصَّر وإنما النصرانية تَرَوَّمَت، أي هي التي ورثت عقائد رومة.

وهذا التراث المضطرب الذي ورثه الغربيون يمثل دافعًا قويًّا لمذاهب الإلحاد والتنكر للقيم الدينية، وهو ـ كذلك ـ دافع قوي للمسلمين المعاصرين لأن يتقدموا بدينهم وتصورهم الاعتقادي بديلًا عن ذلك التراث الغربي، وهاديًا للحضارة الحديثة[®].

[®] في "مقام الألوهية في التوراة" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثانية، من الجزء الثامن (مقارنة الأديان).

ثالثًا. إذا كان الله ـ تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا ـ بخيلا، فما هذا العيش الطيب الذي نحن فيه منذ خلق الله السماوات والأرض؟

ادعاء أن الله ﷻ بخيل قول قديم قالته اليهود لرسول الله ﷺ، ويظهر أنهم قالوه ساخرين من دعوة الإسلام على الصدقة، وإلا فلا يتصور أن يقال هذا على سبيل الجِدِّ، وقد رد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ (المائدة: ٦٤)، والبسط ضده القبض، والبسط دلالة على الكرم، والله هو الواسع الفضل، الجزيل العطاء، الذي ما من نعمة بخلقه إلا منه وحده: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ (النحل: ٥٣) الذي أوجد كل شيء مما يحتاج إليه خلقه في جميع الأحوال، قال ﷻ: ﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ (إبراهيم: ٣٤).

وإن تضييق الله ﷻ على بعض عباده ليس أمارة على مقته وبغضه، وإنما هو ابتلاء وامتحان منه ﷻ لينظر عباده وكيف يصنعون، والنظر السديد على مثل هذا التضييق إنما يكون بملاحظة الفاعل الحكيم، وإذن لأدرك القلب حكمة ما هو فيه من رقة حال وطمأنينة.

وهذا الاتهام لرب العالمين والتطاول عليه تعالى كما يُظهر جرأة صاحبه على خالقه، يظهر كذلك ضيق أفقه، وقلة عقله. فهل ضاق كرم الله تعالى بأحد من خلقه؛ إنسان، أو حيوان، أو نبات؟ فالشمس ترسل أشعتها للكون كله والهواء يستنشقه جميع خلقه، والماء في متناول الجميع لا تمطر السماء للأغنياء وتترك الفقراء، وقُل ما شئت من مظاهر نعم الله على الخلق جميعًا، فإنك لن تصل إلى نهاية. فما أكثر عطاء الله تعالى لخلقه، وما

أسبغ نعمه عليهم، وما أضيق هذا التفكير الساذج[®].

الخلاصة:

- لله عَجَلَّ كل صفات الكمال، ولا يوصف الله عَجَلَّ بصفة نقص واحدة: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ (الشورى)، أمر عباده بطاعته وتوحيده، وهو غني عنهم، وسهل ومهَّد لهم الأرض، وأمرهم بالسعي فيها، وأسبغ عليهم نعمًا ظاهرة وباطنة، وترك لهم الخيار بين الشكر والكفر، والضلالة والهدى، ودعاهم إلى الهدى والشكر؛ حماية لأنفسهم ونفعًا لها، ونجاة لها من المهالك، فإنه لا تنفعه طاعة عباده، ولا تضره معصيتهم.
- ويده ملْأَى سحَّاءَ الليلَ والنهارَ، أرأيت ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض؟ هل نقص ذلك مما عنده؟ فهو سبحانه لم يزل غنيًّا عن خلقه، وخلقه دائمًا فقراء إليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ (فاطر).

الشبهة الرابعة والثلاثون

ادِّعاء وصف الله تعالى بالمكر والخداع(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المغرضين أن الله تعالى يتصف ببعض صفات النقص البشرية، كالمكر والخداع، مستدلين على زعمهم هذا بقوله تَعَالَى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ (الأنفال)، وبقوله تعالى في المنافقين: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ (النساء: ١٤٢).

وجه إبطال الشبهة:

هذه الأفعال أطلقها الله تعالى على نفسه على سبيل الجزاء العدل، والمقابلة، وهي فيما سيقت فيه مدح وكمال، لكن لا يجوز أن يشتق منها أسماء ولا تطلق عليه عَجَلَّ في غير ما سيقت له من آيات.

التفصيل:

لقد فهم البعض خطأً الآيات التي توهم وصف الله تعالى بصفات نقص:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ (الأنفال)، والمكر - في أصل معناه - هو نوع من الشجر، فروعه ملتفة بعضها حول بعض، بحيث لا تستطيع أن تنسب ورقة منها إلى أصلها من الفروع، من كثرة الالتفاف والكثافة، والمكر من الرجل يعني: المراوغة، والمكّار: هو الرجل الذي يراوغك في معاملتك، فأما إذا كانت مراوغته ليعلم حقيقة من الحقائق، فهي الحيلة، وليست المكر؛ كالقاضي الذي يكثر من الأسئلة على المتهم ليصل إلى الحقيقة، وإن كانت المراوغة بقصد الضرر فهي المكر، وإن كانت لغير الضرر فهي الحيلة: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ (فاطر:٤٣). إذن فهناك مكر حسن، ومكر سيِّئ.

وقد يكون المكر مدحًا، كما أنه يكون ذمًّا، فإن كان المكر في مقابلة من يمكر فهو مدح؛ لأنه يقتضي أنك

® في "ردّ القرآن على اليهود في وصفهم الله بالبخل والفقر" طالع: الشبهة الثانية عشرة، من الجزء الأول (الشبهات التي تولى القرآن الرد عليها).

(*) هل القرآن معصوم؟ عبد الله عبد الفادي، موقع إسلاميات.

أنت أقوى منه، وإن كان في غير ذلك فهو ذم ويسمى خيانة.

فالمكر يكون من الضعيف؛ لإخفاء نِيَّته، فقد يظهر الحب وهو مبغض، ويريد أن يزين لك عملًا ليمكر بك، فيزين لك - مثلًا - أن تخرج معه إلى مكان ما، ويزين لك محاسن المكان؛ ليشجعك على الخروج إليه، ومن ثَمَّ تقع في الفخ الذي نصبه لك.

والقوي حين يظفر بخصمه، فمن الممكن أن يطلقه؛ لأن قوته تستطيع اللحاق به في أي وقت، أما الضعيف فحين يملك قويًّا فإنه يقول: هذه فرصة لا تتكرر، ولو لم يكن ضعيفًا لواجه خصمه دون مراوغة ومكر.

ومن يمكر يظن أن من أمامه لا يستطيع أن يمكر، فإن علم منه العقل والذكاء لم يمكر عليه، وما دامت المسألة تبييتًا، فمعناه: أن تعلم شيئًا يخفى على الغير، فإذا أراد خصوم المنهج الإلهي أن يمكروا، فعلى من يمكرون؟ هل على الرسول وحده في المعركة، أم على الله عز وجل وهو القاهر فوق عباده: ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ (النساء: ٨١).

والله تعالى حين يبيت لهم شيئًا، فلن يستطيعوا أن يكشفوه: ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤)﴾ (آل عمران)، وإذا جاء الوصف بهذه الصياغة في هذا السياق، فاعلم أنه جاء للمشاكلة، فما دام هذا مكرًا وتبييتًا منكم، فالله تعالى يمكن أن يفعل ما تفعلونه دون أن تفطنوا إليه.

وأسماء الله عز وجل، توقيفية، فإذا وجدت فعلًا من أفعال الله تعالى في القرآن فليس بالضرورة أن يشتق منه صفة له تعالى، ودع الفعل يقابل الفعل من أفعال البشر.

فحين يقول الله عز وجل: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠)﴾ (الأنفال) أو يقول في المنافقين: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ (النساء: ١٤٢)، فإياك أن تقول إن من أسماء الله تعالى الماكر، أو المخادع، فإذا رأيت فعلًا من الله جاء في مقابلة فعلٍ من البشر؛ ليدلهم على قصور أفعالهم، بالنسبة لأفعاله، فاعلم أنه جاء للمشاكلة فقط، ليدلهم على أنهم لا يستطيعون أن يخدعوا الله ولا أن يمكروا به؛ لذا فلا يجوز أن نشتق منه وصفًا، بل يظل الفعل فعلًا كما هو.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾، أي: أقواهم في المكر، وأنفذهم للكيد، وأقدرهم على إيصال الضرر.

والآيات الدالة على المكر هي: قوله الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤)﴾ (آل عمران)، وقول الله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٠)﴾ (النمل) وقوله: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠)﴾ وهذه الآيات نزلت طمأنينة للمؤمنين، ودفعًا للمشركين والمنافقين واليهود، فالآية الأولى: نزلت لما اشتد مكر اليهود بعيسى عليه السلام حين أرادوا قتله أو صلبه، فألقى الله شبه عيسى على الرجل اليهودي الذي دلَّهم على مكانه؛ فصلبوه ظنًّا منهم أنه عيسى، وقد رفع الله تعالى عيسى إليه، وطهره من رجسهم، وهذا مكر لا غضاضة فيه: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤)﴾ (آل عمران).

والآية الثانية: قد نزلت في التسعة من أهل مدينة سيدنا صالح عليه السلام الذين أرادوا أن يقتلوه ليلًا، فإذا

طلع النهار قالوا: ما شهدنا مهلك أهله، وخرجوا ليقتلوه ﷺ، ولما كانوا بالطريق لجئوا إلى غار ينتظرونه فيه بالليل، فانطبق عليهم، فهلكوا، ونبي الله تعالى صالح ﷺ وأهله لم يمسهم أي سوء، ﴿ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٤٩) ﴾ (النمل).

والآية الثالثة: نزلت في تدبير المشركين لسيدنا محمد ﷺ أو قتله أو إخراجه، فجاءهم إبليس في صورة رجل نجدي، فقال لهم: انتخبوا عشرة شبان من قبائل قريش، وأعطوا كل واحد منهم سيفًا، ثم ليعمدوا إلى بيت محمد ﷺ فيضربوه ضربة رجل واحد، فيضيع دمه بين القبائل فلا تستطيع بنو هاشم أخذ ثأره، ويقبلون الدية، وتسلمون منه. فقالوا: نعم هذا الرأي! وأجمعوا على ذلك.

فهم يمكرون، والله تبارك وتعالى يمكر بهم، وهو تعالى خير الماكرين: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠) ﴾ (الأنفال).

وقد تقدم أن هذه الأفعال هي فيما سيقت فيه مدح وكمال، لكن لا يجوز أن يشتق لله ﷻ منها أسماء، ولا تطلق عليه في غير ما سيقت فيه من آيات، منها: ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤) ﴾ (آل عمران)، وقول الله تبارك وتعالى: ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ (التوبة: ٦٧)، وقوله ﷻ: ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ (البقرة: ١٥)، فلا يجوز أن يطلق على الله ﷻ لفظ ماكر، أو ناسٍ، أو مستهزئ، أو مخادع، أو نحو ذلك مما يتعالى الله عنه، فهذه الأسماء ليست ممدوحة مطلقًا، بل تمدح في موضع وتذم في آخر، فينبغي ـ لذلك ـ أن تقيَّد بمواضع ورودها في كتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ.

الخلاصة:

- المكر من العباد مراوغة وخداع للوصول إلى أهدافهم الخبيثة، وأما المكر من الله فهو من باب المشاكلة والمقابلة؛ ليكشف لهؤلاء المعاندين ضعفهم وقصورهم في التدبير والمكر.
- قد يكون المكر مدحًا إذا كان من باب المقابلة والمشاكلة "الجزاء من جنس العمل"، وقد يكون ذمًّا إذا كان من باب المراوغة لإلحاق الضرر بالآخرين، ومكر الله ﷻ من باب المشاكلة والمقابلة.
- وهذه الأفعال مقيدة بمواضع ورودها في سياقاتها، ولا يشتق منها لله ﷻ أسماء، فلا يقال: ماكر، وناسٍ، ومخادع؛ إذا لم ينعت نفسه بذلك بإطلاق، بل ذلك مقيَّد في حقه على سبيل المقابلة لأفعال بعض عباده جزاءً لهم.

الشبهة الخامسة والثلاثون

ادعاء نسبة صفات الحوادث إلى الله ﷻ(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين أن القول بأن الله في السماء مستوٍ على العرش، ينزل إلى السماء الدنيا ـ كما أخبر

(*) هل القرآن معصوم، عبد الله عبد الفادي، موقع إسلاميات.

النبي ﷺ - يقتضي نسبة الجهة والإشارة إليه، وهي من صفات الحوادث.

وجوه إبطال الشبهة:

١) الإيمان بصفات الله تعالى مؤسس على قواعد وأصول عامة مستنبطة من الكتاب والسنة.

٢) حقيقة استوائه ﷻ على العرش معلومة من الكتاب والسنة، وهي أن العرش فوق السماء السابعة، والله فوق العرش.

٣) الله ﷻ مُنَزَّهٌ عن الحوادث، وعن مشابهة الخلق، وعن أن يحصره مكان أو جهة.

التفصيل:

أولا. قواعد الإيمان بصفات الله ﷻ:

١. تنزيه رب السماوات والأرض عن مشابهة الخلق، دل على ذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ (الشورى: ١١)، وقوله ﷻ: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ (مريم: ٦٥)، وقوله ﷻ: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤﴾ (الأخلاص).

٢. إثبات صفات الله تعالى ﷻ التي أثبتها لنفسه وأثبتها له رسوله ﷺ، ودل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ بعد قول الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾.

٣. قطع الطمع عن إدراك حقيقة كيفية هذه الصفات؛ لقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ۝١١٠﴾ (طه).

قال نعيم بن حماد، شيخ البخاري: "من شبه الله بخلقه كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسولُه كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسولُه تشبيه ولا تمثيل"[١].

وقال الإمام الشافعي: "آمنت بالله، وبما جاء عن الله على مراد الله، وآمنت برسول الله، وبما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله"[٢].

قال الإمام ابن تيمية: مذهب السلف في هذا الباب واضح كغيره من الأبواب، وهو وسط بين التشبيه[٣] والتعطيل، وهو تسليم لله ورسوله وإيمانٌ بنصوص الصفات من الكتاب والسنة، وعدم التعرض لها بالتأويل بحيث تكون تلاوتها تفسيرها، ولا يحاولون إدراك حقيقتها؛ لأن ذلك علم استأثر الله به، ولا تُوهِمُ عندهم تشبيهًا ولا تجسيمًا، بل هي تدل على الحقائق التي تليق بالله، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ۝١١٠﴾ (طه)، وقال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤﴾، وقال تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ۝٦٥﴾ (مريم).

كانوا ينزهون الله تعالى على ضوء هذه النصوص ولا يكادون يفهمون من الإثبات التشبيه، ولا من التنزيه التعطيل، هذه هي القاعدة عندهم، إثبات بلا تشبيه، وتنزيه بلا تعطيل. وإنما لجأ أهل الكلام إلى التعطيل[٤]

١. أخرجه الذهبي في العلو للعلي الغفار، ص١٧٢، وصححه الألباني في مختصر العلو، ص٧٥.

٢. ذكره ابن قدامة في لمعة الاعتقاد، ص٤.

٣. التشبيه: مذهب مَنْ يُثْبِتون لله الصفات، ويقولون: يجب أن تُثْبَت لله الصفات؛ لأنه أثبتها لنفسه، لكن يقولون: إنها مثل صفات المخلوقين.

٤. التَّعطِيل: مذهب يُنْكِر أصحابه صفات الله ﷻ.

والتأويل[1]؛ لأن قلوبهم قد فهمت الإثبات على أنه تشبيه لله ﷻ بخلقه فقالوا بالتعطيل والتأويل.

قال الأوزاعي: كنا والتابعون متوافرون نقول: إن الله ﷻ فوق العرش، ونؤمن بما وردت به السنة من الصفات"، وهذا التصريح من الأوزاعي يعني الإجماع (إجماع التابعين المبني على إجماع الصحابة المستند إلى صريح الكتاب والسنة)، والإمام الأوزاعي أحد الأئمة الأربعة الذين كانوا في عصر تابعي التابعين وهم مالك بن أنس بالحجاز، والأوزاعي بالشام، والليث بن سعد بمصر والثوري بالعراق، وذكر الأوزاعي ذلك عندما ظهر جهم بن صفوان منكرًا كون الله تعالى فوق العرش، ونافيًا لصفات الله تعالى.

وسُئِلَ الزُّهْري ومكحول عن تفسير أحاديث الصفات فقالا: أَمِرُّوها كما جاءت. وروى مثل هذا الجواب عن الإمام مالك والثوري والليث قالوا جميعًا في أحاديث الصفات: أَمِرُّوها كما جاءت بلا كيف.

وقال: وجماع الأمر أن الأقسام الممكنة في آيات الصفات وأحاديثها ستة أقسام، كل قسم عليه طائفة من أهل القبلة:

- قسمان يقولان: تجري على ظاهرها.
- وقسمان يقولان: هي على خلاف ظاهرها.
- وقسمان: يسكتون.

أما الأولان فقسمان:

أحدهما: من يجريها على ظاهرها، ويجعل ظاهرها من جنس صفات المخلوقين، وهو مذهب باطل أنكره السلف.

والثاني: من يجريها على ظاهرها اللائق بجلال الله، كما يجري ظاهر اسم العليم والقدير والرب والإله والموجود والذات ونحو ذلك على ظاهرها اللائق بجلال الله، وهذا هو المذهب الذي حكاه الخطابي وغيره من السلف، وعليه يدل كلام جمهورهم وهو أمر واضح؛ فإن الصفات كالذات، فكما أن الذات ثابتة حقيقة من غير أن تكون من جنس المخلوقات، فصفاته ثابتة حقيقة من غير أن تكون من جنس المخلوقات، وما أحسن ما قال بعضهم: إذا قال لك الجهمي كيف استوى؟ أو كيف ينزل إلى السماء الدنيا ونحو ذلك، فقل له: كيف هو في ذاته؟ فإن قال لك: لا يعلم ما هو إلا هو، وكُنْه الباري تعالى غير معلوم للبشر. فقل له: فالعلم بكيفية الصفة مستلزم للعلم بكيفية الموصوف، فكيف يمكن أن تعلم كيفية صفة لموصوف لم تعلم كيفيته؟ وإنما تعلم الذات والصفات من حيث الجملة على الوجه الذي ينبغي له ﷻ.

بل ما أودعه الله ﷻ جَنَّته من نعيم لعباده المؤمنين لا نعلم عن حقيقته شيئًا، هذا مع أن الله ﷻ أخبر عنه بأسماء نعرفها لأشياء في الحياة الدنيا، فقد ثبت عن ابن عباس أنه قال: ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء وقد أخبر الله تعالى أنه: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن

---

١. التأويل: صَرْف اللفظ عن ظاهره، وعند المتكلمين عامة يقتضي اتخاذ العقل أصلًا في التفسير مقدَّمًا على الشرع، فإذا ظهر تعارض بينهما فينبغي تأويل النصوص إلى ما يوافق العقل؛ كتأويل أدلة الرؤية، وأدلة العلو، وآيات الصفات، وباب التأويل واسع قد يئول بصاحبه إلى اعتقاد الحرام حلالًا، والحلال حرامًا، هذا إذا كان في أصله سائغًا، فكيف إذا كان غير سائغ، ولذا فأهل السلف يرفضون هذا النوع من التأويل ويخطئون القائل به، والتأويل الصحيح عندهم الذي يوافق ما دلَّت عليه النصوص، وجاءت به السنة.

﴿قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ (السجدة)، وأخبر النبي ﷺ: أن في الجنة "ما لا عين رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر"[1].

فإذا كان هذا نعيم الجنة، وهو خلق من خلق الله كذلك، فما ظنك بالخالق ﷻ؟!

وأما القسمان اللذان ينفيان ظاهرها:

فقسم يتأولونها ويُعَيِّنون المراد بمثل قولهم: استوى بمعنى استولى، أو بمعنى علو المكانة والقدر، أو بمعنى: ظهور نور العرش، أو بمعنى: انتهاء الخلق إليه، إلى غير ذلك من تأويل اليد بالقدرة أو النعمة، والعين بالرعاية، والنفس بالذات، وغير ذلك من معاني المتكلمين.

وقسمٌ يقولون: الله أعلم بما أراد بها، وهم أهل التفويض في الكيفية والمعنى، فلا يفهمون من آيات وأحاديث الصفات معنًى محددًا، بل هي عندهم كالحروف المقطعة في أوائل السور (ألم، طس).

وأما القسمان الواقفان:

فقوم يقولون: يجوز أن يكون ظاهرها المراد اللائق بجلال الله، ويجوز ألا يكون المراد صفة الله ونحو ذلك، وهذه طريقة كثير من الفقهاء وغيرهم.

وقسم يمسكون عن هذا كله: ولا يزيدون على تلاوة القرآن وقراءة الحديث، معرضين بقلوبهم وألسنتهم عن هذه التقديرات، فهذه الأقسام الستة لا يمكن أن يخرج الرجل عن قسم منها، والصواب في كثير من آيات الصفات وأحاديثها القطع بالطريقة الثابتة للآيات والأحاديث الدالة على أن الله تبارك وتعالى فوق العرش، ويعلم طريقة الصواب في هذا وأمثاله بدلالة الكتاب والسنة والإجماع على ذلك دلالة لا تحتمل النقض. قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في الشافية الكافية:

لَسْنا نُشبِّه ربنا بِصفاتِنا
إنَّ المُشبِّهَ عَابِدُ الأوثَانِ
كَلا ولا نُخْليهِ من أوصافِهِ
إنَّ المُعَطِّلَ عابِدُ البُهْتانِ
مَن شَبَّهَ الله العظيمَ بِخَلْقِهِ
فهو الشَّبيهُ بِمُشرِكٍ نَصرانِي
أو عطَّل الرحمن مِن أوصافِهِ
فهو الكَفورُ وَلَيسَ ذَا إيمَانِ

ثانيًا. حقيقة استواء الله تعالى على العرش معلومة من الكتاب والسنة:

وهي أن العرش فوق السماء السابعة، والله فوق العرش، لا يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم؛ لذا فهو فوق سماواته مستوٍ على عرشه، وإليه نتَّجه في صلاتنا ودعائنا كما كان يفعل رسول الله ﷺ.

فقد كان يدعو ويرفع يديه إلى السماء، حتى يُرى بياض إبطه. فقد ورد عن أنس بن مالك رضي الله عنه قوله: رأيت رسول الله ﷺ يرفع يديه في الدعاء حتى يرى بياض إبطيه[2].

وحديث الجارية لما سألها ﷺ، فقال: أين الله؟ قالت

1. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة (٣٠٧٢)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، أوائل كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٧٣١١).

2. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة الاستسقاء، باب رفع اليدين بالدعاء في الاستسقاء (٢١١١).

في السماء. قال من أنا؟ قالت أنت رسول الله، قال: أعتقها فإنها مؤمنة[1].

ولا يصح بحال قول من قال: إن رسول الله ﷺ لم ينكر عليها لأنها جارية، وقد جاراها على قدر معرفتها.

ترى هل يقر الرسول ﷺ جارية عل الخطأ وهو في مقام التعليم والبيان في وقت الحاجة، وتأخيره لا يجوز كما هو معروف في الأصول؟!

ولسنا نعتقد إلا أنه أقرها على الحق لما نطقت به، ولسنا ندري ما يقولون في حديث زينب زوج النبي ﷺ لما قالت لنساء النبي ﷺ: زوجكن أهاليكن، وزوجني الله من فوق سبع سماوات[2] ®.

ثالثًا. الله ﷻ منزه عن الحوادث، وعن مشابهة خلقه:

وهذه عقيدة ثابتة، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، وإن من يدعي أن الله استوى على العرش استواءً محسوسًا لا يعبر عن عقيدة الإسلام والقرآن، فالله ﷻ منزه عن الحس؛ لأن الحس شأن المحسوسات وهي المخلوقات، والله تعالى أخبر عن نفسه أنه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، وأنه تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾.

فالله ﷻ استوى على عرشه كما أخبرنا بالكيفية التي يعلمه تبارك وتعالى ولا يعلمها أحد إلا هو، مع الجزم بأنه ليس كمثله شيء في كل ما يتصل به تعالى من أحكام.

وقد تبَيَّن من جميع ما تقدَّم أن أحدًا من أئمة المسلمين الذين يثبتون صفات الله في غير تأويل لا يذهب إلى مشابهته تعالى للحوادث، ولا أنَّ إثبات النزول والغضب والرضا ونحو ذلك مما يستلزم مشابهته لخلقه.

ومن المعلوم في تاريخ العقائد الإسلامية أن مسألة وقوع الحوادث في ذاته ﷻ إنما كانت مدخلًا لنفي أفعاله الاختيارية التي يحفل بإثباتها الكتاب والسنُّة، وافتراض حالة من السكون الدائم يعتري الذات الإلهية، وذلك شيء آخر غير الذي يقوله القرآن والسنة عن الله ﷻ.

الخلاصة:

- إن الله تبارك وتعالى له الصفات العلى، وله الكمال المطلق، لا يشبه أحدًا من خلقه منزه عن الشبيه والشريك، والصاحبة والولد تبارك الله وتعالى، فالاستواء معلوم، والكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة والإيمان به واجب، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.
- إثبات العلو والفوقية لله ﷻ لا يفيد أنه محصور في السماء محاط به، كما أن إثبات الاستواء لا يعني أن العرش يحويه، كما يتوهم ذلك من يتوهمه ويرمي به عقائد المثبتين.



---

1. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد، باب تحريم الكلام في الصلاة (١٢٢٧).
2. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ (هود: ٧) (٦٩٨٤).

® في **"عقيدة السلف في تفسير استواء الله تعالى على العرش"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة الحادية والعشرين، من هذا الجزء.

الشبهة السادسة والثلاثون

ادِّعاء أن تحويل القِبْلَة دليل على التَناقُض في فعل الله ﷻ(*) ®

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض المغرضين أن تحويل القبلة من بيت المقدس إلى البيت الحرام دليل على اضطرابِ العبادة الإسلامية، ويرددون في هذا السياق كلامًا قديمًا كانت قد قالته اليهود والمنافقون يومئذٍ؛ من أن القبلة الحقة إن كانت الكعبة فلمَ لم يوجه الله المسلمين إليها منذ بداية الدعوة؟ وإذا كانت قبلة بيت المقدس باطلة فلم توجه إليها المسلمون في البداية؟ ويتساءلون: ألا يدل ذلك على وقوع التناقض في فعل الذات الإلهية؟

وجها إبطال الشبهة:

١) علم الله ﷻ الشامل المحيط يمنع من وقوع التناقض في أحكامه وشرعه.

٢) ثمة مقاصد شرعية وحِكَم إلهية وراء تحويل القبلة من المسجد الأقصى إلى البيت الحرام، ولله ﷻ أن يبتلي عباده بما شاء، وله في ذلك الحكمة البالغة.

التفصيل:

أولا. لا تناقض في أفعال الله ﷻ:

من المقرَّر في العقيدة الإسلامية أن البَداء ممتنع على الله ﷻ، وهو أن يظهر شيء كان يجهله، أو تضيف له الوقائع علمًا لم يكن له، فذلك كله ينافي الألوهية وصفات الكمال الثابتة له.

ومتى ثبت ذلك علمنا أن النهي عما كان مباحًا أو إباحة ما كان منهيًّا عنه إنما هو لحكم ومقاصد إلهية اقتضتها الملابسات والأحوال، والنهي والإباحة جميعًا كانا في علم الله السابق القديم الذي لا يعزب عنه شيء ولا يَنِدُّ عنه مخلوق، وعن هذا العلم الشامل المحيط تأتي أحكام الله وأوامره، لا عن التفكير والتدبر وإجالة الخاطر، كما هي أحوال البشر، وتحويل القبلة من بيت المقدس إلى البيت الحرام هو مثال لهذا التغيير الذي تقف وراءه مقاصد وحكم إلهية.

وهذا التحويل لا يدل ـ بحال ـ على تناقض أفعاله سبحانه، إنما هي حكمة أرادها؛ ليعلم الذين صدقوا وليعلمن المنافقين، ولله ﷻ أن يبتلي عباده بما شاء وقتما شاء ولا يُسأل عن ذلك؛ لأنه خالقهم وهو أعلم بهم، وأعلم بما يصلحهم.

وقد أخبر الله ﷻ بما سيقوله اليهود في هذا التحويل، مع علمهم أن هذا سيكون، وفي كتبهم معلوم، وأن توجُّه النبي ﷺ إلى بيت المقدس لن يدوم، وقد ذكر الله تعالى موقفهم هذا، فقال: ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُواْ عَلَيْهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٤٢) ﴾ (البقرة)، فقد أخبر الله تعالى بما سيقال، وعَلَّم نبيه كيف يرد عليهم.

ما كان تحويل القبلة عبثًا، وإنما كان لحكمة إلهية، أرادها الله تعالى وأخبر بها في قوله: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ

(*) عقيدة أهل السنة والجماعة، أحمد فريد، مرجع سابق.

® في "**تحويل القبلة**" طالع: الشبهة الرابعة، من الجزء الثالث عشر (العبادات والمعاملات الاقتصادية). وفي "**ردّ القرآن على مستنكري تحويل القبلة**" طالع: الشبهة الحادية والثلاثين، من الجزء الأول (الشبهات التي تولى القرآن الرد عليها).

﴿الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ (البقرة: ١٤٣).

لقد بيَّن سبحانه أن هذا التحويل كان بلاء، واختبارًا ليتميز عند الناس المؤمنون المخلصون من الشَّاكِّين المرتابين[1].

ومن حكمة تحويل القبلة إثبات صدق نبوته ودعوته وفضله ﷺ. وتحويل القبلة جلَّى الإيمان في نفوس المؤمنين، والنفاق والشرك في نفوس أصحابه. فالمؤمنون قالوا: سمعنا وأطعنا؛ كلٌّ من عند ربنا، أما اليهود، فقالوا: خالف قبلة الأنبياء، ولو كان نبيًّا لاستمر على قبلته، وأما المنافقون فقالوا: ما يدري محمد أين يتجه في صلاته، إن كانت الأولى حقًّا فقد تركها، وإن كانت الثانية حقًّا فقد كان على الباطل: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾﴾ (الكهف).

ويقول سيد قطب: "لقد كان تحويل القبلة أولًا عن الكعبة إلى المسجد الأقصى لحكمة تربوية أشارت إليها آية: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ (البقرة: ١٤٣). فقد كان العرب يعظمون البيت الحرام في جاهليتهم، ويعدونه عنوان مجدهم، ولما كان الإسلام يريد استخلاص القلوب لله، وتجريدها من التعلق بغيره، وتخليصها من كل نعرة وكل عصبية لغير المنهج الإسلامي المرتبط بالله مباشرة، المجرد من كل ملابسة تاريخية أو عنصرية أو أرضية على العموم.. فقد نزعهم نزعًا من الاتجاه إلى البيت الحرام، واختار لهم الاتجاه - فترة - إلى المسجد الأقصى؛ ليخلص نفوسهم من رواسب الجاهلية، ومن كل ما كانت تتعلق به في الجاهلية، وليظهر من يتبع الرسول اتباعًا مجردًا من كل إيحاء آخر، اتباع الطاعة الواثقة الراضية المستسلمة ممن ينقلب على عقبيه اعتزازًا بنعرة جاهلية تتعلق بالجنس والقوم والأرض والتاريخ، أو تتلبس بها في خفايا المشاعر وحنايا الضمير أيَّ تلبُّسٍ من قريب أو من بعيد.

حتى إذا استسلم المسلمون واتجهوا إلى القبلة التي وجههم إليها الرسول ﷺ، وفي الوقت ذاته بدأ اليهود يتخذون من هذا الوضع حجة لهم، صدر الأمر الإلهي الكريم بالاتجاه إلى البيت الحرام.."[2] ®.

ثانيًا. لله تعالى أن يبتلي من شاء من عباده بما يشاء من الأحوال:

لله تعالى أن يبتلي من شاء من عباده بما يشاء من الأحوال، لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون، فأما من كان من أهل الإيمان فيقول: سمعنا وأطعنا، وأما أهل الزيغ فيقولون: سمعنا وعصينا.

وقد ابتلى الله ﷻ الأنبياء من قبل بأنواع مختلفة من الابتلاءات، ولم يقل أي واحد منهم: لِمَ؟ فكان هذا التحويل بلاء واختبارًا ليميز الله المؤمنين المخلصين من

---

١. السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، د. محمد محمد أبو شهبة، دار القلم، دمشق، ط٨، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ج٢، ص١٠٥.

٢. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج١، ص١٢٦، ١٢٧.

® في "**الحكمة من تحويل القبلة**" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الرابعة، من الجزء الثالث عشر (العبادات والمعاملات الاقتصادية).

الشاكين المرتابين، فقال الله ﷻ: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ ﴾ (البقرة).

ولما كان نسخ القبلة أول نسخ وقع في الإسلام، وقارنه إرجاف اليهود والمنافقين، أكد الله سبحانه الأمر بالتوجه إلى الكعبة الشريفة في ثلاثة مواضع متقاربة: فقال المولى تبارك وتعالى: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ﴾ (البقرة: ١٤٤). وقال ثانيًا: ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ ﴾ (البقرة). وقال ثالثًا: ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ ﴾ (البقرة).

وهذا الترديد يظهر الشدة التي لقيها المؤمنون من هذا التحويل، وكذلك يظهر قوة إرجاف اليهود والمنافقين، وأن قلوبًا من المسلمين مالت إلى قولهم ®.

الخلاصة:

- إن تغيير القبلة وتحويلها من بيت المقدس إلى البيت الحرام في مكة لا يدل بحال على تناقض في أفعال الله ﷻ؛ لأن علم الله أزلي شامل محيط لما كان وما سيكون وما هو كائن، فلا تزيده الوقائع علمًا كما هي حال البشر.
- والله تبارك وتعالى يفعل ما يشاء وقت ما يشاء، ولا يسأل عما يفعل؛ لأنه هو الخالق والمدبر، وليس هذا فحسب، بل يريد بذلك اختبار عباده وامتحانهم، ليعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه.
- ولله أن يغير ما شاء من أحكامه وشرعه وقت ما يشاء؛ لأنه تعالى أعلم بالناس من أنفسهم ويعلم ما يصلحهم.

الشبهة السابعة والثلاثون

ادعاء نسبة الجهل إلى الله ﷻ في الإسلام(*)

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض المغرضين أن الله تبارك وتعالى لا يعلم الغيب، ويستدلون على ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (البقرة)، ثم حدث بعد ذلك الإفساد وسفك الدماء، فهل الله تعالى لم يكن يعلم ما سيحدث بعد ذلك؟ وأنه لم يكن يعلم أن آدم قد أكل من الشجرة إلا عندما سأله؟ ويستدلون على ذلك بقول الله تعالى: ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ

® في "ابتلاء الله لعباده لا يزيده علمًا بهم" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة السابعة والثلاثين، من هذا الجزء.

(*) النظر في الأدلة العقلية حول إثبات الذات الإلهية. nadyelfiker. net.

عَمَلًا ﴾ (هود: ٧) على أن ابتلاءه لنا؛ لمعرفة الأحسن عملًا يدل على خفاء شيء عن علمه بالغيب.

وجوه إبطال الشبهة:

١) علم الله محيط بكل شيء، وعلمه الغيب ثابت بما أخبر به ﷻ، وبما أخبرنا به نبيه ﷺ.

٢) ابتلاء الله ﷻ لعباده لا يزيده علمًا بأحوالهم؛ فإن له العلم القديم الشامل الذي لا يتبدَّل.

٣) سؤال الله ﷻ لآدم ليس للاستعلام، بل للتقرير.

التفصيل:

أولا. شمول علم الله ﷻ وإحاطته:

فالله ﷻ لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، فهو يعلم ما كان، وما سيكون، وهو عليم بذات الصدور، قال الله تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ ﴾ (القصص:٦٩)، وقال: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ﴾ (البقرة: ٢٨٤)، وقال سبحانه: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴾ (هود: ٦).

فعلم الله تعالى علم مطلق، وما أكثر الآيات القرآنية التي جاءت تتحدث عن علم الله ﷻ بكل شيء، إجمالًا كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ (النور)، وقوله: ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾﴾ (الطلاق)، أو تفصيلًا؛ كقوله تبارك وتعالى: ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ (الأنعام)، وكقوله وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌۢ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾ (لقمان)، وكقوله تعالى: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾﴾ (الرعد).

وما أكثر الأسماء الحسنى التي تعبر بكل الوجوه عن علمه تعالى، مثل: العليم، والخبير، واللطيف، والشهيد، والرقيب، والمحصي، والمبدئ، وعالم الغيب والشهادة، وعلام الغيوب... إلخ الصفات الدالة على العلم والمعية والإحاطة.

وهذا الفهم السقيم الذي ذكروه لا وجه له، أمام هذه النصوص القاطعة بعلمه تعالى بما كان وبما سيكون، وعلمه السر وأخفى، وحدوث كل شيء تبعًا لعلمه سبحانه.

ثانيًا. ابتلاؤه ﷻ لعباده لا يزيده علمًا بهم:

فإن الله ﷻ منزه عن النقائص: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ (الشورى)، وإنما أراد أن يبتليهم ليعظم لهم الأجر؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ (البقرة). والله ﷻ قد أدخلنا دار الابتلاء (الدنيا)؛ ليبلونا أينا أحسن عملًا، حتى لا يدَّعي أحدٌ أن الله ﷻ ظلمه، وحتى لا يقولوا: إنا كنا عن هذا غافلين، أو يقولوا: إنما أشرك آباؤنا وكنا ذرية من بعدهم نسير على دربهم.

فاختبار الله ﷻ لعباده إثباتٌ للحجة عليهم، حتى

لا يدعي أحد أن الله ﷻ ظلمه، حتى إن أهل الفترة: (أي الذين يحتجون يوم القيامة على الله بأنهم لم تبلغهم الرسالة) يعقد الله تبارك وتعالى يوم القيامة لهم امتحانًا حتى يعلم كل واحد منهم حقيقة نفسه لو كان في الدنيا وبلغته رسالة ربه أكان يصدِّق بها أم يكذِّب.

وإنما أراد الله ﷻ بذلك إقامة الحجة عليهم وهو أعلم بهم من أنفسهم، ويعلم ما لم يكن لو كان كيف يكون، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ (الأنعام).

والفهم الصواب للآيات: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، وقول الله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ (محمد) وأمثالها أن نقول:

- إن مثل هذا التعبير ـ عادة ـ ما يوجه لمن يجادل ويماري في علمك، فتتنزل معه ليتبين الطرفان أنت وهو مَنِ العالِم فيكم؟ كأن يقول العالم: النار تحرق الحطب، ويقول الجاهل بل الحطب يحرق النار، فيقول العالم: سنأتي بحطب ونار لنعلم أيها يحرق الآخر.
- إن معنى "حتى نعلم"؛ أو "ليعلم"؛ أو "لنعلم" الواردة في الآيات: أي: ليظهر متعلق علمه.
- أن اللام في "لنعلم" وأمثالها، للعاقبة والفائدة، والمعنى: إنا فعلنا ذلك فترتب عليه فوائد، ومصالح غير باعثة على الفعل "لنعلم" ولكنها مترتبة عليه، كما قال تعالى في حق فرعون وقومه مع موسى ﵇: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾﴾ (القصص)، أي: كانت العاقبة كذلك ـ ولم يكن التقاطهم لأجل أن يكون لهم عدوًّا[1].

ومعرفة الحكمة من الخلق معرفة نهائية فوق طاقة البشر ومداركهم، ولكن يكفي أن يعلم العبد أن ربه خلقه لعبادته، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ (الذاريات).

وأنهم حين يعبدونه فهم المستفيدون لا هو سبحانه، وإن لم يعبدوه فهم المتضررون الأشقياء في دنياهم وأخراهم بانصرافهم عن طاعته قال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ (الزمر: ٧)، وقال الله تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾ (النساء: ١٤٧).

ثالثًا. ليس سؤال الله ﷻ لآدم ﵇ للاستعلام، لكن للتقرير:

إن علم الله ﷻ قديم، وقد سبق الكلام عن هذه النقطة من قبل، ثم إن من الدليل على علم الله ﷻ بما سيقع من آدم ﵇ ما رواه الشيخان عن عمر بن الخطاب ﵁ أنه قال: قال الرسول ﷺ: احْتَجَّ آدم وموسى، فقال له موسى: أنت آدم الذي أخرجتك خطيئتك من الجنَّة فقال له آدم: أنت موسى الذي اصطفاك اللهَّ برسالاته وبكلامه ثُمَّ تلومني على أَمْرٍ قُدِّرَ على قبل أن أُخْلَق فقال رسولُ اللهَّ ﷺ فَحَجَّ

1. الأسماء والصفات، البيهقي، تحقيق: محمد زاهد الكوثري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٠م، ص١٢٣. المفيد في علم التوحيد، حبيب الله حسن أحمد، مرجع سابق، ص١٣٣، ١٣٤.

آدم موسى مرَّتين"[1].

والشاهد من الحديث: "ألم تجد أن الله ﷻ قدر معصيتي، وقدر خروجي قبل أن أخلق بأربعين سنة" فقد علم الله ما سيقع من آدم قبل خلقه، إذن لم يكن سؤال الله ﷻ لآدم على سبيل الاستعلام، إنما كان ليقرره بمعصيته؛ ليتوب ويتوب الله تعالى عليه، ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ (١٢٢)﴾ (طه).

واليهود الذين يصفون الله ﷻ بكل نقيصة كانوا يعلمون أن محمدًا هو النبي الذي كانوا ينتظرونه؛ لبشارة كتبهم به، ولكنه لما لم يكن من قومهم "بني إسرائيل" كفروا به حسدًا، ونهوا قومهم أن يحدثوا المسلمين بهذا الأمر؛ لئلا يحاجوهم بذلك عند الله تعالى يوم القيامة، قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣)﴾ (الأنعام)، ولذلك رد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٧)﴾ (البقرة)[2].

أما قول الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ (البقرة: ٣٠)، فإنه لا ينفي علم الله تعالى بما سيحدث، بل هذا يثبت أن الملائكة وإن علموا شيئًا مما أعلمهم الله ﷻ إياه فقد غاب عنهم من العلم ما تفرد به سبحانه، فهم لا يعلمون أن من سيجعل منه خليفة في الأرض سيكون مصلحًا فيها معمرًا لها مقيمًا لشريعة الله التي تحكم الناس بالعدل وتنشر بينهم الخير، ولذلك رد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠)﴾ (البقرة).

الخلاصة:

- إنه لا مجال للتشكيك في علم الله تعالى، وأن يزعم جاهل أن الله لا يعلم الغيب، فعلم الله تعالى محيط بكل شيء، لا يخفى عليه ﷻ شيء في ملكه، وقد أخبر بعض عباده ببعض الغيب، وقد وقع ما أخبروا به عن رب العزة تبارك وتعالى.
- وإن قول الله تبارك تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠)﴾ يثبت أن الملائكة وإن علموا شيئًا مما أعلمهم الله تعالى به، فقد غاب عنهم من العلم ما تفرد به سبحانه، فهم لم يعلموا أن الله سيجعل من عباده مصلحين في الأرض ومعمرين لها.
- ما ابتلاء الله لعباده، إلا لإقامة الحجة عليهم ليس إلا؛ حتى لا يدَّعي أحد أن الله تعالى ظلمه، وكذلك يكون الابتلاء لرفع الدرجات التي لا تُبلغ إلا به؛ لقصور الأعمال الصالحة من العبد فهذا محض تفضل وإكرام من الله تعالى.
- وأما زعمهم بأن الله لم يكن يعلم أن آدم وزوجه أكلا من الشجرة إلا عندما سألهما فباطل؛ لقول آدم لموسى "أتلومني على أمر قدره الله ﷻ عليَّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة".

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب وفاة موسى (٣٢٢٨)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام (٦٩١٢).

٢. انظر: الأسماء والصفات، البيهقي، مرجع سابق. المفيد في علم التوحيد، حبيب الله حسن أحمد، مرجع سابق.

الشبهة الثامنة والثلاثون

ادعاء تناقض الصفات الإلهية في العقيدة الإسلامية(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المشككين أن القرآن الكريم يتناقض بشأن صفات الله عز وجل؛ فكثيرًا ما تجد آيات تصفه بأنه رحمن رحيم، أوغفور ودود، في حين تصفه آيات أخرى بأنه جبار متكبر، وأن بطشه شديد!

وجها إبطال الشبهة:

١) تعدد الصفات الإلهية أدلُّ على كمال الله سبحانه وتعالى وعلى تنوع آثارها في حياة المؤمن.

٢) إذا كان الجمع بين الصفتين المتعارضتين جائز في حق البشر بلا خلاف، فكيف يجوز في حق المخلوقين ولا يجوز في حق الخالق؟

التفصيل:

أولا. اختلاف صفات الله عز وجل وتعددها أدلُّ على قدرته وعنايته بالخلق:

تنقسم الصفات إلى ثلاثة أقسام:

- صفة كمال مطلق.
- صفة كمال مقيد.
- صفة نقص مطلق.

أما صفة الكمال على الإطلاق؛ فهي ثابتة لله عز وجل، كالعلم، والقدرة، والحياة، ونحو ذلك.

وأما صفة الكمال بقيد، فهذه لا يوصف الله بها على الإطلاق إلا مقيدًا، مثل: المكر والخداع، والاستهزاء، وما أشبه ذلك؛ فهذه صفات كمال بقيد؛ إذا كانت في مقابلة من يفعلون ذلك فهي كمال، وإن ذكرت مطلقة فلا تصح بالنسبة لله عز وجل، ولهذا لا يصح إطلاق وصفه بالماكر، أو المستهزئ، أو الخادع، بل تقيد، فنقول: ماكر بالماكرين، ومستهزئ بالمنافقين، خادع لمن يخادعونه، كائد للكافرين، فتقيدها؛ لأنها لم تأت إلا مقيدة.

وأما صفة النقص على الإطلاق، فهذه لا يوصف الله بها بأي حال من الأحوال، كالعاجز والخائن، والأعمى، والأصم، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا؛ لأنها نقص على الإطلاق، فلا يوصف الله بها، وانظر إلى الفرق بين خادع، وخائن؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ (النساء: ١٤٢)، فأثبت خداعه لمن خادعه، لكن قال في الخيانة: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ (الأنفال: ٧١)، ولم يقل: فخانهم؛ لأن الخيانة خداع في مقام الائتمان، والخداع في مقام الائتمان نقص، وليس فيه مدح أبدًا، إذًا صفات النقص منفية عن الله مطلقًا[1].

ليس عجيبًا أن يتصف الله سبحانه وتعالى بالعديد من الصفات كما أثبته هو لنفسه عز وجل، فاختلاف صفات الله تعالى يدل على كمال قدرته، فهو الملك وحده، والمسيطر وحده، وهو الرحمن الرحيم الغفور، وهو ـ بعد ذلك كله ـ جبار شديد العقاب والعذاب، وبهذا الصنف من الصفات يطمئن العبد إلى قدرة مولاه ويحتمي به®.

(*) الإسلام في قفص الاتهام، د. شوقي أبو خليل، مرجع سابق.

١. انظر: شرح العقيدة الواسطية، محمد العثيمين، مرجع سابق.

® في **"كمال الله وافتقار الخلق إليه"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثالثة والثلاثين، من هذا الجزء.

والتصور الإسلامي ينفرد وحده بهذا التكامل بعد ما أصاب العقائد السماوية عند أهل الكتاب ما أصابه من تبديل وتغيير؛ فإله التوراة ثائر غضوب يبادر بالبطش والتخريب، ثم يعود فيندم ويبكي، وإله الإنجيل مستضعف مسكين يعيش حياته في ضعف واستكانة، ثم يموت مصلوبًا كذلك في ضعف واستكانة، وضمُّ هذين التصورين إلى جوار التصور الإسلامي يظهر ما فيه من شموخ وقوة، ومن عقلانية كذلك وصلاحية لهداية الضمير والوجدان.

وقد نسي أصحاب هذا الادعاء أن رحمة الله ﷻ تتعلق بالمؤمنين، وأنه تبارك وتعالى شديد العقاب لمن كابر على ذنبه، ولم يرجع عنه، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٥٣)﴾ (الأعراف). وقال ﷻ: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١١)﴾ (آل عمران).

فليفهم هؤلاء ما يرمي إليه القرآن الكريم من معان واضحة لألفاظه.

ثانيًا. استعمال الصفات المختلفة في الأحوال المختلفة أمر يعهده البشر:

إنَّ الصفات الإلهية متعددة؛ نتيجة لتعدد الأحوال الإلهية قال تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩)﴾ (الرحمن)، فالله جبَّار شديد العقاب؛ ليطمئن المستضعفون من عباده إلى قوته، وهو التواب الغفور؛ ليطمئن المسرفون على أنفسهم من عباده إلى سعة رحمته وشمولها لمن يُنيب إليه ويرجع نادمًا إلى حضرته، وهو ودود قريب يستميل عباده إليه بمحبته، لكنه ـ مع ذلك ـ حق عدل لا يطمع مقصِّر في عفوه إلا بالتوبة إليه والبكاء بين يديه.

والذي يقرأ هذه الصفات الإلهية، ثم يخرج فيقول للناس: إن صفات الله عند المسلمين متناقضة، فقد شهد على نفسه بضعف العقل والتمييز.

ذلك أنه لا يمكن أن يثبت عقل أن هناك تناقضًا بين صفات الله في القرآن، إلا إذا كان هذا العقل عقلًا مريضًا، فإن البشر أنفسهم اعتادوا أن يكون الإنسان ـ وهو خلق الله ـ رحيمًا، وفي الوقت ذاته يمكن أن يكون شديدًا جبارًا، فقد يكون الإنسان ـ وهو خلق ضعيف لله رب العالمين في الأرض ـ يجمع بين هاتين الصفتين المتعارضتين (الرحمة والشدة).

ولا تناقض مع ذلك؛ لأنه يستعمل الشدة في أمر، ويستعمل الرحمة في آخر، إذن فمن الأولى أن يكون من أوجد الإنسان رحيمًا وجبارًا في الوقت ذاته، فهذه صفات تتكامل ولا تتناقض، وبتعددها تتعدد آثارها في الكون وفي أنفس الخلق على السَّواء.

الخلاصة:

- إثبات الصفات المختلفة لله ﷻ كما أثبتها هو لنفسه لا تحتمل تناقضًا ولا نقصًا، بل هي أدل على قدرته ﷻ وعنايته بخلقه على اختلاف طرقها، فكيف يكون هناك تناقضٌ بين صفتين تكمل إحداهما الأخرى، ليس من المنطق أن يكون إلهًا جبارًا فقط كما أرادته اليهود، أو رحيمًا فقط كما أرادته النصارى حتى مع من لا يستحقون الرحمة ولا يردعهم سوى القوة والبطش، تعالى الله سبحانه عن ذلك فهو الملك وحده، والمسيطر وحده، وهو الرحمن الرحيم.
- إذا كان استعمال الصفات المختلفة في أحوال

الحياة المختلفة أمر يعهده البشر فكيف برب البشر، ومصرف الأمور، ومدبر الكون؟ له أن يستعمل الشدة سبحانه مع من يستحقها، والرحمة واللين في مقام آخر، وذلك مشاهد من آثار صفاته ﷻ في الكون.

الشبهة التاسعة والثلاثون

الزعم أن الأخلاق الإسلامية لا تكفي لبناء مجتمع فاضل(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المُغالطِين أن الأخلاق التي جاء بها الإسلام لا تكفي لبناء مجتمع فاضل، ويعتقدون أن هذه الأخلاق تقوم على الكراهية لا الحب للآخرين، وينظرون إلى الحرب في الإسلام على أنها حرب مقدسة، هدفها إراقة الدماء، وإكراه الناس على أن يكونوا مسلمين.

وجوه إبطال الشبهة:

١) الحضارة التي أقامها المسلمون هي بذاتها دليل على أصالة الأخلاق الإسلامية وسموِّ مبادئها، ودليل كذلك على زيف ادعاء أنها تدعو إلى الكراهية والعداء.

٢) تختلف الأخلاق الإسلامية عن الأخلاق الوضعية اختلافًا واسعًا من جهتي المصدر والغاية جميعًا، وقد أقرَّت طائفة من الغربيين بسبق الأخلاق الإسلامية وتميزها بهذا الشأن.

٣) اختلاف الأخلاق الإسلامية عن الأخلاق الوضعية من ناحية المصدر والهدف يعطي لأخلاق الإسلام خصوصية وتميز يضمن لها البقاء والدوام.

٤) اعترافات الغربيين بتميز الحضارة الإسلامية في جانب الأخلاق أوضح دليل على صلاحيتها لكل زمان ومكان.

٥) هناك نماذج عدَّة من الأخلاق التي عمل الإسلام على نشرها بين المسلمين وبعضهم خاصة، وبين المسلمين وغيرهم عامة تؤكد سموَّ أخلاق هذا الدين ونبل مقاصده.

٦) حقيقة الحرب في الإسلام من خلال نصوص القرآن الكريم والحديث الشريف تبرهن على أنها لا تحتمل أبدًا هذا الادعاء.

التفصيل:

إن الأخلاق بناء شيَّده الأنبياء - عليهم السلام - عن طريق التعاليم الإلهية والتكاليف الربانية، وبُعث النبي ﷺ ليتم هذا البناء ويكمل ما كان ناقصًا منه؛ لأن الدين من غير خُلُق كمحكمة من غير قاضٍ، والأخلاق من غير دين عبث، فكل منهما يكمل الآخر، وجاءت أخلاق الإسلام لتكون للناس كافة في كل زمان ومكان، ولا أساس لما يثار حولها من شبهات باطلة.

أولا. سموُّ الأخلاق الإسلامية وأصالتها يؤكدان جدراتها ببناء مجتمع فاضل:

إذا كانت الأخلاق الإسلامية - كما يدعي هؤلاء - لا تصلح لبناء مجتمع فاضل أساسه الحب والتعاون

(*) قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية: نقد مطاعن ورد شبهات، د. فضل حسن عباس، مرجع سابق.

والتقوى... إلخ، فأي أخلاق يمكن الاعتماد عليها لبناء هذا المجتمع؟ وكيف استطاع المسلمون في وقت قصير أن يشيدوا هذا البناء الشامخ الذي يطلق عليه حضارة الإسلام؟ ألم يعتمدوا على الأخلاق التي نزل القرآن الكريم لكي يؤكدها ويحث الناس عليها؟ ألم يعتمدوا على أقوال الرسول ﷺ التي تبين لهم الطريق الصحيح؟!

إن تاريخ الفتوحات الإسلامية حافل بالعديد من قصص التمدن الأخلاقي والديني التي لا تستطيع أي حضارة - مهما كان قدرها - أن تجاريه في ذلك، كل هذا تم لأن هذه الفتوحات إنما اعتمدت على أخلاق ثابتة وواضحة يؤمن بها الفاتحون، ولا يحيدون عنها مهما كانت الظروف المحيطة بهم.

ويروج البعض لفكرة أن الأخلاق الإسلامية تعتمد على العنف والقسوة في التعامل مع الآخرين، وأنه لا مجال فيها للحب والسماحة، وهذا ادعاء باطل يرد عليه ما دوَّنه التاريخ عن سلوك المسلمين مع غيرهم عندما تكون لهم الغلبة، عكس ما نشاهد اليوم من غير المسلمين تجاه المسلمين عندما انتقلت مقاليد الأمور إليهم.

ومن يقرأ آيات القرآن يجد فيها العديد من الآيات التي ترفض الكراهية، قال تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ (البقرة: ٢٥٦)، فالآية واضحة الدلالة ولا تخفى على أحد، وقال تبارك تعالى: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ (النحل: ١٢٥)، وقال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ (العنكبوت: ٤٦)، أليست هذه معانيَ خُلُقية سامية تبين طريقة معاملة المسلمين لغير المسلمين وقت الحرب؟!

وسنة النبي ﷺ حافلة بالأحاديث التي ترفض معاداة غير المسلمين والتنكيل بهم ما داموا على عهدهم مع المسلمين، وكان الرسول ﷺ يوصي المسلمين في كل غزوة وفي كل مجلس من مجالسه بالعديد من القيم الخلقية، التي يسيرون عليها تجاه أهل الكتاب، فكان مما قاله ﷺ: "ألا من ظلم معاهدًا أو انتقصه أو كلَّفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة"[1].

وكان يأمر الجنود بعدم قتل الشيخ الكبير أو المرأة أو الطفل، وعدم قطع الشجر، وأن يعرضوا على أعدائهم الدخول في الإسلام، فإن رفضوا فالجزية، فإن رفضوا فالحرب، وإن جنح الأعداء للسلم فعلى القائد المسلم أن ينزل على رغبتهم؛ حفظًا للدماء من الإراقة، وغير هذا العديد من الأخلاق في جانب الحرب فقط، فأين الكراهية، التي اعتمد عليها المسلمين لنشر دينهم؟ وأين حب إراقة الدماء؟!

ثانيًا. الاختلاف بين الأخلاق الإسلامية والوضعية، وشهادة الغربيين للأولى بالسبق والتميُّز:

من ينظر في الأخلاق الإسلامية والأخلاق الوضعية يجد فرقًا كبيرًا بينهما؛ ذلك لأن أخلاق الإسلام تعتمد على أسس غير التي تعتمد عليها

١. صحيح: أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الخراج، باب في تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا بالتجارات (٣٠٥٤)، والبيهقي في السنن الكبرى، كتاب الجزية، باب لا يأخذ المسلمون من ثمار أهل الذمة ولا أموالهم شيئًا بغير أمرهم (١٨٥١١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٦٥٥).

الأخلاق الوضعية، ويمكن أن نرصد الفرق بينهما فيما يلي:

١. الأخلاق الإسلامية أخلاق عملية، هدفها التطبيق الواقعي، وبيان طرق التحلي بها، أما الأخلاق الوضعية فهي تركز على الجانب النظري فقط.

٢. مصدر الأخلاق الإسلامية هو الوحي؛ ولذلك فهي قيم ثابتة، ومثل عليا تصلح لكل إنسان بصرف النظر عن نوعه وجنسه وزمانه ومكانه، أما مصدر الأخلاق الوضعية فهو العقل البشري المحدود، أو ما يتفق عليه الناس فيما يسمى "العرف"؛ ولذلك فهي متغيرة من مجتمع لآخر ومن مفكر لآخر.

٣. مصدر الإلزام في الأخلاق الإسلامية هو شعور الإنسان بمراقبة الله ﷻ له، أما مصدر الإلزام في الأخلاق الوضعية فهو الضمير المجرد أو الإحساس بالواجب أو القوانين الملزمة.

ويمكن أن نرصد بعض الخصائص المتعلقة بالأخلاق الإسلامية، ونذكر منها ما يلي:

- واقعية التوائم بين الروح والجسد، فلا تصادر حاجة الجسد من الشهوات والرغبات بل تضعها في إطارها الشرعي، فرغبة البدن لا بد من إشباعها بضوابط شرعية، ولذلك فالقرآن عبَّر عن مُصادَرة رغبة البدن بأنها رهبانية مبتدعة: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ (الحديد: ٢٧)، ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ (القصص:٧٧)، ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ (الأعراف)، ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ (الأعراف: ٣٢)، فالآيات توضح حق الإنسان في إشباع رغباته بالضوابط الشرعية مع إشباع الروح بالذكر، والطاعة، والعبادة، ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ (الحشر: ١٩).

- عامَّة صالحة لكل إنسان، ولكل زمان ومكان، مع اتصافها بالسهولة واليسر، ورفع الحرج، يقول سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (الحج: ٧٨)، ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (البقرة: ٢٨٦).

- لا تحكم على الأفعال بظاهرها فقط ولكن تمتد إلى النِّيات، والمقاصد والبواعث التي تحرك هذه الأفعال الظاهرة، يقول ﷺ: "إنما الأعمال بالنيات"[1].

- مبادئها تقنع العقل وترضي القلب والوجدان، فما من نهي شرعي إلا ومعه مسوغات ودوافع تحريمه يقول تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ (الإسراء)، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ (المائدة)، وكذلك الأخلاق الإسلامية تقبلها الفطرة السليمة، ولا يرفضها العقل الصحيح.

غاية الأخلاق الإسلامية:

نقصد بالغاية الهدف الأقصى للأخلاق الإسلامية، فلكل سلوك إنساني غاية، إلا أن الغاية العظمى للمؤمن هي تحقيق السعادة في الدنيا والآخرة، ولا

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (١)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: "إنما الأعمال بالنية" (١٩٠٧).

تتحقق السعادة في الدنيا إلا بالإيمان وفعل الواجبات وترك المحرمات، عند ذلك يشعر العبد برضا ربه عليه، فليست السعادة في كثرة المال، ولا في الملك أو الشهرة والمكانة الاجتماعية أو الحالة الصحية، وإنما السعادة الحقيقية في رضا الله عن العبد.

أما في الآخرة فتتحقق السعادة للعبد في أسمى درجاتها بدخول الجنة: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ (آل عمران: ١٨٥)، ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ ﴾ (طه)، ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌۚ وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (النحل).

وهكذا تتضافر الآيات لتوضح الغاية للمؤمن في الدنيا والآخرة، أما أصحاب الغايات الدنيوية فحالهم كحال من يسعى وراء السراب، حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا، ووجد الله عنده فوفَّاه حسابه.

يقول ﷻ: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾ (طه). والسعادة هي الشعور بالارتياح، والأمن والسكينة، والطمأنينة والنعيم والرضا، وهذه السعادة تتفاوت في أصحابها على حسب ما يتوفر لهم من أسبابها.

شهادات غربية:

نحن لا نعتمد على نصوص القرآن الكريم والسنة الشريفة وسِيَر الصحابة والتابعين فقط لكي نؤكد فكرة أن الأخلاق الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان، بل نعتمد على أقوال بعض العلماء الغربيين الذين شهدوا لأخلاق الإسلام بالتميز والخصوصية، وهذا أصدق دليل على صدق ما نقوله من صلاحية الأخلاق الإسلامية لبناء مجتمع فاضل كامل الأركان، ونقتصر في هذا الجانب على شهادة عالِمَيْن فقط من العلماء الغربيين، هما: ول ديورانت، وغوستاف لوبون.

يقول وول ديورانت: "والقرآن يشمل قواعد الآداب وصحة الجسم، والزواج والطلاق ومعاملة الأبناء والعبيد والحيوان، والتجارة والسياسة والربا والدَّيْن" والعقود والوصايا وشئون الصناعة والمال، والجريمة والعقاب والسلم والحرب ويمضي ديورانت في الحديث عن النبي ﷺ إلى أن يقول: "ولسنا نجد في التاريخ كله مُصْلِحًا فرض على الأغنياء من الضرائب ما فرضه عليهم محمد لإعانة الفقراء، وقد كان هذا وحي الله الذي أوحاه لنبيه).

ثم يقول: تلك بلا مراء عقيدة نبيلة سامية أَلَّفتَ بين الأمم المتباينة المنتشرة في قارات الأرض فجعلت منها شعبًا واحدًا، وهي لَعَمْرِي أعظم معجزة للمسيحية، والإسلام" وهو - وإن تعصب هنا لمسيحيته - يخص الإسلام بقوله: "ويلوح لي أن الثغرة التي لا بد من وجودها بين النظريات المجردة والأفعال الواقعية كانت أضيق في الإسلام منها في سائر الأديان" ويقول: والذين يجهلون الإسلام هم وحدهم الذين يظنون أنه دين سهل من الوجهة الأخلاقية[1].

ويقول غوستاف لوبون: تأثير دين محمد في النفوس أعظم من تأثير أي دين آخر، ولا تزال العروق المختلفة

١. قصة الحضارة، ول ديورانت، مرجع سابق، ج١٣، ص٩٥، ٩٦ بتصرف.

التي اتخذت القرآن مرشدًا لها تعمل بأحكامه كما كانت تفعل منذ ثلاثة عشر قرنًا، ثم يقول: "وعلى من يرغب في فهم حقيقة أمم الشرق التي لم يدرك الأوربيون أمرها إلا قليلًا، أن يتمثل سلطان الدين الكبير على أبنائها، والدين ذو التأثير الضئيل فينا له نفوذ عظيم فيهم، وبالدين يُؤَثَّر في نفوسهم"[1].

ويختم لوبون كتابه "حضارة العرب" بنتيجة النتائج كلها فيقول: لقد تم الكتاب، ولنلخصه في بضع كلمات فنقول: إن الأمم التي فاقت العرب تمدُّنًا قليلة إلى الغاية، وإننا لا نذكر أمة كالعرب حققت من المبتكرات العظيمة في وقت قصير مثل ما حققوا، وإن العرب أقاموا دينًا من أقوى الأديان التي سادت العالم، أقاموا دينًا لا يزال تأثيره أشد حيوية مما لأي دين آخر، وإنهم أنشئوا من الناحية السياسية دولة من أعظم الدول التي عرفها التاريخ، وإنهم مَدَّنوا أوربا ثقافة وأخلاقًا، فالعروق التي سمت سمو العرب، وهبطت هبوطهم نادرة، ولم يظهر كالعرب عرق يصلح أن يكون مثالًا بارزًا لتأثير العوامل التي تهيمن على قيام الدول وعظمتها وانحطاطها[2].

ولو أننا أحصينا كل أقوال العلماء الغربيين في هذا الجانب، لما اتسع المجال لذلك، ولكننا اكتفينا فقط بشهادة هذين العالمين المعتدلين في فكرهم.

ثالثًا. نماذج من الأخلاق التي عُني الإسلام بنشرها:

لكي يكون الأمر أكثر وضوحًا، كان يجب علينا أن نرصد بعض الأخلاق الإسلامية في هذا الموضع لكي نبين ما اشتملت عليه حضارة الإسلام من أخلاقيات ربانية سامية، لا تستطيع أي حضارة وضعية أن تأتي بمثلها، ويمكن أن نمثل لذلك بما يأتي:

العدل:

أقام الإسلام المجتمع على دعائم قوية ثابتة، منها العدل بين الناس على اختلاف أجناسهم وطبقاتهم. والعدل صفة خلقية كريمة تعني التزام الحق في كل أمر من أمور الحياة، والبعد عن الظلم والبغي والعدوان، والعدل في الإسلام هو مما يكمل أخلاق المسلم؛ لما فيه من اعتدال واستقامة وحب للحق، وهو كذلك صفة خلقية محمودة تدل على شهامة ومروءة من يتحلى بها، وعلى كرامته واستقامته، ورحمته وصفاء قلبه.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ ﴾ (النحل: ٩٠)، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴿٥٨﴾ ﴾ (النساء).

والإسلام يربأ بالمسلم عن الوقوع في أي لون من ألوان الظلم؛ فالظالم مطرود من رحمة الله تعالى، ولقد أوعد الله ﷻ الظالمين بأشد العقوبات. قال تعالى: ﴿ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ (هود)، وقال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴿٤٢﴾ ﴾ (إبراهيم)، كما تضمنت السنة النبوية الشريفة مجموعة من الأحاديث التي تقر العدل وتحرم الظلم منها:

- قوله ﷺ لأصحابه رضوان الله عليهم: "الظلم

---

1. حضارة العرب، جوستاف لوبون، مرجع سابق، ص٤١٧، ٤١٨ بتصرف.
2. المرجع السابق، ص٤١٧، ٤١٨ بتصرف.

ظلمات يوم القيامة"[1].

- وروى أبو ذر ﷺ عن النبي ﷺ فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: "يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا"[2].
- ومن أجل إزالة الظلم وتوطيد العدل الكامل بين الناس، قيَّد الله ﷻ حرية بني البشر ببعض القيود وهي الحدود الشرعية التي جعلها واجبة التنفيذ. قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾﴾ (البقرة).

وقد طبق رسول الله ﷺ مضمون هذه الآية، وذلك لترسيخ مفهوم العدل، كما ثبت في المرأة المخزومية القرشية التي سرقت، وقرر رسول الله ﷺ تنفيذ الحد عليها، فعظم ذلك على رجال من قريش، فطلبوا من أسامة بن زيد ﷺ أن يشفع لها عند رسول الله ﷺ فلما تحدث أسامة إليه في أمرها، غضب ﷺ وقال لأسامة مستنكرًا: "أتشفع في حد من حدود الله، إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد"، ثم ختم حديثه بقوله ﷺ "وأيم الله، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها"[3].

وقد أعلن الإسلام مبدأ العدل في العقيدة والشريعة والأسرة، والعهود والقضاء، وفي كل شئون الحياة. ومن هنا صار العدل التزامًا للمسلم في كل ميادين حياته الروحية والمادية، ومناطًا للثواب على صالح الأعمال، فالعدل الحقيقي لا يكتمل بعيدًا عن شريعة الله؛ لأن شريعة الله هي العدل، وبناء على هذا فقد حذر النبي ﷺ كل مسلم يحتكم إلى قاضٍ، وهو يعلم أنه ظالم لا مظلوم؛ فإن جزاءه النار.

ومن مجالات العدل في الإسلام العدل مع الأهل، وهو أن يحسن المسلم معاملة زوجته وأولاده، ويساوي بينهم في المعاملة والعطية، ولا يفضل بعضهم على بعض، فلقد جاء في الحديث عن النُّعمان بن بشير رضي اللهَّ عنهما قال: سَأَلَتْ أُمِّي أَبِي بعض الـمُوهِبَة لِي من ماله، ثُمَّ بَدَا له فَوَهَبَها لِي، فقالت: لا أَرْضَى حَتَّى تُشْهِدَ النَّبي ﷺ، فَأَخَذ بِيَدِي وأنا غُلامٌ فَأَتَى بِي النَّبي ﷺ، فقال: إنَّ أُمَّهُ بِنْت رَواحَة سَأَلَتْنِي بعض الموهبة لهذا، قال: "أَلَكَ ولدٌ سواه"؟ قال: نعم. قال: فأراه قال: "لا تُشْهِدْنِي على جَوْرٍ"[4].

إن في توطيد العدل ومحاربة الظلم والحيلولة دون وقوعه إقرارًا للأمن وتحقيقًا للمساواة بين أفراد المجتمع، الأمر الذي يمكّن كل فرد من الوصول إلى حقه دون مشقة أو تعب، وإذا فُقِد العدل أَكل الناس بعضهم بعضًا، وسادت الفتن، وكثرت الجرائم والمنكرات وأصبح كل فرد من أفراد المجتمع عرضة

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم، باب الظلم ظلمات يوم القيامة (٢٣١٥)، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم (٦٧٤٢).

٢. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم (٦٧٣٧).

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحدود، باب كراهية الشفاعة في الحد إذا رفع إلى السلطان (٦٤٠٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب الحدود، باب قطع السارق الشريف وغيره (٤٥٠٥).

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد (٢٥٠٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب الهبات، باب كراهة تفضيل بعض الأولاد في الهبة (٤٢٦٩).

لاعتداء الأشرار وضعاف النفوس؛ فتفقد الحياة بهجتها وجمالها.

الحياء:

الحياء خلق نبيل يحول بين من يتمتع به وبين فعل المحرمات وإتيان المنكرات، ويصونه من الوقوع في الأوزار والآثام، وهو كذلك الامتناع عن فعل كل ما يستقبحه العقل، ولا يقبله الذوق السليم، والكف عن كل ما لا يرضى به الخالق والمخلوق، فإذا تحلى المسلم بهذا الخلق صحت سريرته وعلانيته، وعامل الخلق بما يرضاه مولاه، وكذلك فإن المسلم الحيي لا يقبل إلا الحلال من كل شيء، في المطعم والمشرب والملبس وغير ذلك، كما يعد الحياء دليلًا صادقًا على مقدار ما يتمتع به المرء من أدب وإيمان، وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: "الحياء من الإيمان"[1].

ولقد حثَّت الشريعة الإسلامية المسلمين على التحلِّي بفضيلة الحياء، وبيَّن النبيُّ ﷺ أن هذا الخلق الشريف هو أبرز ما يتميز به الإسلام من فضائل، فقال ﷺ: "إن لكل دين خلقًا، وخلق الإسلام الحياء"[2]. وإذا استحكم خلق الحياء في نفس المسلم صدَّه عن كل قبيح، وقاده إلى كل أمر حسن طيب، والحياء لا يأتي إلا بخير، أما إذا ضعف هذا الخلق فلن يحل محله إلا السفه والوقاحة والفحش، ويجد الإنسان نفسه أمام أبواب مفتوحة من السوء والمنكر فينزلق إليها؛ لذا قال ﷺ: "إذا لم تستح فاصنع ما شئت"[3].

ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة في التمسك بخلق الحياء، فقد قال الصحابي الجليل أبو سعيد الخدري ﷺ واصفًا رسول الله: "كان رسول الله ﷺ أشد حياء من العذراء في خدرها، فإذا رأى شيئًا يكرهه عرفناه في وجهه"[4].

وإذا كان الحياء من الناس حسنًا، فإن الأحسن منه كثيرًا أن يكون الحياء من الله تعالى؛ لأنه يمنع الإنسان من المعاصي دائمًا، وقد روى عن الرسول ﷺ أنه قال لأصحابه: "استحيوا من الله حق الحياء"، قال: قلنا: يا رسول الله، إنا نستحيي والحمد لله، قال: "ليس ذاك، ولكن الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، ولتذكر الموت والبِلَى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء"[5].

وقد نقل عن الصديق ﷺ: استحيوا من الله، فإني لأدخل الخلاء فأقنع رأسي حياء من الله تعالى[6].

الحِلْم:

الحلم هو ضبط النفس عند الغضب، والصبر على

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الحياء من الإيمان (٢٤)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب شعب الإيمان (١٦٣).

٢. حسن: أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب الحياء (٤١٨٢)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢١٤٩).

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب إذا لم تستح فاصنع ما شئت (٥٧٦٩).

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب من لم يواجه الناس بالعتاب (٥٧٥١)، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب كثرة حيائه (٦١٧٦).

٥. حسن: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن مسعود ﷺ (٣٦٧١)، والترمذي في سننه، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع (٢٤٥٨)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٩٣٥).

٦. أخرجه هناد بن السري في الزهد (٢/ ٦٢٧) برقم (١٣٥٦).

الأذى، من غير ضعف ولا عجز ابتغاء وجه الله تعالى، وتتفاوت قدرات الناس في ضبط النفس والصبر على الأذى، فمنهم من يكون سريع الانفعال ويقابل الأذى دون النظر في العواقب، ومنهم من يتمالك نفسه، ويكبح جماح غضبه، ويتحلى بالصبر والحلم، ويتلمس الأعذار والمبررات لمن أساء إليه، وهذا هو الرجل الحليم، وقد كان رسول الله ﷺ يوصي أصحابه ﭫ بالتحلي بالحلم في تعاملهم، ويحثهم عليه بنفس القدر الذي يحثهم على طلب العلم، وكان مع ما أعطاه الله من خلق عظيم وصفات حميدة يدعو الله بأن يجعل الحلم زينة له فيقول: "اللهم أغنني بالعلم، وزيِّنّي بالحلم، وأكرمني بالتقوى، وجمِّلْني بالعافية" كما يرفع الله تعالى منزلة الرجل الحليم، فإنه يناصره ويقف إلى جواره أمام من يعاديه، فقد روي أن رجلًا جاء إلى الرسول ﷺ فقال: يا رسول الله، إن لي قرابة أَصِلُهم ويقطعوني، وأحسن إليهم ويسيئون إليَّ، وأحلم عنهم ويجهلون عليَّ، فقال له الرسول ﷺ: "لئن كنت كما قلت فكأنما تُسِفُّهم المَلَّ[1]، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك"[2].

يعد الحلم وسيلة إلى تبوُّء المراكز الهامة في المجتمع، وكانت العرب تقول في أمثالها: "من حلم ساد" ومن هؤلاء الذين تزعموا أقوامهم بسبب حلمهم عرابة بن أوس، والأحنف بن قيس، وروي أن معاوية بن أبي سفيان قال لعرابة بن أوس: بم سُدت قومك يا عرابة؟ فقال عرابة: يا أمير المؤمنين، كنت أحلم عند جهلهم، وأعطي سائلهم، وأسعى في حوائجهم، فمن فعل منهم فعلى فهو مثلي، ومن جاوزني فهو أفضل مني، ومن قصر عني فأنا خير منه".

وإن الحلم فضيلة تقع بين رذيلتين متباعدتين، فمن وراء يمين الحلم، يأتي التباطؤ والكسل، والتواني والإهمال، وتبلُّد الطبع عند مثيرات الغضب، ومن وراء يسار الحلم يأتي التسرع في الأمور، واستعجال الأشياء قبل أوانها، والذي جعل الحلم فضيلة خلقية هو اعتداله، ومسايرته لمقتضى العقل السليم، والآثار النافعة المفيدة الخيرة التي تترتب عليه، ولقد ضرب رسول الله ﷺ أروع المثل للمسلمين في الحلم؛ فقد روى البخاري عن أبي هريرة قال: بال أعرابي في المسجد، فقام الناس ليقعوا فيه، فقال النبي ﷺ: "دعوه وأريقوا على بوله سَجْلًا من ماء، أو ذنوب من ماء، فإنما بُعِثْتم ميسِّرين، ولم تبعثوا معسِّرين"[3].

فقد علَّم الرسول ﷺ في هذا أصحابه، كيف يكون الحلم بالجاهلين؟، وكيف يكون الرفق بهم؟ ومن حلم الرسول ﷺ عدم دعائه على الذين آذوه من قومه، وقد كان باستطاعته أن يدعو عليهم فيهلكهم الله، ولحلمه بهم غاية يهدف إليها؛ فهو يرحمهم لعلهم بعد مدة يؤمنون فينجون من عذاب النار، فيحلم بهم رجاء إصلاحهم.

وعن عبد الله بن مسعود ﭬ قال: كأني أنظر إلى النبي ﷺ يَحْكِي نبيًّا من الأنبياء صلوات الله عليهم، ضربه قومه فأدموه، وهو يمسح الدم عن وجهه

---

1. المَلّ: الجَمْر.
2. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها (٦٦٨٩).
3. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوضوء، باب صب الماء على البول في المسجد (٢١٧)

ويقول: "اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون"[1].

والغضب هو مفتاح الشر، فالشخص الذي يغضب سريعًا كثيرًا ما تصدر عنه تصرفات خاطئة، لذا روي أن أبا الدرداء قال: يا رسول الله، دلني على عمل يدخلني الجنة، قال رسول الله ﷺ: "لا تغضب ولك الجنة"[2]. وقد مدح ﷺ شيخ عبد القيس فقال: "إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة"[3].

ويروى أن عمر بن عبد العزيز دخل المسجد في إحدى الليالي، وكان مظلمًا لا نور فيه فعثر برجل نائم، فرفع الرجل رأسه إليه وقال: أمجنون أنت؟ فقال عمر بن عبد العزيز: لا، فهَمَّ الشرطي الذي كان يصحبه بضرب الرجل، فقال له عمر: "لا تفعل إنما سألني أمجنون أنا؟ فقلت: لا"، وكما رغب الإسلام بالحلم وحث عليه، حذر من الأخلاق المنافية له، وعمل على تربية المسلمين تربية عملية تأخذ بأيديهم حتى يكونوا حلماء.

وإن الحلم لفضيلة حيوية للمسلمين، فهو يصون علاقاته مع أهله وجيرانه، وزملائه وشركائه، وكل من يتعامل معه، وكلما زادت سلطاته وقدراته ونفوذه، كان حلمه أنفع له ولمن يحلم بهم.

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ ﴾ (الكهف: ٩) (٣٢٩٠)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة أحد (٤٧٤٧).

٢. صحيح: أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٣/ ٢٥) برقم (٢٣٥٣)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٧٤٩).

٣. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله تعالى (١٢٧).

رابعًا. حقيقة الحرب في الإسلام من خلال نصوص القرآن والحديث:

تعتبر قضية الحرب في الإسلام من أكثر القضايا التي اعتمد عليها أعداء الإسلام في إثبات عدم صلاحية الأخلاق الإسلامية لبناء مجتمع فاضل، وهذا الادعاء لا يثبت أمام النصوص القرآنية والأحاديث النبوية، وأعمال الصحابة والتابعين، التي تدور حول الحروب الإسلامية، أو الفتوحات الإسلامية بالمعنى الدقيق.

إن آيات كثيرة من القرآن الكريم تدعو إلى إرساء السلام، ولا تسمح بالحرب إلا إذا كانت حربًا دفاعية، قال تعالى: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ (الحج)، فالظلم واقع على المسلمين من قبل أعدائهم، وليس صادرًا من المسلمين لمجرد إرهاب الناس، وإن وقعت الحرب بين المسلمين وغيرهم، فيجب ألا يعتدي المسلمون؛ لقوله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾ (البقرة).

وتنهى الآيات القرآنية عن حرب المسالمين من غير المسلمين، قال تعالى: ﴿ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ ﴾ (النساء)، وقال أيضًا: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ ﴾ (الممتحنة)، وعليه، فالسلام فرض أساسي في القرآن.

لا أحد ينكر الحروب البربرية لقهر العالم في التاريخ المسيحيِّ، أما حروب الرسول ﷺ فكانت دفاعية أو

وقائية لمنع هجوم عليه أو على الإسلام، فلا خلاف على أن مكة بدأت بمعاداته واضطهاده ومحاولة استئصاله، وتبعتها قبائل الجزيرة العربية، ويمكن تلخيص قانون الإسلام الدفاعي فيما يأتي:

واجب الأمة الإسلامية أن تسلح نفسها في أوقات السلم لتردع أيَّ هجوم عليها، وفي الآية الستين من سورة الأنفال، إذا دخلت دولة حليفة في حرب فعلى الدولة الإسلامية الالتزام بمعاهداتها حتى لو كانت مع دولة غير مسلمة، قال تبارك تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٢) ﴾ (الأنفال)، وهذا بمثابة تحول ثوري جاء به القرآن في العلاقات الدولية.

يجب على كل المسلمين الذكور الاشتراك في الحروب الدفاعية، قال تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ (١٩١) فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩٢) وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ (١٩٣) ﴾ (البقرة). ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢١٦) ﴾ (البقرة). ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) ﴾ (الحج)، ومن ثَمَّ فهم مطلوبون للخدمة العسكرية بصفة عامة.

الحرب محرمة تمامًا بين المسلمين؛ فذلك ما يخالف تمامًا الغرض الذي شرعت الحرب لأجله، ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ (١٩٣) ﴾ (البقرة)، ﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٦٠) ﴾ (الحج).

ومن المعلوم أن الإسلام دين السلام، لا يأمر بالحرب إلا في الضرورة القصوى التي تستدعي الدفاع والجهاد في سبيل الله، ومع مشروعية الجهاد في سبيل الله دفاعًا عن الدين والعقيدة والأرض والعرض، فإن الحرب في الإسلام لها حدود وضوابط، وللمسلمين أخلاقهم التي يتخلَّقون بها، حتى في حربهم مع من يحاربهم من غير المسلمين، فأَمرَ الإسلام بالحفاظ على أموال المخالفين، وبترك الرهبان في صوامعهم دون التعرض لهم، ونهى عن الخيانة والغدر والغلول، كما نهى عن التمثيل بالقتلى، وعن قتل الأطفال والنساء والشيوخ، وعن حرق النخيل والزروع وقطع الأشجار المثمرة، وأوصى أبو بكر ﷺ أسامة بن زيد عندما وجَّهه إلى الشام بالوفاء بالعهد، وعدم الغدر أو التمثيل، وعاهد خالد بن الوليد أهل الحيرة ألا يهدم لهم بيعة، ولا كنيسة، ولا قصرًا، ولا يمنعهم من أن يدقوا نواقيسهم أو أن يخرجوا صلبانهم في أيام أعيادهم.

وكان عمر بن الخطاب ﷺ رحيمًا بغير المسلمين من أهل الكتاب، وكان ينصح سعد بن أبي وقاص ﷺ،

عندما أرسله في حرب الفرس، بأن يكون في حربه بعيدًا عن أهل الذمة، وأوصاه ألا يأخذ منهم شيئًا؛ لأن لهم ذمة وعهدًا، كما أعطى عمر رضي الله عنه أهل إيلياء أمانًا في أموالهم وكنائسهم وصلبانهم، وحذَّر من هدم كنائسهم.

وأمر الإسلام بحسن معاملة الأسرى وإطعامهم، قال تعالى: ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) ﴾ (الإنسان)، بينما يعامل غير المسلمين أسرى المسلمين معاملة سيئة؛ فقد يقتلونهم، وقد يَسْتَرِقُّونهم، أو يكلِّفونهم أشق الأعباء والأعمال، ولم يقبل الإسلام أن يمثِّل بالأعداء في الحروب مهما كان أمره، وعندما حقق الله تعالى لرسوله ﷺ أمنيته بفتح مكة المكرمة ودخلها فاتحًا منتصرًا ظافرًا لم ينتقم منهم واختار العفو عنهم.

الخلاصة:

- لو كانت الأخلاق الإسلامية لا تكفي لبناء مجتمع فاضل، فكيف استطاع المسلمون ـ في وقت قصير في عمر الحضارات ـ بناء حضارة هي أعظم حضارة عرفها البشر على مر العصور؟
- ادِّعاء أن الأخلاق الإسلامية تقوم على الكراهية والبغض ادِّعاء فاسد، ينافي الحقائق الواقعية في التاريخ، وينم عن جهل مدعيه بنصوص القرآن والسنة، وسيرة النبي ﷺ والمسلمين من بعده.
- تتميز الأخلاق الإسلامية عن الأخلاق الوضعية بمصدرها الإلهي، وبقيامها على الخوف من الله ومراقبته، وهذا ما يضمن لها البقاء والدوام.
- اعترافات الغربيين بتميُّز الحضارة الإسلامية في جانب الأخلاق، أوضح دليل على صلاحيتها لكل زمان ومكان.
- النصوص القرآنية والأحاديث النبوية تؤكدان أن الحرب في الإسلام لها أخلاق وضوابط، تنأى بها عن التعدِّي والجوْر.



المصادر والمراجع

- الإباضية، عامر النجار، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٤م.
- إبليس في التصور الإسلامي، إمام حنفي سيد عبد الله، دار الآفاق العربية، مصر، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.
- الإتقان في علوم القرآن الكريم، السيوطي، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، د. ت.
- آثار الحرب في الفقه الإسلامي، د. وهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٨م.
- الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة، القرافي، تحقيق: بكر زكي عوض، دار ابن الجوزي، القاهرة، ٢٠٠٤م.
- إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.
- الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين، عبد الرحمن الناصر بن سعدي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- آراء يهدمها الإسلام، شوقي أبو خليل، دار الفكر، بيروت، ط٥، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.
- الإرشاد إلى مواضع الأدلة في أصول الاعتقاد، الجويني، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ.
- أسئلة العصر المحيرة، محمد فتح الله كولن، ترجمة: أورخان محمد علي، دار النيل، القاهرة، ط١، ٢٠٠٢م.
- أساليب الغزو الفكري، د. علي محمد جريشة، د. محمد شريف الزيبق، دار الاعتصام، مصر، ١٩٧٨م.
- أسس الفلسفة، د. توفيق الطويل، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط٢، ١٩٥٥م.
- الأسس المنهجية لبناء العقيدة الإسلامية، د. يحيى هاشم، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧٨م.
- الإسلام دين الفطرة والحرية، عبد العزيز جاويش، دار الهلال، القاهرة، د. ت.
- الإسلام في تصورات الغرب، د. محمود حمدي زقزوق، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
- الإسلام في قفص الاتهام، د. شوقي أبو خليل، دار الفكر، دمشق، ط٦، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
- الإسلام في معركتي البناء والنصر، محمد علم الدين، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، سلسلة دراسات في العقيدة، د. ت.
- الإسلام والعقل، د. عبد الحليم محمود، دار المعارف، القاهرة، ط٣، ١٩٨٨م.
- الإسلام يتحدى، وحيد الدين خان، تعريب: ظفر الإسلام خان، مراجعة: د. عبد الصبور شاهين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢٢، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.
- الأسماء والصفات، البيهقي، تحقيق: محمد زاهر الكوثري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٠م.
- أصول الدين، البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨١م.
- أصول العقيدة الإسلامية: دراسات وبحوث، د. محمد سلامة أبو خليفة، دار الهاني، القاهرة، ٢٠٠٥م.
- أضواء البيان، محمد الأمين الشنقيطي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

- إظهار الحق، رحمة الله بن خليل الهندي، دار الحرمين للطباعة، مصر، ط٢، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.
- الاعتصام، الشاطبي، تحقيق: محمد طعيمة، دار المعرفة، بيروت، ١٩٩٤م.
- الإعجاز القرآني في ضوء الاكتشاف العلمي الحديث: دراسة تاريخية، وتطبيقات معاصرة، مروان وحيد شعبان التفتازي، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م.
- أعداء الحل الإسلامي، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م.
- أعلام النبوة، الماوردي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
- أعلام النبوة، الماوردي، دار النفائس، بيروت، ١٩٩٤م.
- إفريقيا تحت أضواء جديدة، بازل دافدسن ، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦١م.
- إفلاس الماركسية، أحمد حسين، دار الوفاء، المنصورة، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م.
- الاقتصاد في الاعتقاد، أبو حامد الغزالي، مكتبة الحسين التجارية، القاهرة، ط١، د. ت.
- أقطاب العلمانية في العالم العربي والإسلامي، طارق منينة، دار الدعوة، القاهرة، ٢٠٠٠م.
- الله في العقيدة الإسلامية، أحمد بهجت، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، د. ت.
- الإلهيات في العقيدة الإسلامية، د. محمد سيد أحمد المسير، دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٩٩م.
- أمجاد الرسالة المحمدية، د. مصطفى الحديدي الطير، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٩٧٥م.
- الإنسان والداروينية، محمد صالح كريم خان، مطبعة الموصل، العراق، ١٩٧٦م.
- الإنسان والغيب، د. حبيب الرحمن، مجموعة محاضرات ألقيت على طلبة كلية الدعوة، جامعة الأزهر، القاهرة.
- الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به، أبو بكر الباقلاني، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٦٣م.
- إنه الحق: محاورة علمية أجراها الشيخ عبد المجيد الزنداني، دار وحي القلم، بيروت، ط١، ٢٠٠٤م.
- الإيمان والحياة، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.
- البابية والبهائية في الميزان، مجموعة من علماء الأزهر، مطبوعات الأزهر، مصر، ١٩٨٥م.
- بحوث وفتاوى إسلامية من قضايا معاصرة، جاد الحق علي جاد الحق، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٥م.
- البداية والنهاية، ابن كثير، دارالريان للتراث، القاهرة، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
- البهائية في ميزان الشريعة ، د. عمارة نجيب، د. محمود عثمان، وزارة الأوقاف، القاهرة، ١٤٠٥هـ.
- البيان في تحليل وتوجيه الإشكالات التي تثار حول قصص القرآن، د. عاطف المليجي، مكتبة اقرأ، القاهرة، ٢٠٠٤م.
- البيان لما يشغل الأذهان، د. علي جمعة ، المقطم للنشر والتوزيع، القاهرة، د. ت.
- بين الدين والحياة في رحلة قطار، د. عبد الحليم حفني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١٩٩٤م.

- تاريخ الطرق الإسلامية، د. محمود محمد مزرعة، دار المنار، القاهرة، د. ت.
- تاريخ المذاهب الإسلامية، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٦م.
- التسامح في الفكر الإسلامي، د. جعفر عبد السلام، سلسلة فكر المواجهة، رابطة الجامعات الإسلامية، القاهرة، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م.
- التشريع الجنائي في الإسلام، عبد القادر عودة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٧، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.
- تعالوا نعيد النظر فيما نعتقد، حسن يوسف، دار الشعب، القاهرة، د. ت.
- التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام، محمد الغزالي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٥م.
- التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام، محمد الغزالي، نهضة مصر، القاهرة، ٢٠٠٣م.
- تغييب الإسلام الحق، د. محمود توفيق محمد، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.
- تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، أخبار اليوم، القاهرة، ط١، ١٩٩١م.
- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.
- التفكير فريضة إسلامية، عباس محمود العقاد، دار القلم، القاهرة، ط١، د. ت.
- تهافت العلمانية، د. عماد الدين خليل، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.
- توحيد الخالق والإعجاز العلمي في القرآن، عبد المجيد عبد العزيز الزنداني، دار السلام، القاهرة، ط٥، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، موريس بوكاي، ترجمة: مجموعة من الدعاة، طبعة دار الكندي، بيروت.
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن السعدي، مكتبة الصفا، القاهرة، ط١، ١٤٢٥هـ.
- الثقافة الإسلامية وتحديات العصر، د. شوكت محمد عليان، دار الشَّوَّاف، الرياض، ط٢، ١٩٩٦م.
- ثقافتنا في مواجهة العصر، د. زكي نجيب محمود، دار الفكر العربي، القاهرة، د. ت.
- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- الجذور التاريخية والجسور الحضارية بين الإسلام والغرب، د. محمد محمد أبو ليلة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، مصر، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.
- الجواب الفسيح لما لفَّقه عبد المسيح، الألوسي، تحقيق: د. أحمد حجازي السقا، دار الجيل، بيروت، د. ت.
- حتى الملائكة تسأل، رحلة إلى الإسلام في أمريكا، جيفر لانغ، ترجمة: منذر العبسي، دار الفكر المعاصر، بيروت، ٢٠٠١م.
- حرية الاعتقاد في الشريعة الإسلامية، د. عبد الله ناصح علوان، دار السلام، القاهرة، ط٤، ٢٠٠٤م.
- حرية الاعتقاد في القرآن الكريم، عبد الرحمن حللي، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط١، ٢٠٠١م.

- حرية الفكر في الإسلام، د. عبد المتعال الصعيدي، دار الفكر العربي، القاهرة، د. ت.
- حضارة العرب، جوستاف لوبون، ترجمة: عادل زعيتر، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، د. ت.
- حقائق إسلامية في مواجهة حملات التشكيك، د. محمود حمدي زقزوق، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.
- حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، عباس محمود العقاد، مطبعة مصر، القاهرة، ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م.
- حقيقة التوحيد، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، ٢٠٠٦م.
- الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٥، ١٩٩١م.
- حوارات مع أوربيين غير مسلمين، د. عبد الله أحمد قادري الأهدل، دار القلم، دمشق، ط١، ١٩٩٠م.
- خاتم النبيين ﷺ، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
- خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ١٩٨٣م.
- خصائص المصطفى بين الغلو والجفاء، د. الصادق بن محمد بن إبراهيم، دارالمنهاج، الرياض، ط١، ١٤٢٦هـ.
- خلق لا تطور، مجموعة من العلماء، ترجمة، د. إحسان حقي، دار النفائس، بيروت، ١٩٨٣م.
- دائرة معارف الفقه والعلوم الإسلامية، محمد متولي الشعراوي، دار أخبار اليوم، القاهرة، ط١، ٢٠٠١م.
- الدر المنثور في التفسير المأثور، عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، دار الفكر، بيروت، ط٥، ١٩٨٣م.
- دراسات في العقيدة الإسلامية، د. عبد الحميد مدكور، دار الهاني، القاهرة، مجموعة محاضرات ألقيت على طلاب كلية دار العلوم، جامعة القاهرة.
- دراسات في العقيدة الإسلامية، د. محمد أحمد الخطيب، د. محمد الهزايمة، دار عمار، عمّان، ط٥، ١٩٩٧م.
- دراسات في الفلسفة العربية، عبده الشمالي، دار صادر، بيروت، ط٥، د. ت.
- دراسات في القرآن الكريم، د. محمد عبد السلام، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٢، ١٩٨٧م.
- دراسة إسلامية في العمل والعمال، لبيب السعيد، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، ١٩٨٥م.
- دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، د. موريس بوكاي، دائرة المعارف الأمريكية، د.م، د. ت.
- دراسة نقدية في ضوء الإسلام، د. عبد الرحمن بن زيد الزيدي، مكتبة المؤيد، الرياض، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.
- دستور الأخلاق في القرآن، محمد عبد الله دراز، دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت، د. ت.
- دعوة أهل الكتاب إلى دين رب العباد، د. سعيد عبد العظيم، دار العقيدة، القاهرة، د. ت.
- دفاع عن السنة، د. محمد محمد أبو شهبة، مكتبة السنة، القاهرة، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.
- دقائق التفسير، ابن تيمية، مؤسسة علوم القرآن، دمشق، ١٩٨٤م.

- دلائل التوحيد، جمال الدين القاسمي، دار النفائس، بيروت، ط١، ١٩٩١م.
- ديكارت والعقلانية، جنفياف روديس لويس، ترجمة: عبده الحلو، دار منشورات عويدات، بيروت، ط٢، ١٩٧٧م.
- الدين، د. محمد عبد الله دراز، دار القلم، الكويت، ط٢، ١٣٩٠هـ.
- الدين والحضارة الإنسانية، د. محمد البهي، مكتبة وهبة، القاهرة، د. ت.
- الدين والحياة، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، د. ت.
- رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ في ضوء الكتاب والسنة، د. عماد السيد الشربيني، مطابع دار الصحيفة، مصر، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- الرد على الجهمية والزنادقة، الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق وتعليق: عبد الرحمن عميرة، دار اللواء للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٢م.
- الرد على الدهريين، جمال الدين الأفغاني، ترجمة: الإمام محمد عبده، نشر الإسلام العالمية، د. م، ١٩٨٣م.
- الرد على المنطقيين، ابن تيمية، طبعة معارف لاهور، باكستان، ط٢، ١٣٩٦هـ.
- رد مفتريات على الإسلام، د. عبد الجليل شلبي، دار القلم، الكويت، ط١، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.
- الرسالة والرسل في العقيدة الإسلامية، محمد سيد أحمد المسير، مكتبة الصفا، القاهرة، ط١، ٢٠٠١م.
- ركائز الإيمان، محمد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.
- سلسلة القصص القرآني: آدم ﷺ، د. حمزة النشرتي، مؤسسة الأهرام، القاهرة، د. ت.
- سماحة الإسلام، د. أحمد الحوفي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧م.
- السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، د. محمد محمد أبو شهبة، دار القلم، دمشق، ط٨، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- السيرة النبوية، ابن هشام، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
- شبهات التغريب في غزو الفكر الإسلامي، أنور الجندي، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٧٨م.
- شبهات المستشرقين حول العبادات في الإسلام، ناصر محمد السيد، مركز التنوير الإسلامي، القاهرة، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٦م.
- شبهات المعترضين ومفترياتهم حول صدق نبوة محمد ورسالته، ماهر عبد الوهاب محمد حجاج، الاتحاد الأخوي، القاهرة، ١٩٩٨م.
- شبهات وردود حول العقيدة الربانية وأصل الإنسان، د. عبد الله علوان، دار السلام، القاهرة، ط٨، ٢٠٠٧م.
- شرح الزرقاني على المواهب اللدنية للقسطلاني، محمد الزرقاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٦م.
- شرح العقيدة الواسطية، محمد صالح العثيمين، دار ابن الجوزي، الرياض، ط٣، ١٤١٦هـ.

- شرح المجيد في شرح كتاب التوحيد، عبد الرحمن بن حسن النجدي، مكتبة المعارف، الرباط، ١٤١٩هـ.
- شرح المقاصد، التفتازاني، تحقيق: عبد الرحمن عميرة، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.
- شرح النووي على مسلم، دار إحياء التراث، بيروت، ط٢، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٢م.
- الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الكتاب العربي، بيروت، د. ت.
- شفاء العليل، ابن قيم الجوزية، مكتبة دار التراث، القاهرة، د. ت.
- الشفاعة: محاولة لفهم الخلاف القديم بين المؤيدين والمعارضين، د. مصطفى محمود، أخبار اليوم، القاهرة، ١٩٩٩م.
- صراع مع الملاحدة حتى العظم، عبد الرحمن حسن الميداني، دار العلم، دمشق، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- صور من سماحة الإسلام، د. عبد العزيز بن عبد الرحمن الربيعة، هجر للطباعة والنشر، القاهرة، ١٤٠٨هـ.
- طريق الهجرتين وباب السعادتين، ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٢م .
- عالم الجن والشياطين، د. عمر سليمان الأشقر، دار النفائس، الأردن، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥.
- العبادة في الإسلام، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢٤، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.
- العدالة الاجتماعية في الإسلام، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط١٦، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- عرفت الله، محمد إبراهيم، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.
- العقائد الإسلامية، السيد سابق، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م.
- العقيدة الإسلامية في مواجهة التيارات الإلحادية، فرج الله عبد الباري، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٤م.
- العقيدة الإسلامية وأثرها في حماية الفرد والمجتمع، د. فتحي إبراهيم منصور، دار البيان، القاهرة، ٢٠٠٦م.
- العقيدة الإسلامية والأيدلوجيات المعاصرة، د. عبد الغني عبود، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٢، ١٩٨٠م.
- عقيدة التوحيد، د. صالح بن فوزان، مؤسسة الحرمين الخيرية، الرياض، د. ت.
- عقيدة المؤمن، أبو بكر الجزائري، دار الكتب السلفية، القاهرة، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- عقيدة المسلم، محمد الغزالي، دار الشروق، القاهرة، د. ت.
- عقيدة المسلمين والعقائد الباطلة، د. محمد عبد المنعم القيعي، رسالة الإمام، وزارة الأوقاف، العدد التاسع، رمضان ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.
- عقيدة أهل السنة والجماعة، أحمد فريد، مكتبة فياض، المنصورة، ٢٠٠٥م.
- العقيدة في الله، د. عمر سليمان عبد الله الأشقر، دار السلام، القاهرة، دار النفائس، عمان، ط١، ٢٠٠٥م.

- عقيدتنا، د. محمد ربيع جوهري، طبعة خاصة، ط٣، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.
- العلم والدين في الفلسفة المعاصرة، إميل باترو، ترجمة: أحمد فؤاد الأهواني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣م.
- العمل في الإسلام، د. محمد عبد الرحمن بيصار، مقال منشور بمجلة الوعي الإسلامي، الكويت، عدد شعبان ١٣٩٥هـ/ أكتوبر ١٩٧٥م.
- العمل في رمضان، عبد الرحيم فودة، مجلة الأزهر، القاهرة، عدد رمضان ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٣م.
- العنصرية اليهودية وآثارها في المجتمع، د. أحمد بن عبد الله بن إبراهيم الزغيبي، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ١٩٩٨م.
- الغارة على التراث الإسلامي، جمال سلطان، دار الجيل، بيروت، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: محب الدين الخطيب وآخرين، دار الريان للتراث، القاهرة، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م.
- فتح القدير، الشوكاني، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٣م.
- الفَرْق بين الفِرَق عبد القاهر بن طاهر البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- الفضائل الخلقية في الإسلام، مكتبة دار العلوم، الرياض، ١٤٠٢هـ.
- الفلسفة القرآنية، عباس محمود العقاد، دار السلام، القاهرة، د. ت.
- الفلسفة الماركسية اللينية، ترجمة: لويس اسكاروس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨١م.
- فلسفة برتراند رسل، د. محمد مهران، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٦م.
- في الطريق إلى الله: التوكل، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.
- في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط١٣، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
- قرآن أمريكي ملفق "الفرقان الحق"، د. إبراهيم عوض، زهراء الشرق، مصر، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
- القرآن والرسول ومقولات ظالمة، د. عبد الصبور مرزوق، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
- القرآن وصحوة العقل، د. محمد محمد داود، دار المنار، القاهرة، ٢٠٠٤م.
- قصة الحضارة، ول ديورانت، ترجمة: محمد بدران، دار الجيل، بيروت، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.
- قصة الهداية، عبد الله ناصح علوان، دار السلام، القاهرة، ط٢، ١٩٨٥م.
- قصص الأنبياء، محمد متولي الشعراوي، دار القدس، القاهرة، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٦م.
- قصص القرآن، محمد بكر إسماعيل، دار المنار، القاهرة، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

- القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة، د. عمر سليمان عبد الله الأشقر، دار السلام، القاهرة، دار النفائس، الأردن، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
- قضايا إسلامية: مناقشات وردود، د. محمد رجب البيومي، الوفاء للطباعة والنشر، مصر، ١٩٨٤م.
- قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية، د. فضل حسن عباس، دار البشير، عمَّان، ط٢، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م.
- القيامة الكبرى، د. عمر سليمان الأشقر، دار السلام، القاهرة، دار النفائس، الأردن، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
- كُبْرَى اليقينات الكونية، د. محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر، دمشق، ط٢٥، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
- الكشاف، الزمخشري، المكتبة التجارية، مصر، ١٣٥٤هـ.
- كشف الخفا ومزيل الإلباس، محمد العجلوني، تحقيق: محمد الخالدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م.
- لا يأتيه الباطل، د. محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.
- لسان العرب، ابن منظور، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٤م.
- اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع، الأشعري، تحقيق: حمودة عزابة، مطبعة القاهرة، مصر، ١٩٥٥م.
- المؤامرة الخفية ضد الإسلام والمسيحية، د. أحمد محمد عوف، الزهراء للإعلام العربي، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.
- مؤثرات الثقافة الإسلامية، د. صلاح فضل، دار الشروق، القاهرة، د. ت.
- مائة سؤال عن الإسلام، محمد الغزالي، نهضة مصر، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٤م.
- مباحث في أصول الفقه، د. نادية محمد شريف العمري، دار هجر، القاهرة، ط١، ١٤١٠هـ.
- مجلة الزهراء، كلية الدراسات الإسلامية والعربية، فرع البنات جامعة الأزهر، العدد ٢٣، ٢٠٠٥م.
- مجلة منار الإسلام، الإمارات، جمادى الأولى ١٤١٨هـ.
- مجموعة التوحيد: الرسالة الأولى، محمد بن عبد الوهاب، دار الفكر، بيروت، د. ت.
- محاضرات في النصرانية، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٣، د. ت.
- محاور الالتقاء ومحاور الافتراق بين المسيحية والإسلام، غسان سليم، دار الطليعة، بيروت، ط١، ٢٠٠٤م.
- محمد ﷺ والخناجر المسمومة الموجهة إليه، د. نبيل لوقا بباوي، دار البباوي للنشر، القاهرة، ٢٠٠٦م.
- مختصر موقف العلم والعقل والعالم من رب العالمين المسمَّى "القول الفصل"، مصطفى صبري، مكتبة النور، القاهرة، ١٩٨٦م.
- مدارج السالكين، ابن القيم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٣م.
- المدخل لدراسة القرآن الكريم، د. محمد محمد أبو شهبة، مكتبة السنة، القاهرة، ط٢، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.
- مدخل لمعرفة الإسلام: مقوماته.. خصائصه.. أهدافه.. مصادره، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٣، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

- المذاهب المعاصرة وموقف الإسلام منها، د. عبد الرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت، ط٤، د. ت.
- المستصفى، أبو حامد الغزالي، المطبعة الأميرية، مصر، ١٣٢٢هـ.
- المسيحية بين التوحيد والتثليث وموقف الإسلام منها، د. عبد المنعم فؤاد، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.
- المسيحية: نشأتها وتطورها، شارل جينيبير، ترجمة: د. عبد الحليم محمود، دار المعارف، القاهرة، ط٤، ١٩٩٦م.
- مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي: دراسة نقدية في ضوء الإسلام، د. عبد الرحمن بن زيد الزبيدي، مكتبة المؤيد، الرياض، ط١، ١٤٢٤هـ/ ١٩٩٢م.
- مع الطب في القرآن الكريم، عبد الرحمن دياب، أحمد حمدي قرقوز، مؤسسة علوم القرآن، دمشق، د. ت.
- مع القرآن الكريم: رؤية مستنيرة لحقائق الإيمان والحياة، كتاب يصدر عن "المقاولون العرب"، القاهرة، ط١، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.
- معارج القبول بشرح سلم الوصول، حافظ بن أحمد حَكَمي، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، ط١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.
- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ط٣، ١٩٨٥م.
- المغني في أبواب العدل والتوحيد، القاضي عبد الجبار المعتزلي، تحقيق: مجموعة من الأساتذة، إشراف د. طه حسين، مراجعة: د. إبراهيم مدكور، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٥م.
- مفاتيح الغيب، الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ت.
- مفاهيم ينبغي أن تصحح، محمد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط٩، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.
- المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، دار المعرفة، بيروت، د. ت.
- مفهوم الشيطان في الفكر العربي، د. ناصر محمود وهدان، القاهرة، ١٩٩٩م.
- المفيد في علم التوحيد، حبيب الله حسن أحمد، مجموعة محاضرات ألقيت على طلاب كلية الدعوة، جامعة الأزهر.
- المقاصد الحسنة، السخاوي، تحقيق: عبد الله الصديق وآخرين، مكتبة الخانجي، مصر، ١٩٩١م.
- من معالم الإسلام، محمد فريد وجدي، مكتبة الأسرة، القاهرة، ٢٠٠٠م.
- مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، مكتبة نزار، الرياض، ١٩٩٦م.
- المنتخب في التفسير، منشورات الدعوة الإسلامية العالمية، القاهرة، ١٩٧٢م.
- المنصفون للإسلام في الغرب، رجب البنا، دار المعارف، مصر، ٢٠٠٥م.

- منهاج الأدلة في عقائد الملة، ابن رشد، تحقيق: د. محمود قاسم، مكتبة الأنجلو، القاهرة، ١٩٦٤م.
- منهج السلف بين العقل والتقليد، د. محمد السيد الجليند، مكتبة العمرانية، القاهرة، ١٩٩٤م.
- مواجهة صريحة بين الإسلام وخصومه، د. عبد العظيم المطعني، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٥م.
- مواطنون لا ذِمِّيُّون، فهمي هويدي، دار الشروق، القاهرة، ط٤، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
- الموافقات، الشاطبي، تحقيق: عبد الله دراز، دار المعرفة، بيروت، ط٢، ١٩٩٦م.
- موافقة صريح المعقول للمنقول، ابن تيمية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٥م.
- موجز دائرة المعارف، فريق من المستشرقين، مركز الشارقة للإبداع الفكري، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.
- الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الكويت، ط١، ١٤٠٨هـ.
- نظرات جديدة في القرآن المعجزة، محمد عادل القلقيلي، دار الجيل، بيروت، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.
- نظرية القيم، د. حامد ربيع، نهضة الشرق، القاهرة، ١٩٧٤م.
- نظرية تقويم الفرد وتنظيم المجتمع في الإسلام، محمد موسى عثمان، مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة، سلسلة: البحوث الإسلامية، أغسطس ١٩٨٠.
- نقد الثقافة الإلحادية، د. أحمد عبد الرحمن إبراهيم، دار هجر، القاهرة، ط١، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م.
- نهاية الإقدام في علم الكلام، الشهرستاني، تحقيق: أحمد فريد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٤م.
- هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، ابن قيم الجوزية، تحقيق: د. أحمد حجازي السقا، دار الريان للتراث، القاهرة، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.
- هذا هو الحق: رد على مفتريات كاهن الكنيسة، ابن الخطيب، المطبعة المصرية، القاهرة، ١٩٧٩م.
- الوحدانية، بركات دويدار، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط١، د. ت.
- الوحي المحمدي، محمد رشيد رضا، مكتبة القاهرة، القاه، ط٦، ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م.
- الوحي والملائكة في اليهودية والمسيحية والإسلام، لواء: أحمد عبد الوهاب، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٧٩م.
- وظيفة الدين في الحياة وحاجة الناس إليه، د. محمد الزحيلي، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، طرابلس، ط٢، ١٤٢٨هـ/ ١٩٩٩م.
- وظيفة المسلم في مجتمعه، أبو الوفا المراغي، مجلة الأزهر، القاهرة، عدد يناير ١٩٧٦م.
- وقاية الإنسان من الجن والشيطان، وحيد بن عبد السلام، دار ابن الهيثم، مصر، ط١١، ١٤٢٢هـ.
- اليوم الآخر في الكتاب والسنة، د. عبدالباقي أحمد عطا الله، دار المنار، مصر، ١٩٨٨.



موسوعة

بيان الإسلام

الرد على الافتراءات والشبهات

القسم الأول: القرآن

المجلد الرابع

ج ٦

شبهات حول
العقيدة الإسلامية وقضايا التوحيد



العنوان:

موسوعة بيان الإسلام

الرد على الافتراءات والشبهات

القسم الأول: القرآن

المجلد الرابع (ج٦، ج٧)

إشراف عام:

داليـا محمـد إبراهيـم

الترقيم الدولي: 4-4241-14-977

رقم الإيداع: 2010/10883

الطبعة الأولى: يناير 2011



أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938

تليفـون: 33466434 - 33472864 02

فاكـس: 33462576 02

خدمة العملاء: 16766

Website: www.nahdetmisr.com

E-mail: publishing@nahdetmisr.com

21 شارع أحمد عرابي -
المهندسين - الجيزة